

سيرداكو

المرأة

بحث في سيكولوجية الأعماق

ترجمته

وجيه أسعد



بييرداكو

المرأة؟

بحث في سيكولوجية الأعماق

ترجمته: وحشية السعد

منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي

دمشق - ١٩٨٣



العنوان الاصيل للكتاب :

PIERRE DACO

Comprendre

LES FEMMES

et Leurs psychologies profondes

MARABOUT

المقدمة

المرأة تتبع زوجها .
والزوج يبحث عن الألفة .

الحب . نادر . ساطع .

وأني انبهار بجدته لقاء الآخر ! ومن أجل هذا الثنائي وحده ، يشرق فجر الخلق بومته . وهذان العاشقان . عاشقا البنفسج ذي الفلسين ثمناً ، يغيضان البخلاء . ذلك أن ضرباً من الابتسامة التي تكتنفها الأسرار تجعل الذهب يتلألأ في عيني كل منهما . وأي حنان في الوجه ، حنان يتقل كتف العاشق ، وفي الشفتين اللتين تستجيبان وهما تمسان الحبهة البادية ! فالتمرو ، والشارع أو المقعد . تصبح « البيت » . إنه اتحاد بين من ثق بنفسها ومن يثق فيها . إنها . كونها واثقة ومعطاءة ، تبذعه قوياً ومتيناً . ويمضيان مجنونين وعاقلين بأعجوبة .

ولكن ، كيف يكون ممكناً هذا الحب إذا لم تحقق المرأة خصوصيتها التي اعترف الناس بها أخيراً ومنحوها شأنًا عظيمًا ، خصوصية كم هي مفتاح الرغبة ؟ إن شأنها ليس أكبر من شأن الرجل ولا أقل . إنها هي ذاتها بكل بساطة ، ولكنها مختلفة عن الرجل .

كلا المرأة والرجل منعزل عن الآخر . فاذا لبثا في هذه الحال من العزلة وهما يعيشان معاً ، أصابنا الضياع .

إن أهمية مسألة من المسائل وحالتها تبدوان في ضوء الوقيد الانفعالي الذي تشعاه هذه المسألة . وفي عدد قليل من السنين : اكتشفت النساء ، وقد جاين جميعاً مسلمة واحدة ، مسلمة أسن متماثلات . مفادها « يتألف النوع الإنساني من الرجال ، ثم من الباقي » .

والنساء لسن رجالاً . وحسب المجتمع الغربي ذلك لكي يُنزلها متراة متوسطة ضمنية ، في الأجور والأدوار على حد سواء .

واتحدن أمام هذه القضية العنادية : أن يكون الموجود رجلاً أو لا يكون شيئاً ، دون أن يعرفن ، مع ذلك ، ما هو المؤنث .

والرجال منذ قرون ، تجنبوا الصعوبة ، إذ سجنوا المرأة في الممنوعات الإجتماعية التي تعوق تحررها الممكن . وسأتمت العصور الوسطى ، بصعوبة ، أن للمرأة روحاً . ثم انترعها عصر النهضة منها وازدهار الثقافة اليونانية اللاتينية . فأصبحت الحيوان الترق مجدداً ، والحيوان الطفلي ، الذي يعدّه الرجل المحارب العظيم قاصراً .

وأصبحت المرأة ، مكرهة ، هي الحائزة على « الأخلاط * » التي يرى الرجال أنها غير جديرة بهم . وتلك هي النزوات التي لا يريدون أن يعترفوا بها ، وضروب عدم الوفاء التي يأبونها على أنفسهم ، ولكنهم يفترضون أنها تُرتكب دائماً (كم هو مسل عدم وفاء زوجة الغير !) . يقول أحد الرجال بعفة : « لو عرفت زوجها ، لما استطعت أن أمس امرأة » . أي ذهنية رائعة هذه ، ذهنية الحريم ! . . .

(*) الأخلاط : Les humeurs . مجموعة من الاستعدادات الانفعالية الأساسية ،

الغنية بالالاح الهيجاني الفريزي « م »

وكم هنّ ، مع ذلك ، أكثر حظاً من أخواتهن في الشرق : حيث المرأة لا تنفصل عن أبيها ، أو زوجها ، أو أخيها ، وحيث المرأة تتصف ، على سبيل الحصر ، بأنها بطن ينتقل من عشيرة إلى أخرى ، بطن جدير بالتكريم إن كان خصباً بالبنين الذين تزداد بهم حظوظ الأسرة في أن لا تموت من الجوع ، وبطن جدير بالإحتقار إن كان لا يصنع غير البنات . هذا الجسد ذي الثمن البخس * .

ولكن ، من نحن أول الأمر ؟

نحن العامة من إنسانية تطالب بالعدالة في الحساب . . .

نحن من لهن صوت ، ما دام حق الإقتراع هو العوض عن خدماتنا الطيبة والمخلصة — تلك الخدمات التي كانت تقتضيها الحرب ! . . .

نحن اللواتي نملك معرفة حسية ، عريقة في القدم ، عن المنفى الذي هو البيت . . .

نحن المتهمات بالحساسية الزائفة ، في حين أننا توأقات إلى العواطف..

نحن المتضامات مع كل ضرب من ضروب التعب (ومن يتخلى عن مكانه في سيارة النقل العام ؟) .

نحن اللواتي نخشين التحدث إلى من ربما سيهزأ . . .

نحن اللحم للمتعة ، بما في ذلك منع الحمل ! . . .

(*) تلجأ كاتبة المقدمة هنا إلى النعميم ، علماً بأن وضع المرأة في الشرق يختلف من بلد

إلى آخر ، ومن بيئة محلية إلى بيئة محلية أخرى « م » .

نحن صاحبات الجسم المنهك مسبقاً ، القريب « منه » ، وهو « غيمة
من الدخان المتجمع فوق الصحيفة المبسوطة » .

نحن القلوب ، القلوب الفقيرة التي تنفتت من « أدب » سخيف ،
ومن نسيج مزهر في مروج الكاتالوجات

نحن صاحبات الامتياز عندما لا يحوئن عمل المطبخ إلى أشياء فقيرة
شاخت

ولكننا نحن الدمى اللواتي يبدأن مساء ، في البيت ، نهراً ثانياً من
العمل

نحن الزاغات ، الفاضلات ، زاغات المتاطعات ، واكتنا نحن أيضاً
نساء مدينة الصفائح في فارسوفيا ، التي دربها المؤلم يفرض الصمت ،
صمتاً هو وحده الجلدير بين

كان أندره مالرو ، في كتابه **الأمل** ، قد طرح مسألة مفادها معرفة
أي إنسان كانت لديه « الشجاعة » في أن ينصب الفخاخ في حديقة كان
يلعب بعض الأطفال فيها . هل هو رجل ؟ لا ، إنه امرأة !

والمرأة ، في بعض الأحيان ، قلق عاطفي كبير . وربما حتى يكون
لها ، على الأقل ، ألم خاص بها .

والنساء حرائر من الناحية الظاهرية ، ولكنهن مرتبطات ، على نحو
غير مرئي ، بشرعة الشرف ، شرعة مذكرةً بحصر المعنى .

(*) زاغ : طائر يشبه الغراب ، ولكنه أصغر منه « م » .

ولنتكلم قليلاً على الأمهات . . . الطفولة الأولى ، دون أن نحسب
النعب ، فترة خاوية في حياة امرأة تربى رضيعها . والزوج ، المرهق من
نهار عمله ، يخرج كما كان يخرج سابقاً . أما هي ، فانها تسهر على
الطفل . والعكس لا يزال غير وارد . ومع ذلك ، « إنني لأحب الخروج
بدونك ! . . . » ثم ، هل كانت تعمل قبل أمومتها ؟ فاستثناف هذا
العمل يرتكز ، في المقام الأول ، على حساب مالي ، إنه مسألة مالية . وإذا
صرت بأن عملها يروق لها ، دون اهتمام بالمال ، نظرت إليها أمها
نظرة رعب ، أو روت لأخواتها الخاصة : « يا ابنتي المسكينة ،
الرجال أنانيون جميعهم » ، الخ . إن التزاماتها ، و « واجباتها » التي تتصنف
بأنها مبررة على وجه التقريب ، تفرق مسؤولياتها الأصيلة في كتلة يلفها
الغموض .

ويقبل كثير من الرجال ، قبولاً سيئاً جداً ، بشرى طفل سيحرمهم
من الاهتمام الأمومي ، اهتمام زوجة طيعة . فكلم زوج يرمي عندئذ
بكل ثقله ، ويسحق الزوجة ، ويحصل على الإجهاض ! « وما كان عليك
إلا أن تتبهي » . فتبكي المرأة ، التي وُجّه إليها التحذير الأكبر ، كما
تبكي بنت صغيرة ضائعة في الظلام .

أتلد امرأة خمس بنات ، ستا ؟ لا بهم ! إنها ستصنع جيداً طفلاً
سابعاً . والزوج سعيد أيضاً إذا لم يفضل الطبيب المولّد صغيرها عليها ،
في حال تعسر الولادة ! ولكنها ، في ذاتها ، ملتزمة التزاماً معنوياً بأن
تلد الابن ، « حامل الاسم » ، وأيا كان الإنهاك الذي يصيب كيانها .
فأي مرارة ! . . . وماذا ستصبح عليه بناتها ، وقد نشأن في جو الحنين إلى

الصبي وهنّ لسن هذا الصبي ؟ هنّ اللواتي ، فضلاً عن ذلك ، يمكن
لهن أن « يجلبن العار » إلى الأسرة .

لقد بينت ثورة التحليل النفسي كم يضغط خروج الطفل إلى العالم
على مصير المرأة ، وكم تتصف ثمرة جسدنا بأنها هي نحن أنفسنا ، وكم
يازمنا من الوضوح والصبر إزاء واقع الغير ، وإزاء واقعنا نحن .

ولكن ما يثير على وجه الخصوص - بحق - سخط كثير من النساء
إنما هو أن بعضهم يسوّغ ، باسم تخطيطيات نظرية (تغيّرها الكشف
العلمية الحالية وتكملها) ، إفقار المرأة ، ومهانتها ، وإضعافها ، بالقياس
إلى مجتمع الذكور .

وها هي ذي مهانة ، مصابة بالإحباط لكونها تمتلك في داخليتها
ما تفقده جنسية الرجل إلى الخارج ، « آفة » الطمث . ومصابة بالإحباط
لكونها « شيئاً صغيراً سريع العطب » ما دامت مخصية . إنها لا تسبح ،
ولا تمشي ، فمن المؤكد أنها مصابة بألم في بطنها . . . فكيف انتهت هذه
الفترات القمرية ، التي جعلت المرأة تحلّ في دورة الطبيعة ، إلى أن تكون
علامة عبودية ، وئمة ؟

ولكن هذا ليس كل شيء .

وعلى الرغم من توحد المرأة بقدرتها على الإغراء ، فإن المرأة التي
تشيخ ليس لها جنس محدد . وهي الأولى التي تلعب لعبة هذه اللاإنسانية
الضمنية .

والمغفرة لأم تصنع من ابنها شخصاً لا أهمية له . فذلك لا يعرض

العشيرة إلى الخطر . ولكن لا مغفرة لأرملة تتزوج مرة ثانية ضد إرادة أولادها ، ولا مغفرة لإمرأة تطلق دون « بواعث » .

والشفاء لمن ترفض أن تعيش وفاق ذوق « الحامي » الذي ألقى الرأي الشائع مسؤوليتها على عاتقه . فان كانت متزوجة ، قيل عنها : « هي الآمرة » : « إنها محنونة » : « صبر زوجها صبر أيوب » وإن كانت وحيدة : قيل عنها : « إنها لفاجرة » . « إنها لمتعجرفة » : « إنها لغبر سوية (إذ أنها غير متزوجة) »

وللأم العزباء ، في أيامنا هذه ، حق في سكوت أولئك الذين كانوا ، قبل بضع سنين ، يفرشون الزبل أمام باب بيتها .

ولكن الشقاء أيضاً لمن هي وحيدة وعافر . إنها تمضي ، إذا كانت وحيدة ، نحو الموت : يرافقتها قدرها المأساوي ، في تيهان يائس ! فليس ثمة منزل يفتح لها .

أين إذن هؤلاء « العمات » المحنّات — والمزعجات بعض الشيء — اللواتي كن يربين أطفال الآخرين ، ويرعين الآباء المسنين ؟

عهدهن انتهى ، ولم يعد هن متسع . النقص في المكان ؟ ليس لهذا فقط . فقد أظهر انقلاع الجنود الإجتماعية أن « الواجب » المنجز كان على وجه الخصوص خوفاً من الرأي العام ، وأحكام القرية والشارع والبيت . إن البطون متخمة ، ولكن الأفئدة فارغة .

وتم نسيان « البريء » الذي كان الناس يصغون إليه برهة ، ولو كانوا — قبل ذلك أو بعده — يسخرون منه . لقد سُجِنَ مع أشقائه في

القلب . وأغلقت أبواب الحبس الأبدي على الساذجين ، ومتأملي النجوم ،
والمدتهين بحب الاله ، والأطفال من غير حنان ، والراشدين البطيئين جداً
في كسب لقمة العيش

وتلاشت الإبتسامة الوقور ، ابتسامة الأم التي كانت تقطع حصة
الفقير في رغيف الخبز (وأصغر أولادها ينظر إليها : فخوراً بأهميتها ،
ذلك أنه هو الذي كان يعطي للشقاء اتحاد المتواضعين . وفي بعض الأحيان ،
كان ثمة صحن من الحساء وبعض العلف في المتبنة . وكان الشحاذا المتجول
في الأرياف يقص ، وظهره معرض للصقيع وصدوره معرض للحرارة
المرتفعة ، أخبار ذلك الزمن على أفراخ العش الذي كانوا ينامون وهم
يحملون بالصين) .

والمملجأ أصبح مقر الجدد الذي كان يقلّم الصفارة الأولى لأحفاده على
نحو ظريف جداً .

وولتى عهد عيد الشموع * ! وقُطعت أشجار الغار . يا جدتي :
وبدونك لن نذهب إلى الغابة

ولكن أين إذن غماض نهر الخنان الذي كان يُرضع الموجودات
بعاطفة من الإلتناء ، واحدة وعميقة ؟

كلا المرأة والرجل منزول عن الآخر . فاذا لبثا في هذه الحال من
العزلة وهما يعيشان معاً ، أصابنا الضياع .

من منهما سيكون المتكلم الأول ؟ المرأة أم الرجل ؟ ومن منهما
سيصغي إلى غناء عزلة الآخر ، غناء ينسج فيه العلامة نفسها أمل متساو ؟

(*) عيد الشموع عيد تقديم يسوع المسيح إلى المعبد ، وتطهير العذراء (٢ شباط) «م» .

ومن منهما سيسمع ما يحجبه الحياء بين الكلمات ؟ وهل هو ، مع ذلك ،
حياء أم يخجل عاطفي ؟ يخجل عاطفي أم خوف ؟

مرعب جداً . ورائع جداً ، الثنائي ، الذي يؤثر ما نتصف به من
الجن الخلد أن نبتعد عنه بكل الوسائل .

و « العدو الحميم » ، الذي يمكن أن يكون الروح ، يغذي كل
شيء ، مهما بدا ذلك غير ممكن التصديق : الحروب الدينية ، والتزاعات
العنصرية ، والحواجز الإجتماعية ، و « الصالح » ، و « السوء » ،
والمعلوم الذي نهمله . والمجهول الذي نخشى ما هو أسوأ منه ، والتادر ،
والصديق الحقيق ، ومعتمد الآخر ، وحارسه بيتي التي تفتح الرسائل ،
وبقاً لك الذي يسرق ، والعدوانية التي تدور في الظل وتقتل جيداً جداً ،
وكتل الأهواء المدمرة وضروب الجموح التي لا تخضع لرقابة ، وكل
سوسولوجيا العنف . . .

وكل ذلك عندما الأطباق - الوجبة ، التي صُممت لابتلاع
البرنامج المتلفز برمته . تعلن ، دون ريب . عن الشوك والرضاعات
الموجهة مسافياً . فكم كلمة يتبادلها ثنائي خلال أمسية ، إذا استثنينا تلك
الكلمات التي تسجل ضبط التلفزيون ؟

كلا المرأة والرجل منعزل عن الآخر . فاذا لبنا في هذه الحال من
العزاة وهما يعيشان معاً ، أصابنا الضياع .
فمن منهما سيكون المتكلم الأول ؟

إن جهداً صبوراً من الفهم ، ثم من التواصل ، هما اللذان يعقدان الحيط
المقطوع . ولهذا المهمة الحيوية إنما يعمل بيير داکو - ذلك أن من الواجب
الآن - وعلى وجه السرعة - معرفة من هو الآخر .

وعزلة الرجل تفرسه بفعل ميله نحو كمال باطل ، أو تبتلعه بفعل
غرور ضرب من تراكم الخيرات المادية . ومعرض عليه ، مع ذلك ،
أن يمضي نحو المثال بمعونة الحنان : هي . فهي المتممة . وهي غير التامة
لحسن الحظ . وهي التي تتبعه . لأن الحب قانونها ، ودينها ، ومعناها .
شريطة أن يكفّ الناس عن منحها الصفح على أخطاء لم ترتكبها .

الدكتورة هيلين تيول
أمينة سر الجمعية الفرنسية لعلم
النفس التحليلي

* *

مدخل

طوال سنوات من الممارسة السيكولوجية ، تعلمت ، من خلال رسائل نساء من جميع الأعمار : أن السعادة المستقرة والوجود العميق هما وطننا المرأة .

وبحسب نعيش عصرًا حلت فيه سيكولوجيا انتحارية محل الاستقرار الداخلي : وتحلّت الماهية عن مكانها إلى جميع المظاهر السطحية . ولهذا السبب ، فإن ظمأ النساء الحالبات إلى الاطمئنان ثانية ظمأ واسع الأرجاء .

ويبحث النساء : سواء في الثامنة عشرة من عمرهن أو في الرابعة والعشرين وسواء يعملن في الخارج أم لا ، عن جواب لواقعة أنهن كن مخدوعات في جميع العصور . ولا زلن : في أيامنا هذه ، مسحوقات أكثر من أي وقت مضى . وهن يحسسن بذلك ، على الرغم من الهدايا المذهبة التي تُقدّم إليهن .

لقد شرعن ، إذ يترجحن من اليسار إلى اليمين ، وإذا يشعرهن الناس من كل مكان بالإثم ، في حركة نواسية خطيرة . فعمّ يبحثن ؟ إنهن يبحثن عن الخروج من اللأمن الوجداني . ولكن من يخرجهن منه ؟

أولئك الذين سيقولون لمن لماذا يُنبذن ، ويُهملن ، ويُقهرن ، ويُسْتعبدن :
في أيامنا هذه كما بالأمس .

ويخدعهن الرجل ، على غير علم منه ، لأنه يعاني حصراً أبدياً تدفع
المرأة تكاليفه . ولكن النساء يخدعن أنفسهن أيضاً ، إذ يجعلن من أنفسهن
ضالعات لإبداعات في هذا الحصر المذكور ، وإذ يحولن استطاعة
الأنوثة غالباً إلى سحر هزيل ، خال من الإبداعية .

فعلى النساء أن يعلمن أنهن أقل مما يعتقدن بكثير حرماناً من الميزات .
بل إنهن لسن ، بصورة أساسية ، محرومات على الإطلاق . وعليهن
كذلك أن يدركن أن غالبية الإنتفاضات الراهنة تتكشف أنها تنذر
بالخطر ، وأن « المرأة » توشك أن تفقد معناها .

هل ثمة حل لنيهان المرأة الأبدي ؟ لا أعلم . فالهيجانات الراهنة
لا تأخذ بالحسبان غير الصعوبات السطحية ، مهما كانت ذات شأن .
ولكن جنور الخصومة بين الجنسين ، جذورها ذاتها ، لم تكن قد مست
قط .

ولهذا السبب ، صممت على أن أبحث معكم ماهية المرأة ، إذ أن
مأساتها أنها كفتت عن أن تكون خادمة الحياة ، لكي تصبح قنناً عاجزاً .

* * *

تشجّعن ، أيتها المدانات - فليست الحرية سوى لحظة غير مناسبة على الإنسان أن يقضيها .

كثيرات من النساء يعرفن الأمور التي ستُقال في هذا الكتاب . بيد أنهن لا يعلمن أنهن يعرفن ذلك .

وكل أولئك الذين يتكلمون على الحب بعبارات الميكانيك ، ولكنهم يناقشون الميكانيك بعبارات الحب !

أرى نفسي ، على الغالب ، ملزماً بأن أتكلّم على المرأة بدءاً من الرجل . لا تعتقدوا أنني أريد أن أستنبط نسخة عن الرجل ، مثلما يفعل بعضهم غالباً . إنني أحاول كذلك أن أبيّن ما يمكن أن تكون المرأة في مقابل ما كفّ الرجل عن أن يكون .

استخدم الرجل عقله استخداماً تصاعدياً ، فنناقص دويه .

أجر الرجل والمرأة متساو ، هذا حسن ! ولكن هل اعتبار المرأة واعتبار الرجل متساويان ؟

نساء أيامنا هذه ، أو النساء منذ بعض الزمن ، هن الاستطاعة الخفية التي تقود العالم ، سواء كنّ عبيدات بيوت الحريم أو الخدور ، ومومسات أو عشيقات ، أم زوجات أو أمهات أسر . فليس نظام الأبوة ، ولو كان هادراً ، غير مزاح لطيف بالقياس إلى القوة الغامضة التي يتصف بها النوع الأنثوي .

الفصل الأول

خبرة الحريرة

السيدة تموت ، السيدة ميتة!
بوسويه

لم يسبق للمرأة أن كانت مسحوقة ، ومنهارة ، ومستعمرة ، وخدامة ،
مثلما هي عليه الآن .

ويمثل عصرنا أكثر العمليات دناءة في تاريخ المرأة .

فالظاهر خداعة ، ذلك أن الفخ مموه على نحو يثير الإعجاب .

والجنسان في العمل يُبديان وجهاً خارجياً باهتاً على نحو متماثل . ومع

ذلك ، لم يطرأ أي تغيير على صراعهما ، بل ربما أصبح أكثر ضراوة .

والورود تحفّ بمعتل العمل في الخارج . فالنساء ، من جهة ، يبلن

حقوقهن العادلة ، الإجتماعية والقانونية . والعمل ، من جهة أخرى ،

ممنوح لهن في هذا العالم إلى حد الإشباع . ولكن ، في أي عالم ؟ في عالم

الرجال بالطبع .

والنجاح الكبير في هذا السياق من الخداع أن المرأة تظن غالباً أن هذه الحالة الجديدة حرية حديثة العهد . ويمكن للرجال الذين يرغبون في استعباد المرأة أن يتنفسوا الصعداء . لقد تم الأمر ووقعت في الفخ . إنها على وشك أن تفقد شخصيتها وأصالتها الخاصتين . ومفعول روعتها وقدرتها الداخليتين تم إبطاله .

بل يتساءل المرء عما إذا لم تكن « المرأة » في سبيلها إلى الزوال ، الأمر الذي يلائم كثيراً من الناس . ذلك أن الرجال هم وحدهم الذين حاولوا أن يستعبدوا المرأة مدفوعين بالحرص . والعديدات من النساء هن كذلك ضد النساء . فهن ، إذ يرفضن أنوثتهن ، بل ويكرهن « الأنوثة » أحياناً ، يدفعن زميلاتهن إلى النضال ضد الرجال ، ولكن في عالم الرجال . أما النساء اللواتي يرغبن في أن يكنّ حرائر من الناحيتين الداخلية والخارجية ، ويرفضن الخضوع إلى الضرورات الجديدة ، فمدعوّات إلى عمل عسير .

وربما كان كل شيء منوطاً بهن .

أولاً - العالم التكنولوجي المجرد من الإنسانية ومخطئه المعادي للمرأة .

كل شيء يحدث كما لو أن قادة العالم التكنولوجي المجرد من الإنسانية تواطؤوا :

- فلنحذر ! لقد بلغ السيل الزبى . إن المرأة تطالب بحقوقها وتحصل عليها . وبدأت تفهم أعمالنا على نحو واضح . فهي تمثل قوة كبيرة

كامنة ومستترة ، وبالتالي تنذر بالخطر . وعلينا أن نمنع المرأة ، بأي ثمن ، من أن تنتقل إلى الفعل ، بوصفها امرأة . نعم ، بوصفها امرأة .

— ثم إن المرأة تتصف بأنها ثاقبة الفكر . ومن حسن الحظ أنها تجهل إلى أي حد . إنها تحب ما هو أصيل ، ومشخص ، وطبيعي ، وإنساني . ومستقر . ولكن عالمنا ، والحالة هذه ، غير أصيل ، ومجرد ، ومصطنع ، وغير إنساني ، وغير مستقر . وستحاول المرأة ، يوماً من الأيام ، أن تهدم ما بنيناه . بل وربما تدخلت في إيقاف حروبنا ! وعندئذ سينتهي أمر تجاربنا الشديدة الخطر ، ورجال الأعمال لدينا ، وضروب ولعنا بالريح ، ونظرياتنا . وسيتهي أمرنا بالمناسبة ذاتها .

فرسموا عندئذ خطة عامة :

— علينا أن نمنع الأنوثة من أن تستعيد نشاطها . وفيما يتعلق بالزمن الحالي ، فإنها تظل مقيمة في تخطيطيات الضعف القديمة . فليست إذن موضع خشية . ولكن هذا لن يدوم طويلاً : ذلك أن ثمة ما يحض المرأة على أن تعي ما هي عليه ، وثمة ما يدفعها إلى أن تتدخل ، وإلى أن تصلح عالمنا . فلا بد من التعجيل ، ولا بد من تقويض الاستطاعة الداخلية للمرأة . ولا بد من حذف الأنوثة من الحرارة .

فاذا وضعنا تدبيرهم على الورق ، أعطى ما يلي على وجه التقريب :

الأمر الأول من الخطة المعادية للمرأة :

— أن ينجذب العدد الأكبر من النساء إلى عالم العمل .

— ولتحقيق ذلك ، ينبغي تملقهن ، واتخامهن من الناحية القانونية والاجتماعية . دع القيود ، ولكن احتفظ بالرقابة الكلية .

— امنحهن الانطباع بأنهن متحررات من وصاية الذكر ، تُعقُ
في الوقت نفسه حريتها الداخلية .

— اجذبهن إلى الاعمال التي تلازمهن بالتخلي بوصفهن نساء .

الأمر الثاني من الخطة المعادية للمرأة :

— استأجر النساء في أعمال ، حتى ذات الأهمية الكبيرة منها ؛
ولكن في أعمال لن يكون للأنثوة أي علاقة بها .

— وستضم الأنثوة بوصفها غير مستعملة ؛ وستفنى . وستوقف
الخطر .

الأمر الثالث من الخطة المعادية للمرأة :

— يمكن للمرأة أن تصبح شاهداً صاحبياً ، وبالتالي يُخشى جانبه . فلا
بد من استبعاد هذا الشاهد . ومن أجل ذلك ، لنجعل منه شريكاً في
الجرم ، وعندئذ تنطلي الخديعة . وهي ، بوصفها شريكنا في الجرم ،
لن تجرؤ على أن تحشر أنفها في أعمالنا بصفتها شاهد إثبات . ونحفظ
نحن بالمهمة السهلة ، لأننا نفتح لها الأبواب . . . أبوابنا على الأقل .

الأمر الرابع من الخطة المعادية للمرأة :

ولكي نجعل هذه العبودية كاملة ، سنجبر ملايين النساء على أن
يفقدن شخصيتهن . ومن أجل هذا ، نستخدم الأزياء ، والكيمياء .
والإعلان والملايين . ونصنع فتيات هن من الاتصاف بالجمود بحيث
يُستبعد كل خطر .

ثانياً - النتائج بالنسبة إلى المرأة

١ - محصورات في عالم الذكر . . .

كان بوسع المرء أن يتصور أن النساء ، وقد فزن بالحرية الخارجية ، سيستفدن منها ليباشرن « صعوداً » داخلياً. وبعبارة أخرى ، إنهن لن يستسلمن .

إن الفخ ، على العكس ، قام بعمله على نحو ممتاز . لقد كانت الفرصة ، مع ذلك ، فرصة مثالية . فالسمكة كانت جائعة . وكان يكفي إلقاء الصنارة في الماء حتى تنخدع بها .

وهذا هو السبب في أن المرأة تشارك في سبر العالم مشاركة مترايدة. ولكن في أي عالم ؟ لم يسبق لعالمنا خلال القرون أن كان يمثل ما هو عليه الآن من الجمود ، والضجر ، وفقدان الحياة ، والحرب ، والعنف ، والعدوان ، والتزعزعة الفردية ، والترويض ، والتفجير ، والتسامت ، والتماثل ، والخراب . ولم يسبق له أن كان إلى هذا الحد من المبالغة في الإتيان بصفات الذكورة .

يقال إن وإبلاً من الهرمونات المدكرة هطلت ، في حين أن الهرمونات الأنثوية بقيت في الغيوم .

وعلى هذا النحو إذن ، يتحوّل ذلك إلى نهاية سعيدة بالنسبة إلى المرأة ، ولكن بالمقلوب . إن عالم مثالي بالنسبة إلى النساء اللواتي فاتهم رورق حياتهن النسائية . وهو كذلك مثالي بالنسبة إلى اللواتي يبحثن ، وهن يشعرن بصعوبات حادة في وجودهن ، عن أن يعلن

أنفسهن مجدداً، وبأي ثمن ، مركز اهتمامهن ، وعن أن يكتشفن أنفسهن ، ويعرفن من هنّ . فيشعرن عندئذ أن العمل في قلب هذا العالم ، عالم الذكر ، سيتيح لهن أن يكتشفن هويتهم العميقة .
وتتمتع الحقوق لهن ، فينطلقن نحو الطعام ، ولكن دون أن يكتشفن الشبكة .

٢ - « المنافسة » النسائية .

وتجد المرأة نفسها تسلك رَدْباً * هو الرذب الذي يخفق فيه الرجال ، لأن منافستها مبنية على تضخم في المنطق وتضخم في العقل . فما هما هذان « الشيطان » ، والحالة هذه ، إن لم يكونا مجرد تابعين للحياة السيكولوجية ؟

الذكاء الحقيقي موجود لدى المرأة والرجل على السواء . والجنسان ، في هذا النوع من الذكاء ، يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر على نحو كامل . ومن سوء حظ المرأة أنها على وشك أن تفقد هذا النموذج من الذكاء .

أما فيما يخص الرجال ، فقد فقدوه منذ زمن بعيد .

ولكي يتسنى للمرأة أن تضارع الرجل في هذه المنافسة الحديثة ، لا بد لها من أن تفقد إنسانيتها . ولكن هذا الأمر متعذر عليها ، شاعت ذلك أم أبت .

وهنا إنما تكمن مأساتها ، وعدم شعورها بالأمن ، وتشوّهها ،

(*) الرذب : الدرب المسدود « م » .

وحصرها . فهل تشارك النساء في هذه المنافسة ؟ نعم إن النساء يشاركن ، أما الأوثة فلا . إنهن يشاركن في هذه المنافسة إلى درجة أن الناس جعلوا من الخصائص التي تتصف ، لدى المرأة ، بأنها أرفع شأنًا ، كقابلية التأثر والجاهزية ونفاذ البصيرة والقوة الداخلية ، خصائص تحط من القدر . بل إن رأفتها الطبيعية ، الرأفة التي أحالتها محذاة التكنولوجيا إلى مسحوق ، موضع تحقير . أما العاطفة الواسعة ، عاطفة الأمومة (العاطفة التي تستغني عن الوصف) ، فقد قالت لي عنها إحدى المناضلات في سبيل حقوق المرأة : « ولكن هيا ! إنها جيدة بالنسبة إلى النساء الساذجات » !

وينجم عن ذلك أن المرأة تجد نفسها ، برفقة الرجل ، في قعر واحد من حفرة وضیعة . فلم يسبق لها أن كانت بمثل ما هي عليه الآن من العبودية في عالم ألصقت نفسها به باسم ضرب من بديل للحرية التي يبدو وميضها . وذلك على وجه الضبط كما لو أن قادة العالم التكنولوجي كانوا يقولون لأنفسهم :

— هل استعبدنا النساء دائماً؟ إننا ، في الحالة الراهنة ، نمسكهن فقط . إنهن يعملن لدينا ومن أجلنا ، ويهدمن أنفسهن بوساطتنا . ويصبحن أنصاف ذكور . أمر ممتاز ! فنحن نبقى ذكوراً على نحو كامل ، ونحتفظ بالهيمنة عليهن .

ذلك أن العمل « على شاكلة الذكر » ليس إلا ضرباً من ظاهر الحرية . وليس هذا مخرجاً ، وإنما هو باب جهنم .

٣ — حال المرأة أسوأ مما كانت عليه من قبل

كم كانتا كبيرتين فيما مضى سلطة المرأة واستطاعتها عندما كانت

ممارس تأثيراً خارج الحياة العامة ! كان تدخلها يعدل أخطاء الذكور .
فكانت المرأة ، وقد بقيت امرأة بصورة عميقة ، تصغي وتقدر وتلاحظ
وتنتظر ، ثم تتعرض للأمر وتتدخل ، وتصيغ قرار الرجل .
وتتعدل كفتا الميزان .

ذلك أن جليلة الملك فيما مضى ، أو زوجته ، أو عشيقته ، كن ،
بالآلاف المرات ، أكثر فعالية : بصورة خفية ، من النساء الشبيهات بالنمل
في أيامنا هذه .

ولست العودة إلى الوراء أمراً مطروحاً على بساط البحث ، بيد أنه
ينبغي أن نستخلص عبرة من ذلك . فالمرأة التي كانت ماهرة في حفظ
نفاذ البصيرة المعصوم الذي يتصف به نوعها ، كانت تحكم الممالك
وبيوت الزوجية .

ولكن هذه القدرة التي لا قرار لها ، قدرة المرأة ، تلاشت أو تكاد
تلاشى . واختفت روعة المرأة التي كانت تتمتع بها فيما مضى .

عصرنا عصر النساء الأرضيات * وعصر النمل العاملات . فهن ،
من لندن إلى شيكاغو ، يضرن على الآلة الكاتبة ذاتها ، وينهكن أمام
المحركات التي ينهكن أمامها الرجال ، ويصون على الديرثات نفسها :
وهن يفعلن ذلك لأن مقتضيات التكنولوجيات الحديثة ومتطلبات
«الأعمال» توجههن عن بعد .

أمن الممكن أن تفوز النساء ، يوماً من الأيام ، بحريتهن الداخلية ،
وبتحقيق ذواتهن ، وبسعادتهن ؟ ولكن ، لن يتسنى لمن أن يمنحن روحاً

(*) النساء الأرضيات : Femmes - termites والأرضة حشرة تسمى النمل
الأبيض أيضاً ، تعيش على صورة المجتمع ، وتكثر في المناطق الحارة . ويتألف مجمع
الأرضيات من أنثى ذات بطن هائل ، ومن ذكر وعاملات تؤمن بناء المأوى وجلب الغذاء ،
ومن عدة جنود للدفاع « م » .

للأرض مجدداً ، ما دمن لم يستعدن روحهن ، وقيمهن الأساسية في الوقت نفسه .

ثالثاً – العالم التكنولوجي المجرد من الإنسانية مهم

١ – مسرور ولكنه قلق .

لنتصور قادة العالم التكنولوجي المجرد من الإنسانية يستشيرون رزم بطاقتهم ، وتلك حكاية الإشراف على الوضع بمجمعه .

إنهم سيفركون أيديهم بالطبع .

– فالنتائج تتجاوز اتوقعات ! ألم تكن نريد استعمار المرأة استعماراً شامياً ، ونحن نظهر في الوقت نفسه بمظهر الحواريين الناصحين المحررين ؟ لقد تم ذلك . فالقسم الأكبر من النساء تم تجميده . إنهن يعملن وكأئهن رجل واحد ، إذا جاز لنا القول . بل ثمة ما هو أفضل : إنهن مبتهجات بكونهن مستقلات . فقد وجدن حرية الطاعة للآلات التي تراقب دخولهن إلى المصانع وخروجهن منها ، وللأوقات المضبوطة ، وللرؤساء ومساعدتهم ، وللمراقبين الآخرين . إن مجرد كونهن مسجونات يمنحهن وهم أنهن موجودات . وإذا ما انتظرنا ، فأنهن سيعملن من أجلنا . إنهن أيد عاملة ممتازة ، رخيصة الأجور ، إنهن لسن نساء ولا رجالاتاً . وكل شيء على أحسن ما يرام .

وإذ يحلل قادة العالم التكنولوجي المجرد من الإنسانية الجزء الثاني من لعبة البطاقات ، يتوصلون إلى ما يلي :

– آه ! ها هو ذا الجليل الضحية . إنهن بين الثالثة عشرة والتاسعة

عشرة من أعمارهن . ولكنهن نساء أشياء ، سار معظمهن إلى النهاية .
إنهن صبيّات ، وذلك إنما هو أمر تزداد أهميته بقدر ما سيؤثرن على
أولادهن . فليس ثمة من خطر على عالمنا .

والجزء الثالث من علبة البطاقات كانت تحتوي على كومة كبيرة
منها .

— إنهن النساء الناصلات اللون : ضرب من الظاهرة الإجتماعية
الحقيقية ! هل كنا نرغب في أن يفقدن كامل شخصيتهن ؟ لقد نجحنا .
فهذا النموذج من النساء يتكاثر ، وهن يطعننا بحركة من الاصبع وغمزة
من العين ، دون أن يعرفن ذلك . وأصبحن الممثلات الجالطات لعالمنا
الغولاذي . ولا بد من دفع الاعلانات في هذا الإتجاه (١) .

والجزء الرابع من علبة البطاقات (ولكن وجوه قادة العالم التكنولوجي
المجرد من الانسانية صارت قلقة هنا) كانت تحتوي على ما يلي :

— انتبهوا ! لا يزال كثير من النساء اللواتي قدرن على البقاء
ذكيّات ، ومتوازات ، وصاحيات ، واحتفظن بالخصائص القوية ،
خصائص الأنوثة : مع ما ينشأ عنها من الفاعلية المبدعة . وهؤلاء النسوة
من النخبة ينذرن عالمنا بالخطر الشديد. ذلك أنهن لا يزلن يتمتعن بروح عميقة
الغور . فاذا اهتممن بتنظيم المعمورة ، كنّ قدرات على النجاح . وحظنا
الوحيد أنهن لا يستطعن أن يفعلن شيئاً وحدهن . ولا بد لمن أول الأمر
من أن يتحدن فيما بينهن : ثم ينضممن إلى الرجال الذين يسعون إلى بلوغ

(١) ستكون هذه الظاهرة العجيبة موضوع فصل من فصول هذا الكتاب ، وهي تستحق
ذلك . (وتلك هي ظاهرة نصول اللون « م ») .

الهدف ذاته : إضفاء الانسانية على المعمورة مجدداً . إنه لمن المؤكد أن ذلك لن يكون في المستقبل القريب . ولكن علينا أن نحناط اه . فلتفتح لمن الأبواب بحدرو . ولترفض أن تقبل منهن دفعة واحدة غير عدد قليل . ذلك أن ذكاءهن المتوازن يؤهلهن للوظائف العليا . والحقيقة أن عالمنا التكنولوجي لا يسترعي اهتمامهن ؛ بل إنه ينفرهن . ولكنهن يتصفن بما يكفي من المهارة لكي يتزلقن فيه ، ليمنحنه وجهاً من لحم ودم . فلا بد إذن من منع هؤلاء النسوة من أن يتحدن . فالقيادة هنا إنما هي التفرقة والتقسيم .

٢ - المرأة شاهد يخشى جانبه .

الرزمة الأخيرة من بطاقات العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية كانت خاصة إذن بالنساء السليمات ، النافذات البصيرة ، اللواتي بقين على الرغم من إبادة الجنس . إنهن نساء شاهدات ، ينتقلن ويلاحظن حاضرة الذكور ، المجردين من الصفات الانسانية . إنهن يصورن في أفكارهن أخطاء الذكور التي تنذر بالخطر . ويعانين ، على نحو واضح ، ضرباً من الشعور المسبق بما ينتظر العالم . فهن لا يحسنن بأي عداء ضد الرجل ، ولكنهن يلاحظن أنه لا يدرك حتى انتحاره التدريجي المحتوم .

ويبحث هؤلاء النسوة عن التصدعات في الحيطان السميقة . إن قادة العالم التكنولوجي المجرد من الصفات الانسانية كانوا يدممون :

— من المحتمل أن يصبح هؤلاء النسوة هن اللواتي يتهمتنا . إنهن سيوقدن نار التمرد ضد ضروب الظلم ، وضد أعمالنا التي لا تصدر عن أي عقل إنساني ، وضد حروبنا وبجوثنا الطائشة . إنهن يرغبن في كوكب تسكنه موجودات انسانية ، تسكن وتتغذى بصورة إنسانية .

من هنا ينطلق الأمر الثالث من الخطة المعادية للمرأة .

٣ - المرأة تصيح شريكاً في الجرم .

ليس ثمة مكر أكثر كمالاً من أن يتحول شاهد الاثبات إلى ضالع في الجرم . وذلك أمر يكافئ قتل الشاهد : إنها جريمة كاملة على وجه التقريب .

وما الشاهد إن لم يكن شخصاً يلاحظ على نحو إجمالي ، شخصاً ناقب الفكر ، صاحباً ؟ ومن جهة أخرى ، فإن يكون المرء شاهداً أصيلاً يقتضي بعض الشروط : ينبغي أن لا يكون قد تدخل على أي نحو ، بالعمل الذي تم انجازه . إن أي شاهد يحتاج إلى ضرب من لإبتعاد والحياد .

فأنت تمحو الشاهد ، إذا ألغيت هذا الإبتعاد ، وهذا الحياد . ذلك أن المرء لا يستطيع أن يكون شاهداً صاحباً في حادث من الحوادث إذا كان مصاباً بالحادث .

والحيلة الثانية لإستبعاد الشاهد أن تشتري سكوته .

أوليس هذا ما يحدث ؟

بيد أني أعطي الكلام ثانية لممثل العالم التكنولوجي المجرد من الصفات الانسانية :

— أتريد بعض النساء أن يكنّ مصححات الخطأ ؟ أيرغبن في أن يكبحن سيرنا إلى الأمام ؟ أيبين أنفسهن ليفضحنا أمام العالم ؟ حسن ، فلنجندهن ، الكي نضفي الحياد عليهن . ألسنا نبي حاضرات لا روح

فيها ؟ فلنلزم النساء ، بوسيلة أو بأخرى ، أن يشاركن في البناء . ألسنا نضع الصواريخ والأسلحة ؟ لنجعل هؤلاء النسوة يقمن بدور هام في الفيزياء والكيمياء والالكترونيات . ولنحوّل هؤلاء الشاهدات أيضاً إلى نساء أعمال . ومنذئذ ، كيف يمكن لمن بعدُ أن ينتقدنا وهن سيكنّ مهتمات بفعل المسؤوليات التي يقبلنها؟ فشاهدنا سيصبح شريكنا في الحرم : وسيكون ذلك أجمل مغامراتنا .

وقد يعترض بعضهم :

— ولكن المرأة الذكية لا تنطلي عليها الخديعة !

نعم بالتأكيد ! ولكن الخدعة انطلت على الكثيرات .

٤ — إشعار المرأة بأنها آئمة على كل الجبهات

كان ثمة إمكان لأن يشهد المرء تغييراً في الاتجاه لوأن النساء كن على علم بماهن عليه واقعياً ، ولو قيل لمن إن الأنوثة ليست غشياناً حلوا المذاق ، بل هي قوة حيوية لا غنى عنها ، ولو ، بالاختصار ، تم استتصال الأخطاء القديمة . فلو وعت النساء ذاتهن ، لأصبحن مجدّداً قوة وحكمة وذكاء وعملاً ، ولأمكن لهؤلاء النساء المتجدّات أن يباشرن نفاذهن التدريجي في العالم الخارجي الذي سيتصف بالتوازن مجدّداً ، بدلاً من أن يستمر في الإسيار .

وبدلاً من ذلك ، أشعر الناس المرأة بالإثم .

أكد الناس لها ، حين كانت تعمل في بيتها ، أنها آئمة لكونها لم تعمل في الخارج ، وأنها ، ولو كانت تعمل في الخارج ، آئمة لكونها لم تهتم بمسكنها . وجعلوها آئمة لأن لها أطفالاً وآئمة لأنها ليس لها أطفال ، وآئمة

إن عملت وآثمة إن لم تعمل ، آثمة إن ضجرت وآثمة إن لم تضجر ، آثمة لكونها جميلة وآثمة لكونها غير جميلة ، آثمة لأنها فتية وآثمة لأنها غير فتية . وبالاختصار ، كل هذا ضروب من النهش المدروس بعناية ، ينكأ باستمرار جرح المرأة القديم : أي شعورها بالدونية ، القديم العهد ، ومنعها من الإهتمام بنفسها . وبعبارة أخرى ، استمرار الناس في أن ينكروا حقها في أن يكون لها حقوق. وكانوا ، في الوقت نفسه ، قد أبقوا لها مظهراً من الاختيار : إما أن تعمل مع الرجال ومن أجلهم ، وإما أن تصبح منزوية يشار إليها بالبنان .

فلنضع أنفسنا مكانهن . إنهن يرين أنفسهن ملزمات بأن يكنّ نساء ورجالاً في الرقت ذاته ، ولكن مع توقعهن عن أن يكنّ نساء ، وعجزهن عن أن يصبحن رجالاً . إنهن يصطدمن باللامعقول والمحال ، فيصرفن طاقتهن دون حساب ، ويسعين إلى التخلص من الشعور بالإثم ، إذ يوجهن اهتمامهن إلى المطبخ والأولاد ، وإلى مهنتهن ومديرن ، وإلى أزواجهن ، وإلى نجاحهن ونجيبهن . ومن الواضح أن هذا كله يتم في وقت واحد .

وبعبارة أخرى ، ألغى الناس ماهية المرأة ، ماهية كانت قد أمضت قروناً طويلة تسعى وراءها . وعلى هذا المنوال ، أغلقوا المجال الذي تمتاز فيه على الرجال بميزات لا حصر لها ، ولا مجال للشك فيها .

وأصبح المظهر الفاعل والمهنة ، بالنسبة إليها ، هدفين شبه الزاميين . وصرخ الناس من أعالي السطوح أن نمط الذكاء (الواقعي !) لدى المرأة كان شبيهاً بنمط الذكاء لدى الرجل . ودون أن تنتظر حتى تستردّ ما

كانت قرون الوصاية قد أتلفتها فيها ، أرادت العبدة السابقة أن تشبه سيدها السابق .

فارتدت الأثواب البراقة ذاتها .

وكان هذا الشعور بالإثم قد تعزز بفعل بعض فئات من النساء «المتحزبات لمطالب المرأة» . ذلك أنهن نقلن حالاتهن الشخصية إلى المستوى العام . فقد أصبحن ضد الأم ، وضد المرأة ، وضد الرجل ، وضد كل شيء ، وضد أنفسهن على وجه الخصوص ، من جراء كونهن يعانين صعوبات عميقة مع أمهاتهن وآبائهن وأزواجهن .

والمتحزبات لمطالب المرأة هؤلاء لا يدافعن عن المرأة : فذلك إنما هو أقل همومهن شأناً . إنهن لا يسعين إلى تجديد الأثوثة ، بل إلى هدمها ، لأنهن منغمعات بالضغينة . وهن يحاولن إحراق الغاية من أجل قطع عشر أشجار .

لقد أطلقن مواكب من النساء لمهاجمة دبابات الذكور . وما ترك الشعور بالإثم لدى هؤلاء النساء غير حلين : إما أن يجدن اللذة في مطالبهن ، وإما أن يستلمن قيادة هذه الدبابات ذاتها . فوجد هؤلاء النساء أنفسهن أيضاً واقعات في الفخ ، شريكات في الجرم ، وموضع شبهة .

ثالثاً - الحل

ولكن ، ثمة ، أخيراً ، عدد من النساء النخبة اللواتي يتصفن بالمهارة في إيجاد إبداعية سعيدة ، في منازلهن أو في الخارج .

إنني أعرف اختصاصيات في الفيزياء والكيمياء والرياضيات ، وأعرف نساء مديرات . إنهن لا يشعرن بالراحة. لقد شكّون لي حصّرهن

من عنتمهن في عالم انتحاري ومن أجل هذا العالم الذي لا يعرف أحد إلى أين يمضي . لأنهن يعملن دون ميل ولا سرور . ويأسفن لعجزهن عن فعل أي شيء ضد هذه الضروب من الشذوذ . لأنهن ينهكن أنفسهن لصالح هذه الضروب من الشذوذ ذاتها . فهن أيضاً نساء واقعات في الفخ .

جان وماري ، مهندستان معماريتان ، رفضتا ، ذات يوم ، أن تتابرا على المشاركة في هدم مواقع قرره بعض الممولين . واستقالتا ، متبرعتين من هذه اللعبة اللا إنسانية ، وعاجزتين عن فعل أي شيء ضد ما هو غير قابل للعكس .

ولكن ما الوضع لو أنهما لا تملكان الضروري من الدراهم لكي تهجرا كل شيء ؟ لو أنهما كانتا ملازمتين بلانتظار أن « يتفضل » الزبُن الخاصون باستدعاء « امرأة مهندسة معمارية » ؟

هنا يكمن الشذوذ : يشعر كثير من النساء أن عملاً خارجياً يمكن ، مهما كان وضعياً ولسن بحاجة إليه في الغالب ، أن يسوغ وجودهن . بل ثمة ما هو أكثر أيضاً : ثمة عدد من النساء ، اللواتي خضعن لقانون العمل الخارجي : يحتقرن اللواتي يؤثرن البقاء في بيوتهن .

غير أن النساء اللواتي يبحثن عن هويتهن من خلال مهنة من المهن لن يجدنها أبداً . ذلك أن الجنسين ، شتتا أم أيتنا ، موجودان دائماً أحدهما بواسطة الآخر . ولن تحصل المرأة على وضعها الأساسي إلا بواسطة الرجل ومن أجل الرجل ، والمقابل صحيح أيضاً كل الصحة . فالمرأة التي لا تحب وليست محبوبة تظل « خامدة » ، وعابرة ، مهما كانت فاعليتها . وتبقى لامتمايزة وغير بارزة ، ميتة إذا صح التعبير .

ينبغي على النساء الصاحيات المتوازات أن يكن قادرات على الكلام .
والكشف . وإعادة التنظيم . وكونهن يعملن خارج منازلهن أمر عديم
الأهمية . فالأهمية الوحيدة لفضيلة النفس .

ولكن أي الوسائل يمكن للنساء أن يستخدمنها ؟ إنني أفكر بالفعاليات
ذات الإنتشار الواسع : الإذاعة والصحافة والتلفزيون ، حيث لا يزال
للإنسانية بعض الكلمات التي ينبغي أن تقولها . وهناك رئاسة البلديات
ومجالس الشيوخ والنواب ، حيث يمكن للمرأة أن تصنع العجائب .
إن المرأة السليمة الذكية ينبغي أن تكون حصان طروادة الجديد .
الذي ينزلق داخل منظمات الذكور : ولكن دون أن تدع نفسها تتشوه
بها . ذلك أن هؤلاء النساء ينبغي أن لا يقعن ، وبأي ثمن ، في الفخاخ التي
جعلت من الرجال مصاصي دماء . فأن يعملن ضد الرجل أمر غير
مطروح على بساط البحث إطلاقاً ، وإنما ينبغي أن يعملن مع بعض منهم
بهدف تجديد العالم الراهن . وملايين الرجال يرغبون في ذلك .

وعلى أولئك الذين ، من الرجال ، ييدهم مفاتيح هذه الممالك
التجمدة أن يحسوا ، ولو إحساساً مبهماً ، بقيمة شهادة هؤلاء النساء ،
وأن يفتحوا هن الباب .

لا بد من المضي بهدوء . فثمة عدد من النساء والرجال هم من سرعة الانفعال بحيث يترجمون مباشرة جميع المعوقات أو المزايا بمصطلحي الدونية أو التفوق . ولكن ، أوليست الحاجة إلى السيطرة والقوة وقفا على الخائفين ؟

ثمة نساء يردن المساواة — أو بالحرى : التسوية — وفق نمط الذكر . ولكن ، لماذا لا يبحثن عن الوصول إلى مستوى الرجال وفق الخصائص النسائية ؟ فهل يُعزى ذلك إلى العبادة القديمة ، عبادة القوة ، ذات الصلة بكره جنسهن الخاص ؟

أبدأ لن يفهم الرجل ، الذي لم يُزود بالبطن الخلاق ، إلى أي مدى تغوص نفس المرأة في الواقع العميق ، واقع الأشياء والموجودات . فقوة المرأة ناجمة عن أنها ، وحدها ، هي القادرة على الإحساس بقوى الحياة . خلال مقابلة إذاعية مع عامل في آلات التوجيه الحديث ، أعلن العامل بهدوء ، بعد أن تكلم على ناظماته الآلية ، عن الحب الذي يكنّه لأشجار منطقته وحقوقها وآفاقها .

وبدلاً من أن يستنتج المذبح أن هذا الرجل إنما هو عامل تقني اتصف بالقدرة على البقاء رجلاً سوياً ، سأل ، وقد بدا على وجهه ما يشبه الإشفاق ، أليس هذا العامل في التوجيه الحديث شاعراً « بعض الشيء » ؟
فهل يعني أنه أبله ؟

1. $\frac{1}{2} \times \frac{1}{2} = \frac{1}{4}$

2. $\frac{1}{2} \times \frac{1}{3} = \frac{1}{6}$

3. $\frac{1}{3} \times \frac{1}{3} = \frac{1}{9}$

4. $\frac{1}{4} \times \frac{1}{4} = \frac{1}{16}$

5. $\frac{1}{5} \times \frac{1}{5} = \frac{1}{25}$

6. $\frac{1}{6} \times \frac{1}{6} = \frac{1}{36}$

7. $\frac{1}{7} \times \frac{1}{7} = \frac{1}{49}$

الفصل الثاني

خبرة الدونية

وتوقفت المعركة نظراً لعدم توافر المقاتلين .
كورنيل

يتساءل كثير من النساء :

— هل صحيح ، في نهاية المطاف ، أن المرأة تعاني من دونية طبيعية ؟
وهل هي ، بصورة طبيعية ، أقل ذكاء ، وابداعية ، وفاعلية ، من الرجل ؟
كثبت إلي بعض النساء قائلات :

— نادى الناس منذ بداية الأزمنة بدونيتنا . وكثيرات منا مقتنعات
بهذا مع ذلك .

ولكن ، هل تمت البرهنة من الناحية العلمية على نواقصنا ؟ وهل فرويد
محقق فيما ادعى ؟

وقالت لي نساء أخريات :

إذا كان من الثابت أن المرأة أدنى من الرجل حقاً ، فإنها تستسلم لذلك . ومع هذا فلا بد لها من معرفته . . .

أولاً — الدونية المزعومة ، دونية المرأة

١ — بعض السخافات

أ — يبحث الناس دائماً عما لا تتصف به المرأة قياساً على الرجل . ولكنهم قلماً يتساءلون عما ينقص الرجل بالقياس إلى المرأة .

ب — يعتبر الناس دائماً عن الإعاقة : الدونية وعن الميزة : التفوق

ج — وإذا تكلموا على « الفروق » بين النساء والرجال ، فإن المرأة مشروطة بالتفكير أنها مختلفة نقصاً ، وأن الرجل مختلف زيادة .

د — مسألتا الدونية والتفوق مطروحتان على الغالب طرحاً إجمالياً دون أن تؤخذ الظروف بالحسبان .

هـ — قلماً يبحث الناس في أي شيء تتصف امرأة بأنها دون ما يمكن أن تكون عليه .

وثمة سخافة سادسة

عندما تصبح إحدى النساء مستقلة ، فإن الناس يعدونها « نافعة » من الناحيتين الاجتماعية الاقتصادية . غير أنه يبدو أنهم ينظرون إلى أن ذلك لا يغير شيئاً فيها ، الأمر الذي يعني أن المرأة قد تم تصنيفها تصنيفاً نهائياً : إن قدر المرأة أن تعجب بالرجل ، وأن تعمل من أجله ، وأن تلد أطفالاً ، الخ . ويستخلص الناس من ذلك أن المسألة هي مسألة أقدارها الطبيعية الوحيدة : دون الأخذ بالحسبان صورة المجتمع الذي

تعيش فيه المرأة . فثمة إلتباس بين المحصول وبين ما يُعبأ فيه المحصول .

٢ - بالقياس إلى أي شيء تتصف المرأة بأنها أدنى ؟

تُصاغ ضروب السلوك الإنساني دائماً بمصطلحي الدونية والتفوق . فعالية الكتابات والمناظرات تقع في الإلتباس ذاته . ويرفع المرء ، بالإضافة إلى ذلك ، من قيمة سلوكه . وعلى هذا النحو ، ينتهي الناس إلى الإعجاب عندما يكون « التفوق » ، وإلى الاحتقار عندما تكون « الدونية » .

و « المتفوق » ينضح بالأهمية . و « الأدنى » ينسحب خجلاً مرتبكاً . ويعود النظام إلى نصابه ، ويسود الهدوء في فارصوفيا ، ولكن النار تستمر كامنة .

أيهما « المتفوق » : المرأة أم الرجل ؟ ليس لهذا السؤال معنى ، لأن التفوق والدونية يقاسان بمقياس مشترك .

فعندما نفصل ، والحالة هذه ، بين الحسنين ، كما يحدث ذلك على وجه العموم ، يصبح متعلراً كل قاسم مشترك . ان مثلنا في ذلك مثل من يتساءل : « أيهما المتفوق ؟ الماء أم النار ؟ الذهب أم الفضة ، الجبل أم الوادي ؟ »

وما دمتنا نفصل على هذا النحو بين الحسنين ، فإن كل مناظرة تبقى مناظرة متعلرة . كيف يمكننا أن نبرهن على تفوق أحد الحسنين ؟ بالقياس إلى أي شيء يتصف أحد الحسنين بأنه متفوق ؟

إننا لا نتساءل أبداً ما إذا كانت المرأة والرجل هما حقاً ما يمكن أن

يكونا عليه . أوليست المرأة والرجل : كلاهما ، في مستوى أدنى من حيث إمكان تحققهما الخاص ؟

هنا إنما تكمن المسألة ، على ما يبدو لي . فالمرأة المتحققة « أسمى » من رجل مراهق ولو كان عبقرياً ، والرجل المكتمل « أسمى » من امرأة طفل . وكذلك فالمرأة الجميلة التافهة أدنى من امرأة تتصف بأنها امرأة على نحو كلي ، والفلاح الذي يحب أرضه أسمى من قائد لامبال بمهنته ، الخ .

إنني أقترح أن يحلّ مصطلح « معوق » محل مصطلح « أدنى » ، ومصطلح « متميز » محل مصطلح « متفوق » . ذلك يتيح لنا أن نرى من خلالهما على نحو أكثر وضوحاً . فالمسألة مسألة قدرات بالطبع ، ولكنها أيضاً مسألة تحقيق الذات . وكون الإنسان ، في هذا المجال ، امرأة أو رجلاً ، لا يدخل في الحساب ، كما لا يدخل في الحساب كون الإنسان حاكماً أو محكوماً .

وأود أن أشير إلى إلتباس آخر . يوازن المرء على وجه العموم شخصاً بشخص آخر بدلاً من أن يقيسه بعبارة إمكاناته الخاصة .

فلنتصور عاملة فقدت استخدام ذراعها . إنها تعتقد في نفسها مباشرة بأنها « أدنى » من الآخرين . والواقع أنها معوق بالقياس إلى معيارين : عملها ومردودها . ولكن ذلك لا يعني على الإطلاق أنها أصبحت « أدنى » (من الناحية الداخلية) من ذاتها ولا من أي شخص . بيد أن احتمال أن تعاني الشعور بالدونية يبلغ ٩٠ بالمائة ، لأنها تخلط بين ما هي عليه وبين ما يتوقعه منها المجتمع . ومع ذلك ، لن يبدو أي شعور بالدونية إذا

كانت هذه العاملة متوازنة . ولن تعاني غير إحساس بالإعاقة التي ستسعى
جهداً لتعويضها في حدود إمكاناتها .

ومن الواضح أننا جميعاً متميزون أو معوقون مائة مرة في اليوم
وبحسب الظروف . فعازفة البيانو الشهيرة ، على سبيل المثال ، معوق
بالقياس إلى مغرم بالرياضيات في الخامسة عشرة من عمره ، إذا اتخذنا
الرياضيات معياراً . وينقلب كل شيء إذا أصبح البيانو هو المعيار ه
ومن اليسير أن نكثر من الأمثلة . فكل إعاقة وكل ميزة منوطتان
بالوقت والظروف . والإعاقة هذا اليوم قد تصبح ميزة في الغد .

٣ - جدول مقارنة

تلك هي بعض الموازنات بين المرأة والرجل . ولكن لا تعتمدوا
على المظاهر . ذلك أن بعض الميزات يمكن أن تحجب بعض الإعاقات ،
والعكس صحيح . خذوا مثلاً على ذلك : رجل يبدو متميزاً لإزاء الشعور
بالدونية لأن صورة مجتمعا مذكرة . وهذا لا يمنع أن يكون معوقاً في نهاية
الأمر : إنه يخشى أن يفقد مكانته ، وأن لا يبدو على مستوى ما يتطلبه
الناس منه ، الخ . يمكن إذن أن تغيّر كل إعاقة أو كل ميزة من العمود
الموجودة فيه بحسب الظروف .

وغني عن البيان أن أياً من الإعاقات أو الميزات يمكن التعبير عنها
بمصطلح « الدونية » أو بمصطلح « التفوق » . فذلك سيكون تطبيق مفاهيم
قيمية على أوضاع تتصف بأنها إما طبيعية وإما ناشئة عن الظروف .
وسيكون مضحكاً أن يدعي المرء بأنه أدنى أو أسوأ لأنه يمتلك صفة
واحد أكثر ، أو أن صيغياته تنقص واحداً .

يتصف الرجل بأنه	تتصف المرأة بأنها	أمام
متميز	معوق	العام الحديث
متميز	معوق	الشعور بالدونية
معوق	متميزة	الجنسية (١)
معوق	متميزة	خلق الحياة
معوق	متميزة	الإبداعية الداخلية
متميز	معوق	الإبداعية الخارجية
معوق	متميزة	التضج السريع
متميز	معوق	عقدة أوديب
معوق	متميزة	قوة النفس
معوق	متميزة	حصار الحياة
معوق	متميزة	حصار الموت
متميز	معوق	العداوية المهنية
متميز	معوق	الإستمرار داخل مهنة
معوق	متميزة	حس التدين
معوق	متميزة	الذكاء الإجمالي
متميز	معوق	الذكاء المجرد
معوق	متميزة	الوضوح النافذ
معوق	متميزة	الصبر
معوق	متميزة	الحس السليم
معوق	متميزة	الفهم الانساني
متميز	معوق	المظهر الاجتماعي
معوق	متميزة	الوجود العميق
متميز	معوق	الرمزية

(١) سيتم تحديد هذا المصطلح فيما بعد .

يعتقد الناس على وجه العموم ، في الصورة التي تتصف بها حضارتنا ، أن المرأة تعاني الشعور بالدونية أكثر من الرجل . ويضيفون أن قرون « الدور الثاني » لم تسوّأ أمورها . ومع ذلك !

ويعتقد كثير من النساء في أنفسهن أنهن أدنى لمجرد كونهن نساء . ولكن هل هذا إحساس طبيعي أم إحساس ثقافي ؟ لن يفكر رجل من الرجال أبداً أنه : « ليس غير رجل » . بل يقول على العكس : « أحس في نفسي أنني أدنى لأنني لست رجلاً » . أو يقول : « إنني أصبح أنثى ضعيفة خائفة » .

كانت إحدى الصبايا تقول لي :

— نحن أدنى ، لا بالكيف بل بالكم . تلك هي طبيعتنا . الإناث . في مملكة الحيوان . تافهات وخاضعات . ويتقاتل الذكور ، وتنتظر الإناث بغيطة ليعبدن المنتصر . إن فرويد على حق بالتأكيد .

وقالت لي الصبية ذاتها :

— الإناث تافهات . إن هذا واقع ، ولا بد من قبوله . . .

وقالت لي صبية أخرى :

تابعت دراسة علمية . حاول بعضهم أن يوفّر الحياة معاً لمجموعة من إناث القروود الآسيوية : دون جدوى . ثم أدخلوا في وسطها ذكراً واحداً بالغا : وفي الحال تكوّن مجتمع منظم ، اجتماعي . أليس هذا دليل أولية الذكر ؟

تذكروا ما كنا قد قلناه فيما سبق : يستعمل الناس مصطلحي

«أدنى» و«أسمى» بالنسبة إلى الآخرين : وقتما يستخدمهما المرء بالإسناد إلى ذاته . وذلك ، والحالة هذه ، إنما هو الخطأ الغريب الذي يمكن للمرء أن يرتكبه .

٤ - أيهما أكثر خوفاً ، الرجل أم المرأة ؟

أليس الرجل ، في نهاية المطاف ، هو الذي يعاني الشعور بعدم الأمن والعجز والدونية أكثر من المرأة ، ؟
لنلاحظ أول الأمر :

أ - أن الرجل يخاف المرأة خوفاً عميقاً : وسأوضح ذلك فيما بعد دونما عجلة .

ب - لا يحس الرجل في نفسه أنه متفوق على المرأة : إنه يعاني الحاجة إلى الزعم بأنه متفوق عليها ، مع بأنه يحس إزاء المرأة بحالة من الخطر وعدم الأمن .

ج - منذ أن تفوق إحدى النساء ، يتصرف الرجل العادي كما لو أن هوة كانت قد انخفرت تحته . وسئرى أنه يتصرف على هذا النحو لا لأنه يخشى أن يفقد رجحانه بالمعنى التقليدي للكلمة ، بل لأن المرأة «تقود» الرجل في كل مرة يكون فيها فريسة خشية غريبة خفية .

د - يُصاب المرء بالدهول لو لاحظ عدد سلوكيات الرجال التي تذكّر ، أمام امرأة (ويرىمازوجة) ، بسلوكيات صبي صغير أمام أمه .

هـ - بل إنني أعتقد أن المرأة تشعر بأنها «متفوقة» على الرجل . وهذا الشعور يعشعش في مناطق وجدانية منيعة على الرجل بصورة كلية .

فالمرأة قبل كل شيء أم (بالفعل أو بالقوة) . وعاطفة الأمومة جزء من طبيعتها . وهذه العاطفة : من جهة أخرى . ليست معنيّة « بطفلها » على سبيل الحصر . بل هي معنيّة أيضاً بالعالم كله . وهذا هو السبب في أن المرأة تميل إلى النظر إلى أفعال الرجال كما تنظر إلى ألعاب أطفالها : بنوع من الريبة ، بل بالتهكم أو بالعطف .

وثمة ما هو أكثر : وجود المرأة ضرب من الغلاف الذي يتصف معاً بأنه مغلق وواسع . والذي يتيح لها أن « تمسّ » قوى الوجود العميقة . وهذا هو السبب الذي من أجله تنظر إلى أعمال الذكور ، وفتوحاتهم ، نظرة تتصف بالقليل من الشرود . على أنها ظاهرات سطحية . ونحن سندرس هذا الأمر بكثير من التفصيل : ذلك أنه على جانب كبير من الأهمية من أجل التفاهم (أو عدم التفاهم) بين الرجال والنساء . ويمكن القول إن المقصود هنا شعور بالتفوق إزاء الرجل : أو بالحرى شعور بالإتساع : إن المرأة تحس إلى أي مدى تنصرف وجدانياً على مستوى آخر يتصف بأنه كالحياة لا يمكن تحديده : مستوى لا يتوصل الرجل إلى الإحساس به أبداً .

إن لشعور الرجل بالدونية أمام المرأة بقاءً آخر .

فالرجال انحدروا خلال القرون في سقوط حر :

كانوا	فأصبحوا
أقوياء	عصبيين
فاعلين	هائجين
مبتاناً	منهكين

شهوانيين	خلاقين
أناساً آليين	صناعاً
مروضين اجتماعياً	فرديين
مصابين بالحصر	مستقرين
مغفلين	شخصيين
أقناناً	عمالاً
خاضعين	ذواناً

كان الرجل ، فيما مضى ، على توافق مع الطبيعة وواقع الأشياء ، ومع عمله وحروبه . وهو ، في أيامنا هذه ، يحاول بمشقة ، وقد تحول إلى رقم ، أن يتعلق ببداثله الهزيلة ، بدائل القوة . وكما كان يقول لي أحد الدلائب السود : « إن الصياد الكبير في العهد الغابر أصبح جراًفاً صغيراً في أيامنا هذه » .

ومن هؤلاء الرجال الذين أصابهم التدهور ، يُتطلب أكثر فأكثر (بالمجهول) . ولكن النساء موجودات أمامهم . وأعماقهم لم تتغير من حيث ما تتصف به من إيجابي أو سلبي . أما النساء ، فقد لبثن كما كن دائماً على الرغم من المظاهر الخارجية .

وغالبية النساء ، بادىء ذي بدء ، يرغبن في أن يبزنّ الرجل . هل هو الثأر ؟ ذلك سيكون أمراً سوياً :

كانت إحدى النساء الذكيات تقول لي :

أتمنى ، لمرة واحدة ، أن أكون الموجته ، والقائدة الأولى ، في مهنة وقف بصورة اعتيادية على الرجال . أتمنى أن أظهر قدرات مساوية

لقدراتهم ، وأن أبرهنها لنفسي . ثم أستعيد مكاني النسوي ، لأنني في الحقيقة قليلة الاكتراث ، كما يفعله الرجال . . .

فنحن نجد في قول هذه المرأة عنصرين : الرغبة في الثأر التي تكلمت عليها فيما سبق ، ثم عدم اكترائها بالأعمال الشائنة التي يقوم بها الذكور على سبيل الحصر ، والتي سأفصل فيها .

وعلى عكس الرجل الذي يتصف بصورة طبيعية أنه غير مسقر ، تتسم المرأة بأنها في منتهى الاستقرار . يضاف إلى هذا أنها استطاعت أن تحتفظ ، خلال العصور ، بضرب من مرونة في التلاؤم صانها ، مهما يكن اعتقاد الناس ، من عبودية الذكر .

والمرأة تلاحظ الرجل مزودة بسلاح فكرها الثاقب المخيف . فكيف لا يحتاجه منذئذ شعور دائم بالدونية ؟ ذلك أنه على علم بأنه لا يطابق ما هو عليه : وبأن المرأة تتزع عنه القناع وتقديره بالقيمة الحقيقية ، قيمة ماهيته .

يضاف إلى هذا أن كثيراً من النساء يغذّين الشعور بالدونية لدى الرجل ، دون أن يقصدن ذلك بصورة شعورية . ويحدث ذلك عندما تبدي إحدى النساء ، بصورة ماكرة أو جهاراً ، شعوراً بالإعجاب إزاء أحد الرجال :

أنت قوي وذكي . ومن المثير أن يعمل المرء معك ... ولا أستطيع إلا أن أستسلم ، فأنت على حق دائماً . . . ويشعر الإنسان بالأمن معك ، الخ .

ويتمسك الرجل بهذه اللعبة . ويجهد نفسه لـ « يستحق » هذا الإعجاب .

ويمثل دوراً ، ويعلم أن أي كبرية تثير التهكم أو الهزاء لدى المرأة التي تشعر بالسعادة القصوى في أن تأخذ بالثأر (حتى على صورة سلوك أمومي وعطوف على حد قولها : سلوك ليس إلاً احتقاراً) .

هذه المرأة تترصد الرجل . ولكن ليس بدءاً من أيامنا هذه إنما يذهب الناس إلى السيرك أملاً برؤية المروض تفتسه الوحوش .

والسؤال ذاته يطرح نفسه مجدداً : من يعاني الشعور بالدونية أكثر ؟ ان الميزان يشبه ميزان العدالة المثالية : الكفتان متعادلتان . والشعور بالدونية أحسن توزيعاً من الثروات .

وما النتيجة ؟ المعركة مستمرة ما دام الناس يمنحون « قيمة أخلاقية » لمزايا كل جنس ولعوائقه .

رابعاً - كيف يتحدد موقع المرأة

١ - المرأة تدافع عن نفسها

في كتابي الأول (١) ، وصفت الشعور بالدونية تفصيلاً ، وكذلك الأعراض التي تنشأ عنه . إنني أذكر ببعض الأمور الأساسية . يخلق الشعور بالدونية :

أ - الإحساس المؤلم بكون المرء « أقل » من الآخرين.

ب - الانطباع بأن المرء « تحت » المعيار ، مثال ذلك كثير من

(١) الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٨١ ، ترجمة وجيه أسعد .

المراهقات اللواتي يستحوذ عليهن القلق بصورة فعلية ، قلق ناشئ من احساسهن بأنهن لسن كسائر الناس .

ج - الإحساس بأن المرء ليس على مستوى المهمة التي حدّدها لنفسه أو فرضها المجتمع عليه .

وقد يتجلى الشعور بالدونية في مجال واحد ، كرد فعل المرأة إزاء الرجال ، على سبيل المثال . ويمكن أيضاً أن يؤثر في جميع الأفعال . وأعراضه الأكثر شيوعاً هي : إحساس خفي بأن المرء يتصرف « كما لو » أنه كان مجرماً ، وانطباع بأن المرء غير جدير بالحياة ، وشعور بأنه يكاد يكون غير مقبول من « الآخرين » ، الخ .

إن الوجل والعدوانية المرضية هما ، بالطبع ، مفعولان مباشران من مفعولات الشعور بالدونية .

وتستجيب المرأة للشعور بالدونية :

١ - إما بضرب من التعويض يمنحها الإحساس بالقوة والتفوق . فتصبح عبارة « إنني أدنى من . . . » عبارة « عليّ أن أفعل كل شيء لأبدو متفوقة على . . . » .

٢ - أو بضرب من إعلان الحرب المعمّمة . وتلك هي حال عدد من المراهقات اللواتي ، يجتررن ، وهن يعتقدن أنهن غير محبوبات ، عداوتهن ضد العالم بأسره ، ويبدين غطرسة غريبة .

٣ - أو بضرب من الغيرية المغالية . وستحاول على الغالب بعض النساء ، اللواتي يحكمن على أنفسهن بصورة لاشعورية أنهن غير

«جديرات» بالحياة ، أن يضحين بأنفسهن . إنهن يهين أنفسهن لعمل من الأعمال دون أي اهتمام بأنفسهن على الإطلاق ، وحتى الموت إذا كان ذلك ضرورياً . ومع ذلك ، فهن يرغبن في هذا الموت لاشعورياً . ومن المحتمل أن يقلن : « إنني أتحرق من الشعور بالدونية بافناء نفسي في سبيل الآخرين » . وذلك إنما هو عصاب الاخفاق .

٤ — أو بالكارثة الكلية . فكثير من النساء ، المقتنعات بعجزهن ، يغرقن في تشاؤمية حادة . فينتحرن بصورة فعلية . ويسقط اعتبارهن لأنفسهن إلى الصفر . ولما كن عاجزات عن أن يباشرن وحدهن أي شيء مهما كان ، فأنهن ينتظرن كل شيء من الرجل الذي يغذين تجاهه عداوة لاشعورية قوية . ويعتقدن بعضهن أنهن شياطين ، فثمة من ألقى عليهن أذى من السحر . إن المسألة هنا هي مسألة مازوخية معنوية عميقة جداً . وعندئذ يرفضن أن يسندن إلى أنفسهن أدنى النجاح الذي يعزونه إلى ضرب من « المصادفة » .

ويلاحظ المرء على وجه الخصوص ردود الفعل هذه لدى نساء كانت لهن علاقات سيئة مع أمهاتهن : مع أم متعسفة وحاضنة ، وجافية الطبع ، ومطالبة ، وخائبة ، ومتشائمة ، ومع أم تفعل كل شيء بدلاً من ابنتها التي تستتج من ذلك أنها عاجزة ، ومع أم تثير أبتتها ضد أبيها ، الخ .

٢ — أحتج ، إذن أنا موجودة

هذه الصورة الأخرى من رد الفعل ، الاحتجاج المذكور ، أبرزها أدلر . فالمسألة بصورة كلاسيكية هي مسألة امرأة تباشر ، علانية وبصورة عدوانية ، أعمالاً موقوفة على الرجال عادة . ومن المحتمل ،

بنسبة ٩٠ بالمئة ، أن رد الفعل هذا يمد جذوره في عقدة أوديب (انظر فصل البنت المحصورة) .

فالمراهقة ، خلال فترة المراهقة ، صارعت ضد أبيها (إنني سأجلد حتى الموت هذا الذكر الصلف والمنيع !) ، أو ضد أمها (« إنني أرفض أن أكون ضحية كأمي . وهذا هو السبب الذي من أجله سأبذل دوري الأثوي ، وسأحوّل نفسي إلى صبي ») . وذلك ليس غير مثالين بالطبع .

ثمّة بعض المجالات المعروفة جيداً ، التي تظهر فيها هذه « المطالبة » ، مطالبة المرأة : الألعاب الرياضية العنيفة ، وسباق السيارات ، والمجالات التقنية : والإستكشافات الشديدة الخطر : الخ .

ولا بد مع ذلك من ملاحظة أن هؤلاء النساء ينفذن إلى مناطق الذكور ، لا بهدف تحقيق الذات بسرور ، مثلما يفعل الرجال ، بل بارادة عاتية أن يفعلن أفضل منهم . وقد يعتقد المرء ، للوهلة الأولى ، أن عدواتهن المطالبة موجّهة ضد الرجال على سبيل الحصر . ولكن لا شيء من هذا . والدليل على ذلك أنهم يظهرن عدوانيات ومزدرجات تجاه المراهقات أيضاً ، والنساء « ذوات الأنوثة » ، والنساء « المشبعات بعاطفة الأمومة » ، والأطفال .

ويمكن القول إن النساء يحاولن ، حين يصبحن « مثل » الرجال ، أن يتخلصن من أنوثة تخيفهن . والحال أن هذه الأنوثة تبقى حاضرة ، سواء شئن أم أئين . فهنّ إذن في تناقض دائم مع أنفسهن ، وحياتهن مشحونة على نحو لاشعوري بالحصر والألم . وذكورتهن ليست واقعية ، بل هي

وهمية (وسرى أن الذكورة الحقيقية هي شيء مختلف كل الاختلاف).
فكلما أردن أن يكنّ كالرجال ، ابتعدن عن أنوثتهن . إنهن عاجزات
عن تصور أن الأنوثة - والمرأة - يمكن أن تكونا مزيتين .

إنهن رجال خائبون ونساء فاشلات. ويتعرّضن إلى خطر أن يسرن
بائسات ودونما هدف ، في متاهات الشعور بالدونية .

ثمّة صورة أخرى من الاحتجاج الرجولي ، أكثر انصافاً بالنستر
والتخفي والقصد المبطن .

واليكم بعض الأمثلة :

— بعض النساء ينتظرن طفلاً انتظاراً يرافقه ضرب من الابتهاج
المطالب (« على هذا النحو ، سيرى زوجي أنني ، أنا أيضاً ، قادرة
على أن أفعل شيئاً ما وأني كفيّة لذلك جيداً ! ») . إنهن ، على نحو
رمزي ، يدفعن ببطنهن إلى الأمام .

— ثمّة الكثير من المواجهات اليومية : تعال ساخرٍ أمام زوج أخرق
في المطبخ أو في الأعمال المنزلية ، واستخفاف العطوف إزاء أخطاء الرجل
(« أنت قوي جداً في مهنتك ، ولكنك ما أن تخرج منها . . . ») ،
وخشونة متعالية أمام تردّد الرجل (« هل أنت ، مع ذلك ، أكبر من أن
تقرر ؟ ») ، وفرار دون قيد ولا شرط من مسؤوليات الأمومة (« لن
يفعل ابنك شيئاً غير ما تفعله ، إنه نسخة طبق الأصل من أبيه ») ، الخ.
وجميع ردود الفعل هذه واضحة على نحو تام . إن النساء يحاولن
بالمقابل خصاء الرجل معنوياً ، لأنهن يعتقدن في أنفسهن « مخصيات »

وأهن أدنى . وتلك مقابلة بالأشياء غير عادلة بالنسبة إلى كثير من الأزواج الذين لا يملكون إمكانية تغيير الوضع ، ما داموا غير مسؤولين في شيء عن المراهقة الخائبة لزوجاتهم .

٣ - حرب العصابات

إنه لتكتيك المناوشة ، سلاح تفضله كثير من النسوة . فمحاولات «التفوق» تقع فجأة . ويقع الهجوم بحركة دائبة ، ويتوقف ، ثم ينطلق مجدداً ويستأنف فاعليته في اللحظة التي ينتظر فيها الرجل ما هو أقل . وتحاصر المرأة خصمها بصبر وجرأة . إنها لا تتعجل الأمور ، وسرى أن الصبر خاصة من خواص الأنوثة . وإذا تتصف المرأة بأنها ثاقبة الفكر ، فإنها ماهرة في « مس » النقاط العظوبة لدى الرجل .

وتؤمّن حرب العصابات هذه للمرأة ، على وجه العموم ، إحساساً قوياً بالتفوق . فالمناوشات تندفع من كل مكان : ضروب من التهكم اللاذع . وملاحظات تتسم بالعطف الزائف ، ومعاینات فظة . والرجل لا يستطيع ، وقد وُضع في حالة من العجز ، إلا أن يرفع الراية البيضاء . وثمة تكتيك آخر تتحوّل فيه المرأة إلى أم - دجاجة ، تنتبه إلى أي خطر يمكن أن يهدّد رفيقها : فالزوجة تفتضي أن يضع زوجها ، لمجرد زكام بسيط ، لثاماً على أنفه . ومثل هذا السلوك يخفي ، في العادة ، ضرباً من العدوانية القوية . ولكن لماذا البحث عن التفوق يا ترى ؟ لأن «تضييق آفّس» الرجل يعني تلاشيهِ واسترجاعه «إليها» في حرارة بطنها الرطبة ، ويعني إيقاعه في الشرك ومنعه من أن يتمتع بأي استقلال . وهي : من جراء ذلك ، تحنّظ بمكان الصدارة .

٤ - الذهان الهذائي (١)

ينطوي هذا المرض العقلي أو الوجداني على مروحة واسعة من ضروب السلوك . هاكم أعراضه الأكثر شيوعاً ، التي نجدها فرادى تارة ، وطوراً مجموعات :

- عدم اندماج بالمجتمع ، يكاد يكون كلياً ، وعدوانية .
- حذر متعال ازاء أي شخص ، ومن هنا منشأ انعدام الألفة وتعذر «التلقائية» .
- غطرسة باردة .
- نَزَق حاد تعدله إجابات سريعة لاذعة .
- أفكار اضطهاد (« كل الناس يريدون الشر بي ، ولا أحد يجيني ، ولا أحد يمكن أن يحتملني . . . ») .
- عناد لا يتزعزع في الآراء التي ترسخ بصورة نهائية .
- الحاجة إلى برج عاجي يوحى بالتعجرف .
- التوحد بمشُل عظيمة وأفكار مغالية ، ببلد ، برجل شهير ، باله ، الخ .
- في المجال المرضي : تتلقى الشرطة عدداً من الشكاوى الصادرة عن نساء يزعمن بأن ثمة آلات تصوير وتنصت مخبأة تراقبهن ، وأنهن مخدرات بغاز ثمة « من » سرَّبه داخل شقة السكن ، الخ .

(١) انظر كذلك « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث . »

ويبدو الذهان الهذائي ، على الغالب ، منذ الطفولة ، ولكن من المحتمل جداً أن لا يتحول نحو تعقيدات مرضية واضحة . والواقع أن الذهان الهذائي يبقى . لدى الكثير من المراهقات والنساء ، في حدود عصائية على سبيل الحصر . لأنهن يبدن غطرسة عنيدة . وانعزالهن المتعالي كلي . وتغطي هذه الضروب من السلوك دائماً شعوراً بالدونية راسخاً ، يُستخدم الذهان الهذائي وسيلة من وسائل الدفاع ضده . « لا يجنبني الناس ؟ حسن ، سأبدو متعالية ومستخفة ، وستكون نظرتي صاعقة ، ولن أولي ثقتي أحداً ، وسيلغي احتقاري العالم بأسره ، ولن آخذ بالحسبان على الإطلاق آراء الغير . الخ » .

٥ - المأساة التناسلية

المرأة قادرة على العلاقات التناسلية وعلى الولادة ، ولو كانت باردة من الناحية الجنسية . إنها تستطيع أن « تصنع » المتعة الجسدية طوال حياتها أحياناً .

أما الرجل ، فإنه يصطدم في هذا المجال بعائق جدي . ويتعذر عليه « العش » ، إذا كان بصورة عامة عاجزاً من الناحية التناسلية . إن الصورة التي تتخذها حضارتنا تقتضي ، والحالة هذه ، أن يرهن للمرأة عن رجولته . وكل عجز في هذا المجال يثير لديه شعوراً أليماً باللونية . وسرى سبب ذلك في فصل « عضو الخدعة » .

وتتصف المرأة أنها على هذا النحو متميزة بصورة مزدوجة .

فالعجز الناجم عن البرود الجنسي لديها يجعله شريكها جهلاً تاماً ، هذا من جهة .

ومن جهة ثانية ، يمكن أن تبيح لنفسها أن تستخف بشريك يحتمل أن يكون عاجزاً ، وأن تحتفظ على هذا النحو بضرب من موقف «التفوق» .

وينسحب الرجل وهو يجزّ ذبول الخزي والارتباك ، جاهلاً أن هذه المرأة الساحرة مصابة بالعجز ذاته .

رابعاً - وضع الرجل

١ - الحنين إلى الحي

هل المرأة أمام الابداعية معوق أم مميزة ؟ نحن الآن أمام إحدى مزاياها الأكيّدة ، التي يكون الشعور باللونية هو رد فعل الرجل لإزاءها على الغالب ، دون علم منه . إن هذا الموضوع كان قد درسه كارن هورنه.

ويمكن أن نطرح السؤال على الشكل التالي :

— هل يحس الرجال بأنهم أدنى من النساء لأنهم لا يستطيعون أن يلدوا أطفالاً ؟ ولأن أي خليقة حية لا تتشكل في جسمهم ؟ ألا يثير هذا « الجفاف » في الإبداع إحساساً بعدم الكمال أو العجز أمام الحياة ؟

ليس ثمة في السؤال شيء من العبث . فكل محلّل نفسي يعلم أن عدداً كبيراً من الرجال الأسوياء يتألمون . بصورة لاشعورية ، من عجزهم عن خلق « ما هو حي » . وهذا هو السبب ، من جهة أخرى ، في أن ثمة هوة بين أساليب الرجل في تصور الموت والحياة وأساليب المرأة .

قال لي كثير من الرجال (وأنا أعيد ملاحظاتهم إلى قاسمها المشترك) :

... إننا نعمل - ونكتشف ، ونحقق الفتوحات - ونبني . نحن نحاول

أن نُخلد بأعمالنا أو بأولادنا . ولكن ما فائدة ذلك ؟ فنحن نبقى قاحلين ، ذلك أن كل هذا يحدث خارجنا .

قال لي أحد الصناعيين بالحرف الواحد : وهو الموضوع ذاته :

— بنيت مصنعاً كبيراً ، فخر منطقتي . إنه نجاحي . وقد أنتقل إلى الخلود بسبب هذا البناء والعمل الذي أقدم عليه . ولكن لدي انطباع بأن كل ذلك ، بما فيه المصنع ، لا أهمية له عندي ، ويختلف لي طعماً من المرارة . فالمصنع لم يخرج من أحشائي . . . إن رأسي هو الذي صنعه . غير أنني ماذا صنعت أنا بصورة أساسية ؟ لا شيء ، إلا أن يكون ما يهلكه الدهر . وأي دواء مسكن جميل هو !

وإذا أرهفت سمعك ، سمعت يوماً ملاحظات من النموذج ذاته .

— كيف حال الطفل ؟ قال أحد التقنيين لمخترع .

— لقد حملت أثري الفني في ذاتي خلال سنين ! (رسّام) .

— ليس في اليد حيلة : إن السيارة « مولودة » على هذا النحو (قال صاحب كراج لإصلاح السيارات إلى زبون كان يشير إلى عيب آلي) .

— فكرتني « رأيت النور » أخبراً (كاتب) .

— قاربي ؟ ولكنه هو طفلي ! (رجل كان قد اشتغل في بناء قاربه الشراعي الصغير) .

— هذه الآلة هي روعة حياتي (مهندس) .

— في الغد ، أيها السادة . ستكون ولادة الطفل (بناء يقول لمعاونيه)

الخ .

ابتسموا إذا شئتم ، ولكن اعترفوا بأن هذا الكلام كلام يصدر عن «أم» . وقد تجيبون أن المسألة لا تعدو كونها مسألة كليشيات . بيد أن الكليشيات ذاتها حبل بالدلالات .

ففي هذا الكلام اليومي : نجد :

— فكرة الحمل (« حملت أثري الفني في ذاتي ») ؛

— حب ما يُصنع (« إنها نتاج حياتي » ، « إنه طفلي ») ؛

— فكرة ولادة (« غداً . ستكون ولادة الطفل ») .

هل يعني هذا أن الرجل يعاني المرارة بسبب عجزه عن الولادة : بالمعنى الدقيق للكلمة ، مع ما يرافق ذلك من استطلاعات لامتناهية يفترضها؟ نعم . أعتقد ذلك : بل إنني واثق من ذلك .

ذلك أن المرء لا يستطيع حقاً أن يحتضن ، لكي يتوحد به ، غير ما يخرج حياً من ذاته . ولكن ماذا يمكن للرجل أن يشدّ إليه سوى الأفكار والآثار الميتة : سوى الزمن الذي يتفتت غير مخلّف أي علامة حية ، هذا الزمن الذي يصنع الحصر : حصراً يدفع الرجل إلى أن يمضي دائماً إلى ما هو أبعد ، وأعلى : وعلى نحو أسرع ؟ وماذا يبقى له غير ما يسميه شهوته إلى الفتح ، شهوة ليست سوى الخوف والدوار الميتافيزيائيين ؟ إن المسألة مسألة منطق صرف : إذا كان بإمكان امرأة أن تعتقد في نفسها أنها ليست صاحبة حظوة ، لأنها لا تتصف ببعض الخصائص التي يتصف بها الرجل : فلماذا لا يشعر رجل بالدونية ما دام لا يتصف ببعض خصائص المرأة ؟

ماذا يوجد مما هو غير سوي في أن يشعر الرجل بالدونية إزاء المرأة الخلاقة للموجودات الحية؟ إن عبارة « جسم من جسمي » لا تنطوي على أي معنى بالنسبة إلى الرجل . فقد تقول : الرجل يخلق الحياة مع ذلك ما دام يلقي بمنيّه . ولكنه يقذف بمنيّه هذا خارج ذاته ، وفي الآن الذي ينقضي ، في حين أن المرأة تسوس هذا المنيّ في ذاتها وفي الديمومة .

وتترلق خدعة في هذا المجال كذلك . يعتقد بعض النساء في أنفسهن أنهن أدنى لأنهن لا يتوصلن إلى أن « يخلقن » أشياء كالرجال . ولكنها إنما هي أشياء على وجه الدقة ، لا موجودات . وبعبارة أخرى ، إن الرجال يصنعون ، ولكنهم لا يخلقون . فمن منهما صاحب الخطوة في نهاية المطاف ؟

أمن المحتمل أن يصنع الرجال الحياة ، يوماً من الأيام ، في المختبرات ؟ هذا أمر ممكن . ولكنهم سيصنعونها وهم يعملون ، ودونما حب عميق . وسيبقى هذا الخلق ، مجدداً ، خارجياً بالنسبة إليهم . وذلك هو العائق الأبدي ، عائق الرجل أمام المرأة التي تستطيع أن تخلق دون أن تعمل ، وهي لا تفعل سوى أن تكون على ما هي عليه !

نحن الآن نفهم العبارات التي ذكرناها أعلاه على نحو أفضل ، ونفهم السبب الذي من أجله يتمسك الرجال بأعمالهم — أولادهم . إنهم حملوا في ذواتهم مشروع هذه الأعمال الأولاد ، وقاموا بحملها البطيء حتى يوم الولادة الرمزي .

٢ - لا يكفي أن « يني » الرجل

كل موجود إنساني يكابد الحاجة إلى أن يختلف أثراً . وهذه الامكانية

التي تتصف بأنها طبيعية لدى المرأة ، يبحث عنها الرجل خلال أي شيء . إنه يتمنى أن ينمّي في ذاته شيئاً ما يكون على صورته . بيد أن هذه الأشياء نسخ ميته دائماً .

ثمة بعض أصحاب الامتياز : إنهم الفنانون الذين يخلفون آثاراً وجدانية . غير أن هناك جملة الرجال الذي « يبنون » ، ويغزون المجهول ، كما يعوضوا استحالة الخلق بصورة حقيقية . إنهم بناء المدن العابرة التي تبتلعها الصحارى .

والرجال يبيدون الأحياء إذ يغزون . فبأي شيء يضايقهم ذلك ؟ يضايقهم أنهم لم يخلقوا حياة ، وابتعدوا ، في الوقت نفسه ، عن الطبيعة . وهذا هو السبب الذي من أجله قد تتوقف الحروب ، لو أن العالم كان تحت سيادة نساء هنّ نساء على نحو كلي . فكيف يمكن لمن إفناء الحياة وهن يخلقن الحياة ؟

خامساً — لماذا تشعر المرأة بأنها أدنى

١ — إنهن ملزمات بالإنجاب

يفرق بعض النساء في ضرب من الشعور العميق بالدونية لأنهن لا يستطعن الإنجاب (بعملية جراحية على سبيل المثال) . فما السبب في ذلك ؟ هل لأن دورهن الطبيعي أصبح متعزراً ؟ في الظاهر ، نعم . ولكن لأن الناس ، على وجه الخصوص ، أجبروهن ، في الأغلب ، على الاعتقاد أنهن لم يُخلقن إلا للإنجاب والتزايد والتكاثر . وكان الناس ينكرون عليهن الصور الأخرى من الإبداعية . بل إن رغبتهن المحتملة في أن لا يكون لهن أطفال ، كانت تصطدم بمحرّمات . « كيف لا يكون

لك طفل ، وأنت متزوجة ، منذ عشر سنوات ؟ » ويحدّق
« الناس » بأعين مرتابة ، كمادة من مواد القانون الجزائي .

وهل اللواتي لا يستطعن الإنجاب يتصفن بأنهن يائسات بصورة
صحيحة وعميقة ؟ نعم ، ذلك أنهن محرومات ، كما هو محروم من
عينيه رسام أعمى . وأفضل ما يمكن للمرء أن يتمنى لمن ، عندئذ ، أن
تكون حياتهن الداخلية من الاتساع بحيث تصبح كل لحظة ، بالنسبة
إليهن ، مشاركة وإبداعية . ولكن لا بد أيضاً ، من أجل ذلك ، أن
يتوقفن عن الإعتماد بأنهن غير جديرات أمام المجتمع ، وبأن الخدمة
مستمرة في البقاء .

٢ - ثلاثة ضروب من الشعور بالدونية

يمكن للمرأة أن تعاني ثلاثة أنواع من الشعور بالدونية :

أ - شعور شخصي بالدونية تثيره ظروف الحياة ، وطفولتها ،
وتربيتها ، والاسلوب الذي استخدمته في رد فعلها على أحداث وجودها .
ولكن ذلك كله صحيح على السواء بالنسبة إلى الرجال ، ولا يتصف بأنه
نوعي بالنسبة إلى المرأة .

ب - شعور جماعي بالدونية ، من جراء انتمائها إلى « السلالة »
الأنثوية . فالرجال ، والحالة هذه ، نظروا دائماً إلى هذه « السلالة » على
أنها كانت تنلر بالخطر . وسندرس هذه الظاهرة بكثير من التفصيل في
في فصل آخر . فكان لا بد اذن من تحييد هذه الأنثى التي كانت تخيف ،
ولا بد من استبعادها . وأفضل وسيلة كانت تقرير أنها أدنى ، الأمر الذي
كان يتيح ، بالإضافة إلى ذلك ، إبعادها محترمة . وهنا عُمرت المرأة :

فمهرجات الهند لم يجمعوا من الثروات بقدر ماكدتست المرأة من المديح .
وثمة نتيجة ثانية : إن النساء توصلن للاعتقاد بأنهن أدنى من فرط ما
سمعن ذلك يُقال ، واحترقن أنفسهن على المستوى الفردي والجماعي .
ولهذا فإن المرأة تسيح في الشعور بالدونية منذ طفولتها . فهل يمكن للمرأة
أن يحاول عبور مستنقع دون أن يبتل بمائه ؟

ج - عاشت المرأة دائماً وفق مقاييس ليست مقاييسها ، وهي تعيش
هذه الحال في أيامنا هذه أكثر مما كانت تعيشها بالأمس . ويصفها
غالبية الرجال بالإستناد إلى مقاييس الذكر ، دون أن يفلحوا في التحرر
من الآراء المسبقة اللاشعورية . وبتكلم كثير من النساء على أنفسهن وهن
يدركن أنفسهن وفق هذه المقاييس ذاتها ، مقاييس الذكر .

إن ارتفاع المرأة المزعوم لم يغيّر شيئاً من الوضع ، والسبب أن اللاشعور
الانساني لم يتغير . فكيف يمكن للمرأة ، منذئذ ، أن تتوصل إلى أن تقدر
نفسها حق قدرها ؟

سادساً - ما الحل ؟

لكي تتخلص المرأة من هذه الخدعة ، خدعة الدونية ، يمكن أن
نقول ونتمنى :

- أن لا ترعى ضرورياً غير موجودة من الدونية أو التفوق ، بل
أن تبقى منتبهة لعوائقها ومزاياها . فالانتباه إلى العوائق يهدف إلى إزالتها
في حدود الامكان ، وإلى أن تصبح مجدداً امرأة . والانتباه إلى الثانية
يهدف إلى أن تظل المحور المستقر والدائم ، محور الجماعة الانسانية .

— أن تعلم إلى أي حد يتصف الرجل بأنه ثلوم بدونها وأعزل .
وكما يعود المغامر إلى وطنه ، وأرضه ، وقريته ، ومنزل طفولته ،
كذلك فإن الرجل الذي يدفعه حصره إلى الفتوحات التي لا تعرف
نهاية ، يكابد الحاجة إلى محطة داخلية قرب امرأته ، وفي منزله .

— إذا كان أساسياً بالنسبة للمرأة أن تكون محبوبية وأن يُردّ
اعتبارها ، فإن ذلك ينبغي أن لا يكون لقاء انتحار داخلي ، ولا أن
تصبح نصف رجل ، ولا أن ترتدّ إلى امرأة طفل أو إلى جرادة عابرة .
وعليها عندئذ أن لا تصغي إلى أحد ، أن لا تصغي إلاّ إلى أصواتها
الداخلية .

— أن تبدأ بأن تقول لنفسها إن كل شيء مزبّف حتى ولو أخطأت .
وأن تأخذ ثانية ، في أثناء مسيرتها وخلال تجرّدها ، ما يطابق ماهيتها .
— أن تعلم أن التسامح غير المستساغ أسوأ أنواع التمييز العنصري .

— أن تنبذ عبارات العالم الراهن التي تبدأ بـ « عليك أن » ، لكي لا
تصغي إلا إلى عباراتها التي تنسجم مع ما « تقدر عليه » . ومن أجل هذا ،
أن تصل من ذلك إلى أن تقدر نفسها حق قدرها ، كبيراً كان أم صغيراً .

— أن تعلم أن أقل عطف فاعل أقوى من ألف معركة ومئة ألف
فكرة . فإذا لم يكن ثمة نساء ، إلى من سيتضرع المحارب الجريح ؟

— أن تفهم أن اختفاء المرأة يعني زوال العالم . وأن تحذر كذلك
المقدسات الجديدة ، مقدسات المردود والنجوع والواجب . فعليها أن
تظل ما وراء الأشياء كيما تحفظ بالقبعة النفيسة جداً ، قيمة الشاهد
القادر على أن يدل على القوارب التي تتقاذفها الأمواج .

— أن تفعل كل شيء لتحفظ بصحة الشاهد . فالراء لا يرى وكر النمل إذا أصبح نملة . وكيف يمكن للمرأة أن تحتفظ بذبذبتها الخاصة وهي سجيئة تشارك في صنع الاسمنت الحديث ؟

— أن تعلم أن الأبطال الحقيقيين رجال ونساء في الوقت نفسه : عطف ومعركة معاً . ولكن العطف لدى المرأة ، يتقدم على المعركة في الظهور ، فتتوقف المعركة .

— أن تعلم كم يزكو المؤنث في ضروب الحلم الأكثر تواضعاً ، وخلال ضروب الإحسان الكبيرة بمقتضى الحال .

— أن تفهم أصول إضفاء الشعور بالدونية الذي فُرض عليها .

— أن تحاول صعود مجرى زمنها الخاص لكي تتساءل : أين توقفت ؟ لماذا لم أستطع أن أصبح ما أنا عليه ؟ في أي برهة كنت الشريك المتطوع في لعبة مزيفة ؟

— أن تمنى ، مع كل شخص ، أن ينزلق العالم من القوة نحو العقل ، ومن الكم نحو الكيف ، ومن المظهر نحو الماهية :

— أن ترفض ، أخيراً ، أن تستمع إلى أولئك الذين ينادون بالغاء ما تختلف به عن الرجل ، فمثل هذا الالغاء متعذر من جهة ، وهذه الفروق ، من جهة أخرى ، مزية بالنسبة إليها وثروة بالنسبة إلى العالم في الوقت نفسه . إن عليها ، على العكس ، أن تجعل هذه الفروق الأساسية أصيلة وتعمقها ، وأن ترجع إلى أصل أنوثتها التي تتصف بأنها قوة ، وذكاء عميق ، وحكمة ، ورحمة .

ثمة ضرب من الغرابة : على المرأة ، منذ زمن بعيد جداً ، أن تُعجب الرجل الذي ينبغي أن يتملق رب عمله .

وعلى هذا النحو إنما يسحر رب عمله ، على الغالب ، بواسطة امرأته . إنه لضرب من البغاء الذي لا يعلن عن اسمه .

أصحاب النزعة العقلية يبدون بوجوه دافني الموتى . والواقع أنهم دافنو الحياة .

الأمر الذي يثير الاهتمام أن يلاحظ المرء امرأة بين أصحاب النزعة العقلية هؤلاء ، أصحاب الأفكار . إنها تدخل تدريجاً في حالة من الشرود . وتتلاشى نظراتها ولا تتابع المناقشات . وتنتظر أن ينتهي « ذلك » ، وأن تصبح المناقشات ثانية مناقشات إنسانية .

ذلك أن المرأة تعطي مليوناً من الأفكار مقابل حب صادر من القلب . إنها لا تفهم محاولات الرجال لصنع معنى للوجود . فهي ، دون إرادة منها ودون أن تعرف ، تعيش هذا المعنى .

لا يريد الرجل الحالي أن يكون لبوناً ، وهو يرفض ، حتى إشعار آخر ، أن يكون الإنسان الآلي .

إنه لحبوان معلق بين حديقتي حيوانات .

الفصل الثالث

فرويد:

منسوخ المرأة

هذا هو السبب الذي من أجله ،
ياسيدي ، كانت أبتك حرساء .
موليير

النظرية التي تتصف بأنها أكثر النظريات ، التي تناولت موضوع المرأة ، رسوخاً وديمومة وعلمية ، هي النظرية التي تنسب إلى فرويد ، لقد غزت العالم بأسره ، وتركت أثراً على المرأة بصورة قوية حتى أيامنا هذه ، ويمكن للمرء أن يتنبأ بدوام تأثيرها في المستقبل .

أعلن أحد أعضاء عائلة فرويد ، ٥ ايار ١٨٥٦ في فريبورغ ، عن ولادة ابن سماه سيغموند . ففي ذهن الرضيع ، الذي كان يتألق في بيت من مقاطعة مورافيا ، كانت قد وجدت ، بالقوة ، أكبر ثورة إنسانية - ونسائية - عرفتها جميع العصور . ثمة حياة عبقرية كانت تأخذ

انطلاقتها : إنها حياة مكتشف التحليل النفسي . وكان مقدراً لهذه الحياة أن تنظفء عام ١٩٣٩ ، وقد تركت الباب مفتوحاً لباحثين آخرين .

ومع سيغموند فرويد ، اختفت المرأة « الاختبارية » ، امرأة القرون الماضية ، وانبعثت المرأة « العلمية » من علبته ، علبة الأشباح والأسرار .

فرويد والمرأة : تكشف الكتب والمقالات التي تعالج هذا الموضوع عن اتجاهين : إما أن يجعل الناس من الفرويدية ديانة حقيقية ، وإما أن يسخروا من هذا العالم سخرية لم يسبق لها مثيل . . . هذا إذا لم يتجاهلوه بشموخ ، وكان العصر الحديث قد تجاوزه . فكيف يحدث ذلك ! هل يحتفظ فرويد بمرر وجوده في عصر الصواريخ ، فيما أن المرأة تلحق بالرجل في مصانعه التي تشبه وكر النمل ؟ هل ينبغي الاستمرار في قبول حكاياته الهائلة عن عقدة الخضاء والرغبة في عضو الذكر ؟

بيد أن هذا التهكم لا ينبغي أن نخدعنا : يبقى فرويد حاضراً مع ماله من أهمية واسعة .

أولاً - الثورة الفرويدية

١ - القبلة الموقوتة

ظهر فرويد في اللحظة التي كان يحاول تياراً ذو نزعة تناوىء المذهب العقلي أن يكمنس نمط الحياة الذي كان سائداً في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكان يسود قبل فرويد الرجال الخدوع والنساء الخدوع . وكانوا ينظرون إلى الرجل والمرأة على نحو معكوس : رأس لقدمين . كان يبدو أن الرجل الخدوع غير موجود إلا بطابقه الأول : الرأس

المفكر وصاحب المحاكمة . وكان الناس يعتقدون بسذاجة أن استخدام العقل وحده يكفي لكي يكون المرء إنساناً . وكانت هوات اللاشعور مجهولة ، وكذلك تيارات الوجدانية . وكان الفنانون والشعراء والنساء والأطفال ، وحدهم ، يبرهنون ، بأسلوب حياتهم ، عن وجود « شيء آخر » غير العقل .

وكان رجال هذه العصور يعقلون الحياة ، ولكنهم لا يعيشونها . ومع ذلك ، ثمة أصوات كانت ترتفع . وكان المذهب السريالي يقرع الأبواب ، وبعض المثهورين يحاولون التعبير عن وجودهم العميق .

وكان يبدو أن المرأة الجذع غير موجودة إلا ببطنها ، مصدر الإخصاب الالزامي والملذات المحرّمة . وقتما كان رأسها يؤخذ بالحسبان ، اللهم إلا على أنه تابع تزييني ، أجوف بالتأكيد ، ودونما نفع معترف به .

فسر المرأة الخفي كان محترماً أو مبالغاً في إطرائه . وكما يرى المرء ، لم يتغيّر أي شيء في أيامنا هذه .

وصل فرويد في الوقت المناسب ، في الفترة التي كان بعضهم يدرك أن العقل المحض ليس ثروة ؛ بل إفقار وعُصاب .

ونحو عام ١٨٩٠ ، أشعل العالم الفتيل . فقبل فرويد ، لم يكن الناس يعرفون المرأة أبداً . وكان لا بد من علم نفس الأعماق للدراسة قرقرة الحياة الوجدانية ، والغزائر والإحساسات . وبالتدرّج ، صنع علم النفس طرق اللاشعور الكبرى ، وشاخصاته ؛ وحدوده الكيلومترية .

وعلى هذا النحو إنما حاول التحليل النفسي الفرويدي ، مسبروسونار*
للتنصت على النفس الإنسانية ، أن يلتقط المرأة .

ولكن المرأة هذه سقطت من علي . ذلك أن عالم النفس الأول ،
كان قد جازف ، بالنظر إلى أنه رجل ، في وصف المرأة على أنها طباق
الرجل .

ومع ذلك ، كانت مفاهيم التحليل النفسي تنتشر في كل مكان :
عقدة . وعصاب ، وأنا عليا ، ورغبة في العضو المذكور . واستخدم
الناس هذه المصطلحات خبط عشواء ، ودفعت المرأة الثمن (١) .

٢ - المرأة أدنى لأنها مخصية

وعلى الرغم من بعض المظاهر الخارجية ، لا يزال كثير من النساء
ينخدعن بخدعة الدونية :

- نحن ضعيفات وتابعات ، يعتقد النساء . فمن المتعذر أن « نساوي »
الرجل ، ولا نستطيع في ذلك شيئاً : تلك هي طبيعتنا . إن قدر الرجال أن
يملكوا القوة والمجد . فنحن موجودات مشوهات ، ومخصيات ،
ورجال خائبون . . .

هذا إن لم تستل المرأة سلاح الحرب ، لكي تصبح « كالرجال » ،
ولكنها وهي تنسى ، بالتالي ، أن تصبح امرأة .

ومن الملاحظ ، من جهة أخرى ، أننا ، حتى الآن ، لم نحدد بعد
ماذا يعني أن يكون الإنسان امرأة أو رجلاً . ونحن سنعود إلى ذلك .

(*) Sonar : جهاز لكشف الأشياء تحت الماء بواسطة موجات صوتية « م » .

(١) انظر « انتصارات التحليل النفسي » .

وإذ كان فرويد يسمع هذه اللامات ذاتها ، حين كان يحلل بعض النساء تحليلاً نفسياً ، تساءل عن السبب الذي من أجله كان هؤلاء رأي إلى هذه الدرجة من التفاهة عن أنفسهن .

كان فرويد يتصور أنه لا بد من وجود باعث عميق لذلك . فليس للذة بعد كل حساب ، إنما يحطّ النساء ، على هذا النحو ، من قيمة وضعهن الخاص . ولكن لماذا ؟

وتساءل فرويد فيما إذا لم يكن هذا الاحتقار الذاتي ، عدم الثقة هذا تجاه أنفسهن وتجاه زميلاتهن ، ناشئاً من عائق بيولوجي .

وفرضت الفكرة نفسها على العالم واتخذت صورة . وافترض فرويد أن كل امرأة ، من ولادتها حتى موتها ، ترغب بصورة لا شعورية في أن تكون رجلاً . وعليه ، فإن الحاجة إلى أن يكون لها « علامة القوة » لدى الرجل ، العضو المذكر ، تعذبها . وثمة نتيجة أخرى : إن المرارة الناشئة من اعتقاد المرأة أنها مخصية من الناحية البيولوجية تنهش المرأة بلا رحمة إذن .

والنتائج المترتبة على ذلك ، في رأي فرويد دائماً ، هي :

أ — الليبدو ذو ماهية مذكرة .

ب — العضو الجنسي الأصيل الوحيد هو العضو المذكر ؛ أما عند المرأة ، فإنه البَطْر ، ضرب من العضو المذكر المصغّر .

ج — ليس للمرأة جنسية حقيقية .

د — المرأة موجود مخصي ومثقوب : شبيه بالعدم .

فالمرأة ، بحسب هذه النظرية ، موجود « دون جنس » إذن . وهي ، من جهة أخرى ، تريد أن تبلغ المحال : أن تكون رجلاً ، أن يكون لها العضو المذكور .

وحالة المرأة كانت غير ممكنة الحل إذن ، وخلص فرويد إلى نتيجة مفادها أنه كان من الأفضل أن « يذهب المرء إلى صيد السمك » (كذا) بدلاً من محاولته أن يقنع المرأة بالتخلي عن رغبتها ، المتعذرة التحقيق ، في أن تكون رجلاً .

ومهما يكن من أمر ، فإن المرأة كانت قد أصبحت « مشوهة » بمرسوم علمي : إنها ضرب من نصف موجود ، ضرب من رجل غير تام ، محكوم عليها بالضعف إزاء وضعها وبالغيرة إزاء الرجل ، « مالك العضو المذكور » .

كانت وثيقة فرويد قد دفعت المرأة نحو العطالة والتبعية واللا إبداعية . فكيف لم تكن المرأة تعاني الحاجة ، في هذه الشروط ، إلى خصاء الرجل بدورها ؟ والواقع أن المرء يلاحظ ، على الغالب ، أن ثمة نساء يحاولن « تشويه » الرجل بضروب من المزاح الخادع أو التهكمي ، أو أنهن كذلك يحاولن استلام القيادة وإجبار الذكر على أن يستسلم دون شروط . فنحن بصدد نساء « قضيبات » : وستنح لي فرصة العودة إلى ذلك .

كانت نظرية فرويد تؤكد أن عائق المرأة الطبيعي وبيولوجي : فهو إذن غير ممكن الشفاء ، ونهائي .

ثمة سؤالان يطرحان نفسيهما : هل نظرية فرويد لا تزال تؤذي المرأة الراهنة ؟ وهل فهم الناس ما كان فرويد يريد قوله فعلاً ؟

٣ - الحضور « الخفي » لفرويد

أ - فرويد في أيامنا هذه

كانت تؤكد لي زوجة طيب ذات نزعة فكرية قوية ، وتدخن خمسين لفافة من التبغ الأسود يومياً : « فرويد؟ ولكن تجاوزه الزمن ! » والواقع أنها كانت إبانة حية لنظريات فرويد : كانت تسحق زوجها وتعامله على أنه أنثى ضعيفة ، مبيّنة على هذا النحو إلى أي حد كانت تحقر النساء (وإذن ، تحقر نفسها) . إنها ، من الناحية الرمزية ، كانت ذات عضو مذكر . وإذا كان فرويد قد أصبح مهجوراً ، فإنها كانت تركز وراءه .

كان فرويد ، ولا يزال على نحو كبير ، مبدع ضرب من الديانة العلمية . ويستمر ظلّه الهائل في السيطرة . ونظرياته انتشرت انتشاراً سريعاً وأذيعت وفُسرّت . وبقيت الصحف الواسعة الانتشار ، والسينما ، والمسرح ، والاعلان ذاته ، متأثرة بفكر فرويد ؛ وعبارة : « إنه فرويدي جداً » تتردد في كل مناسبة على شفاه اللذين يترددون على الصالونات . بل إن من لم يسمع أي كلام على فرويد متأثر بهذا المناخ .

كانت المرأة دائماً موجوداً من الدرجة الثانية . وكان فرويد يؤكد أنه لم يكن ثمة إمكان لأن يكون الأمر على خلاف ذلك ، إذا تكلمنا من الناحية البيولوجية . وسواء كانت النساء مثقفات أم غير مثقفات ، فقد انطلت الخديعة عليهن ، وانطلت على الرجال أيضاً ، بالطبع . وعلى هذا النحو صبّ فرويد في البيتون الحديد بنية المرأة القديمة ، البنية الرخوة . لم يكن ثمة من جدوى : كل محاولة تقوم بها المرأة ، لكي « تصير » ،

كانت — من الناحية البيولوجية — محكوم عليها بالفشل . لقد كانت مثبتة على حائط الموجودات الخائبة .

يضاف إلى هذا أن تعليم نظريات فرويد في الجامعات كان خيبة أمل بالنسبة إلى الطالبات الباحثات عن استقلال اجتماعي وفكري . وانسدّ باب مستقبل النساء ، الذي كان من قبل موضع الشبهة ، وأصبح طريقاً مسدوداً .

ويلاحظ المرء حالياً أن عدداً من النساء انسحبن ، بعد أن عملن في الخارج ، وولن الشهادات العليا الرائعة . وبكل بساطة : عدن ليقفن أنفسهن على منازلهن . وينبغي أن لانستخلص من هذا على نحو سريع جداً أن نظريات فرويد قضت على هؤلاء النسوة اللواتي يرين أن العمل الوحيد المقدر لمن هو البقاء « في الداخل » . وسنرى أن ثمة بواعث أخرى ، أكثر عمقاً بكثير .

ب — ما سمعته في الشارع :

يكفي للبرهان على الحضور « الخفي » لفرويد أن نجمع بعض عناوين المجلات ذات الانتشار الواسع :

فرويد قتل المرأة !

فرويد نسي المرأة !

فرويد يستمر في فتكه !

فرويد عدو المرأة !

المتحيزات لمطالب المرأة ضد فرويد !

أما فيما يتعلق بالشارع ، بحصر المعنى ، فلا بد من كتاب حتى أجمع ما استطعت أن أسمعه عن اليمين واليسار . وإليكم بعض العينات :

ما سمعته في سيارة كبيرة

كانت سائقة السيارة ، امرأة مسترجلة وفق المراد ، قد تجاوزت سيارة نقل عام تقودها ، قيادة مثالية ، زميلة لها ، امرأة جميلة هذه المرة .

— لا بأس بها ، لا بأس بها ، دملعت المرأة الأولى التي كانت على وشك أن ترفع إبهمها . ولكن هذا لا يمنع من أنها ، في حالة توقف طارئ أو حادث مؤلم ، لا تتصرف بما يجب ، أليس كذلك ؟
وانفجرت ضاحكة ، وغمزت بعينها أحد الركاب ، ثم ردّدت :
أليس كذلك ؟

وأجمل ما في الأمر أن الراكب احمرّ خجلاً أمام هذه المرأة التي كانت تتبرج رمزياً بالعضو المذكر ، وتحتقر زميلتها « الضعيفة » التي كانت ، بوصفها جميلة ، مصنّفة بصورة آلية على أنها لا تملك العضو المذكر .

ما سُمع في الويف

ثمة امرأة ، قوية كأنها جندي مدرب في أعمال التحصينات ، طويلة القامة ، مكنترة كلها بالعضلات ، كانت تصرخ عالياً ، وكأنها تنفخ

في بوق ، برجل (زوجها) طويل القامة ، نحيل الجسم بصورة تشير
الشفقة :

— لو كنت رجلاً لأريتك !

إنها كانت جديرة بقلم دوبوء . لقد كانت تتصرف و « كأنها رجل » .
ولكن زوجها بقي مقدساً لأنه كان يملك العضو المذكور الذي كانت
محرومة منه . ذلك أنها كانت من جراء ذلك مخضية ، ولم يكن لها ،
إذن ، أي حق . فاستبدلت الصوت بالحق .

ما سُمع تقوله ممرضة

أي نساء طبيبات هؤلاء ! لو أنه يُعطى لمن « زوجان » من الهرمون
المذكر ، لسارت الأمور على خير ما يرام !

إنها لمأساة من ثلاثة فصول . فهذه الممرضة ، من جهة ، تحقّر
جنسها الخاص (مضمونه : الذي لا يملك العضو المذكور) . وهي ، من
جهة ثانية ، ضد الرجل ، الأمر الذي يتصف بعض الشيء بالتناقض .
وأخيراً ، تتمنى لـ (النساء الطبيبات) هرمونات يذكر عددها ، في ذهنها ،
بالخصيتين .

قالت امرأة كانت تلاحظ رجلاً متردداً :

ذاك الرجل ، إنه امرأة حقيقية !

... كلام نكتشف من خلاله احتقار جنسها الخاص .

(*) دوبو (ألبير) Dubout : رسام فرنسي هزلي ، ولد في مرسيليا عام ١٩٠٥ .

تتميز المشاهد التي رسمها بأن ضروب المجون تبعث فيها الحياة « م » .

هل أصبح أناس الشارع فرويديين ، أو أنهم كانوا كذلك دائماً ؟
ذلك أننا ينبغي أن لا ننسى أن فرويد صاغ نظريته بحسب ما لاحظته في
عصره .

ج - أمثلة أخرى

لماذا تستشيط غضباً فلانة ، امرأة طيبة ، عندما يناديها أحد الناس
الدكتور س ؟ ولماذا هذه التسمية المضحكة السيدة الدكتور ؟ ليس
لكامة وزير بالفرنسية ، أو ليس لها بعد مؤنث (باللغة الفرنسية) . فنسمع
الناس يقولون لساء وزيرات (بالفرنسية) السيدة الوزير ، بل السيد
الوزير . وما قولك بهذه القائدة التي كانت تقتضي أن تسمى : السيدة ع ،
« مدير » ... ، وكانت ترفض كلمة « مديرة » ؟ وهذه المرأة الأخرى
التي كانت تكتب على بطاقات الزيارة الخاصة بها : السيدة ص ، المدير
الشرف !

يمكن أن نلاحظ هنا أيضاً :

أ - احتقار المرأة بصفتها امرأة .

ب - أن اللغة الراهنة ، ذات الأساس المذكر ، لا تتيح للمرأة
أن تحدّد موقعها ، ولا أن تصف نفسها من حيث هي امرأة .

الأمثلة كثيرة . فكلمة « طبيب » (بالفرنسية) ليس لها مؤنث .
فنقول امرأة طبيب ، الأمر الذي يعدّ غير منطقي ، ويرغم المرأة الطبيب

إلى أن تحدّد نفسها بالنسبة إلى الرجل . ونقول (بالفرنسية) امرأة مهندس معماري ، امرأة مهندس ، امرأة رسام ، امرأة أستاذ ، الخ . وقد يكون من المثير أن يستعرض المرء شتى المهن : فقد يدرك إلى أي حد يتصف المعجم بأنه يضع المرأة في المستوى الثاني .

ء — الإعلان

بعض الإعلانات تبلغ حد الهذيان . ففي التلفزيون . على سبيل المثال ، ثمة أصوات ، أصوات رجال ونساء ، تصبح من الرقة بحيث تضيفي الصفة الجنسية حتى على الماء المعدني .

نصب عيني إعلان عن ألبسة الرجال . إنها ألبسة مخصصة للرجال الذين يتصفون بأنهم رجال حقيقيون ، وهم فخورون أن يكونوا كذلك ، الأمر الذي يفترض بالتأكيد أن هؤلاء الذي يلبسون السروال الصغير يحتقرون أولئك الذين ليسوا رجالاً ، أي يحتقرون النساء والحالة هذه ونقرأ كذلك أنهم (أي الابطال ذاتهم ، ولكن بالسلب (*) هذه المرة) يرفضون ارتداء السراويل النسائية ، ولكنهم لا يقبلون أن يرتدوا غير السلب الذي صمّمه رجال في حالة غضب (ولا يشير القول ممن هم غاضبون) (١) .

(١) لن أتكلّم على مناخ الجنسية المثلية لهذه الاعلانات ، مناخ سيكون تحليله أطول من أن يتم هنا .

slip (*)

أمن الواجب أن نشير إلى أن كل هذا يقع حوالي السنة السادسة من
العمر العقلي ؟

في إعلان آخر عن شفرات الخلاقة ، يتحدّد الرجل بالسرعة والقوة
والمخاطرة والولع والمغامرة . ويستخلص معلن الاعلان لنا ، ببسالة ، أن
شاري شفر الخلاقة ، من أجل الخلاقة الصباحية . يجد ثانية سلوك رجل
المسافات الكبيرة . ويتابع المعلن . وهو طافح بالطفالة(*) ، مدّعياً أن
رجلنا الأحمق المغرور يوجّه عناية لاختيار شفرة حلاقته تساوي العناية
التي يوجهها لشراء سلاحه . . . إنه لأمر رائع حقاً !

وتفوص الإعلانات أيضاً في « الأسرار النسائية » بضرب من المشاركة
الترانيمية على نحو تام . فنجد بلا نظام : الابتهاج الخفي الذي تشعر به
المرأة وهي تحس الأنظار متعلقة بوجهها تعلق الفراشة بالشمعة ، أو أن
المرأة تُعرض على أنها فاتنة ، ومقلبة ، ونزوية ، ومثيرة ، وفريدة ،
ومخيفة . ثم تصبح المرأة الماكورة ، الغامضة حتى طرف أظافرها ، التي
يصورونها على شكل مخالب قاطعة وحمراء .

(*) طفالة (infantilisme) : هي ، من الناحية الجنسية ، توقف النمو
خلال مرحلة الطفولة . فقد يكون لهذا التوقف انمكاسات نفسية ، كما في الطفالات الناجمة
عن أمراض الغدد ، وقد لا يكون : للفردي ، في هذه الحالة الأخيرة ، قامة قصيرة ، ولكنه
يبقى ذا جسم متنسق ومتوازنا من الناحية النفسية .

والطفالة ، من الناحية السيكولوجية ، تخلف وجداني ، كما هو الأمر في الحبل والعقد
والمصائب . فالفردي سوي من الناحية العقلية أو قد يكون متفوقاً من ناحية الذكاء ، ولكن
وجدانيته نبغي متعلقة بأحداث انقضت منذ زمن بعيد . وقد تكون التربية التي أسبى فهمها ،
على الغالب ، سببا من أسباب الطفالة السيكولوجية . « الانتصارات المذهلة لعلم النفس
الحديث » ، بيير داكو ، القسم الثاني ، ص ٢٧٩ ، ترجمة وجيه أسعد .

ثم هناك السيارات (من الجنس المؤنث كما يعلم كل شخص)
المخصصة للذكور الذين يقهرونها . هو ذا اعلان يتحدد فيه السائق كما
يلي : عيناه القويتان ، اليوديتان ، كانتا تثقبان الظلام الدامس . وبعد أن
بُعرض هذا الاله الذي لا يُغلب ، تُقدّم السيارة : إنها تطيع كمنوره
ليئة مروضة ، في حين أنها تفرز ببطء رجلها المهيمنة . . . (في أي
شيء ؟) .

على هذا النحو اذن :

— يعتقد مجتمعنا أنه يكرم المرأة حين يقول إنها تفكر وتتصرف
« كالرجل » . ويظن أحد الرجال أنه يتملق امرأة حين يؤكد لها : « إنك
جديرة بأن تكوني رجلاً » . ومضمون تأكيده هذا : على الرغم من
أنك امرأة ، فأنت تساوين أكثر من ذلك .

— أما العكس ، فغير صحيح على الإطلاق . فهل يتصور المرء
أحداً يقول باعجاب إلى رجل من الرجال : « إنك جدير بأن تكون
امرأة ؟ »

— من المأثور أن يكون المرء حازماً كالرجل ، وليس كالمرأة
إطلاقاً . ويُقال كذلك : رجل شجاع وامرأة شجاعة . ولكن الناس
يصححون : « امرأة شجاع كرجل » ، دون أن يقولوا أبداً : « رجل

شجاع كامرأة » ، الأمر الذي يعني أن الشجاعة تظل صفة من صفات الذكر .

— يُقال : « إنه لجان » ، ولا يُقال ، أبداً على وجه التقريب :
إنها جبانة » . والامثلة التي عرضتها مبتدلة . ولكن اعترفوا أن ثمة ما
يُضحك عندما يزعم الناس أن المرأة نالت « استقلالها » في العالم الراهن .

٤ — التحليل النفسي والمرأة

آ — النزيمون والقناصون

إنني أتذكر حكاية ممتعة . كان ثمة محلل نفسي يرفض رفضاً مطلقاً
أن يبقى أحد المرضى جالساً في أثناء جلسة تحليل . وكان يقتضي من كل
من يطلب استشارة أن يتمدد على الديوان . دون أن يأخذ بعض الظروف
الفردية بالحسبان .

ومنذئذ سُمي **الديوان المخيف** ، رجل نزيم ، كما ترون . وثمة
كذلك عدد من المحللين النفسيين الذين يستمرون في تبني آراء فرويد
الخاصة بالمرأة تبنيًا دقيقاً .

ومع ذلك ، ثمة بعض القناصين المنفردين - محللين نفسيين من رجال
ونساء ، الذين يبدوون بعض الرببية . فقد حدث الشجار على عدة جبهات ،
ولكنه - على العكس ، لا يستقص شيئاً من عبقرية فرويد .

كان فرويد ، شأنه شأن كل موجود إنساني . مشبعاً بالأفكار النمطية
الثابتة السائدة في عصره ، وبعض الآراء المسبقة العريقة في القدم .
وتمثل «المرأة» ، منذ الأزل ، سرّاً كتيماً ، غامضاً ، غير معروف .

وهي كذلك في أيامنا هذه . لا من الناحية العلمية ، وإنما من الناحية الوجدانية . وحسب المرء أن يفكر بالرمزية الغزيرة التي تحاطب بها المرأة (انظر فيما بعد) .

كان فرويد سجين ثقافته . فالأسلوب الذي يصف به المرأة بمثل طبقة اجتماعية معينة في القرن التاسع عشر . ولم يستطع فرويد (وهذا أمر يمكن فهمه) أن يدرس المرأة في ذاتها . ولكنه فحصها وقد انطلق من الرجل واختاره مقياساً .

ب - الاسقاطات الاشعاعية السلبية

انتشرت نظريات فرويد كما ينتشر الضباب الدردي . وعانى العالم بأسره من نتائجها . وتأثرت بها التربية وعلم الاجتماع تأثراً قوياً . وتم تفسير التاريخ من خلال فرويد . والتهم كثير من علماء النفس نظرياته ، وحاولوا تطبيقها ، بالقوة على وجه التقريب : على مرضاهم . وعانى التأثير نفسه عدد من المرشدين ، في مجالي الأسرة والزواج . ففي ذهنهم أن النظرية أصبحت أمراً مفروضاً ، فانعكست على طالبي النصح وطالباته .

إن الدور المتروض على المرأة . الدور القديم جداً ، أصبح ثانية ضرباً من الجدة : ولكنها جدة موسومة بخاتم العلم .

ها هو ذا مثال من مئات الأمثلة : تتصف امرأة ببعض الترعات «المحافظة» . هذه الصفة استحالت إلى عطالة جسدية ونفسية . واختفى التمييز بين سلبية المرأة (التي تتصف بأنها استطاعة كما سئى) وبين العطالة . واعتقدت المرأة أنها عاجزة عن أي شيء يتصف بأنه « خاص

بالرجل . « وقد حسبت ، ولو أنها كانت متمردة . أن سلطان انذكر
كان يمسك : وحده وفي جميع الظروف : مفاتيح المعرفة والسلطة .
فماذا كان بإمكان المرأة أن تفعل غير أن تنحني أمام عبقرية الذكر ؟
كل ذلك لم يكن من فعل فرويد ، ولكنه فعل ضروب من الشيوخ
الخرقاء أو غير المفهومة .

وماذا عن فرويد ؟ لقد عُرِي إليه أنه أكد بصورة جازمة ما لم يكن
غير أمر مفترض . الأمر الذي كان يعاني منه . وأنجبراً ، وجته بعضهم
إليه المسبة لتحويله تواضعه ، تواضع العالم ، إلى ضرب من النزعة السلطوية
التي لا رجعة فيها . أما المرأة ، فاستمرت تعاني ذلك .

وكان فرويد ، من جهة أخرى ، يؤكد أيضاً اعتقاده بالثنائية
الجنسية الانسانية : كل موجود إنساني يتسم بأنه أنثى وذكر على السواء ،
وكان لا بد من أن يكون ذلك نقطة انطلاق لسلسلة طويلة من الكشوف
العلمية والسيكولوجية . وعلى هذا النحو . كان ثمة إمكان للنظر إلى
« الفرق » بين المرأة والرجل على أنه فرق ضعيف نسبياً . وكان قد أصبح
ممكناً ضرب من التقارب الذي يتصف بأنه أكثر حرية وأكثر انسجاماً
وسأتكلم على هذا مفصلاً فيما بعد .

٤ - المرأة موضوع لعبة رمي الدمى

١ - ما يعتقد النساء

عندما تكلم فرويد على الرغبة التي تعانيتها المرأة في أن تكون رجلاً ،
وأن يكون لها عضو الذكر . كان يقصد ضمناً أن هذه الرغبة ، في أكثر
الأحيان ، رغبة لاشعورية . ومع ذلك ، ثمة أسئلة شتى تطرح نفسها :

إذا كان فرويد مصيباً : فهل المقصود جميع النساء ، أم النساء العصائيات على سبيل الحصر ؟ إن بعضهن . على سبيل المثال ، يحملن تحت ألبستهن عضو ذكر مصطنع . ويبول بعضهن واقنات ، مستعملات زجاجة قنديل . أو أي شيء آخر يشبه عضو الذكر .

ففي الحالة الأولى ، نحن أمام سلوك مرضي على نحو واضح ، وأمام وضع يقصد . في الحالة الثانية ، تقليد وضع الرجل ، ولكن على نحو أكثر اتصافاً بأنه سوي .

ومن جهة أخرى : هل ترغب النساء في أن يكون لمن عضو الذكر من حيث هو عضو ، أم ترغبن ، بصورة أكثر بساطة . في أن يكن رجلاً . وذلك لأسباب شتى ، وليس عضو الذكر في هذا المجال غير رمز ؟

سألت نساء سوييات : هل تأسفن لأنك امرأة ؟ هل تريدن أن تكوني رجلاً ؟ ، فحصلت على الإجابات التالية :

الزمرة الأولى : سيكون ذلك أسهل من الناحية الاجتماعية .

الزمرة الثانية : نعم ، إنهم يتمتعون بجميع المزايا وسيتمتعون بها دائماً .

الزمرة الثالثة : نعم ، فالرجال أنظف ، إذا تناولنا الأمر من الناحية الطبيعية .

الزمرة الرابعة : لا بد من أن تكون رؤية الأعضاء الجنسية أكثر مدعاة للاطمئنان .

الزمرة الخامسة : لا ، فنحن سميدات بوضعنا الأثوي . إنه وضع يزودنا بمزايا بعيدة الغور ، ذات علاقة بالوجود .

الزمرة السادسة : لا ، ومع ذلك فإن المذكر ذروة ينبغي أن نحققها في ذواتنا .
ماذا تعني هذه الاجابات ؟

الزمرة الأولى : الاجابة مبتذلة ، مبنية على أولية الذكر الثقافية .

الزمرة الثانية : الاجابة أكثر إبرازاً للفروق الدقيقة . لماذا « يحظى الرجال دائماً بالمزايا ؟ » . ويبدو أن المسألة ، بالنسبة إلى هؤلاء النساء ، ليست مسألة عنصر ثقافي . بل هن يقصدن ضمناً ، ولا ريب ، أن « الرجال أقوى وأذكى ، وسيجدون أنفسهم دائماً أعلى من المرأة ببعض الدرجات » . ولا بد من الاشارة إلى أن المرء لا يكتشف هنا أي عداوة .

الزمرة الثالثة : تلحق هذه الزمرة بالزمرة الرابعة . وينظر هؤلاء النساء إلى أعضائهن الجنسية على نحو يحطّ من القدر .

الزمرة الرابعة : تتطلب هذه الزمرة شروحات واسعة ، وسأعود إليها .

الزمرة الخامسة : يفهم هؤلاء النسوة إلى أي مدى « تربط » الأنوثة موجوداً إنسانياً بما يحيط به .

الزمرة السادسة : إن « الرجل » ليس هو الذروة ، بل هي « المذكر » الذي يوجد في كل موجود إنساني : أياً كان جنسه . وأرى نفسي ملزماً ، مرة أخرى ، بأن أحياكم إلى ما سيأتي فيما بعد .

٢ - هل كان فرويد مصيياً ؟

أ - المناخ العام

يُقال إن الضاربة على الآلة الكاتبة - لدى كاتب العدل في الريف - لا تعرف من فرويد غير اسمه . وإن الكاتب الرابع في كتابة العدل يجهله بالمقدار نفسه . ومع ذلك ، يتصف هذا الكاتب بأنه مغتر على نحو خفي بتفوقه - تفوق الذكر . وتبقى ضاربة الآلة الكاتبة الموما إليها مقتنعة ، في قرارة نفسها ، أنها « أدنى » من الكاتب الرابع في كتابة العدل .

ومن المؤكد أنهما لم يندرسا فرويد ؛ ولكنهما يسبحان في جوه مع ذلك. لقد قلنا إن فرويد كَوّن « ديناً » جليداً للموجود الإنساني . فالمرأة الملحدة الغربية ، التي لم تقرأ سطوراً واحداً من التوراة . لن تندهش ، (واو أنها تتهكم) ، من أن نجد مسمكة مغلقة يوم عشتروت ، وأن تسمع أجراس أيام الأحد ، وأن ترى قلداساً منقولاً على التلفزيون . ولم يسبق لهذه الملحدة أن تصفحت بسرعة أعمال الجامع الدينية . إنها مطلعة على هذا الأمور كيفما اتفق . ودون أن تقصد ذلك : فهي تعيش في المناخ العام لهذه المناظرات الكبرى التي تدور حول المسائل الكبرى ، ومعلوماتها ليست مستندة إلى وثائق . وهذا إذن أشد خطراً بكثير .

وقس على ذلك بالنسبة إلى فرويد .

سمعت امرأة تعلن خلال مناظرة علمية : قيل إن المرأة تشعر بالإحباط من أنها محرومة من عضو الذكر . إنه لأمر ممكن ، ولكن . . . من هو هذا « القائل » الذي يصل إلى هذه الدرجة من الخفاء بحيث يصبح

كلي الحضور؟ وهذه العبارة « إنه لأمر ممكن ، واكن . . . » ، ألا تدل على ضرب من الريبة ؟

ثمة امرأة كانت قد ارتكبت ، خلال مناظرة أخرى ، فلتتي لسان مهمتين ، تعبّران جيداً ، على ما أعتقد ، عما كانت تحس به بصورة لاشعورية .

١ - في معرض إشارتها إلى أن كثيراً من الأزواج يعيشون معاً خلال خمسين سنة ، بفضل إطالة سني الحياة ، أضافت : « لو لم تكن المرأة ناضجة ، لما تسنى لها أن تكون رفيقاً مهما » .

لماذا غذا الإضفاء ، لإضفاء صفة المذكر على المرأة ! لماذا لم تقل « رقيقة » في حين أنها كانت تدافع عن المرأة ؟

٢ - قالت أيضاً : إن خاصية الإنسان (*) وجدارته يكمنان في السيادة على وضعه الفيزيولوجي .

غير أنها كانت تتكلم ، والحالة هذه ، على وضع المرأة الفيزيولوجي ، ويمكن أن نتساءل ، حتى لو رفضنا فرضية أنها كانت ترغب في أن تكون رجلاً : لماذا كانت تستعمل الحد العام « إنسان » بدلاً من « الموجود الإنساني » ؟

يقال إن ذلك كله عرضي وسليم ، وأنا أوافقكم على ذلك بطيبة خاطر . ولكن تفصيلات من هذا النوع إنما هي التي تساعد على خلق المناخ العام .

(*) استعملت المرأة في حديثها كلمة « Homme » التي معناها « رجل » أو « إنسان » .

ب - المرأة مرفوضة من حيث هي امرأة

إذا كان فرويد مصيباً ، أليست حالة المرأة حالة غير ممكنة الحل ؟
ذلك أمر صحيح كل الصحة .

١ - لا تملك المرأة أية صوة من الصوى الشخصية. فهي لا تتحدّد.
بصفتها امرأة ، وإنما بالقياس إلى الرجل . إنها إذن (بقضاء وقدر وإلى الأبد) رجل « ينقصه شيء ما » ، أي : ينقصه عضو ذو رمزية واسعة .
إن أي امرأة ، من وجهة نظر فرويد ، لا تستطيع أبداً أن تتساءل :
« من أنا ؟ » ، بل تستطيع على سبيل الخصر أن تتساءل : « من أنا بالقياس إلى رجل ؟ »

٢ - إن غالبية ضروب العُصاب والحصَر لدى المرأة ، وصعوبات الحياة والاختناقات ، تفسرها رغبتها ، التي لا يمكن تحقيقها ، في أن تكون رجلاً . الأمر الذي يعني أن أي امرأة لا يمكن أبداً أن تكون راضية بوضعها رضياً عميقاً .

٣ - والمرأة ، في جميع الأحوال ، مغمورة بصورة مباشرة ، منذ ولادتها ، في عالم الذكر : وهي مغمورة في أيامنا هذه أكثر مما كانت عليه بالأمس .

عرفت رجلاً كان يقول لابنته : « من الطبيعي أن تأخذي أكثر من أخيك ، إذ أنك محرومة من المزايا كونك امرأة » .

إنه لم يكن يوضح ما إذا كانت ابنته محرومة من المزايا بيولوجياً أو حضارياً . ولكنه كان يعتقد أنه يقول الحقيقة ، وكان يريد ، بكل صدق ، أن يُقسط بينهما . والواقع أنه كان يسلك أسوأ أنواع سلوك

التمييز بين الجنسين . وباسم تفوق الرجل ، كان يُغرق ابنته في الشعور بالدونية .

قالت لي ابنته يوماً : « أعطاني أبي سيارة قبل أن يكون لأخي سيارته . كنت أشعر بأنني بولد متخلف يطلب عوناً أوسع » .

ح - استخدام فرويد ذريعة

رستخ فرويد إذن ، بصورة علمية ، التقابل القديم بين الجنسين . لم يكن ثمة شيء قد تغير ، ولكن ثمة شرحاً كان قد قُدم ، شرحاً كان يشير إلى أي حد كان الوضع محتملاً .

يضاف إلى هذا أن ذريعة رائعة تكمن في هذا الوضع ، بالنسبة إلى الكثيرين . إنه لضرب من الارتياح الكبير ، في الواقع ، أن يكون المرء قادراً على الارتكاز على مثل هذا السلطان ليقول : « يؤكد فرويد ما كنت أعقده ، إنني محق إذن » .

فاذا كان الرجال بحاجة إلى الاعتقاد بأولية الذكر ، فإنهم يتبنون بحماسة أفكار فرويد . وعندئذ :

١ - يمكن للرجل أن يحتقر المرأة علانية ، إذ ينظر إليها على أنها «صابة بالإحباط» من الناحية البيولوجية . فهو يفكر بأن النساء مخصيات مهما فعلن . إن هذا يلائمني ويطمئني .

٢ - الخوف والرهاب ازاء المرأة يضعفان : « لماذا لا أزال أخاف المرأة ؟ إنني قمة التراتب الانساني ، اذا تكلمت من الناحية العلمية . وتظل المرأة في منتصف الطريق . وقد أعاد فرويد وضعها في مكانها دونما اعتراض ممكن . ومن المضحك أن أخشاها » .

أما فيما يخص النساء : فان باستطاعتهم أيضاً أن يجدن في هذه النظرية ذريعة : فمجرد كونهن لسن رجلاً يشرح جميع صعوباتهن السيكولوجية . إنهن يتعلقن بهذا الباعث . حتى ولو أنه خاطيء بالمناسبة . وعلى هذا النحو ، فأنهن يجازين البحث الحقيقي عن أنفسهن من حيث هن نساء . وبدلاً من أن يبحثن في فواتهن عن سبب آلامهن ، فانهن يتهمن الرجل بذلك . بادئناث على هذا النحو حلقة مفرغة قد تدوم مدى الحياة .

٣ - حصر المرأة بسبب كونها امرأة

آ - الخضوع والتحدي

إن المرأة ، وقد حكم عليها العلم بأنها شيء زهيد على الرغم من نجاحاتها الخارجية ، تنطوي على ذاتها غالباً في الخضوع ، أو تنفجر في تحديات حائفة .

إنها تبحث عن المساواة مع « الرجل » بأي ثمن : دون أن تقول لنفسها إن ألف رجل يمثلون الآن ألفاً من ضروب التفاوت .

ويبدو الحصر عندئذ بسبب كونها امرأة : حصر لاشعوري ، وثقيل ودائم . والمرأة تشعر أنها « آثمة » لأنها امرأة . وإذا حاولت أن تعيد ثقتها بنفسها ، اصطدمت بلرب مسدود : ليس ثمة أي تحديد للمرأة في ذاتها . وإذا بحثت المرأة عن ذكورة مصطنعة تستخدمها ملجأ ، فانها ، هنا أيضاً ، لا يمكن أن تصل إلى أي جهة : إذ أنها لن تكون رجلاً على الإطلاق .

وأخيراً ، تنتهي المرأة إلى الاعتقاد بأن أي نشاط ، وأي إنجاز

خارجي . وأي « خروج من ذاتها » ، معزوّ إلى رغبتها في أن تكون رجلاً . **فترتاب** في أفكارها ، وابتكاراتها ، ومشروعاتها ، التي تحس بها لا على أنها تحقيق للذات ، بل على أنها ضرب من المطالبة .

إن الأمومة ذاتها والعادات الشهرية يرفضها عدد من النساء بصورة شعورية أو لاشعورية ، لأن ذلك كله يذكرهن بـ « أنوثته » يعقدنّها دنيا . وهذا هو السبب الذي من أجله يعاني كثير من النساء ، خلال هذه الزترات من حياتهن . من الاكتئاب والآلام التي لا يمكن تفسيرها ، بل ومن الحجل .

وهذا هو السبب الذي من أجله أيضاً تنتهي النساء إلى رفض كل شكل من أشكال عون الذكر .

في يوم من الأيام ، توقّفت عندما شاهدت ، في طريق مهجور ، سيارة مصابة بعطل . وكانت الغريق امرأة شابة ، أجابت على عرضي تقديم العون : « أشكرك ، سأندبر أمري وحدي » . فتساءلت بأي الوسائل ، نظراً لمرور السيارات النادر ، واستأنفت السير . ورأيت في المرآة العاكسة دركيا أعجوبيا راكباً على دراجة نارية ينبعث حلاً . وقبلت الصبية عون راكب الدراجة .

فلماذا ؟ هل السبب هو اللباس العسكري ؟ ربما . ولكن ماذا يمثل ؟ السلطان الأسمى ؟ الذكر « الرسمي » ؟ الأب ؟

وانزلق الدركي . بحمّيل ليس له مثيل ، تحت السيارة دون أن تبدي الصبية أية حركة . وظلت جامدة . ومستقيمة . وأؤكد لكم أنها

كانت تبدو مستصرة ! هل كانت ترغب في « الخط من قيمة » الذكر وهي تجبره على توسيع ثيابه من أجلها ، وتبتهج أن تراه يتلّ بالشحم الأسود ؟ ويبدو لي أن هذه المرأة مثال موضح حي لآراء فرويد . وها هو ذا السبب .

ب - المرأة ، عميل مزدوج

كثيرات من النساء يلعبن لعبة العميل المزدوج .

- فهن ، من جهة ، يردن تمثيل المؤنث الأبدي ، مقتضيات جميع المزايا والامتيازات ، وضروب الاهتمام والحماية ، التي ترتبط به .
- ويرفضن ، من جهة أخرى وفي الوقت نفسه ، هذا الوضع .
نايذات عون الرجال .

التفسير سهل . فاذا كان ثمة امرأة تعتقد بأن الرجل ذو حظوة من الناحية البيولوجية أو من الناحية الاجتماعية ، فلا بد لها من أن تحسده . وتغار منه ، أو ترغب في أن تلغي هذه المزايا . وعلى هذا النحو إنما يحاول عدد لا يحصى من النساء أن « يخلصي » الرجل ، ويسوده . ويحطّ من قدره ، ويحيله إلى عبد .

وثمة مفارقة تنبعث عندئذ : « أما وقد أفلحت في خصائصك ، فاني أحتقرك لأنك مخصي ، ذلك أنك أصبحت ضعيفاً ، ومشوهاً كامرأة » .
لنتصور النساء اللواتي « يحترن » زوجاً مصاباً بالزكام من الناحية الوجدانية ، حتى ولو أبدى من الناحية الخارجية ، في بعض الأحيان .
مظاهر ذكر مفرط في الذكورة . فما الباعث اللاشعوري لهؤلاء النساء؟

إن باعتهن أن يؤدين الدور الذي يتصف : بالنسبة إليهن ، أنه دور
مذكر : القيادة ، والسيادة ، والحكْم ، الخ .

هذا النوع من الثنائي يحتفظ بالتخطيطية القديمة ، تخطيطية السيادة
التبعية ، ولكن التوازن معكوس . فالمرأة تصبح رجلاً . والرجل يتحول
إلى امرأة . وكيف يمكن لمثل هذه الأسر أن تكون منسجمة ؟ إن هؤلاء
النساء : اللواتي يتصفن داخلياً بأنهن شبيهات بالرجال ، يأخذن على
رفاقهن أنهم ضعفاء . ومع ذلك ، فقد اخزن الوضع لهذا الباعث !

قد يبيّن تحليل أكثر عمقاً - بالإضافة إلى ذلك ، أن هؤلاء النساء
يغادين ، في خيالاتهن وأحلامهن الليلية . أطباءاً تكشف عن رغبتهن الخفية
في ملاقة ذكر فقط . ويرعبن أحلام الاغتصاب ، ويتخيلن أنفسهن ، عن
طيب خاطر ، وقد أخذن بالقوة ، وعملن بشراسة وعبودية .

هل ذلك يعني أن كثيراً من النساء يتمنين بصورة لاشعورية أن
يخضعن لسيادة قوة الذكر الكلية ؟ وذلك بالرغم من مطالبهن وضروب
تمردهن وضروب حقنهن الأخرى ؟ ألا نرى ، في مئات من الأفلام ،
أن قبلة مشبوبة العاطفة تعقب . دون مرحلة انتقال ، تلقي ضربات
متلاحقة قوية ؟

ج - مطبخ الملائكة :

قالت لي امرأة ، كانت قد باشرت تخيلاً نفسياً عميقاً ، خلال
اتصالها الأول بي ، قولاً عدوانياً :

— هل تعلم إلى أي حد أنا من أنصار مساواة الجنسين المطلقة ؟

— قلت لي ذلك ، يا سيدتي .

— هل توافقني على أن جميع الأعمال المنزلية يمكن أن يقوم بها الرجل والمرأة على السواء ؟

— عليك أنت أن تكوني على وفاق مع نفسك ، وليس علي أنا .

— إذن هل أنت غير موافق ؟

.. هل قلت ذلك ؟

— كلا ، ولكن ثمة شيء غريب . عندما يقوم زوجي بكي الثياب ، أو بأعمال المطبخ ، أشعر بانزعاج . ان زوجي والحال هذه ملاك ! وأنا أقاوم هذا الانزعاج باسم أفكارني ولكن . . .

.. ولكنك لا تتحملين أن يعمل زوجك في المطبخ .

— إنك على صواب . ولكن ما السبب في رأيك ؟

— هل لأن زوجك يبدو كما لو كان امرأة ؟

— هذا هو الأمر .

— ولكن ألسنت أنت امرأة ؟

— لا ريب في ذلك .

— هل تحققرين نفسك كونك امرأة ؟

— لا بالتأكيد ! أخيراً . . . لا أعقد ذلك . . .

— أليس لديك انطباع بأن زوجك يصبح ضرباً من الموجود

المخضبي عندما يقوم بأعمال المطبخ أو بالكني ؟ أليس على هذا النحو

تحكمين على المرأة ؟

— . . . ربما . « تضحك (. وإذا كان زوجي ملاكاً ، فهل من المحتمل أن أكون شيطاناً ؟ وعلى أي حال ، إذا كان الأمر على هذا النحو ، فإن ذلك إنما هو لاشعوري بصورة كاملة .

ويبدو لي أن هذه الفقرة المستخلصة من حديث المرأة بليغة . فقد تبين أن هذه المرأة ، هي أيضاً ، كانت تحلم على الغالب برجال الكازيمودو(*) الفظين وذوي الأساليب الفظة .

ء — ليثأر لي ابني

يُعتقد على وجه العموم أن النساء يرغبن في أن يكون لهن صبي بدلاً من بنت . ولنلاحظ مؤقتاً أن عدداً من النساء سعيدات بأن يكون لهن بنت ، وفخورات بأن يكون لهن صبي . والأمر مختلف في الحالين . ويعتزم فرويد ، فيعتقد بأن الرغبة الأساسية لكل امرأة أن يكون لها طفل ذكر . ويصبح هذا الابن بديلاً لما لم تستطع الأم أن تكون : رجلاً . وتنقل الأم إلى ابنها التطلعات المذكورة التي لم تستطع تحقيقها . وحتى هذا الحد ، ليس ثمة شيء إلا ويتصف بأنه معقول جداً ، وعلى وجه الخصوص في مجتمعاتنا ، مجتمعات الذكر .

غير أن فرويد يدفع بالأمور إلى ما هو أبعد . فهو يعتقد بأن « حمل طفل في البطن » يرمز ، بالنسبة لمن ستصير أما في المستقبل ، إلى أنه « سيكون لها عضو الذكر كالرجل » . وآراء فرويد هذه تتصف ،

(*) كازيمودو : شخصية من شخصيات رواية فكتور هوغو « نوتردام دو باريس » ، حيث تمثل فيها دور قارع الأجراس « م » .

بالطبع ، أنها عرضة للمناقشة كثيراً . ولكن ، إذا كان من المتعذر
البرهان على صحتها ، فمن المتعذر ، بالدرجة نفسها ، أن نبرهن على
عكسها .

ثمة واقعة تثير القلق : من الملاحظ أن كثيراً من الاضطرابات
السيكولوجية تتوقف في أثناء الحمل ، وتستعيد الأم الحامل توازنها .
ويقال إن الاضطرابات السيكولوجية تتوقف لأن السرور يخلق الحياة
يملاً كيان المرأة التي ستصير أمّاً في المستقبل . ولكن لماذا تعود الاضطرابات
غالباً عندما يولد الطفل ؟ . . . لكي تزول ثانية حالما يحدث حمل آخر ؟

كانت إحدى الصبايا قد قالت لي حرفياً :

— لست سعيدة إلا عندما يكون لي « بطن ضخم » . لو كنت
أستطيع ذلك ، لكررت الحمل دون توقف .

ماذا يقول فرويد ؟

يقول فرويد : إن المرأة ، في أثناء الحمل ، تعاني الاحساس ، وهي
تحمل طفلاً في بطنها ، بأنها رجل . فهي تجد مجدداً توازنها وسرورها
بالحياة .

والأم ، بعد الولادة ، تصبح امرأة مجدداً ، وتظهر ثانية رغبتها في
أن تكون رجلاً كما تعود إلى الظهور اضطراباتها السيكولوجية . من
هنا منشأ الحاجة إلى حمل جديد .

ثمة سؤال ذو أهمية يطرح نفسه في هذا المجال : هل يمكن التعميم ؟
وهل يخضع النساء اللواتي لا يعانين أي اضطراب سيكولوجي إلى القانون
ذاته دون علم منهن ؟ إنه لأمر يصعب قوله .

والحقيقة أن غالبية النساء المصابات بالإحباط (وهن ثمة نساء غير مصابات بالإحباط في مجتمعنا ؟) يرغبن قبل كل شيء في صبي . فما النتيجة ؟ إذا كان الطفل بنتا ، شعرت المرأة مجدداً أنها مسحوقة ، لا لأنها لم تحقق رغبتها في أن يكون لها صبي فحسب ، بل لأنها وضعت في العالم موجوداً يمثل ما رفضته : الأنوثة المشوهة المخصية . أما إذا كان الطفل صبياً :

— فانه يمثل الذكورة الظالمة إليها أمه ، كما لو أن هذا الأم كانت تفكر على النحو التالي : « هذا الصبي ، إنه أنا ذاتي » .

— هذه الأم تطري ابنها، وتمجده، وتحمله عارياً، وتحيطه بالرعاية.

— إنها ترفض لاشعورياً أن تنفصل أبداً عن ابنها الذي تعدّه «صنو» ها المذكر . وهي ، في رأي فرويد ، ترفض أن تنفصل عن « عضو الذكر » الذي يرمز إليه الابن ، والذي كانت ترغب في أن يكون لها .

وننتهي إلى الكارثة المعروفة جيداً : إن الولد يصبح ، من الناحية النفسية ، عاجزاً عن أن يترك أمه ، بدلاً من أن يتفتح رجلاً .

هـ — هل ينبغي أن نفهم فرويد بحرفية عباراته ؟

إن فكر الذكر ساد العالم بأسره دائماً . وتعاني البنت نتائجها ، منذ المهد . فالظاهرة معروفة .

وأي امرأة ، في مجتمع يتصف على نحو صرف بأنه مجتمع الذكر ، لا تستطيع ، والحالة هذه ، أن تتفتح بصورة تامة . ويتعذر عليها أن تحقق الجزء المذكر من ذاتها (التعبير عن ذاتها في الخارج تعبيراً تلقائياً ، عملها وابداعيتها الخاصين اللذين ينبغي أن يمارا بغريال مقاييس الذكر) .

وإذ أضيفت عابها الدونية بما هي امرأة، فمن المنطقي أن ترغب في صبي
يرمز إلى طموحاتها الضائعة ، وينجح نجاحاً باهراً (مكانها) ، ويرسم
طريقه بصورة حرة (الأمر الذي لم تستطع أن تقوم به) ، ويصبح
قوياً (الأمر الذي لم يتسن لها أن تكون) .

ولكن هل هذا هو ، على سبيل الحصر ، صعوبة خاصة بالمرأة ؟
فكم بالفعل من الرجال ، الذين لم ينجحوا كما كانوا يأملون ، يرغبون
رغبة جامحة في أن يكون لهم ابن يستطيع أن يحقق ما لم يستطيعوا إنجازَه !
إنها لواقعة يصعب احتمالها : أبدأ لن يبحث هؤلاء الأمهات
والآباء عن أن تأخذ بناتهم بـ « ثأرهم » . وفي هذا المجال أيضاً ، تُضفي
الدوتية على البنت ويُستقص من قدرها . فلا يكلفون بنت البيت بأي
« مهمة » مثل :

- عليك أنت أن تنقذي شرف الأسرة .
- ستحفظين بشرف اسم العائلة سليماً .
- ستجعلين اسم العائلة يدوم .
- وعلى العكس ، يكلفون البنت بـ « صناعة » تحمل علامة الذكر :
- آمل أن يكون لك ابن ، وإلا آلت أعمالنا إلى الانهيار .
- إن لم يكن لك صبي ، فسينطفئ اسم العائلة .
- من المؤسف أن يكون لك بنت . سأحبها مع ذلك . ولكن صبياً
يلائم أعمالنا على نحو أفضل .

وعبارات أخرى على طريقة بلزاك .

وبعبارة أخرى ، إن البنت يُنظر إليها على أنها لا شيء ، ولا تتخذ شيئاً . فهي ليست غير « ولادة » : مجرد معمل للصبيان .

ولا يطلبون من الصبي كذلك أن يكون غير فحل منتج ، في ظل التبريرات الأكثر اختلافاً والأكثر تعبيراً عن الرضى بالدمدمة .

و- الجنسية النسوية

جنسية المرأة ، في رأي فرويد ، عدم من الناحية العملية . ودونما رغبة في الدخول بالتفصيلات (الكتب حول الجنسية غزيرة) ، لتقتصر على القول إن للمرأة ، على نحو كلي ، عضواً جنسياً ذا خصوبة كبيرة . فجنسية المرأة أكثر عمقاً وأكثر اتصافاً بأنها « داخلية » .

وجنسية المرأة داخلية : هنا تكمن نقطة الضعف . ذلك أن كثيراً من النساء يشعرن بأن أعضاءهن وسخة ، وناقصة (مخصية) ، ومدعاة للخجل ، ومخيفة . وبالإضافة إلى البواعث التي أبرزها فرويد ، ثمة سبب أكثر اتساعاً : إن الرجل يحس يبطن المرأة وكأنه ضرب من مغارة الموت . إنها إنما هي الرمزية الأكثر إثارة للرعب ، التي غلّفت المرأة : وسندرسها في الفصل الخامس .

ولنعد في ذلك إلى فرويد : ثمة معادلة فريدة مستقرة في أذهان النساء :
أسفل الجسم = خصاء = جرح دام = خجل = رفض = رغبة في أن تكون المرأة رجلاً .

قالت لي إحدى النساء :

من المعروف حالياً أن جنسيتنا تنسم ، على نحو غير محدود ، بأنها

أكبر كثافة وأكثر شدة وعمومية مما كان يعتقد الناس ، وهي جنسية
تضفي الاحساس على المرأة بأنها مرتبطة بالكون . . . ولكن ذلك لا
يمنع من أنها جنسية دنيا ، أنثوية ! فجنسيتنا لا تنطوي على أي عمل !

ماذا يعني هذا الكلام ؟ تعترف هذه المرأة بغناها ، ولكنها تطمع في
فقر جارها : الرجل . والسبب في ذلك أن كون جنسية الذكر أكثر
«توضعا» بكثير وأكثر فاعلية من الناحية الخارجية ، فإنها تبدو أكثر قوة ،
وتبدو مرئية ومعبّرة عن نفسها خارجياً . الأمر الذي يعني أن عبادة عضو
الذكر تتوهج دائماً ، وكذلك عبادة القوة الظاهرة .

وذلك يبين أيضاً أن الوجود الإنساني يفضل على الغالب أن يكون
ملكاً لامعاً ، ولكن دون سلطة واقعية ، من أن يكون موجّهاً خفياً في
منتهى القوة ، ولكن يجهله العالم .

والنساء غائصات حتى الرقبة في هذه الكذبة وهذه الخدعة .

ز - النساء - الرجال :

العالم الراهن مضمي عليه بافراط صفة الذكورة ، ومستسن ،
ومزمر ، وقوي إلى حد التقصيف .

والنساء ، اللواتي يرغبن في أن يكنّ رجالا ، يتوافرن ، إلى حد
يتجاوز الآمال ، جميع وسائل تحقيق هذه الرغبة . لهنّ يحاربن في
الصناعات والأعمال ، بل والبندقية في يدهن .

نحن على علم كذلك بأن المسألة مسألة أضخم غش عرفته العصور :
الاستطاعة الواقعية للمرأة ملغاة بفعل أجمل دور من أدوار الشعوذة التي
يمكن للمرأة أن يحلم بها . ولما كان كل ذلك لاشعورياً ، فإن المأساة تمتد
على مستوى الشعوب .

وتلكم هي النتائج

١ - النساء اللواتي يجدن أنفسهن في تنافس ذي مظهر مذكر يعتمدن
أنهن بلغن هدفهن . « هل أرغب في أن أكون رجلاً ؟ إنني إذن سوية ،
ومسيرتي العدوانية كذلك . وأصبح ، بصفتي مثل الرجل ، ما أنا عليه
واقعيًا » .

٢ - ويتعرض النساء الأخريات إلى الاعتقاد بأنهن غير سويات إن
رغبن في تحقيق ذواتهن من حيث هن نساء .
وعليه ،

١ - يستند النساء - الرجال إلى فرويد في احتقار الوضع النسوي ،
لكيلا يمنحن مكاناً لغير « قيم » الذكر : النجوع ، والمردود ، وجفاف
العواطف ، والمال ، والنجاح الخارجي ، والمظهر ، والمعركة . وينبذن
كل ما يتزع إلى اكتشاف القيم الكبرى في الأنوثة ، وإلى تفتيحها .

٢ - وينظر هؤلاء النساء - الرجال إلى اللواتي يفضلن اختيار عمل ،
داخلي أو خارجي ، يطابق ما لديهن عن « المرأة » من إحساسات ، على أنهن عديمات
الجدوى ، أو على أنهن أعداد .

٣ - وحتى لو أن النساء - الرجال نجحن مثل الرجل ، فانهن
مستمرات في الاعتقاد بدونيتهن البيولوجية . ويحتفظن من الناحية النفسية
بانطباع مفاده أنهن « مخصيات » . فنضالهن توتر دائم ، وهن في بحث عن
وضع لن يكون وضعهن على الإطلاق .

٤ - انعدام الأنوثة المأساوي

إن رفض الأنوثة ، والمغالاة في تقييم قيم الذكر المزعومة ، التي يدعي بعضهم نسبتها إلى فرويد ، يفضيان إلى ما يلي :

— عبادة القوة الخارجية ، الصلبة ، والحادة ، والمنتصبة بصورة عدوانية .

— قبول كل ما هو هدام بعنف والاعجاب به : تدمير الطبيعة ، والأسلحة ، والحروب ، والفتوحات المزيّفة المدمرة ، ورموز القضيبي الأخرى .

— احتقار كل ما هو « داخلي » احتقاراً يخفي حاجة لاشعورية : العواطف ، والاحساسات ، ومنزل الأسرة ، والفنون ، والحب .

— احتقار الوسطاء والوسيطات الذين يعظّمون التسامح ، والرأفة ، والتفاهم ، وكلها خصائص ما يتصف بأنه أنثوي ، أو الحذر منهم .

— احتقار كل ما يتسم بأنه « عذب مكثور » : الأرض ، والزراعة ، والفلاحة ، وعلوبة الحياة ، واحترام الزمن الذي ينصرم ، والتقليد ، وفضائل القلب .

— احتقار كل ما هو « انتظار » ، والانتظار خاصة من خصائص الأنوثة . من هنا منشأ نبذ الصبر ، والتجربة ، والأمومة ، ومنزل الأسرة ، وطلب العون ، والصمت . . .

وأؤكد لكم أن ليس لديكم الرغبة بالموافقة .

رابعاً - الصعوبة الراهنة

١ - المرأة تحاول أن تُبرز قيمتها

كان قد تم تنقيح ما كتبه فرويد ، الذي لا يتزعزع ، بطرق كثيرة ، وفيما يتعلق بالمرأة على وجه الخصوص . فلم يعد مطروحاً على بساط البحث أن تُؤخذ بحرفيتها عبارة « رغبة المرأة في أن تكون رجلاً » ، ولا سيما أن أي شخص لا يمكن أن يعرف على وجه الدقة ما قصده فرويد بها .

والنظر متجه في أيامنا هذه إلى أن كل حالة حالة نوعية ، مختلفة بحسب التربية التي تتلقاها المرأة ، والدين الذي تمارسه ، والأخلاق التي تتعلمها . وثمة تأكيد ، من جهة أخرى ، على أهمية العوامل الحضارية . فمجرد الحس السليم يثبتنا أن اليابانية تختلف عن اللندنية ، والباريسية عن الهولندية ، وأن ردود الفعل الوجدانية لامرأة تعمل في الزراعة ليست شبيهة بردود الفعل الوجدانية لامرأة تسكن المدينة .

بل انتهى بعض علماء النفس إلى نتيجة مفادها أن الرغبة الشهيرة ، « الرغبة في عضو الذكر » ، لا وجود لها .

وسنرى على أي حال أنه لا بد تماماً من التمييز بين العضو التناسلي للرجل وبين الرمز الذي يمثلُه القضيب .

ولكن لنستمر في الدوران حول الكوكب الهائل فرويد ، ولنفكر بهذا السؤال :

— هل تمت كل امرأة ، ولو مرة واحدة في حياتها ، أن تكون رجلاً ؟

أعتقد أن بإمكاننا أن نؤكد ذلك لدواع عدة . والباعث المتبدل ، الذي يتكرر في كل مناسبة وبحق ، أن الرجل قد نعم دائماً بأولية ظاهرة . وقد يبدو ، منذئذ ، منطقياً أن ترغب المرأة ، هذه الطبّاحة الفقيرة ، في الحصول على مزايا قريبها الذكر ، وأن تناضل للفوز بها ، وأن تتحول إلى رجل في حال اليأس من قضيتها . ويبدو أن « نحر » المرأة ، كما يفهمه الناس حالياً ، يبرهن على ذلك .

ولئن كانت المرأة ، في الواقع ، تتقدم بخطى حثيثة ، فإن ذلك على الأغلب إنما هو نحو فقدان وجدانيتها الخاصة ، ونحو دمارها المنظم . ذلك أنها ، في الأعماق ، ليست أكثر انصافاً بأنها موضع الاحترام والحب ، ولا أقل انصافاً بأنها موضع الخشية .

تلكم هي المفارقة المأساوية لعصرنا الحديث : تتحرر المرأة مع الرجل كما يُعترف بها من حيث هي امرأة .

٢ - الاسرة كومة من الافاعي المتشابكة :

قد تسوّل للمرء نفسه أن يقول : لا بد من أن يكون فرويد على حق ، إذ أن المرأة في ملايين من المنازل الزوجية هي الأمرة خفية أو جهاراً . وغالبية الأزواج يلوذون بالفرار أمام زوجاتهم . ثمة نساء ، لا حصر لعددهن ، يتصرفن تصرف الذكور : يعطين الأوامر ، مستقيمات كأنهن دارتغنون (*) ، إلى خدمنهن ، وإلى أزواجهن وأولادهن ،

(Charles de batz, comte) d'Artagnon = .

تقيب في كوكبة فرسان الملك لويس الرابع عشر ، عاش بين (١٦١١ - ١٦٧٢) على وجه التقريب ، ثم أصبح مارشالاً في المعسكرات . قتل في محاصرة احد المدن ، واشتهر في روايات كاتب من كتاب فرنسا (الكسندر دوماس) « م » .

ويوجهن الثنائي بسلطوية ، ويقرون أوقات الفراغ ، والانتقال ، والمال الخ .

هل هذا هو البرهان على أن هؤلاء النساء رغبة في أن يكن رجالاً؟
ينبغي أن نتساءل أول الأمر :

— لماذا أصبح هؤلاء النساء « هكذا » ؟ أي حصر يدفعهن إلى أن يأمرن ويحتقرن الضعفاء والخائفين ، ويدمّرن ، وينشرن الخراب ، بدءاً من سحق زميلاتهن ، ثم النساء الأخريات ؟

إن بواعث هذه المواقف عائلية على الأغلب . وعلى سبيل المثال :
— تربية البنت مع أخوة ذوي حظوة .

— حياة البنت مع أب لم يكن يمنح النساء غير دور تقليدي متواضع .

— كان للبنت أم هي من خبوا النجم بحيث رفضت أن تكون مثلها .
وبدت لها الأنوثة ، في الوقت نفسه ، على أنها نقيضة اتخذت سلوكاً يناقضها .

— كان للبنت أم على تعارض مع الرجل .

— كان للبنت أب اجبرها ، بموقفه ، على أن تصبح « صبياً فاشلاً » .

وعلى هذا النحو ، يصبح هؤلاء الفتيات من « الجنس المذكر » .
وبعبارة أخرى ، إنهن نساء فاشلات ورجال غير ناجحين .

إنهن يفكرن بصورة شعورية :

— إنني أسير خارج حياتي لأنني امرأة ، في حين أنني أتمنى أن
أكون رجلاً . ولكن تحليلاً عميقاً يبيّن أنهم يقلن في أنفسهم بصورة
لاشعورية :

أشعر بصعوبات هائلة في أن أكون امرأة ، لأنني أجهل معنى « أن
أكون امرأة » . فذلك ما لم يقله لي أحد ، ولم يعلمنيه . بل على العكس ،
أكد الناس لي دائماً أن المرأة « ليست إلا . . . » . وأرفض أن أعيش
وفاق هذه المعايير السلبية .

وعندما يباشرون عملاً سيكولوجياً عميقاً ، يحسن أخيراً ماذا
يعني « أن أكون امرأة » ، ويلاحظ أن الرغبة في « أن أكون رجلاً »
تختفي .

وبنفي أن نتذكر ، فيما يتعلق كذلك بالأسر التي ترى المرأة نفسها
ملزمة فيها بدور يعجز عنه الرجل ، أن الزوجين لا يرتبط أحدهما
بالآخر « مصادفة » . ثمة ، على الدوام ، اختيار ولو كان بصورة
لاشعورية . وإذا اتصفت إحدى النساء ، قبل زواجها ، بنزعات تشبه
نزعات الرجال ، فإنها تختار زوجاً وفاق هذه النزعات ذاتها ، التي تنمو
بالنتيجة ، وتؤمن الاستمرار بسبب قصور الرجل . وهكذا تنغلق
الدائرة .

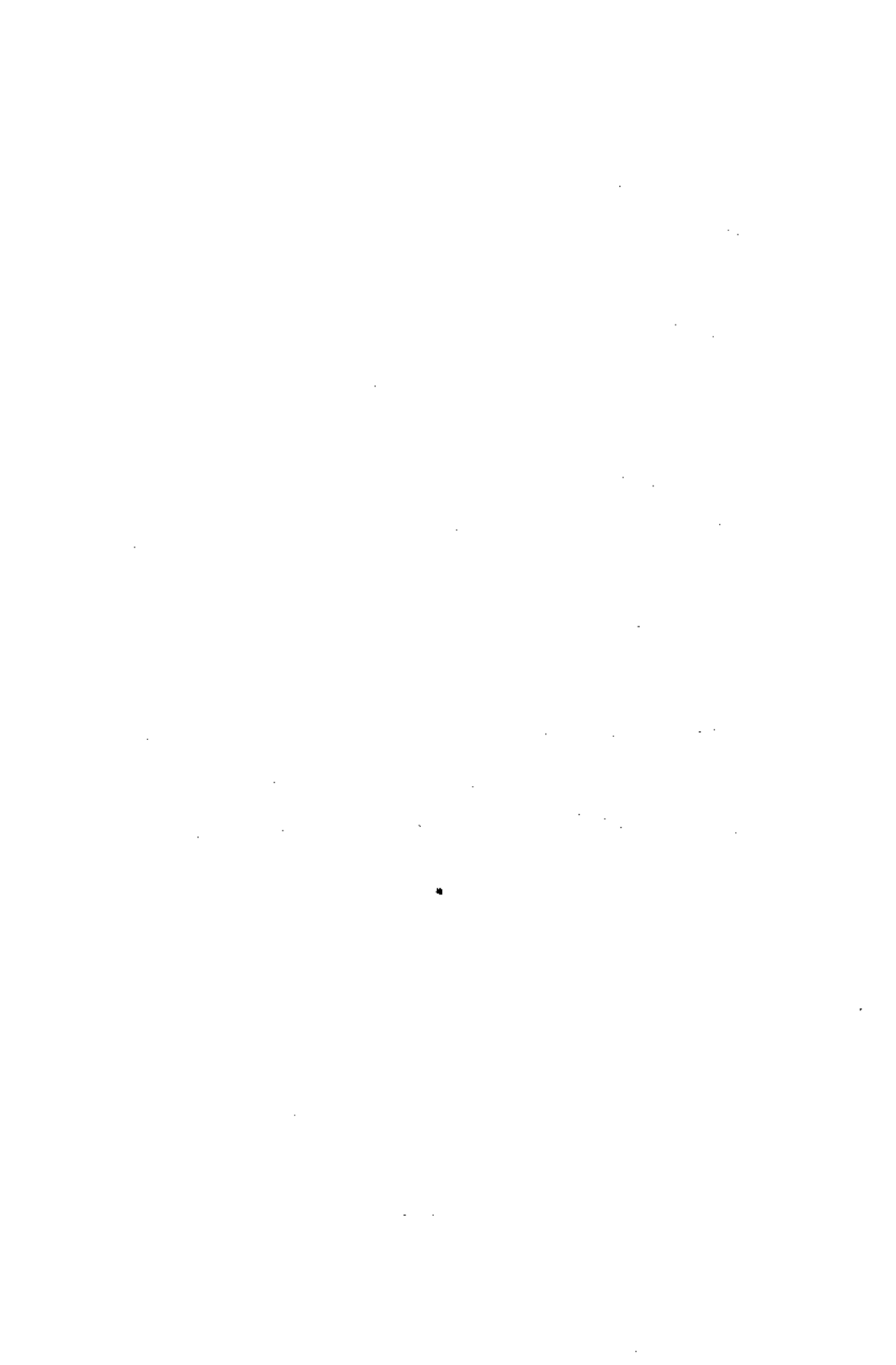
٣ — خطر المسبق الصنع

لا يمكن أن نلح كثيراً على مدى ما تتصف به من الضرر
نظريات فرويد ، المنتشرة في الجمهور الكبير من الناس .

لنفرض أن ثمة امرأة مصابة بالحصص والخوف ، وأنها عدوانية وعصبية . فهناك احتمال كبير بأن تجيب بعبارة « هذا مؤكد » ، إذا أوحى لها أحد علماء النفس في سؤال على الصورة التالية : « ألا ننشأ صعوباتك من رغبتك ، التي لا يمكن أن تتحقق ، في أن تكوني رجلاً ؟ » ، فتلك عبارة يبدو أنها لا تقبل المناقشة . ولكن تسرعها هو من الشدة بحيث يبدو غير موضع ظن . فاذا نظرنا إليها عن كثب ، رأينا أنها قفزت ، والرجلان مقيدتان ، على شرح جاهز .

فما السبب ؟ السبب أن هذا التفسير يتيح لها أن تجانب صعوبتها الحقيقية . إنها تنهش الصنارة حتى لا تعاني اختبار أن ترى نفسها كما هي عليه ، اختباراً يتصف دائماً بأنه مؤلم ، مع كل ما يرافقه من ضروب حصرها ، حصص المرأة ، ورغباتها ، ورغبات المرأة ، وعصاها ، عصاب المرأة .

وبالاختصار ، إن شرحاً مسبق الصنع تستخدمه في الهروب . وهذا هو السبب في أننا لن نجد أي أثر لهذه « الرغبة في أن تكون رجلاً » ، عندما ينتهي التحليل وتكون على وفاق مع ذاتها ، إذ أنها تصبح في منتهى السعادة أن تكون امرأة .



طرافة المكيدة : قامت المرأة بدور حتى تعجب الرجل ، وتكون محبوبة منه ، وتتجنب الوحدة . فاستحالت إلى امرأة ضعيفة ، متيحة للرجل ، على هذا النحو ، أن يعتقد في نفسه أنه القوي العظيم .

ونفخ الرجل صدره ونفسه حتى لا يفقد مكانته أمام هذه المرأة التي كانت تنتظره عند المعطف .

إنه الأمر الطبيعي ، كما ترون .

نظهر غوريلات الغابات ضرباً من الوجدانية . وتعلم ذكور الغرب إخفاءها باسم الرجولة وإرادة القوة .

فهل هم ، إذن ، أكثر رجولة وأشد قوة من الغوريلات ؟

ثالثة الأثافي : إذا قيل إن الهرمونات الأنثوية تحدث ميلاً إلى السلبية والداخلية والاستقرار ، استنتج الناس أن المرأة تنصف بالعطالة والجمود والعجز عن الإبداع . ويحكمون عليها .

وإذا أعلن أن هرمونات الذكر تدفع الموجود نحو العدوانية والفتح وعدم الاستقرار ، استخلص الناس منها أن الرجل فظ ، أناني ، متقلب . ويحكمون عليه .

وبعبارة أخرى : يضيفي الناس على الهرمونات صفات أخلاقية .

وينسى الناس بالطبع أن الرجال والنساء مزودون بالفئتين من الهرمونات ، وهي رأس مال مزدوج أساؤوا جميعاً إدارته إساءة كبيرة .

الفصل الرابع

حضرة الخريجة

مثلما يرتل الكاهن ،
كذا يردد خادم الكنيسة .
لورودو لانسى .

نحن بصدد خديعة جديدة تقع مسؤوليتها على اللاشعور الانساني وحده . فالمرأة مشمترة ، ولكنها - وتلك مفارقة - تصبح الشريكة التامة فيها ، كما لو أنها ، وهي تنكر الشمس ، تقدم لها ضرباً من العبادة في الوقت نفسه .

فلنتبه فقط إلى ما يلي :

- امرأة يسيطر عليها رجل « ذو رجولة » فتقاوم ؛
- ومع ذلك تحضر الرجل الذي لا يتصف بأنه « ذو رجولة » ؛
- وهي في الوقت ذاته تصون عبادة البطل الذي لا يُروّض ولا يُغلب ، وتظل معجبة بالسلطة والقوة الخارجية .
- ماذا يعني إذن ، بالنسبة إليها ، « رجل من الرجال » ؟ ماذا يمثل ،

ما دامت تمجده بالرغم من كل شيء ، كما لو أنه قمة الخلق ، مع احتمال أن تخلعه عن العرش لتستوي عليه ، لا وفاق المقاييس النسوية وإنما وفاق مقاييس الرجل ؟ ولماذا هذه اللجة التي فيها يتصف الرجل بأنه محقر إذا كان « فحلاً » ، ومحقر بالدرجة نفسها إن لم يكن كذلك ؟

فلنعد إلى فرويد . قد يبدو إذن أن المرأة تشعر بأنها « مخصية » و « ناقصة » لكونها ليس لها « عضو الذكر » . إنها تأسف لكونها امرأة ، وترغب أن تكون رجلاً . وإذا يتضح أن حلمها غير ممكن التحقيق ، فإن مطالبة وأسفاً دائمين يستقران .

وكل هذا يبدأ منذ الطفولة . فما عضو الذكر لصبي صغير مع ذلك ؟ إنه شيء تافه ، ضرب من الزائدة .

فلماذا يتخذ هذا العضو مثل هذه الأهمية فيما بعد ؟ لماذا كان عضو الذكر ، في جميع العصور ، رمزاً مجيداً على وجه التقريب ، يتغير اسمه عندئذ ليُسمى القضيب ؟ ومنذئذ يفهم المرء أن الرجل ، صاحب عضو الذكر ، هو موضوع هذه الرمزية . فتميز في الوقت نفسه .

ومن هنا إنما بفرق كل شيء . فلنستمر إذن ، ولكن سا لكين درياً يتصف بأنه غير متوقع على الأقل .

أولاً - إلى ماذا ترمز الوظيفة البولية ؟

١ - بعض الارتباطات بين الكلمات

الوظيفة البولية مبتدلة في ذاتها ، ولكنها تنطوي ، من الناحية الرمزية ، على أهمية كبرى . لأنني ، من جهة أخرى ، واثق من أن عدداً من

القارئات ، في هذه الآونة ذاتها ، ترجمن الآن « وظيفة مبتذلة » ،
« وظيفة مزعجة مخجلة ، مقرفة ، الخ » ، وقارن أنفسهن بالرجل ،
صاحب الامتياز الفيزيولوجي .

ثمة سؤال قد يبدو سخيماً للوهلة الأولى : هل للوظيفة البولية أصداء
فلسفية ؟ ليس هذا صادر عن مارك توين * ، فاطمثنوا ، بل إن فرويد
وعلماء آخرين في التحليل النفسي ، وسيمون دي بوفار ، وجان بول
سارتر ، تكلموا عليه .

إنه لامر منطقي ، بعد كل شيء . ذلك أننا من خلال أي شيء
نعقل العالم ، إن لم يكن بأعضائنا ، أيأ كانت هذه الأعضاء ؟

إليك بعض الارتباطات بين الكلمات ، صنعها أربع نساء سويات
وذكيات . كانت الكلمة المقترحة « ببول » ، مع دعوة إلى الاستجابة
بصورة تلقائية أكثر مما يمكن .

عمر المرأة الأولى ٣٥ عاماً ، المهنة حرة :

خجل — إقماء — مادة — يعاني — ينجنيء — بشع — طمث :

عمر المرأة الثانية ١٩ عاماً ، طالبة :

مرثية — تتعرتى — مبتلة — تقعي — تتغوط — واقفة .

عمر المرأة الثالثة ٤٣ عاماً ، دونما مهنة في الخارج :

(*) مارك توين : كاتب أمريكي ، مولود في فلوريدا (١٨٣٥ - ١٩١٠) .
إنه الكاتب المشهور الأول ، الذي كتب عن الغرب الأمريكي ، وكان معلم الروائيين الذين
أرادوا اكتشاف أمريكا من خلال مناظرها وفولكلورها . والمغامرات هي عنوان رواياته «م»

أرت نفسها - أسفل الجسم - غدّارة - حَقَّرَ - تنشّفت خفية .
عمر المرأة الرابعة ٢٨ عاماً ، دونما مهنة في الخارج :
غيرة - سلبية - مراحيض - أن لا تكون مرثية .
ماذا نجد ؟ نجد الأفكار التالية وهي :

حجل : خجل ، تخنّى ، بشع . تنشّفت خفية ، أسفل الجسم .
دونية : إقعاء ، تقعي (هذه المرأة قالت لي : « في كلمة تقعي
(الفرنسية) ، ثمة كلمة « ردف ») .

مادة : مادة ، مبتلة ، طمّث ، أسفل الجسم ، مراحيض ، يتبول .
عجز : سلبية ، يعاني ، واقفة (= تمرد ضد وجوب الإقعاء ، غيرة
من الصبيان) .

حَقَّرَ : خفر ، يخنّى ، مرثية ، تتعرّى ، أن لا تكون مرثية •
وليس ثمة ، في هذه الأفكار ، أي انطباع إيجابي ولا انطباع مجيد ،
على أي حال . وهناك ثلاثة ارتباطات تبدو غريبة للوهلة الأولى : طمّث ،
يتغوّط ، غدّارة .

٢ - «الاستطاعة» البولية

كانت المرأة الثالثة المذكورة أعلاه قد قالت لي :

- عندما كنت مراهقة ، رغبت في أن أبول واقفة في أنبوب .
ومع ذلك كنت أنظاها .

ولو أنني سألتها عن الباعث لهذا التصرف ، لأجابت بالتأكيد :

— لأفعل كما يفعل الصبيان .

ولكن لماذا ؟

هو ذا حلم رأته المرأة الرابعة المذكورة أعلاه :

— حلمت بأنني كنت أبول بعيداً إلى حد كبير ، حتى ما وراء الأفق . وجدت نفسي واقفة . كنت أبول دونما جهد ، ومع ضرب من الشعور بالقوة والحرية . ثم تلاشى حلمي ، ورأيت صاروخاً كان يصعد في السماء الصافية .

هنا ، يوجد شعور بـ « الاستطاعة » البولية ، يعقبها رؤية صاروخ .
ولكن لماذا ؟

وقالت لي امرأة أخرى بلغت الثالثة والعشرين من عمرها :

— إن البول ، بالنسبة إلي ، يمثل الخجل والدونية دائماً ، وعلى وجه الخصوص عندما أكون في زيارة ، وأعلم أن الموجودين يعلمون . يا لحظ الرجال !

لماذا ؟ وماذا يمثل ذلك ؟

وقالت لي امرأة أخرى أيضاً ، عمرها ٥٤ سنة :

— يبول الرجال أحياناً في وسط الشارع ، ولا يكادون يمتنعون . فلماذا ، في الواقع ، يُمنع ذلك على النساء ؟

ولماذا ، في الواقع . يوجه الشرطي (ولا يزال) مجرد توبيخ إلى مراهق يبول بصورة مكشوفة . في حين أنه يقود إلى السجن صبية تقوم

بالوظيفة ذاتها جهاراً ؟ لماذا هذا الاختلاف ؟ وإلى أي شيء ترمز هذه الوظيفة ؟

كلّ يعلم أن الصبيان الصغار يجرون مسابقات لمعرفة من يبول الأبعد والأعلى (وسرى أن هاتين الكلمتين المكتوبتين بالحرف الأسود تنطويان على أهمية كبيرة) . ومن المعلوم أيضاً أن البنات ، تحت ضحكتهن المكومة ، يحسدنهم . وفي هذا المجال أيضاً ، لو سألناهن ، لأجبن معاً : «لأننا لا نستطيع أن نفعل مثلهم » .

هل هذا هو الجواب المناسب بصورة واقعية ؟ ماذا يحسدن في الواقع ؟ هل هي « حربة » الصبيان ؟ أم هو شيء آخر ؟ ومن أي شيء من غيورات (كالمرأة ذات الثماني والعشرين ، المذكورة أعلاه) ؟

٣ - الخجل من أعضاء النساء

لن تبول بنت سوية على مرأى من الغير إطلاقاً . إنه لأمر غير منطقي إذا قارننا مع الصبي .

فلنصوّب الآن : لا تشعر البنت الصغيرة بالخجل ، مع ذلك ، إلاّ ابتداء من عمر معين . وثمة عدة عوامل أولية تتدخل في هذا المجال :

— العامل الثقافي . تسمع البنت الصغيرة يقال « هذا وسخ ، هذا أمر لا يفعله ، خبيّ هذا ، الخ » . وهي تقارن وضعها بوضع الصبيان الذين يبدون حربة تكاد تكون كلية ودونما الزعاج واضح . وتكتسب البتية — دون أن تعلم السبب — ضرباً من مفهوم الخجل ، مرتبط بوظيفتها البولية .

خجل الأمهات . ثمة عدد من النساء ، كبير جداً ، ينظرن إلى

أعضائهن التناسلية على أنها تسبب الذل والخوف ، وعلى أنها ملوثة بالخطيئة والإثم . وينقلن هذا الإحساس بالخزي إلى بنياتهن بكلام أو بمواقف تظهر خجلهن من الوظيفة البولية . ولكنهن ، في الوقت نفسه ، ينقلن الانطباع إلى البنت بأن « أسفل الجسم » لا يمكن أن يُرى بأي حال .

البنت محرومة من الخطوة بفعل طبيعتها ذاتها . فلماذا ؟ ما هي الوظيفة البولية بالنسبة إلى الصبي ؟ إن الوظيفة البولية تمّ بعضو خارجي ، متميز عن الجسم بفض الشيء ، عضو يمكنه أن يتناوله باليد وكأنه شيء . ويبدو عضو الذكر لدى الصبي دونما علاقة بداخل الجسم . إنه عضو يمكن أن يُرى . بضاف إلى هذا أن الصبي يستطيع أن يبول واقفاً .

ولكن ما الوضع بالنسبة إلى البنت ؟ جميع الأعضاء التناسلية مجتمعة معاً داخل الجسم . لقد قال لي بعض النساء :

— لو أن الناس نظروا « في ذاتي » بصورة كلية ، لرأوا جسمي السري ، المخبأ ، غير المرئي .
— الإقعاء حركة مهينة .

— سيرى الناس أني بنت (شعور بالدونية بالنسبة للصبي) .

٤ — تجاوز الوظيفة البولية والوظيفة الشرجية ، أو المقتدرة .

هو ذا ما هو مهم فيما أعتقد .

قالت لي إحدى النساء :

(*) فتحة مشتركة للدروب البولية والمعوية والتناسلية لدى بعض الفقريات ، وعلى

وجه الخصوص لدى العصافير « م » .

— لدي انطباع مخجل بأن الفتحة البولية والشرح ليسا سوى شيء واحد .

وقالت المرأة الأخرى ، المذكورة أعلاه :

— في كلمة « تقعي » (الفرنسية) ، توجد كلمة « ردف » .

وقالت امرأة أخرى :

الرجال يُحسدون . عضوهم متميز . أما نحن ، فاننا نحس بأن البول والطمث يتمان بعضو واحد . . . وهذا انما هو ، على ما أعتقد ، ما يضيف علينا الشعور الهائل بالدونية .

يضاف إلى هذا أن كثيراً من النساء لا يميزن في الذهن بين الوظيفة البولية والوظيفة الشرجية . فهن يخلطن : في الذهن دائماً ، هاتين الوظيفتين في ضرب من « المقذرة » الواحدة . وهل ينبغي أن أذكر بارتباطين سابقين : الطمث والتغوط ؟ إن الفتحيتين (البولية والشرجية) غير مفصولتين ، لدى البنت ، إلا بفواصل بسيط . ويفهم المرء فهماً جيداً هذه المهانة التي تشعر بها المرأة .

وليس هذا كل شيء .

ففي بعض الأرياف ولدى بعض الأقوام ، ثمة نساء يبطن واقفات . وبعضهن يفعلن ذلك على نحو مرئي ، بادئات ضرباً من « المنافسة » مع الرجال . ولكن أي منافسة ؟

• — تجاوز المادة

ماذا يعني ، من الناحية الرمزية : تقعي ؟ لنقارن ، مرة أخرى كذلك ، بين البنت والصبي .

عندما يبول الصبي ، يطرح المادة . إنه يقذفها بعيداً عنه . إنه سيدها .
ولكن ثمة ما هو أكثر .

وإذ تكون البنت ملزمة بالإقعاء ، فإنها تكون قريبة من المادة التي
تخرج منها . وهي تظل ، من الناحية الرمزية ، « على أربعة أرجل » ،
وقريباً من الأرض . بولها يسيل تحتها . وتبقى ، من الناحية الرمزية أيضاً ،
« في سائلها » فلا تستطيع أن تطرحه بعيداً عنها كالصبي ، ولا تستطيع أن
ترسم له مساراً ارادياً ، ولا أن توجه قذفه . إنها تخضع له .

انظروا مرة ثانية إلى ارتباطات كلمة « يبول » . ثمة امرأة نجيب
غدّارة ، أي آلة تتيج أن تقذف مقذوفاً ، وتطرّحه بعيداً ، وتقهر
الثقالة ، كما يفعل صبي يقذف بوله . فالغدّارة تقهر المادة ، ويبدو أن
الرصاصه تفلت من الثقالة فترة .

هذه المرأة الصبية قالت لي فيما بعد ، إضافة إلى ذلك :

— كنت أريد أن أجيب « يبول بقوة » ، فلم أجرؤ . إن لدي
انطباعاً بأن ذلك وقف على الرجال .

واستمرت في حديثها :

— أحب أن أرمي بالغدّارة ، وخصوصاً إذا كانت اللريثة بعيدة .
وأستطيع ، على هذا النحو ، أن أحدد بالحساب مساراً مائلاً . فكلمة
« يبول » أثارت لدي هذه الغدّارة . ذلك أنني آسفة — وجميع النساء
ينبغي أن يكنّ في حالي — لأننا لا نستطيع . . . ! (ترددت وضحكت)
أن نبول ، إذن ، بقوة ، في اتجاه شجرة أو حائط ، راسمات للسائل
مساراً وحرّكة .

وهذه هي الفتاة معوق مجدداً . إنها لا تشعر بأي إحساس بالقوة . ولا تستطيع أن « ترفض » هذه المادة التي تسيل . أما الصبي ، إياه ، فإنه يقذفها بعيداً كما لو أنه يقذفها تحدياً .

٦ - الأهل يلعبون اللعبة

نعلم أن كثيراً من الأمهات ، إذ يشعرون بالإجباط كونهن نساء ، ينقلن إلى أبنائهن الطموح الذي لم يستطعن تحقيقه . ويصبح الابن « صنوهم » الذكر : وكل هذا يحدث بصورة لاشعورية . إنهن يحملن الصبي عارياً . وهنّ ، إذ يفعلن ذلك ، يتباهين بأنفسهن دون علم منهن ، ومع كل ما يفترض ذلك من أضرار .

الصبي حامل عضو الذكر . وهذا العضو ، في هذه الحال ، يصبح ، بالنسبة إلى الأم ، « علامة » ما كانت ترغب في أن تكون : رجل .

ماذا نلاحظ ؟ تعامل الأم عضو ابنها وكأنه شيء محبوب . ألا تعرفون هؤلاء النسوة اللواتي يسمين عضو صبيهن الصغير أسماء تدل على الحنان بصورة مضحكة؟ ويكتسب الذكر الصغير انطباعات مفاده أن لعضوه الذكر قيمة في ذاته ، وأنه يمثل شيئاً موضع إعجاب ويستحق الإعجاب ، وأن الأمر ليس ، على الإطلاق ، أمر عضو كغيره من الأعضاء ، بل أمر شيء ما يتصف بأنه « عظيم » ، و « نبيل » ، وموضع حسد ، ومدلل ، وثمين ، الخ .

وما وضع الآباء ؟ اللازمة معروفة : « قفي منتصبه كالرجل ! » ، أو « بولي واقفة كما يبول الرجال ! » ، أو كذلك « البنات ، هذه تقعي ، وليس الصبيان ! » ، الخ .

وبالاختصار ، يجعل الأهل من عضو من الأعضاء ضرباً من الرمز .
والطريق ممهدة لكي « يقع الصبي الصغير في الفخ » . فهل يملك إذن
« شيئاً ما » يتصف إلى هذا الحد من الاعتبار والتقدير والاحترام ؟ إنه
يتوحد بعضوه الذكر . ويعتقد بأن « استطاعته البولية » تمثل استطاعته
الشخصية . وهو ، من جهة أخرى ، يتوحد باستطاعته التناسلية ، أو
بعدد أحصنة سيارته .

وما الوضع بالنسبة إلى البنية ؟ لن تكون أعضاؤها التناسلية ابداً
موضع تسمية بأسماء تدلّ على الختان ، تطلقها أمها عليها ، ولا ،
بالطبع ، أبوها كذلك .

تصوروا بنية لها أخ صغير . فهي تسمع أمها « تدلّل » عضو الصبي
الصغير كما لو كانت ازاء موجود حي ، ولكنها تسمع ، فيما يخصها ،
يُقال إن عضوها لا يمكن إظهاره ، ويتصف بأنه مخفّ بالحياء ، وقدر ،
الخ .

وتسقط البنية في الدونية . وأي امرأة لا تتذكر ذلك ؟ إن البنت
الصغيرة تصبح تلك التي ليس لها عضو مجيد ، وتلك التي ليس لها غير
« ثقب » ، وتلك التي لا تتسم بالجدارة الملكية ، جدارة أن تبول ،
واقفة ، إلى بعيد وبقوة ، بل تلك التي ليس مباحاً لها إلا أن تقعي ، سرّاً ،
لكي تتشّف فيما بعد ، خجولة .

وإذا توحدت البنت ، هي أيضاً ، بأعضائها التناسلية ، فإني أدعكم
تفكرون بالإحساس اللاشعوري ، غير القابل للشفاء ، الذي ينجم عن
ذلك خلال حياة كاملة برمتها .

وقبل أن نتابع حديثنا، أعتقد أنه لا بد من أن نكتف كل ذلك على صورة تخطيطية :

الوظيفة البولية

صبي	بنت
واقف	مقعية
بصورة مرئية	وهي محتجبة
بقذف ببوله	ترى بولها يسيل تحتها
عمل سريع	عمل بطيء (التعري واللباس ثانية)
عمل يُنظر إليه على أنه طبيعي	عمل يُنظر إليه وكأنه مهين ، قدر
فاعلية إرادية	سلبية ، خضوع للمادة
ظاهرة خارجية بالنسبة إلى الجسم	ظاهرة تحدث داخل الجسم
يُميز الفتحة البولية من الفتحة الشرجية	يمكن لها أن تخلط ، في خيالها ، فتحتي البول والشرج
عضو ذكر برفع من شأنه الأهل	فرج لا يبالي به الأهل ويحتضره الصبيان
إحساس بالاستطاعة و « النبالة »	إحساس بالعجز والحجل
بتوحد بعضوه التناسلي مفتخراً	لا تستطيع التوحد على نحو إيجابي بعضوها التناسلي
منتصب على نحو مرئي كمنتصر	تقعي على نحو خفي كمغلوب
فوقية	دونية

تلك إنما هي بداية خدعة جديدة تسول النفس لبعضهم أن يسميها على نحو مضحك ، العظمة . وتجعلنا هذه الخدعة نفهم الكماشة التي تنغلق على المرأة فهماً جيداً .

ذلك أن الوضع يتصف بأنه مرعب إلى حد كبير بالنسبة للمرأة . فقد تحملت حتى الآن نتائجه الشاقة ، ولا نرى نهاية لهذه الظاهرة التي تتسم بأنها شديدة الخطر بمقدار ما هي لاشعورية .

والخوف ، (والكلام عليها دائماً) ، هو المسؤول عن ذلك . فهو ينشد سمفونية من حركتين : الأولى ، سأصفها في الصفحات التالية ، والثانية ، سأصفها فيما بعد . ومن هو قائد الأوركسترا ؟ إنه اللاشعور الإنساني . والعازفون ؟ إنهم جميع النساء وكل الرجال في العالم ، المتشبهين بالتجزئة منذ الأزل .

والظواهر الخارجية لوضع النساء، في هذا المجال أيضاً ، لا تغير شيئاً في أساس المشكلة .

ثانياً - الحاجة إلى الخلود والاستطاعة

١ - الخوف من الموت

المعابنة الشعبية واضحة : نحن شيء زهيد ، ولكل شيء نهاية . وهذه الحقيقة البسيطة زينتها الفلسفة والشعر والأخلاق . وفكرة الموت نواة الديانات جميعها ، والأساطير كلها . وليس ثمة موجود إنساني لا يلاحقه اليقين ، بصورة شعورية أو لاشعورية ، بحتمية الموت ، مع ما يرافقه من شعور بالضعف والعجز ، ينجم عنه . وتدور حول هذا المحور الوحيد جميع الأفكار والأعمال الإنسانية ، سواء كان ذلك على نحو مباشر أو ملتو ، رديء أو رائع .

ثمة مفهوم مرتبط بهذا اليقين بالموت : مفهوم الزمن الذي يتقضي ويتلاشى . أما الوجود الإنساني ، فإنه يرفض . ذلك أن مفهوماته للموت ، وضروب التجلي « البطولي » ، وتحدياته ، هي ضروب من الرفض الخفي . ولا بد من تريباق لهذا اليقين وهذا الخوف . والتريباق ، في بساطته الأولية ، متوافر . وحسبنا أن نجد أصداداً من النوع التالي :

اليقين	التريباق
ضعف	قوة
دونية	تفوق
قابلية الانجراح	مناعة
زمني	دائم
زوال	استمرار
أرضي	سماوي
موت	بعث
فان	خالد

إيجاد الأمن أمر يسير إذن ، وكذلك استعماله . وما على المرء إلا أن يكشف عن ضروب من السلوك الذي يحمي من هذا الحصر . ولكن ، ماذا تفعل المرأة في كل هذا ؟ فلنتظر : إنها ستمثل على الفور .

٢ - التريباق الديني

إنني أستعرض استعراضاً سريعاً جداً : قد يكون تاريخ الأديان أمراً ضرورياً في هذا المجال . ولنقل ببساطة إن الرعب من الزمني يفضي إلى الحاجة إلى الاعتقاد بخلود يتجلى بصور ممكنة شئ ، بحسب الشعوب

والعصور . وعندئذ ، تتلاحق موضوعات خلود الروح والجسم ، والبحث بعد الموت ، والصعود نحو الأبدية ، والمجد للفانين الذين أصبحوا خالدين ، مجد يشتركون فيه مع الآلهة .

ويقود الخوف من الزمن الذي ينصرم إلى موضوعات الديمومة . وعلى هذا النحو يعارض المرء ما يسبب الخوف : وهذا أمر سوي . وما هي ، مع ذلك ، بديلة تثير اهتمامنا : إذا كانت السيادة في الدين لاله ، وجدنا فيه الرموز التالية :

مجد قوة خلق

رموزاً هي خصائص الفكر التقليدية . وإذا كانت السيادة في الدين لإلهة ، وجدنا الرموز التالية :

خصوبة غبطة وفرة

رموزاً هي خصائص الأئمة .

٢ - بدائل الأبدية

وهنا أيضاً ، كانت المرأة دائماً في وضع بين الشجرة والقشر ، لدواع عديدة .

ولا بد من إيجاد بدائل « أبدية » أرضية لمقاومة الرعب من الزمن الذي يتقضي . فيكلف الموجود الإنساني شيئاً ما (أو شخصاً) يجعله يمتد لكي يكون ، في حال موته ، « غير ميت كل الموت » .

هل عُهد إلى المرأة أحياناً بهذه المهمة ؟ أبدأ ، وقد رأينا ذلك من قبل : فالمرأة منبوذة ، وليس لها الحق بـ « عبادة الأبدية » . لماذا ؟

الأبديات اليومية الصغيرة لامتناهية . وهي موجودة في جميع ما

يحاول محو الزمن باشادة الأشياء التي تنوم . ولكن كم هي زهيدة هذه الصور المنقوشة على الرمل ، التي تذكر الموجودات ، على نحو قاس ، بما هم عليه : مصيرهم أن يتلاشوا سريعاً في الهواء ! .

ويبحث الموجود الإنساني ، بوصفه مصاباً بالحصر ، عن هذه البدائل ، بدائل الأبدية ، من خلال أي شيء . تلك هي الأقوال الرسمية التي تؤكد أن فكر الزائل سيظل خالداً (= غير فان) ، وأن عمله يجعله يمتد بين الناس (= غير زمني) . والخوف من الزمن الذي ينصرم بيني وشعلات الذكرى . والكاتدرائيات المنتصبة ، واللبنات ، المجيدة ، والرسوم على الأحجار . والخوف موجود في الشغف بشجرات النسب والحفريات الأثرية . وهكذا ، فإن الموجودات الانسانية تحسب بأنها وضعت نفسها خارج الضفة العابرة ، وأنها تتسلق الزمن وتعب القرون ، كما يفعل الآلهة .

٣ - البنت محرومة من المي

« إنهم يمشون دون ذرية : ليس لهم غير البنات ! »

والعائلة ، التي يتصف اسمها بأن مصيره الفناء ، تخفض رأسها . ويرى المرء ، عندئذ ، أن الآباء يعاملون بناتهم وكأنهن نوافل تلد . والبنات ، ألا يجعلن الاسم يمتد ؟ يا للشيطان ! أيتبدد الاسم هكذا ليفرق في العدم ؟ ويصعد الخوف : لن يكون للعائلة قطعة صغيرة من الأبدية الأرضية .

أتقولون هذا غير صحيح ، وإن ذلك لا يحدث لو كانت البنت

(*) Dolmen : نصب ما قبل التاريخ قوامه حجر كبير مسطح موضوع فوق عدد

من الحجارة المنصوبة .

نحتفظ باسم عائلتها؟ حسن ، فليس الأمر على هذا النحو . ذلك أن الوضع يظل دون تغيير حتى ولو أن الأولاد يحملون اسم أمهم . وستكون المرأة حاملة الاسم ، ولكن لن تكون حاملة المني . فالمرأة ، من الناحيتين الرمزية والثقافية ، لا تمثل التناسل . وهي لا تملك في ذاتها إمكانات تستطيع أن تؤمن للنوع قفزات متتالية من جيل إلى جيل .

وكونها محرومة من المني ، لا تستطيع أن تناضل ضد الزمن . فهي تموت معه . وترى نفسها - في الوقت ذاته - منبوذة في عداد التوابع ، صغيرة وخاملة الذكر ودون مجد .

٤ - عقيدة الصعود

ثمة مثال نقدته بصورة عابرة . إن مريم ، في الديانة الكاثوليكية ، لم تكن قد نزلت من « أعلى » كابنها . فهي أرضية صرف ، امرأة - مادة . وكان لها ابن - إله ، ولكن كان عليها أن تخضع ، على الرغم من كل شيء ، إلى تطهير الاقتبال . وخرج ابنها الإله من الأرض وقد بُعث ، فانفلت على هذا النحو من المادة والأرض (موضوع صعود الجسم نحو الأبدية) .

أما مريم ، فانهم منحوها روحاً طوباوية . ولكنهم تركوا جسمها بصورة رسمية في الأرض . وهكذا كانت قد بقيت امرأة - مادة . وكان لا بد من أن ينقضي حوالي ٢٠٠٠ عام حتى ينص أحد الباباوات (١٩٥٠) على عقيدة الصعود ، التي كان جسم مريم بحسبها ، هو أيضاً ، قد صعد إلى السماء . فرُسم إذن أن مريم كانت قد قهرت المادة أيضاً ، بالرغم من أنها امرأة ، وقهرت الموت والزمن الذي ينقضي .

والاعتقاد بالصعود ، الذي لم يكن غير اعتقاد شعبي ، أصبح على

هذا النحو إلزامياً بالنسبة لجميع الكاثوليك . ثمة امرأة كانت قد دخلت
الجنة الموقوفة على الآلهة الذكور . ولكن مع عدم المساواة مع هذا :
ذلك أن العقيدة كانت ترفض أن تقرّ لمريم « وضع » الإلهة الخلاقة ،
غير مانحة لها غير دور الوسيطة بين ابنها وسكان الأرض .

أليس أمراً ذا دلالة أن تنطلق العقيدة الكاثوليكية خلال الفترة التي
كان يتصاعد فيها تحرر المرأة ، ولكن دون أن يُعترف لها بالمساواة
السيكولوجية بالرجال ؟ (١)

ثالثاً - الانفلات من الزمنية

١ - الرجل رمز الأبدية الأرضية

ولنعد إلى ما يشغلنا . النساء العازبات موضع شبهة ، وكذلك العاقرات
والنساء دون ولد . والعانسات أكثرهن وضعاً موضع الشبهة . يُقال عنهن
غالباً : « لهن لا يقمن بدورهن النسائي ! » وعلى هذا النحو ، يعلن
الناس ، وهم يروجون لهذه النعمة الفاضلة ، أنهم لا يؤمن بتجديد النوع .

ولكن جميع هؤلاء الناس يسخرون تماماً من تجديد النوع ! فما
يقلقهم يتسم بأنه لاشعوري ورمزي . ذلك أن هؤلاء النساء دون
ولد لم يتحملوا الزمن ، بل لم يساعدوا على أن يجعلوه يمتد . فهن يثرن
الخوف ، لأن الموجود الإنساني يحس . من خلالهن ، إلى أي مدى يتصف
بأنه فان وعابر .

يقال : إن الأعزب العفيف لا يتناسل كذلك . هذا أمر صحيح ،
ولكنه يظل منتجاً كاملاً ودائماً . فرمز الأبدية الأرضية سليم .

(١) أنصحكم بقراءة جواب إلى جواب ، ليونغ ، ترجمة الدكتور روفالد كاهن ،
منشورات بوشه - شاستل .

ولنتصور الأرض مسكونة بالنساء على سبيل الحصر . ذلك سيكون من الناحية الموضوعية ، فناء الكوكب . والحال أن المصير ذاته ينتظر الأرض التي يسكنها الرجال وحدهم . ولكن صوت الجرس سيكون ، في رأي الكثيرين ، مختلفاً ، لأن الحياة ، من الناحية الرمزية أيضاً ، ستظل كاملة .

هاكم ثلاثة أسئلة تبدو سخيفة

إذا كانت المرأة تشعر بأنها
غير كاملة لأنها لا تملك عضو

الذكر
فلماذا لا يشعر الرجل بأنه
غير كامل لأنه محروم من العضو
الأنثوي ؟

إذا كان القضيب دائماً رمز
المجد
فلماذا كان عضو الأنثى
دائماً موضوع حذر أو رعب من
جانب الرجال والنساء ؟

إذا كان لا بد للعالم ، غداً
وإلى الأبد ، أن تحكمه النساء ،

مستأثرات بجميع الحقوق
فهل يرغب الرجال ، وقد
أضفيت عليهم الدونية ، في أن
يصبحوا نساء ؟

أليست أسئلة مضحكة؟ كلا، إنها ليست كذلك! فهي تفتح على ماسياتي من حديثنا، وتتصف بأنها ذات أهمية كبرى في فهم «الحرب بين الجنسين» .

٢ - عبادة القضيب

ليست المرأة اذن «مستخدمة» من حيث كونها علاجاً ضد الخوف . ويبقى الرجل رمز الرجولة والقوة التي لا تُدمر . إنه لفخ جميل جداً يقع فيه النساء والرجال منذ الأزل .

لنتذكر الحلم الذي ذكرناه أعلاه . إن المرأة رأت نفسها تبول واقفة وبعيداً . فتعاني الإحساس بالقوة . ثم ترى صاروخاً .

هل هذا حلم غير سوي ؟ على الاطلاق . وملايين النساء يمكن أن يرين هذا المنام ذاته ، بالرموز ذاتها على صور مختلفة . فماذا نرى في هذا المنام ؟

واقفة : أي متصبية ، وفي وضع عمودي ، وفي موقف التحدي .
و« الجسم » في حالة انتصاب .

بعيد : أي إطلاق المقذوف ، والانفلات من الثقالة (كرصاصة الغدّارة ، ص ٨٢) ، وسيدة المسار والحركة .

قوة : أي الانفلات من الإحساس بالعجز الإنساني .

صاروخ : آلة تتيح تحديّ المادة (مغادرة الأرض) ، وازدراء الثقالة (الطيران) ، وثقب الغلاف الجوي (الصاروخ يرمز إلى عضو مذكر قوي) .

ويمكن القول إذن إن هذه المرأة تظن نفسها رجلاً .

ولكن الرجل من يظن نفسه ؟ وهنا إنما ننفذ إلى الخدعة .

نحن نعلم أن الإنسانية سعت دائماً إلى الانفلات ، بأي ثمن ، من خوفها من الضعف والزمنية . فما العلاج الرائج ؟ العلاج هو إنتاج الذكور ، إذ أن المرأة ليست منتجة في ذاتها . ذلك إذن إنما هي نقطة أولى تؤكد « أولية » كل ما يتصف بالذكورة .

ثم يحدث ضرب من الانزلاق . انزلاق ينطلق من الرجل الصغير

اليومي لكي يؤول إلى الرجل - الرمز ، مع تواطؤ المرأة الكامل .
فلماذا هذا التواطؤ ؟ وسبب هذا التواطؤ أن الأمر المطروح هو خوف
الموجود الإنساني ، أياً كان جنسه . وعلى هذا النحو ، يخضع الموجود
الإنساني ، محاولاً نسيان خوفه ، إلى بعض الشعارات :

- رفض المادة والزمي .

- بعض الضعف والعطالة ، رمز الموت .

- وبناءً عليه ، تمجيد كل ما يتحرك ويتصرف بقوة - وكل ما
يمضي سريعاً وينقض ويصدم . وذلك ما يمتد من الكابوي إلى سيارة
السباق ، مروراً بأبطال العضلات أو الفكر ، الذين لا يصيبهم الفساد ،
والذين نلاحظ أن المرأة ليس لها في عدادهم أي مكان ، إن لم يكن مكان
المعجبة .

- بحث عن كل ما « يضيء » ، ويتيح تبليد الظلام ، رمز الموت .
إذن : عبادة النور (الشمس ، والعقل ، والقوة ، الخ) ، وحب كل
ما « يلمع » (المجد ، والمآثر الرياضية ، والمال ، والمظهر ، الخ) .
- تحدي الخطر (الموت الممكن) : المآثر التي تنذر بالخطر ،
وتسلى الجبال العالية ، الخ .

- إجلال كل ما هو منتصب (رمز التحدي) في الطبيعة ولدى
الموجود الإنساني ، وعمودي (يعلو فوق المادة) ، وكل ما هو دائم
ومنع ، وكل ما يسود ، ويثقب ، ويحترق ، ويقصف ، وينجس ،
ويتفجر . ولنفكر بالإعجاب بالعروض العسكرية . وعلى رأسها
العربات والمدافع ، رمز المناعة ، وبالتالي ، رمز الأبدية . فهؤلاء الرجال

أنفسهم ، وهؤلاء النساء أنفسهن ، يتظاهرون ، والحالة هذه ، ضد الحرب في اليوم التالي . ذلك أن العرض العسكري بمثل القضيبي لبلد من البلدان ، وذلك رمز يستسلم له كل امرئ بحماسة .

... وبعبارة واحدة ، إجلال كل ما يرمز إلى عضو الذكر .

ويمكن أن نتساءل كذلك عما يلي : ألا بمجدد القضيبي كثير من النساء لأنهن يرفضن بصورة لاشعورية أعضاءهن التناسلية التي لا ترمز ، في أعينهن ، إلى أي شيء على الإطلاق . هذا إذا لم تذكرهن بأنهن خرجن من بطون أمهاتهن ، أي خرجن من العدم ؟

وعلى أي حال ، كان القضيبي ، طوال عصور الإنسانية ، « علامة » الانتصار على الزمن والمادة . وثمة انزلاق منطقي حدث في اللاشعور الإنساني :

١

عضو الذكر

أصبح

القضيبي ، رمز القوة والمجد

٢

عضو الذكر ، عضو الامتداد في المكان

أصبح

القضيبي ، رمز انبجاس للحياة لا ينضب

٣

الرجل ، موجود إنساني منتج النسل

أصبح

الرجل ، بطلاً سامياً ومتحدياً

والحقيقة أن النساء استسلمن لـ « الحركة » مثلما استسلم الرجال .

٣ - التنافس بين الرجل والمرأة

يعتقد الرجال أن مجرد كون المرء رجلاً (= له عضو الذكر) يمنحه المجد بصورة آلية . والقوة ، والمنطق ، والذكاء ، والإبداعية ، والسيطرة .

أما فيما يخص النساء ، فينقسمن إلى قسمين :

١ - اللواتي يهاجمن الذكر ، وقد غمهن العجز عن الادعاء بالرمز « المجيد » . رمز الرجل . ولكنهن يلعبن اللعبة نفسها ، مسرعات نحو عبادة القوة .

٢ - اللواتي يسقطن في الفخ وقد أصابهن الإحباط للسبب المذكور أعلاه . ويعتقدن في أنفسهن أنهم محرومات من قدرات الذكاء وقدرات العمل ، ومن سمو . وينتهي بعضهن إلى الإعجاب مغتبطات بـ «عقل » الذكر ، دون أن يدركن إلى أي حد يتصف هذا العقل ذاته بأنه بارد ، ولا إنساني . ومحروم من الجذور الداخلية .

ومع ذلك ثمة عدد من النساء متفتحات على أمر مفاده أن على الرجل أن يطابق صورة القوة التي صنعها النساء للرجل . وحذار من أن يكون خائفاً ، ومتخاذلاً . ومقهوراً . ذلك أنه ، من الناحية الرمزية ، ليس له قضيب . وهو يتصف عندئذ بأنه موطوء بالقدمين ، وممزق ، ومحقق ، وبقايا حطام تذرره الرياح في جميع الاتجاهات .

وما « عبادة » القضيب ؟ إنها تمجيد الاستطاعة الأولية والقوة و « التفوق » التي تقهر تهديد الموت . تمجيداً لاشعورياً . فهؤلاء النساء هن ، على هذا النحو . معاديات للرجال بوصفهم موجودات واقعية ، مظهرات في الوقت نفسه إعجاباً شديداً بالرجل على أنه الممثل الكامل لرمز أبدي .

فهل تندهبون عندئذ من أن المنافسة تدور دوراً دائرياً ؟ إن التخطيطية التالية (التي تكمل التخطيطية السابقة) تلخص الاحساسات الراسية في اللاشعور :

امرأة

رجل

امرأة واقعية : غير منتحة	رجل واقعي : منتج
امرأة رمزية : غير خلّاقة ، تابعة للزمن	رجل رمزي : خلّاق يتحدى الزمن
امرأة رمزية : زمن يتقهقر ، مع عودة إلى العدم .	رجل رمزي : أبدية

اللاه التقليدي ، ذكر خلّاق

مطلق ، ورمز مطلق للقضيب .

وعليه ، فليس ثمة من شيء يدعو إلى الضحك عندما يكون الموجود الانساني امرأة واقعة بصورة آلية في شبك هذه الخدعة .

٤ — وكل ذلك سيستمر . . .

— ما دام الموجود الانساني ، بوصفه ليس غير موجود إنساني زمني ،
يسمى ليصبح إلهاً أبدياً .

— وما دام الموجود الإنساني يتوحد بديانة القوة ، أيًا كانت صورتها .

— وما دامت المرأة تقتضي أن يكون الرجل غير ما هو عليه :

منيعاً .

— وما دام التعبير الشائع « هذا ، إنما هو رجل ! » يطابق الديقومة

دون مرونة ، والسلطة دون رجوع فيها ، والديكتاتورية دون رحمة ؛

وما دام هذا التعبير يكسو المغامرين ، وأبطال السينما ، وأبطال الرياضة ،
والملاكمين ، والأقوياء ، ولا يتوجه إلى أمثال أنشتاين ، وبتهوفن ،
وشويتزر ، ولوكوربوزيه ، وسترافنسكي .

— وما دامت القوة الأولية لا تنزلق نحو ذكاء القلب والعمل الذي
بنجم عنه .

— وما دامت المرأة متواطئة في هذه الحالة من الأمور .

ولكي يكون المرء متشائماً :

ما دام شعور الوجود الإنساني بالضعف والعجز مستمراً ، أي
دائماً . . . أو على الأقل ما دام هذا الوجود الإنساني يرفض أن يكون
محروماً وسريع الزوال كالفراشة .

كانت إحدى النساء قد قالت لي : « الرجال يقتل بعضهم بعضاً ،
والنساء ينهش بعضهن بعضاً » .

مليارات من الرجال سادوا مليارات من النساء خلال القرون .
إنه لضرب من إبادة الجنس الوجدانية .

ذلك يعني أن ثمة كثيراً من المجرمين وكثيراً من الضحايا ، الأمر
الذي يتصف بأنه عبث .

ما الباعث العميق إذن ، الذي استطاع أن يغذي مثل هذا الوضع ؟
المرأة قادرة ، بفعل خصائصها الأنثوية ، على ارتكاب فظاظات
شرسة ترعب الرجل الأكثر إثارة للخوف . وهذا هو السبب ، على
الأرجح ، في أن كثيراً من النساء يتبادلن الكره : فمجتمع الغاب يعيش
في أعماقهن ، دون شفقة ولا رحمة .

على الرجل أن يصنع آلهة مصطنعة وخارجية تطمئنه وتحميه . أما
بالنسبة إلى المرأة ، المتصلة بالأشياء ، يتصف دائماً أي إله بأنه طبيعي
وداخلي ، أو أنه ليس باله .



الفصل الخامس

المجازر وضروب التآخي

لو لم تكن المرأة موجودة لاخترعها الرجال .
سيمون دو بوفوار .

١ - الرجل المدعور امام المرأة

تابعت بانتباه عدداً من المناظرات حول المرأة ، واعتراضي منها ضرب من الدهول . ذلك أن أسس الحروب بين الجنسين لم تُعرض أبداً . بل من المرجح أن الناس لا يحسّون بها . ولا ينصب الحديث إلاّ على حوادث اجتماعية وحقوقية تنصف ، مهما كانت صحيحة وأساسية ، بأنها ثانوية بالقياس إلى البواعث التي أوجدتها .

وخلال هذه المناظرات ، لم أسمع أبداً ذكر السبب الواحد الوحيد لهذا الصراع الماضي والحالي ، والمستقبلي ، صدّقوا ذلك . وفي أحد الأيام ، كشف الباعث مع ذلك عن قصده . قال أحد الرجال :

— ولكن ، لا بد ، أخيراً ، من أن يكون ثمة ضرب من اللامعقول في جهة ما .

لقد كان ذلك كل شيء . وأي شخص من الحاضرين لم يلفت الأنظار إلى هذا الكلام . واستأنف المتناظرون ، على نحو أشد ، حديثهم في جو تسوده الانفعالات . والتهكم اللاذع ، والمبارزات اللطيفة بصورة مزيفة ، والأزهار التي بحفّ بها الشرك ، وضروب التظارف الأخرى .

والفتاح بسيط مع ذلك .

كل رجل يخاف المرأة . فهو يعاني رهاباً عميقاً مما تمثله المرأة بالنسبة إليه .

يُقال ، في الغالب ، إن المرأة دمّرت الأسطورة القديمة ، أسطورة الأنوثة ، حين نالت الاستقلال ، وإن الرجل « الحديث » لم يعد ينظر إلى المرأة على أنها موجود مثالي ، وحلم بعيد المنال ، وشيطان حبيب . الخ .

والواقع أن هذه الأساطير : إياها ، هي على أحسن حال . فالمرأة لم تُجرد من صفة القداسة : إنها ، على سبيل الحصر ، سجيّة عالم الذكر : الأمر الذي يتصف بأنه أجمل صورة من صور العبودية التي أدّخرت لها . أما بالنسبة إلى مخلوقات « الحلم » ، فالصناعة كفيّلة بصنعها .

والعالم الراهن حديث في مظهره الخارجي لا في جوهره . لأن لإشعور الرجال والنساء يتصف بأنه قديم قدم النوع الانساني . فأكثر ضروب الانتقال شدة في حديقة من الحداثق لايعني إطلاقاً أن الأرض تتحرك على بعد مائة متر عميقاً . وإذا لم يطرأ أي تغيير على السبب ، فلماذا يكون المفعول مختلفاً ؟

وعندما يكون الأمر ذا علاقة بالمرأة ، فليس ثمة من مكيا ل وسط .
إن تاريخها هو تاريخ الأفاعي والهررة : فهي من جهة مكروهة ، محتقرة
ومنبوذة ، ومن جهة ثانية موضع التقريظ والإعجاب والدلال .

والمرأة ، منذ بلوغها ، مسحوقة في ظل رمزية ذات وجهين : فهي
معاً ، تمثل الحياة والموت ، والنور الظلام ، والإنبات والتعفن ؛
والبركة والرعب .

والمرأة ، من جهة أخرى ، لا تضحك . هذه الذاتية الهائلة ، ألم
تسد الطريق عليها منذ الأزل ؟ ويمكن التساؤل كم مرة كانت إحدى
النساء ، خلال حياتها ، موضع اعتبار حقاً وحب أو كره ، لما هي عليه
بصورة موضوعية .

وتبدلت الحضارات وانقلبت القوانين وتطورت الأزياء ، ولكن
أسلوب إحساس الرجل العادي بـ « المرأة » لم يطرأ عليه أي تبديل .
وعلى وجه العموم ، فالمرأة ، والحالة هذه ، موضوع نوعين أساسيين
من الخوف الذي يحس به الرجل على وجه الخصوص .

أ - خوف حيواني يتصف بأنه لاشعوري ، ولكنه يتجلى بضروب
عديدة من السلوك . ويقع هذا الخوف على مستوى النوع . فالرجل لا
يخاف « المرأة » ، ولكنه يخاف ما ترمز إليه بالنسبة له .

ب - خوف سيكولوجي : فالمرأة تُخشى لبعض المواقف ،
كالنظرات وضروب السكوت والكلام . الخ .

من أي طرف نمسك بالصعوبة ؟ إن العواطف التي يشعر بها النوع

المذكور هي من التنوع والتناقض بحيث ينبغي البحث عنها قبل البحث عن جميع شاخصات اللاشعور الانساني الثابتة . ولهذا السبب ، أقترح عليكم أن نسلك بعض الدروب الثانوية قبل أن نعالج المحور الرئيس .

٢ - هل خوف الرجال خوف شعوري ؟

الرجال ، على وجه العموم ، يدركون على سبيل الحصر أن بعض النساء يذلنهم ويجهلنهم في حرج . فهم يحسون بضرب من « الضيق » المبهم ازاء بعض نظرات النساء ، وبعض مواقفهن التهامية أو المتعالية ، والمتغترسة أو اللامبالية . ويختلف الخوف بحسب عمر المرأة ، وجمالها ، وذكائها ، واون شعرها أو عينيها . ويزول الخوف لدى كثير من الرجال إذا كانت المرأة ميّالة إلى الوداعة ، بلهاء أو « رفيقة طيبة » .

كان أحد الرجال قد قال لي :

— عليّ بالتأكد أن أخشى النساء . ولكن أي النساء ؟ جميعهن على وجه الاحتمال . عندما تقترب مني امرأة ، أغيرّ موقفي بصورة آلية ، وأصبح عدوانياً ، أو محترقاً ، أو متباهياً ، أو فتاناً ، أو مرحاً ، أو أنيساً . ولكنني أحس بأن جميع ضروب السلوك هذه مزيفة . إنني لا أستطيع أن أحدّد النساء اللواتي يثرن خوفاً علي نحو أشد : هل هن الأكثر فتوة ؟ الأكثر جمالاً ؟ هل هن المثقفات ؟ كل ما بوسعي أن أقوله هو أنني لا أخشى النساء الطاعنات في السن ، فأنا أظل أمامهن طبيعياً . والحقيقة أنني أعتقد أن خوفاً يبدو أمام النساء اللواتي ينصفن بأنهن فتيات جداً ، جميلات ، واللواتي يظهر أنهن حصينات ، أو لامباليات بشخصي . ويبدو خوفاً كذلك أمام اللواتي يتسمن بالبرود . . .

كان هذا الرجل يحيط بصعوبته العميقة كل الإحاطة .

فألخوف ، والحال هذه ، يشير دائماً ، لدى الرجل ، ضرباً من
الخطر والتراجع « الغريزي » ، وحالة من التيقظ ، وأسلوباً معيناً من
الاحتراس . وبعبارة أخرى : يولد هذا الخوف ردود فعل .

ولكي نقارب الصعوبة على نحو أفضل ، إليكم بعض الارتباطات
بين كلمات ، ارتباطات صنعها رجال ونساء طلبت إليهم غض النظر عن
كل سياق اجتماعي ، والإجابة على نحو يتصف بأكثر ما يمكن من
التلقائية .

الكلمة المقترحة : امرأة

أجابت امرأة عمرها ثلاثون عاماً :

— في أمريكا ، تحمل الأعاصير والزوايح والقنابل أسماء نساء . فهل
نحن على هذه الدرجة من الخطر والتخريب ؟ صحيح أنني لا أحب المرأة
وكثيرات منهن يستطعن إنجاز شاعات تجعل شر الرجال يتراجعون .
فعندما تصيح المرأة متحجرة العاطفة ، فإنها إنما هي حيوان أصابه الغيظ .
وهي غضبة عمياء .

وأجاب رجل في الأربعين من عمره :

— المرأة ؟ ياه ! ذلك أمر يترجح في نفسي . هل هو جيد أم
رديء ؟ الخطر ، الخطر ! المرأة ؟ هائلة ، ومدهشة ، وشديدة الخطر ،
وخؤون ، ورائعة . . . إنها كل ما لا يتصف بالواقعية على وجه التأكيد .
ولكن ما العمل ضد هذا الاحساس ؟ إنها نعمة . إنها الضباب المخدر ،
والأرض الزلّيقة التي تضم ثقباً كبيراً من الماء .

وأجابت امرأة في الخامسة والعشرين :

— أنا ، يوماً من الأيام ، آمل . وبانتظار . . . أمي . إن المرأة هي
من تراقب ، ومن تقدر الناس ، ومن تنسج شركها ، ومن تقترس .
وأجاب رجل في الخامسة والعشرين :

— فراغ ، الفراغ . إن النساء يجذبني كالماء ، كالهوة . خوف .
رغبة . مخنوق . محتقر حتى القدمين . مهتكات . بستان فسيح ، ذو
نور ذهبي ، سرغامض . طيبة هن أم شناعة ، لست أعلم . . .
وأجاب امرأة في الثانية والأربعين :

— نعم . . . نحن عجيبات . . . قدرات على أعظم التضحيات
وأشد ضروب الدمار . . . النساء يكرهن الحرب . ولكن لماذا هن أول
من يصبح عندما يمر الجنود الظافرون في عرضهم العسكري ؟ فكيف
يفهمنا النام ؟

وكانت إجابة امرأة في الثامنة والعشرين :

— الرجال يقتل بعضهم بعضاً ، أما النساء ، إياهن ، فينهش بعضهن
بعضاً .

وأجاب امرأة عمرها واحد وعشرون عاماً :

— نحن نقدر بعضنا بعضاً بالدقة ، ونطلق كلاماً مسموماً . وذلك
ما لا يشجعني على أن أكون امرأة .

وأجاب رجل في الثانية والأربعين :

— خطيبة طاهرة ، فارس ، محبة . روح . عذوبة .

رجل في الثالثة والثلاثين أجاب :

— تتزلق في الفترات العصبية . احترام عميق . ينبوع الحياة . إلهة .

رجل في الثانية والعشرين :

أصاب بالذعر عندما تكون خطيبي ساخطة ، إنها تجعلني أفكر
بالإعصار .

رجل في السادسة والثلاثين :

— حذر . سر غامض . ريبة . وأظافره كأنها المخالب ! تزييف .
حاجة إليهن . حنان .

وأجاب رجل في الثامنة والثلاثين :

— تثير النساء أعصابي . شعور طويلة . يثرن أعصابي . جاهزات
دائماً لالتهامك .

رجل في الخامسة والعشرين :

— حلم بعيد المنال . شرّك وراحة . تناقض في ذاتي . تدفق الحياة
والحب تدفقاً بطيئاً . قوة عمياء . إنهن يتقدمن ببطء ويبتلعن . أحفظ
بابتعادي عنهن . خطر . سعادة سامية .

وأجابت امرأة في الرابعة والثلاثين :

— نظرة باردة . لا أحب صحبة النساء . إنهن يعملن في الخفاء ،
باستثناء اللواتي يتصفن بأنهن حنونات جداً كالأمهات . والفتيات منهن
يخفني .

رجل في السابعة والعشرين :

— بياض . قاعدة النور . تمثال في بستان . حب واسع . أبدية .

رجل في الثامنة والأربعين :

— قدرات على كل شيء . إنني أقود ثلاثمائة رجل ، ولكنني أخاف سكرتيرائي . غير محتملات . خطر .

رجل في الخامسة والعشرين :

— غير معروفة . قف ! رفيقة مثالية . مفارقة .

رجل في التاسعة والعشرين :

— بطن . عدم . سعادة ورعب . جمود . نظرة قائمة . ثوب من النور . عنراء زرقاء . ظلام سحري . ساحرة .

ماذا ينجم عن هذه الارتباطات التي أخذناها جزافاً من بين المئات؟ إنها ، جميعها ، متشابهة . إنها الكلمات نفسها ، والصور ذاتها ، والإحساسات عينها .

ولكن من اليسير أن يلاحظ المرء أن المرأة محسوسة على نحو إما مغال في الإيجابية وإما مغال في السلبية . ويصعد الميزان أو يهبط بطريقة مبالغ فيها بوضوح . ومن المؤكد أن هذه الارتباطات ، إياها ، انطباعات ذاتية جداً : وليس بوسع أي موجود إنساني أن يكون مطابقاً لها . ولكننا نستطيع الآن أن نأخذ بالحسبان أن « المرأة » تثير في وقت واحد :

أ — الحذر والخطر :

ب — البعيد المثال والحلم الفردوسي .

هذه الارتباطات ذاتها كان يمكن أن تتم في العصور الوسطى كما

تم في أيامنا هذه . إنها تنبعث من تيارات لاشعورية تقود الرجال والنساء ،
وتزيّف الحياة الاجتماعية بالتأكيد .

ويظلّ تحرر المرأة الحقيقي متعذراً ما استمرت هذه الذاتية وهذا
الخوف .

٣ - كيف نسلك ؟

ولكي نفرز الميدان ، سنفحص كلاً بدوره :

- الاحساسات السلبية .

- الاحساسات الايجابية .

يضاف إلى هذا أنه لا بد لنا من التساؤل إلى أي مدى يخاف النساء ،
هنّ أيضاً ، من النساء . وهل يخفن للسبب ذاته ، سبب خوف الرجال
منهنّ ؟ وهل هذا الخوف : خوف النساء من النساء ، هو بالدرجة نفسها
من الاتساع والعمق ؟

أولاً - الاحساسات السلبية

١ - كيف يحس الرجل بالمرأة

لنطرح أول الأمر بعض الأسئلة :

لماذا كانت المسبّة ، « امرأة قلرة » ، شنيمة بالغة ، سواء نطق بها
رجل أم نطقت بها امرأة ؟ ولماذا لا تنطوي الإهانة « ذكر قلر » ، على
المظهر ذاته من الرعب . وإن أثارت ظلاً من الوحشية الراشحة ؟

— لماذا تبدو امرأة سكرانة أكثر انحطاطاً من رجل سكران لا يشرب ،
بالرغم من هيئته المهملة ، غير ضرب من السخط المسائي ؟
هو ذا سؤال آخر طرحته علي إحدى الصبايا :

— لماذا يشعر المرء بالاستطاعة المراقبة جيش من الرجال سائر ؟
إنه يخيف بقوة ذاتها التي تبدو مجيدة لا تفهر . ولكنني إذا رأيت جماعة
من النساء يمشين مشية عسكرية ، أحسست بضرب من الحصر . إنها
استطاعة أكثر اتصافاً بأنها سرغامض وبأنها أكثر كموناً ، وهي ، في
نهاية الأمر ، أكثر تهديداً . ولكنهن يشعرنك بأنهن قادرات على كل
شيء ، وأنهن قادرات على إفساد الضبط في أية لحظة ، وعلى الاستحالة
إلى جنيات عمياوات دون حدود . . .

وسرى أن في هذا الكلام شيئاً مهماً جداً . ولنشر من جهة أخرى إلى
أنا وجدنا من قبل . في هذه الارتباطات بين الكلمات . التي كوئنتها
النساء ، كلمتين من هذه الكلمات ، كلمتي هياج وأعشى .

وإذا كان صحيحاً أن نوع الذكور يحتمي من النوع الأنثوي ، فان
بعض الارتباطات بين الكلمات يمكن أن ترشدنا إلى ذلك . والاجابات
يقدمها النساء (ن) والرجال (ر) . ولنتذكر أننا لن ننظر ، حالياً ، إلا إلى
الإجابات السلبية .

الكلمة المقترحة : أنثى

مجتمع الغاب (ن) عيمان نصف مفتوحتين وشعر

طويل (ر)

عنكبوت (ر)

تسحق (ر)

تملك وتنبذ (ر)	قبر (ر)
تحيل إلى العبودية (ر)	موت (ر)
تبا لها ! (ن)	ثلج (ر)
افتراس (ن)	ثوب ديني (ر)
هياج (مرة أخرى !) (ر)	بقرة سمينة (ن)
وجبة (ر)	مفترس (ر)
أخطبوط (ر)	نظرة دون رحمة (ر)
ممزق (ر)	شريعة (ن)
كلا ، شكراً ! (ن)	يبيض (ن)
رعب (ر)	مستنقع (ر)
فظاظة (تكرار) (ر)	تورط (ر)
هلامية (ر)	عاصفة (ر)
غضب أبيض (ر)	ذلك يلغوي (ر)
تلاطم أمواج البحر (ر)	صمت غير شهوي (ر)
ديبق (ر)	استطاعة خفية (ر)

آسف ، لأنني لم أفعل سوى أنني كررت . إليكم الآن بعض
الارتباطات بين الأفكار ، ولكنها سلبية دائماً .

امرأة في الثلاثين :

أنى ؟ . . . إنها . . . بالنسبة إلي . . . انتظر . . . ضرب من
الهاوية المظلمة ، العميقة جداً . أريد أن أكون امرأة ، ولكنني أرفض أن

أكون أنثى . إن هذا لمحال ، إذ أنثى أنثى . أنثى ؟ دوار ، امتصاص ،
دوامة يفرق فيها المرء دون رحمة . إنني جميلة جداً ، ولكنني ما أن
أتحيل الأنثى في المرأة ، أو في المراهقة ، حتى أدوسها بقدمي
رجل في الثامنة والعشرين :

— أنثى ؟ أسد أمريكي . لا بأس ، يمكن للمرء أن يقاتل ، و
يروّض ، ويزيل الخطر . . . بعض الفتيات الصبايا العصريات جداً
ذوات الخاتم في كل اصبع والسوارات في كل مكان . . . فما يريدني ،
إنما هو مظهرهن غير المعبر . إنه الموت . فلست أخشى الأسد الأمريكي ،
ولكنني أخشى كل ما هو ميت .
رجل في الرابعة والثلاثين :

— أنثى ؟ لا امرأة ؟ امرأة ، لا بأس . ولكن أنثى ؟ إنها لحم مكتنز
دونما ذهن . مادة خام لامتمايزة ، تنذر بالخطر ، يرقية . متبهجة ،
ساكنة . هذه ترصدك . ضروب من الغضب المرعب . نزوات . خاضعة
منذ الأزل ، عبدة ، أنثى ، عجباً ! مغوية الرجال ، امرأة لا تقاوم ،
ملتهممة الرجال ، عجباً .
رجل في السابعة والثلاثين :

— هذه الكلمة تذكرني بقول مأثور كوري : « يولد الرجل من
المرأة كما يولد الملح من الماء . فعندما يقترب منها ، تمتصه ثانية ، كما
يحدث للملح في الماء » . ثمّة ما يدفع المرء إلى الابتعاد !
امرأة في الأربعين :

— ليس ثمّة أشجع من امرأتين تتقاتلان ، جاهزتان لأن تمزق إحداهما
الأخرى .

٤ - لنحلل هذا الحصر

أ - مقارنة أولى

كان قد تم اختيار الإجابات المذكورة أعلاه من بين عدة مئات من الإجابات . وكان غير ذي جدوى أن نكررها جميعها ، ذلك أن الكلمات نفسها ترجع بانتظام موقع . ولا تثير الغبطة كلمة « أنثى » بالتأكيد .

ويلاحظ المرء مع ذلك فرقا : فإذا النساء أبدت النفور ، فإن إجابات الرجال تكشف عن الحصر على وجه الخصوص .

ما الموضوعات لدى الرجال ؟

العداوة القلقة ومشتقاتها : تسحق ، تستعبد ، رعب ، نظرة دون رحمة ، الخ .

الخطر (لا الخطر العنيف ، بل الخطر الذي يهدد بصمت) : شريعة الغاب ، عنكبوت ، ساكنة ، عينان نصف مفتوحتين (ترصدان) ، صمت غير شهوي ، استطاعة خفية ، الخ .

القسوة (قسوة غير واضحة ، ولكنها لا يمكن مراقبتها) : افتراس ، هياج ، غضب أبيض ، مفترس ، نظرة دون رحمة ، تلاطم الأمواج ، الخ .

الموت (موت غير عنيف وواضح ، ولكنه ضبابي ، صامت ، يغلف) : شريعة الغاب ، دبق ، عنكبوت ، قبر ، مستنقع ، تورط ، ابتلاع ، ذلك يلتوي ، ممتص ، ثلج ، الخ .

ومن المؤكد أن هذه الانطباعات ، المغالية بصورة سلبية ، تنشأ من حصر عميق لم يتغير منذ الأزل ، وليس للأثني في ذاتها أي يد .

ما هو هذا الحصر ؟

لنشر منذ البداية أن الرجل العادي يحس بأن المرأة تتصف بخصائص داخلية أقوى من خصائصه : بالرغم من أنه يزعم العكس أو يعتقد انعكس . إنه يتنبأ بأن للمرأة استطاعة متضمنة . وماكرة ، وهادئة ، وغير متوقعة أحياناً ، ومدخرة ، ولكنها جاهزة دائماً .

ويشعر أيضاً بأن عليه أن يُعنى بأن لا يتجاوز بعض الحدود ، مهما كان صبر المرأة كبيراً . وعصرنا يبيّن ذلك على نحو تام : فالنوع المذكور «يرخي العنان» : ويمنح المرأة حقوقاً ومسؤوليات وواجبات إلى حد معين ، إلى الفترة التي تستعيد فيها المرأة ، الراضية على وجه التقريب ، موقف الصبر . ومنذئذ ، يتوقف الإحساس بالخطر لدى الرجل .

وعلى هذا النحو إذن . فالرجل يهب المرأة كثيراً من الأشياء ، ذلك أنه يحس بأنه إذا ذهب بعيداً في الاستعباد ، أمكن للاستطاعة الداخلية (القوة الأثوية) أن تدمر السدود وتجوف كل شيء دون رقابة .

وتبيّن الاجابات السابقة جيداً ما ترمز إليه الأنثى بمعناها الذي يتسم كثيراً بأنه «حيواني» : شيء ما «يصنع» المادة الحية ، شيء ما لا امتياز ، ولا صورة له : ومتصف بالعطالة .

ومن جهة أخرى ، لماذا يُشتم موجود غيبي بكلمة (في العامية) تشير إلى عضو الأنثى الجنسي ؟ ولا يُشتم أهدأ بكلمة تدل على عضو الذكر ؟ هذا الاسم الذي يشير إلى الاحتقار يدل إذن على موجود لا قوام له ، وغبي إلى حد يثير الرثاء ، ومتصف بالعطالة ، ويرقي ، ولا صورة له .

ويرى المرء إلى أي حد تنفر الموجودات الانسانية من قبول أنها لم

تكن سوى مادة تترج بالدم وليست ذات صورة : قبل أن تظهر في الحياة الشعورية . فالمسبة « أنثى قلرة » كانت تعني : « مادة لامتمايزة تذكرني ، أنا أيضاً ، بأنني مادة » .

وجميعنا : نساء ورجال ، بدأنا وجودنا في كهف أنثوي ، ولكننا من الاتحاد به بحيث كنا هذه الانثى قبل أن نتمايز . وجميعنا كنا ظلاما وعدما . قبل أن نحوز على قنديلنا ، قنديل الشعور .

هنا إنما يكمن حذر المأساة الإنسانية ، وأساس الرهاب الغريزي الذي كانت المرأة ضحيته في كل العصور .

ب - الخوف من العدم

العدم أقدم عدو للنوع الإنساني .

من العسير جداً معرفة السبب لخوف الانسان من العدم ورفضه له رفضاً قوياً . في حين أن المرأة ، بدءاً من البلوغ على الأقل ، تنظر إليه على العموم بحصر أقل إلى حد كبير .

صحيح أنها تعلم إذن ما هي الحياة : إنها قادرة على أن تصنعها . والمادة لا ترهبها : فبطنها يستجها . وهي لا تعاني الحاجة إلى النضال ضد الزمن : لأنها الزمن . ولا تخشى الطبيعة : فهي ترتبط بالطبيعة بجميع أليافها الجسدية والسيكولوجية .

هذا في حين أن الرجل يجهل ما هي الحياة « الحية » ، ولا يعرفها إلا بعقله . ولم تخرج منه أبداً أي حياة مرثية . وليس للرجل « بطن » يصله بالطبيعة والمادة الحية . فالخسر من العودة إلى العدم ، الذي أتى منه ،

يلازمه . وعليه حساب للزمن الذي ينقضي : لا بد من تسديده . إن حياته
سباق ضد الساعة : وحكّم هذا السباق إضفاء العدم عليه في المستقبل .

الحياة والموت مرتبطان . لدى الذكر . ارتباطاً رحمانياً . والعدم
خوف الذكر ، خوفه الأكثر اتصافاً بالحضور على نحو خفي ، والأكثر
حيوانية ، والأكثر غريزية (والأكثر كذلك اتصافاً بأنه مكبوت) .

فأمة ، والحال هذه ، تسلمه ، بصورة محتومة ، بطاقة الخروج
من الحياة ، وهي تمدّ إليه يدها بطاقة دخوله إليها .

وهنا إنما تتدخل المرأة . فلنبق حالياً في بحثنا عن الإحساسات السلبية
العميقة ، إحساسات نوع الذكور ، ولنحاول أن نأخصّصها .

لازمة نوع الذكور تم في زمنين رئيسين : قبل أن أولد ، ذلك كان
الرعب الكارثي ، رعب العدم . وبعد موتي ، سأنغمر في هذا العدم ذاته .
ولهذا السبب :

١ - أعاني الرهاب من كل ما يذكرني بعدمي الأصلي :

- كوني كنت مادة لامتمايزة (في امرأة) ؛

- كوني كنت جنيناً (في امرأة) ؛

- ولادتي (التي مصيرها العدم) ؛

- بطن المرأة ، وعلى وجه الشمول ، المرأة بصورة عامة ، الذي
يذكرني بما كنت عليه .

٢ - أعاني الرهاب مما ينذرني بعدمي في المستقبل :

— الموت ؛

— المرأة التي تتصف بصورة آلية ، وهي الشاهدة على عدمي في الماضي ، بأنها المنذرة بعمدي في المستقبل .

٣ — أعاني الزهاب من كل ما يرمز إلى العدم :

— ما يتصف بالبرود والظلام والسكون ؛

— ما هو صامت ، وسر غامض ، ومجهول ؛

— اللاشعور ؛

— المرأة التي بطنها ، مغارة مظلمة ورطبة وسر غامض ، يذكّرني

بسرعة العطب التي يتصف بها قدرتي الخاص .

— بعض ضروب سلوك النساء ومواقفهن ونظراتهن ، هؤلاء النساء

اللواتي ينبتني بضرب من المهانة ، والصغار ، وانتقاص القيمة ، ووضع موضع الشك ، والتهام شخصيتي .

وإذا كان كل ذلك يطابق الواقع اليومي ، فإن لدى المرأة ما ترتعد منه ، بالنظر لما تمثّله بالنسبة إلى الرجل . والحال أن ذلك قائم ، والمنعولات الناجمة عنه ، وإن كانت متنوعة إلى ما لا نهاية ، يسهل الكشف عنها في تاريخ الانسانية برمته .

وبالاختصار : ترمز المرأة إلى المجال الأعلى لخصر الرجل الميتافيزائي .

وهذا هو السبب في أن « عبادة الفرج » لن توجد أبداً ، وإن سادت عبادة القضيب دائماً .

وفهم المرء ، الآن ، على نحو أفضل ، سلوك الذكور ، سلوكاً

يرتكز على الخوف الأكثر اتصافاً بأنه أساسي : الخوف من الموت . وعلى هذا النحو إنما ترجح المرأة بين ما هي عليه (موجود إنساني أنثوي) وبين ما تمثله (إضفاء العدم على شخصية الذكر) .

ج - جزاء الخوف

نحن في قلب الحرب التي يشنتها نوع الذكور على نوع الإناث . ثمة نتيجتان مهمتان تنجمان عن الخوف الذي وصفناه أعلاه :

١ - إذا كانت المرأة مستعبدة ، فإنها تعزو للرجل مقاصد سيئة . والحال أنه ليس لديه مثل هذه المقاصد بصفة شخصية . فالنوع هو الأمر لديه . وينبغي أن نفهم أن كثيراً من الرجال يسحقون المرأة ، لا رغبة بالسيطرة (كما هي مفهومة بمعناها الدارج) ، بل بهدف مراقبة النوع الذي يسبب له الحصر ، الأمر الذي يتصف بأنه مختلف كل الاختلاف .

٢ - إذا كانت المرأة « متحررة » ، فإنها تعزو للرجل مقاصد شخصية خليقة جداً بالثناء . والحال أن نوع الذكر « يرخي العنان » ، في الأغلب ، بهدف عدم التعرض إلى خطر الغضب الأنثوي الذي يجعله ، بصورة لاشعورية ، مذعوراً . يضاف إلى هذا أن المرأة المتحررة تظل في الواقع مستعبدة ، إذ أنها تعمل في عالم الذكر ومن أجل هذا العالم . الأمر الذي يتيح للرجال ، مرة أخرى أيضاً ، أن يحتفظوا بالرقابة .

ومن سوء الطالع أن الرجل يجهل حصره العميق ، ويجهل انعكاساته . إن ضرباً من احتياز الشعور (ولكن كم هو صعب !) ، وحده ، قد يتيح له أن يحس بالمرأة على نحو مختلف كل الاختلاف ، وأعني أن يحس بها بصورة موضوعية .

كذلك تجهل المرأة إلى أي مدى هي « ركيزة » رهاب الذكر . وهذا

هو ، ولا ريب ، معنى عبارة سيمون دو بوفوار ، التي تنصدر هذا الفصل . فلو لم يكن النوع الأثوي موجوداً ، لوجد النوع المذكور شيئاً آخر يُسقط عليه خوفه .

ء - النساء اللواتي لا يندرن بالخطر

من الملاحظ أن البنات غير البالغات والنساء المعمّرات لا يخشاهن الرجال على وجه التقريب . والحال نفسها بالنسبة للقييحات ، أول للنساء اللواتي هن من الاسترجال بحيث يظهرن « دون جنس » . فما السبب؟ البنات الصغيرات لم يبلغن سن الطمث ، والنساء المعمّرات تجاوزن هذه السن . فليس هن (أو لم يعد هن) « بطن » ، من الناحية الرمزية . ولا يمثّان الأعضاء التناسلية (أي المغاور المظلمة التي يتم فيها إعداد المادة) . وهنّ ، لهذا السبب ، لا يثرن رهاب الرجل .

فهل المرأة إذن ، من الناحية المنطقية ، أكثر إثارة للخوف كلما كانت أكثر « إثارة للغريزة الجنسية » ؟ هذا صحيح . فالإحساس بـ«الأثني» يبدو بصورة مباشرة ، محدثاً لدى الرجل كثيراً من ردود الفعل السطحية . ومنطقي أيضاً أن لا تثير النساء التبيحات أو غير الأثويات شيئاً من القلق . ويشعر الرجل أمامهن ، على نحو تام ، بأنه في أحسن حال .

والرجل موزع بين رغبته الجسدية ونفوره الوجداني أمام امرأة جميلة و « أثني » . فهو يتردد بين :

أن يحب وبين أن يروّض

أن « يقبل » وبين أن يرفض

أن يستسلم وبين أن يدافع عن نفسه

أن يجذب وبين أن يتبد
أن يغزو ويفتن وبين أن يهرب
ولا تعلم المرأة ، مرة أخرى أيضاً ، بأي ملاك تلوذ .
ولا الرجل كذلك .

ولا يظهر الخوف أيضاً أمام النساء اللطيفات ، الوديعات (وبالتالي
غير الأنثويات وغير المنذرات بالخطر) ، شريطة البقاء كذلك ! فاذا
انقلبت مواقف هؤلاء النساء عاصفة ، بدا حصر الرجل ثانية ، يجرّ معه
تصرفات شتى ، خاطئة جميعها .

وعلى الصعيد الاجتماعي ، عندما يتعلق الأمر بأعمال ثانوية ، فإن
كل شيء يجري راعماً (من الناحية السطحية على الأقل) . ولا يعاني
النساء والرجال صعوبات كبيرة في وجودهم معاً . ولكننا كلما صعّدنا
نحو الأعلى في الوظائف ذات المسؤولية العليا ، اختفت النساء ، مثلما
يختفي النبات في الجبال العالية .

والرجل الراهن منهوك القوى ، وهو يعلن ذلك . فلماذا إذن لا
يسلم دفعة القيادة إلى النساء الكفيات منذ أن تتوافر الإمكانية له ؟

سأقدم لكم مثالين :

الأول : بطرس والشقراء الجميلة

بطرس ، مدير مشروع ، قال لي في أحد الأيام :

— إنني متعب ، وأنوي أن أطلب إلى سكرتيرتي أن تحل محلي
لبضعة أشهر .

— أيهما ؟ (كان لديه سكرتيرتان : الأولى ، ذات شعر فاحم ، ترتدي بنطلوناً وتتعل حذاءين مسطحين ؛ والثانية ، جميلة وشقراء جداً ، كانت تبدو كفيئة كرميلتها) .

— أيهما ؟ ولكن هيا . . . إنها الآنسة س (« الفاحمة ») .

— لماذا هذه ال « هيا » ؟ والآنسة ع (« الشقراء ») ؟

— إنني أحذرهما . إنها جميلة جداً ، ومثيرة للغريزة الجنسية .

— قلت لي إنها كانت أيضاً ذكية وجديرة .

— نعم ، ولكن . . . سأسئها مساعدة الآنسة س . . .

— لماذا ؟

— لست أنوي أن أترك لها الرسن في العنق . فهي تبدو لي أنها

تطمع في أن تبتلع كل شيء .

— والحال أن ذلك كان غير صحيح ، وبطرس يعلمه . فالسكرتيرة

الشقراء لم يسبق لها أن كانت قد أبدت مطمعاً في غير محله ، بعكس زميلتها .

المثال الثاني : حالة جاك

جاك مدير شاب ، يتصف بأنه يستبسل في النجاح بالرغم من كل

العقبات ، وفي أن لا يرتكب أخطاء على الاطلاق ، وأن يربح أكثر ما

يمكن من المال . إنه عاجز عن أن يحصل على إجازة ، لأنه يشعر بالإثم

وعدم الراحة منذ أن يتوقف عن العمل .

ويتصف جاك أيضاً بالتصميم العنيد في أن يكون « دماغاً » ليس إلا ،
ويضرب من كره المواد الجسمية (البول والغائط) ، ومن النفور إزاء
سُرّة النساء (لا تضحكوا : هذا مهم) .

قال لي :

— في دائرتي تعمل صبيّة بدينة . وهذه الصبيّة فعّالة ، وذكية ،
ومخلصة . والحال أني أمقتها . وليس بوسعي أن أفعل غير ذلك . ووصل
كرهي لها إلى حد أنني أعارض دائماً ترقيتها التي تستحقها استحقاقاً كبيراً .
فأنا حائق من نفسي ، ولكنني لا أستطيع شيئاً إزاء ذلك . إنني ظالم .
فهي بدينة ، وماذا بعد ذلك ؟ حجتي غير قوية . ولكنني أعاني في ذاتي
ضرباً من القرف . فرؤيتها تدخل مكنتي عقوبة . وحوالي الساعة الثالثة ،
نأخذ قسطاً من الراحة . إنها هي التي تعدّ القهوة ، ولكنني لا أستطيع أن
أحملها تمس كوبي بالرغم من أنها النظافة ذاتها !

دعوت هذا الرجل إلى « أن يطلق لإحساساته العنان » حول موضوع
هذه المرأة الصبيّة ، فقال :

— رجل بدين لا يضايقني في شيء ، فلماذا تضايقني امرأة بدينة؟
إنني أحس بها لدنة ، وهائلة ، ومسحوقة على الأرض ، ولزجة ، ودونما
شكل ، نعم ، إن الأمر لكذلك ، دون صورة ، وكتلة كبيرة شحمية ...
هذا حمق كل الحماقة : إنها ذات قيمة كبيرة ، هذه البنت ! . . .
تتعرق ، ساكنة . . . فلماذا هي ساكنة ، لأنها تعمل بالسرعة التي

(٥) Meduse : جنس حيوانات هلامية بحرية تضيء في الليل « م » .

أعمل بها ؟ . . . إنها مدوس « ثقيل . إنها بداية العالم ، وقاع البحر ،
أعتقد أن الأمر كذلك ، قاع البحر ، وقرقرة الحياة البدئية .
فاذا حللنا إجابات هذين الرجلين ، وجدنا أنها متوازية .

حلر : نجد الخوف بالتأكيد أمام النوع الأنثوي . ويتيح الحذر للرجل
أن يبقى بعيداً ، أن لا يترك لثلاثيته العنان أمام امرأة تمثل خطر الضياع
(الأنثى) .

مثيرة للفرغزة الجنسية كثيراً : لقد رأينا ذلك : فالمرأة ذات الجاذبية
الكبيرة من الناحية التناسلية هي ، بالنتيجة ، « تضيء العدم » من الناحية
الرمزية .

الرسن في العنق : ذلك مهم جداً ، ويبيّن أن أي « أنثى » ، بالنسبة
إلى هذا الرجل ، لا يمكن تركها حرة . ويبدو ، كما قلنا ، أنها تثير
هيجانات تتصف بأنها لا يمكن السيطرة عليها إلا كما يمكن السيطرة على
أمواج البحر المتلاطمة . فلا بد إذن من « الاحتراس » ، و« استعباد
الأنثى » ، الذي يتجلى ، في هذا المجال ، بمنعها من تسنم السلطات
المطلقة .

الطمع في ابتلاع كل شيء : أشرت إلى أن طموح هذه المرأة
الصبية لم يكن يتصف بأي شيء غير سوي . فماذا يعني هذا التعبير إذن؟
لنأخذ بعض ترادفات كلمة « يبتلع » ، ويصبح كل شيء واضحاً . إن
هذا المدير يحس بهذه المرأة « الأنثوية » أنها مفترسة ، وملتهمة ، وتضيء
العدم (وهي كلمات نجدها كل خطوة ، لأنها تشير إلى الأساسي من
خوف الذكر) .

مدوس : جنس حيوانات هلامية بحرية تضيء في الليل « م » .

وماذا كان يقول جاك ؟ لتذكّر نفوره من سرّة النساء . فهي تذكره ، بالتأكيد ، بجبل السرة الذي يذكر ، بدوره ، أن الرجل كان جنيناً هلامياً في بطن امرأة . من هنا منشأ حصر لاشعوري .

ويكره جاك المادة الجسدية . ولهذا السبب يحاول أن لا يكون « غير دماغ » . وسكرتيرته ترمز ، بالتأكيد ، إلى « المادة الأنثوية » ، اليرقية واللامتمايزة ، التي تمتص كل ما يقرب منها .

تلك هي إبانة شبه كاريكاتورية لكل ما قلناه . وبصفته المدير الأول ، فإنه « يستعبد الأنثى » بمنعها من الترقى .

ثمّة كلمة أخيرة : كان يقول جاك إنه لا يحتمل أن تلمس الصبيّة البدينة كوبه ، كوب القهوة . ونجد هنا تذكيراً بالمعتقدات التي كانت منتشرة انتشاراً على نحو شامل : المرأة في حالة الطمث (إذن أنثوية) تفسد ما تقرب منه أو تجعله عفناً .

وكما كان ممكناً توقعه ، هجر جاك امرأته ومنزله ، ذات يوم ، مع صاحبة شعر أشقر ، غبيّة بعض الشيء . ومن حسن الحظ أنه قرر ، بعد بضعة أشهر ، أن يباشر تحليلاً نفسياً أتاح له وعي صعوباته السيكولوجية . فانسجم ثانية مع أسرته وتخلّص من « رعبه من الإناث » . وتسلّقت البنت البدينة ، دون أن تعلم السبب ، سلّم المراتب في المشروع . وكانت المرأة « المقادة » قد أصبحت امرأة ذكاؤها لم يعد يعاكسه ممثل نوع الذكر ، بل يعترف به رجل من الرجال .

و - نساء الليل . . .

إليكم مستخلصات من بعض أحلام الرجال . وفيها نجد الحصر
نفسه : حصر السقوط ثانية في العدم . وعليه ، فإن هذه الأحلام ترمز إلى
الخوف الذي يعانیه الذكر من أن « تستعيده أمه » ، ومن أن « يعود إلى
بطن الأم » ، نحو لا وجوده البدني . وبعبارة أخرى ، ترمز إلى الخوف
من الموت .

قال رجل أعمال عمره ٤٠ سنة :

— حلمت أن قاربي ، ذا المحرك القوي ، كانت قد جذبتة دوامة

كبيرة سوداء . . .

معلم في الثامنة والعشرين :

— تحطم مقود سيارتي إلى قطع عديدة ، ثم اتجهت ، بأقصى سرعة ،

نحو درب مهجور تملؤه المياه . . .

موظف في الرابعة والثلاثين :

— حلمت أنني كنت أقدم في غابة كثيفة ، وأشق طريقي بضربات

الفأس . ولكن النبات المتسلق كان يحيط بي ، ويتلوّى حولي كأنه

أذرع أخطبوط . وكنت أحتق . ولما كنت مرعوباً في الحلم ، فقد

استيقظت مذعوراً .

عامل في صناعة السينما عمره واحد وأربعون عاماً :

— كنت أتسلق ، ومعني آلة التصوير السينمائية ، جبلاً صخرياً

أملس . وكنت أنظر ، والحصر الشديد يستولي عليّ ، إلى بحيرة كان

يبدو ، وهي على بعد مائة متر تحتي ، أنها تنتظر سقوطي . . .

كاهن في السابعة والعشرين :

— حلمت أن طوفاناً كانت مياهه ترتفع في منزلي . وكنت أصلي
وقد التجأت إلى السقيفة . . .

صناعي في الثانية والخمسين :

— حلمت أنني كنت أبني مصنعاً داخل حفرة هائلة طينية ، لم
يفلحوا في نزع الماء منها .

يمكن لكل عالم في علم نفس الأعماق أن يعيد نشر مئات من الأحلام
من هذا النوع . ويعترف المرء في الأحلام التي ذكرت ، دون دخول في
التفصيلات ، على ما يلي :

رموز « أنا » الذكر ، التي تقود الحياة وتبنيها وتفزوها :

— محرك قوي ؛

— مقود السيارة ؛

— فأس ؛

— يتسلق جبلاً صخرياً ؛

«الأنا » يائسة . فهي تتجه نحو العدم

— قارب تجذبه دوامة سوداء (= ظلام = موت) ؛

— سيارة تسير على غير هدى ، متجهة نحو طريق (= ثقب في

الأرض = قبر) ؛

— بحيرة يبدو أنها تنتظر السقوط (ل « تبتلع » المتسلق) ؛

- حفرة هائلة طينية (كذلك « ثقب في الأرض = قبر ») ؛
- طوفان يجتاح منزلاً (خطر الاختناق بالماء ؛ يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل التبا إلى الغرفة العليا = أناي ، وعقلي ، ورأسي ، وفردبي ، تفرق إلى الأبد في هذا الماء الذي يعلو بصورة تنذر بالخطر) .

رموز المرأة :

- دوامة واسعة (رمز الماء) ؛
 - طريق مملوء بالماء (الرمز نفسه) ؛
 - نبات متسلق يلتف (رمز « الأثني » التي تخنق) ؛
 - بحيرة تنتظر السقوط (رمز الماء) ؛
 - طوفان (الرمز نفسه) .
 - الماء الذي لا يمكن نزحه من الحفرة (الرمز نفسه) .
- لاحظوا أن هذا الرجل يحاول أن يبني مصنعه في الحفرة : فنهمة إلى الحياة وحصر الموت لديه مرتبطان ارتباطاً وثيقاً .
- فاذا تذكرنا أن الماء هو الرمز الأكثر أولية والأقوى من رموز المرأة ، فهما على نحو أفضل حصر نوع الذكر ، حصره الدائم ، وخوفه من النساء .

إليكم بعض الأمثلة الأخرى كذلك :

قالت لي امرأة صبية :

— أذهلني رد فعل زوجي في الشهر السادس من حملي . كان يبدو

سعيداً في أنه سيكون أباً . سألني يوماً من الأيام ، بين الجلد والهزل ، وهو يضع يده على بطني : « هل هذا يتحرك ؟ هل تحسین به ؟ ماذا يحدث هنا في الداخل ؟ »

(لنلاحظ الآن هذا ال « هنا في الداخل » بما يوحيه من سر غامض ، وظلام ، وغير مرئي) .

واستأنفت المرأة الصبية حديثها :

— كان يبدو أنه يعاني ضرباً من التمزق . ولكن لماذا ؟ لقد أجبته بلطف : « هنا في الداخل ، كما تقول ؟ ثمة أمور تجري ، يا عزيزي ! » ثم أضفت وأنا أضحك : « إنك كنت هناك يوماً من الأيام ، أنت أيضاً ، وأنت تعلم ! » . فأجابني بقسوة : « آه ، أرجوك ! » ثم ابتعد . كان قريباً من حدود الغضب . . . وكان يبدو أنه يكرهني فجأة .

هل رد الفعل هذا ، رد فعل « الذكر » ، شائع ؟ نعم ، فبعضهم يعبر عنه ، وبعضهم يكتبه . وهو رد فعل لاشعوري إذن ، ولكنه قد يتجلى على الأقل بمواقف شتى .
وقال لي أحد الرجال :

— أفعل كما يفعل الناس جميعاً ، فأتظاهر بأنني أنتشي أمام وليد جديد ، في حين أنني أجد هذا الشيء الرطب المتغضن مرعباً .

سألته عما كان يحس به :

— إنني أجهل ما كنت أحس به . فليس قبح الوليد الجديد هو الذي يثيرني . إنني أعاني الاحساس نفسه ، مع ذلك ، إزاء عصفور صغير أو

أي حيوان آخر حديث الولادة . فما الذي يضايقني ؟ إنه قلق غامض
أشعر عندئذ أن كل ما أصنع لا يجدي شيئاً . . . فأصبح غاضباً ،
ولكن دون أن أظهر غضبي ، ذلك أنني أتسم ابتسامة عريضة عندما
أرى النساء تثغين أمام هذا الشيء .

ينطوي هذان المثالان على تشابه عميق . وأعتقد أن من المفيد أن
نستعيد بعض الكلمات :

شيء : تظهر هذه الكلمة مرتين. مضمونها : « أحقر هذا الشيء
المصاب بالعطالة ، الذي كنت ، هذه المادة اللاشعورية (= الميتة) التي
سأصيرها ذات يوم » .

رطب : ويذكر هذا الوصف ، على نحو مؤكد ، « الرطوبة » التي
يتصف الجنين بأنه مغمور بها . وهو يذكر ، بالتشابه ، ببطن الأم ،
ويذكر إذن بالعدم مرة أخرى .

قلق : هذا الرجل يشرحه هو ذاته : « ما فائدة أن يتصرف المرء
ويعمل ما دام كل شيء سيزول يوماً من الأيام . هذا « الشيء » يزعجني
(= بسبب لي الحصر) ، ما دام وجوده وحده يعني ، بالنسبة إلي ،
النهاية المأساوية للجهود الانسانية » .

وكان يقول لي أحد الرجال ، وهو يمد يده لي بصورة رضيع :

— هذا ، كتته أنا . أمي تُري أحياناً هذه الصورة إلى صديقاتها
مبتهجة بالرضيع الجميل ! سأجعل المنزل يتفجر من الغضب لفرط ما
تجعل مني ما يثير الضحك !

لاحظوا أن هذا الرجل يقبل ، بالعكس ، أن تعرض أمه صورته التي
تمثله مراهقاً أو جندياً ، على سبيل المثال . فما السبب ؟ السبب أن « أنا » ،
في هذه الفترات ، تشكلت ، وكذلك شعوره . وكان قد أصبح غير
هذا « الشيء اللاشعوري » الذي كان يتكلم عنه رجل ذكرناه فيما سبق .
وعندما كانت أمه تعرض صورته رضيعاً (إلى نساء أخريات !) ،
فذلك كان يعني ، بالنسبة له : « هوذا من خرج مني ، ذلك » كان
قد نشأ من العدم ، و « ذلك » سيصبح عدماً .

هذه الآلية ذاتها تعمل لدى الصبي الذي يثور ضد أمه . يُقال إنه
يريد أن يحصل على استقلاله ، وأن يطير بجناحيه الخاصين . هذا صحيح .
ولكن هذه الضروب من التسوية الخارجة لدى هذا الصبي هي ، على نحو
أكثر عمقاً ، محاولات للتحرر من المحصر الذي وصفناها أعلاه ، والذي
يوقفه حضور الأم ، أو بصورة أكثر صحة ، حضور « بطن » أمه .
ويمكن لهذا الصبي أن يقول :

— أنت تذكريني بأني كنت مادة فيك ، في حين أنني أصارع
لأصنع « نفسي » !

يحق للمرأة إذن أن يتهم الذكور الذين ينتشون فرحاً إزاء المواليد
الجدد . فلا شعور معظمهم له رأي مخالف بوصفه يتعقبه دوار الهاويات ،
دوار بدني ومستقبلي .

هـ — أستبعد ما أحشاه

آ — استراتيجية عليا

لو سألنا الرجال بصورة عامة : « هل تخاف النساء ؟ هل تخشى

امراتك ؟ » ، لأجابوا بالنفي وهم يستخفون . هيا ، كيف يمكن لذكر أن يخشى هذا الشيء الضعيف الذي هو المرأة ؟

وربما يضحك بعضهم الآخر ، ويقولون إنه لا بد من « ترك الأمور تسير » ، ويكفي « قهرهن » . وقد يؤكد بعضهم أن ما يتصف به نساؤهم أو ساوكهن يبرر هذا الخوف . ولكنهم يضربون صفحاً عن حصّهم إزاء النساء بصورة عامة .

وقد يجيب إجابة صادقة واحد من عشرة آلاف منهم . و « يعترف » بخشيته من النساء دون اكتشاف الباعث . ويبحث عن نموذج النساء الذي يثيره ويجعله يوليّ هارباً ، وعن أي موقف لدى امرأته يجعله يحس بالانزعاج .

ويكبت الرجل بقسوة كل إحساس بخوفه من النساء . وبما أنه ربي في عالم مذكر وفاق تقاليد « الرجولة التي لا تعرف الخوف أبداً » ، فانه ، من عل ، يسقط من عينيه الخاصتين إذا اعترف بهذا الخوف ، ويفضل الاكتفاء بالمظاهر السطحية .

وليس بوسع الرجل ، ولو كان يشعر بخوفه ، أن يجعله يبدو أمام المرأة التي قد تفيد منه وتستعيد التفوق ، وذلك لعدة بواعث :

— أن تتأثر لشعورها القديم العهد بالدونية .

— أن تحرر بعض النزعات الأمومية : الاحتفاظ بولدها لنفسها ، ومنعه من أن يكبر ويفلت . فهي تريد ، من الناحية الرمزية ، أن ترد « إلى بطنها » الولد الذكر الذي خرج منه . وكل هذا ، بالنسبة إلى الزوج ،

يتحول إلى سلطوية فظة أو ناعمة . والرجل واقع في الشراك حقاً ،
مخنوق ومخصي .

وتستسلم للمفارقة كثير من النساء اللواتي يهلان لمعرفةهن أن الرجل
يخشاهن . ويحقرنه في الوقت نفسه بسبب هذا الخوف .

فلا بد إذن من أن يخفي الرجل خوفه ويبقي المرأة بعيدة .

ومع ذلك ، فإن من المؤكد ، ولو كان هذا الحصر قانوناً عاماً ، أن
انعكاساته على الحياة اليومية تتغير وفاق نماذج الرجال والنساء ، ووافق
الظروف . وها هو ذا مثال نموذجي يتيح لنا أن نستشف مروحة الحالات
الممكنة .

ب - البنت ذات العينين الخضراوين

هذا النموذج من النساء - وعلى الأخص إذا كانت المرأة شقراء
ناصلة اللون (1) و « متحررة » كبعض الممثلات والمغنيات وعارضات
الأزياء - هو المرأة التي يورغبها الرجال من الناحية التناسلية أشد رغبة ،
والمرأة التي يكرهونها كرها شديداً من الناحية الوجدانية . فما السبب ؟
تلك هي بعض الارتباطات بين الكلمات حول التعبير التالي :

المرأة ذات العينين الخضراوين

قال رجل في الأربعين من عمره ، أستاذ :

- هرة ، مخالب ، يتملق ، يروض .

وقالت امرأة شابة في الثانية والعشرين : طالبة :

(1) انظر فصل « ناصلات اللون » .

— ماء أخضر ، أخضر مزرق ، طحالب .

وقال رجل في العشرين من عمره . ميكانيكي :

— حيوان مفترس ، مال ، حلي ، يخفق ، عينان نصف مغلقتين .

وقال رجل في الثامنة والعشرين : رئيس عمال :

— معتم ، أنثى راقعة ، سر غامض دون روح ، دمار .

وتبين هذه الكلمات — الاجابات ، التي وجدناها من قبل عدة مرات ، أن الرمز أقوى من الواقع .

وتذكر العينان الخضراوان ب : الرصد (هرة — مخالب — عينان نصف مغمضتين) . ولون العيون الخضراء كلون المياه الراكدة (أخضر مزرق — طحالب — معتم) التي تصيد وتجذب نحو الأعماق ، نحو الموت . إنه رمز الماء ورمز جنية البحر . فيها نحن نواجه مجدداً ما تمثله « الأنثى » في معناها السليبي .

ولكن لماذا يبدو هذا النموذج من المرأة أنه ، في وقت واحد ، مرغوب إلى هذا الحد ، ومكروه إلى هذا الحد : ويوحى بالتهديد ؟ إن امرأة سوية ، ذات عينين خضراوين ، لا تثير بالتأكيد أياً من ردود الفعل العنيفة هذه . بيد أن هذا النوع من الأنوثة مختلف على الغالب قطعة قطعة . فبعض الأزياء استخلمت ، دون أن تعلم ، رمز العيون الخضراء . ودُفعت المرأة إلى أن تغيّر لون شعرها ، وأن تلوّن حاجبيها ، وأن تتظاهر بأنها يصعب مقابلتها ، بتعالية ، وصاحبة نزوات ، وملتزمة الثروة . ورُوّضت لتلبي بصورة مهينة ضرباً من طلب الغرب الذكر

التأمرك . وانضمت السينما إلى ذلك ، ومشاهير مصممي الأزياء . ويشهد
المرء أحياناً ، خلال بعض العروض المتلفزة ، مشهداً عبثاً : تبتعد عارضة
الأزياء ، ذات العينين الخضراوين ، ببطء وقد أدارت ظهرها لكي
تلتفت فجأة في مواجهة آلة التصوير السينمائية (ذات المنظور الواسع) كما لو
أن عينيها الخضراوين نصف المغلقتين ، عيني المرأة التي لا تُقاوم ، كانتا
جاهزتين لابتلاع عالم الذكور .

كيف يمكن للرجل أن يبعده « الخطر » الذي يمثله هذا النموذج من
المرأة ؟ إنه يبعده بمنع هذا النوع من أن يكون حراً أو مستقلاً .
وبترويضه . واستعباده ، وتحييده .

ولنستأنف النظر في الارتباطات بين الكلمات .

يتعلق : هذا الارتباط يعني أنني ، إذ أدلل هذه المرأة وأغريها -
أجعلها أكثر اعتدالاً . وبوسعي كذلك أن أجعلها حيادية عندما أبعدها
لها لظناً ساحراً . فإذا أكلت الطعام ، وتحولت إلى موجود أحسن به على
أنه محبوب ، يتبدد شعوري بالخطر . إن مجرد كونها تبدي رضى في
ظل التملق يحطم استقلالها ويخضعها لسلطتي ورقابتي . ويزول حصري .

حلي ، مال ، دمار : يحاول الرجل استعباد « الأثني » بأن يغمرها
بالهدايا ، أو بزقتها بالمال . وهو بهذا النحو يحولها إلى شيء .

وتقضي الاسطورة ، من جهة أخرى ، أن يكون هؤلاء النساء
متقلبات ، ينتقلن بلا حشمة من محبوب إلى محبوب آخر بعد أن يملئهم
إلى حطام . وإذا وقع الذكر في الفخ ، فانه يتحرر أو يضيّق الخناق على
المرأة . وتشير الحركة الأخيرة إلى عبودية المرأة عبودية نهائية . وتلك

هي ، من جهة أخرى ، خاتمة نانا (*) ، رواية زولا ، المتقنة الصنع ، التي رآها الميكانيكي على الشاشة : من هنا منشأ هذا الارتباط بين الأفكار .

ويمكن التلخيص على النحو التالي :

المرأة العبد = امرأة مستعبدة = امرأة اصفي عليها الحياد = خطر
مستبعد .

المرأة الحرة = انثى خطيرة = ضرورة تحييدها .

٦ - السود

لكي يتخلص الرجل من خوفه من المرأة (بما في ذلك خوفه) ، فإنه يبني مجموعة كاملة من السود . ذلك أن الرجل لا يرغب إطلاقاً في أن « يسيطر » على المرأة بالمعنى المألوف لهذا الفعل . ولكنه يشعر ، بوصفه ذكراً ، بالحاجة الغريزية إلى أن يجعل المرأة بعيدة عنه ، خوفاً من أن « ترهقه » . فالذكر سيتصرف إذن بحيث لا يكون بوسع الاستطاعة الأنثوية أن تتجلى على نحو حر .

٢ - تحييد المرأة

أفضل وسيلة لمنع المرأة من أن تعتبر عن نفسها تعبيراً حراً ، كانت إبقاؤها تحت نير العبودية . وهذه الطريقة كانت ، حتى عهد قريب ، قاسية ، وواضحة . وقاطعة ، وتنطبق على جميع المجالات . والسد قائم في وقتنا الراهن ، ولكنه أشد مكرراً ودقة . ولاسيما أن نوع الذكور يفلح على الغالب في أن يضفي على نفسه مظهر الحوارية

(*) نانا : عنوان رواية زولا الشهيرة ، التي تسجل تاريخ موسم تفسد مجتمعا في حالة الأنهار « م » .

الطيب عندما يحرر المرأة بصورة مزيفة . ومع ذلك فكل شيء مما قلناه يتصف بأنه لاشعوري .

فما هي الوسائل الرئيسة المستخدمة في الحياة لمنع النوع الأنثوي من أن ينطلق ، ولتحييده مع تأمين نعمه الممتازة ، في الوقت نفسه ؟

وإذا كان الرجل يخشى المرأة بعمق ، فمن المؤكد أنه يشعر أمامها بالدونية شعوراً قوياً . ولا بد له من أن يختال على هذا الشعور بالدونية أو يحاول التعويض عنه . ولهذا السبب ، فإن المواقف المومأ إليها أذناه مزيفة ومصطنعة ، وهي كذلك لاشعورية على وجه التقريب .

مواقف الذكور ذات المظهر السلي مواقف الذكور ذات المظهر الإيجابي

(هدفها ملاطفة المرأة)

(هدفها سحق المرأة)

- | | |
|--|----------------------------------|
| إغواء . . . | احتقار . |
| اتخاذ مواقف الصبي «المحبوب» | إذلال . |
| (كالمواقف إزاء أم مرهوبة | تجاهل بكبرياء . |
| الجانب) . | هجوم . |
| تدليل ومديح وتملق ، وتسليم | سيطرة بقسوة . |
| برأبها ، وإذعان . | تهكم . |
| نيل إعجابها بجميع الوسائل | جعلها مضحكة . |
| الممكنة ، بدءاً من العضلة إلى | تعنيف . |
| الذكاء ، ومن التفاخر إلى الغنى . | تعداد الزوجات (أولئك . |
| ظهور بمظهر المرح (بديل | الذين « يملكون » عدداً كبيراً من |
| موقف الاحتقار) . | الزوجات يبحثون ، في الواقع ، |
| اتصاف باللطف الساحر ، | عن جعنهن قدرات ، ونبذهن |
| وتوقع أقل رغبة من رغباتها ، | كأنهن أشياء لا قيمة لها) . |
| وزقتها بالثناء والهدايا والحلي والثروة . | |

فما هو رد فعل المرأة ؟ إنها ، فيما يخص العمود الأيمن ، تتدبر أمرها بمقدار ما في وسعها . وهي ، فيما يخص العمود الأيسر ، لا تميز بين القنديل والعيد ، وتعدّ أمراً متحققاً ما هو ليس إلاّ محاولة الذكر للتخلص من خوفه .

ب - سدّ الشعور بالدونية

تركيز الطريقة كان قد تم على نحو مثالي طيلة قرون . وكان لا بدّ لنوع الذكور من أن يقنع نفسه بأن خوفه من المرأة كان مضحكاً ، ولاسيما أنه لا يعرف منشأه . فخبر الوسائل كانت أن يقتنع بأن موضوع خوفه لم يكن يستحقّ حقاً هذه المخاوف الكثيرة . وتمّ القرار إذن بأن المرأة عاجزة . ومتصفة بالعطالة ، ودون عقل حقيقي . وانتهت المرأة ، وهي مدفونة تحت ركام من الاحتقار : إلى أن تعتقد ، هي أيضاً ، بقرارات الذكور . وتوصلت إلى أن تؤمن أنها كانت عاجزة فعلاً ، واستمرت ساكنة في زاويتها المظلمة ، غير مرئية وصامتة .

وتراجع في الوقت نفسه خوف الذكر . وساد الهدوء في أقاليم الذكور . وكان المناخ قد أصبح مدعاة للطمأنينة ما دامت المرأة لم تكن تتجلى . وكانت الأمور تسير على نحو أكثر يسراً بقدر ما كانت المرأة تعبد القوة العنيفة ، عبادة لاشعورية ، وتحتقر نفسها بوصفها محرومة من القضييب .

ويستمر ذلك على نحو أقوى مما كان عليه من قبل ، ولو أنه يتم بصور أخرى . والمرأة - الماء : في أيامنا هذه أيضاً ، تجري تقنينها بعناية ، وهي تسيل بين حافتين محدّتين تحديداً متيناً .

ج - سد الخلد

رسم نوع الذكور - وبرسم - أنه « لا يمكن الوثوق بامرأة » (١). وحتى عندما يعمل الرجل العادي مع امرأة كفيئة : فإنه يحتفظ بالموقف اللاشعوري ذاته . وعلى وجه الخصوص إذا كانت هذه المرأة جذابة من الناحية التناسلية (رأينا ذلك منذ قليل) .

والظاهرة منهومة بسهولة . فالوثوق بامرأة ، ما دامت الأعضاء التناسلية للمرأة ترمز إلى « الدخول في العدم » : يعني إذن : « إذا تركت نفسي تنقاد نحو امرأة : فاني أجازف بأن يُضفي عليّ العدم ، وأن ابتلع وأقترس ، وأقع في الفخ » .

وليس ثمة ما يدهشنا أن نجد هذا المفهوم نفسه في كل منعطف : إذ أنه هو الأساس .

د - سد السر الغامض

لنتصور شخصاً متزهاً يعتمد المحاكمة التالية :

- هذا الحيوان الذي أراه من بعيد يخفي . والحال أنني لا أعرفه .
فأنا أخشاه دون أن أعرف السبب . إذن هذا الحيوان سر غامض .
ومن الواضح أن هذه المحاكمة غير منطقية . فهي تمتدّ على نحو معكوس . وأبسط الأمور أن يقترب الرجل من الحيوان ليتعرف عليه : ويفحص إذا كان لخوفه مبرر : ويتصرف بناء على ذلك .
ويزعم الرجل : بسبب خوفه ، أن ثمة سرّاً غامضاً : دون تحقق ولا دواع موضوعية . وهو يفكر على النحو التالي :

(١) من المفيد أن نذكر بأننا نفحص هنا ، على سبيل الحصر ، الاحساسات السلبية للرجل .

— إنني أخاف النساء .

— ولا أعرفهن .

— إذن النساء سر غامض .

وبستخلص من ذلك ، فضلاً عن هذا : « ليس بوسعي ، بناء عليه ، أن أثق بها » . والواقع أن هذه المحاكمة المزعومة تبرر كونه يبغي النساء منزلات ، دون أي باعث حقيقي .

أو أن الرجل يقول في نفسه :

— الكيمياء المظلمة وغير الموثية ، كيمياء بطن النساء ، يذكّرني بحصري ، حصرَ العدم . أفضل أن أبقى حذراً . إن بطن النساء سر غريب ، إذن فالمرأة سر غامض كذلك .

ثم يحاول أن يبرّر هذا الحذر قائلاً :

— المرأة تابعة وينبغي أن تبقى كذلك .

ويزول حصر الرجل على هذا النحو ، الأمر الذي يتصف بأنه أسهل من البحث عن منشأ هذا الخوف .

هـ — سد المكر

يزعم كثير من الرجال أن معظم النساء ماكرات . وعند التحليل ، نلاحظ أنهم يقصدون — مرة أخرى أيضاً ! — النساء « الأنثويات » ، والنساء « المثيرات » ، والنساء الفتيات جداً . ونجد الآلية القديمة هنا : الإحساس بأن الأنثى ترصد ، وأنه مهدّد باضفاء العدم عليه وبالدمار ، كما استطعنا ملاحظته في الفقرة المخصصة لـ « البنت ذات العينين الخضراوين » .

ويعزّز الرجل مواقع دفاعه بفعل هذا « اليقين » بمكر النساء . ويُجد النساء أنفسهن في وضع يتعذر عليهن شن الهجوم المعاكس صراحة . فلا بد لهن ، وقد جردن من السلاح أمام قسوة الذكر الغازي ، من المراوغة والتعلّب والانسلاخ . وتلك هي إمكانيتهن الوحيدة في إنقاذ ضرب من مظهر الاستقلال .

وبما أنهن عاجزات عن تفجير صخرة مواقع الذكور ، فهن يلغمنها ويقوّضنها . ولكي يفعلن ذلك ، يستثمرن خصائصهن الطبيعية إلى حد المغالاة : الصحو الداخلي ، والسهولة للدين في اكتشاف عيوب الدرع ، وإمكانية محاصرة الخصم بصبر . كما يفعل الماء الذي يتصف بأنه رمزها الرئيس (انظر الفصل المخصّص لرموز النساء) .

ومثل هذه المواقف تفضي ، على نحو يسير ، إلى المقاصد المبطنّة وإلى ، بالطبع ، ضروب من السلوك « الماكر » . ولكن هذه التصرفات لا يسعها ، من جهة أخرى ، إلا أن تعزّز حذر الرجال ودفاعاتهم في الوقت ذاته . والبحث عن حل لهذه الحلقة المفرغة يعادل محاولة تربيعة الدائرة .

و - سدّ المادة

المقصود من ذلك صورة أخرى من صور الحماية لدى الذكر ، قاعدتها ، هي أيضاً ، محاكمة لاشعورية :

— أرفض أن أكون مادة . وبطن المرأة ، والحال هذه ، يكون المادة . فالمرأة إذن مادة . إذن ، فأنا أرفضها .

ولا يميّز الرجل على هذا النحو بين الجزء والكل ، الأمر الذي يناسبه كثيراً ، ذلك أنه ، على هذا النحو ، يصبح الحائز الوحيد على الفضائل

الفكرية : في حين تركد المرأة في وضع أدنى منه بكثير . وهكذا يشعر الرجل أنه في مأمن . وهو بوصفه مطمئناً ، فإنه يقول في نفسه إن « المرأة للمادة » تبقى غير مؤذية بمقدار ما تكون موجودة تحت رقابته .

وليس ثمة ما يوجب لوم الرجل على هذا الموقف ، وليس ثمة ما يوجب أن يتشدد فيه .

فلا أحد مسؤول عن لاشعوره العميق . والرجل العادي يعتقد بذلك كله ويريد . لأنه بحاجة إلى هذا الاعتقاد وهذه الإرادة لكي يحمي نفسه .

٧ - المرأة الشيء

أ - لنذكر بالقانون العام :

يبدو الخوف لدى الذكر منذ أن تكون المرأة ذاتاً حرة . ويزول الخوف لدى الذكر منذ أن تصبح المرأة شيئاً مستعبداً .

والحيلة اللاشعورية بسيطة : لا بد من أن تستحيل المرأة إلى شيء ، وبعبارة أخرى : « كوني أجمل شيء في العالم ، متريّن وشبعان . فسبقين هادئة ، ولن أشعر بأي خوف منك » .

كيف يتحقق « اشباع » المرأة ؟ الصناعة زاخرة بالامكانيات : « أشياء عملية مسلّية » ، وحلي زهيدة القيمة ، وأدوات الزينة ، وأجهزة متراية كهربائية . والتصرف مع المرأة ، والمقارنة هنا ليست مغالية ، شبيهة بمناورات المستعمرين الغابرين مع « المتوحشين » . فالعقود ، والأساور الزجاجية ، وبعض الهدايا الأخرى . كانت تزيل مفعول

البرجوم المعاكس . وكان البدائيون : وقد فعل التملق والملاطفة والابتسامات الساحرة فعله فيهم ، يفتحون الطريق إلى أعدائهم الجدد .

وصناعتنا الحلى والأزياء قدمت نتاجاً رائعاً . ولم يسبق للمرأة أن كانت إلى هذا الحد من الزينة ، وإرضاء الرغبات : والإشباع . وهي : من الناحية الرمزية ، « مثقلة » بالزينة التي تتغير باستمرار حسب مشيئة الزبي . ويُقال حقاً إن ثمة محاولة لإرغامها على العودة إلى حالة « الأنثى » المصابة بالعطالة : والساكنة ، والمشغولة بنفسها قبل كل شيء . فثمة استبعاد لها عن طريق الترجمانية .

ويبينون للمرأة بوساطة عارضات الأزياء البشريات ، المصنوعات قطعة قطعة ، كيف تقف . وكيف تمشي ، وكيف تحمل بطنها في هذا الفصل . ويحددون لها محيط الخصر وحجم التهدلين . بل ثمة مصطلح مرعب إلى حد كبير : إن الزبي جعل من المرأة « مجموعة من قطع التبديل » شأنها شأن السيارة أو الغسالة .

كان أحد الرجال قد قال لي مشيراً إلى امرأة صبية تسير آخر ما نتجتة دور الأزياء :

— « إنهن » على هذا النحو مسرورات ويتركننا « نحن » بسلام .

كان ينبغي أن يكون هذا الرجل مصمم أزياء . ذلك أن « مشاهير مصممي الأزياء » يصيبون عصفورين بحجر واحد : لأنهم يحلون المرأة إلى عبدة وهم يجلبون إليها السعادة ، فتحس بأن ثمة اهتماماً بها لم يسبق له أن كان على هذه الدرجة .

بل إن على النساء ، اللواتي ينصفن داخلياً بأنهن راشدات ، أن يتبعن

الزري . ذلك أن ثمة تيارات من الأزياء هي من القوة بحيث تجد المرأة صاحبة نفسها في ضرب من شبه الاستحالة في أن تلبس بحسب رغباتها الشخصية . والتصنيع يضع الجمهور الكبير من النساء - الأشياء نصب عينيه ، ويهمل الباقيات .

والمظاهر خداعة . فرجال الأعمال ، من جهة : يعرضون على المرأة تشكيلة واسعة من الأقمشة والألوان والنماذج ، الأمر الذي يمنح ضرباً من الانطباع بالحرية والاختيار . ولكن الزري يفرض في كل فصل من الفصول ، ومن طرف العالم إلى طرفه الآخر ، ضرباً من إضفاء التماثل على النساء .

ويمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كان بعض مصممي الأزياء من الرجال لا يشعرون بضرب من الكره القوي واللاشعوري لإزاء النساء ، لكي يحيلوهن ، على هذا النحو ، إلى دمي مطبعة ، وبالتالي إلى أشياء غير مؤذية .

ومن الملاحظ أن « الزري » يتخم النساء الفتيات جداً على وجه الخصوص (النساء اللواتي يتصفن ، من الناحية الرمزية ، أنهن أكثر « إثارة لخوف الرجال ») ، وقلتما بهن مصممو الأزياء بالنساء اللواتي بلغن عمراً جسدياً راشداً . صحيح أن النساء الفتيات جداً يمثلن ، من حيث كونهن موضوعات استهلاك ، قلرة شرائية هائلة . ولكن جمهور النساء الأخريات جمهور كبير أيضاً ، وقلدتهن الشرائية أكبر كذلك . فهل ينبغي أن نستنتج من ذلك أن مصممي الأزياء يطبقون القانون العام بصورة لاشعورية : « المرأة » الجلذابة من الناحية الجنسية ، وحدها ، تخيف

الرجل ، وهؤلاء النساء ، وحدهن ، هن اللواتي ينبغي استعبادهن « ؛
كل شيء يحمل إلى الاعتقاد بذلك .

ويستخدم الزني سلاحاً آخر : إنه يعتمد على الطفالة « . والواقع أن
كثيراً من النساء يتعرضن ، أكثر من الرجال بكثير ، إلى أن ينحصرن
بعقدة أوديب (انظر فصل « البنت المحصورة ») . فحاجتهن الأساسية
إذن أن يكنّ موضع الملاحظة والنظر بأي ثمن ، ولو ثمن الظهور بمظهر
المضحك . وكونهن موضع « اهتمام » بمنجهن الانطباع بأمن محبوبات .
فمن المنطقي إذن أن يُطعن وصفات الذكور في تصميم الأزياء المصنّع .
وبحسب ما يظهر ، جميع الناس مسرورون . والأعمال تسير إلى
الأفضل . وثمة عدد من النساء لا يميّزن بين العبودية والحرية ، ونوع
الذكور مطمئن .

ويمضي إضفاء الشكل الوحيد على المرأة أبعد ما يعتقد بعضهم .
وطلب الذكور ينصب ، منذ بعض الزمن ، على المرأة « الضاربة إلى
الوداعة بمغلاة » ، على المرأة الشبيهة بالماء الراكد الحالم . واستجابت
النساء ، هنا أيضاً ، بموجات واسعة . فكيمياء الزينة ، سواء تمت في
صالون متخصص أو في وعاء منزلي ؛ ومقتجات الحمال ، تقوم بعملية
جعل المرأة ودیعة . فاذا ترجمنا ذلك قلنا : كلما بدت المرأة ودیعة ،
وشفاقة ، وبالتالي « باهتة » ، أحس بها نوع الذكور أنها لا تنذر بالخطر .

إن التصنيع أحدث ظاهرة جماعية . فكل امرأة ملزمة بأن تمر بعملية
إزالة اللون ، لون الشعر أو لون الشخصية . ذلك أن بالإمكان قيادة
موجود تنصف شخصيته بأنها غير معبّرة ، دون التعرض إلى خطر العنص .

(*) انظر : الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث، وشرحنا السابق لهذا المصطلح « م » .

نحن إزاء « نوع » جديد من المرأة ، نتاج محض من نتاجات التكنولوجيا والنزعات الفكرية . وتلك هي ظاهرة من الظواهر الأكثر غرابة في عصرنا . وسأحلتها فيما بعد . فجدد بنا أن نركز عليها ، إذ أن ثمة بعض الدول تجعل منها تيمتها . . .

٨ - الخوف السيكولوجي إزاء المرأة

أذكر ، مرة أخرى أيضاً ، أنني لا أنظر حالياً إلا في الجانب السلبي من الأمور .

ما هي المواقف لدى المرأة ، التي تثير « الخوف الكبير » ، خوف الرجل ؟ ذلك أن عدد الرجال الشيطانيين ، والأذكياء ، والمحترمين من الناحية المهنية أو المهوبية الجانب ، الذين يصبحون ثانية صبياناً صغاراً أمام نساءهم منذ دخولهم المنزل ، مرتفع جداً . و « حرجهم » واضح ، وأمام شاهد على وجه الخصوص . فهم يحسون بصمت زوجاتهم وكأنه محقق . ويتراجعون أمام حرد ولو كان غير مؤذ . وثمة مجموعات من الذكور يرتجفون أمام أضعف نظرة « عدائية » من طرف نساكنهن . هذا إذا لم يتصرفوا تصرف الأطفال الودودين ، أو لم يغالوا بكيل الثناء المدله . وأحياناً تبدل اللوحة ، ويصبح الرجل متبجحاً ، ومهذاراً ، ومدعي الشجاعة . ولكن هؤلاء الرجال عاجزون دائماً عن أن يكونوا « عفويين » في حضور غالبية النساء ، بما فيهن زوجاتهن .

وإذا كانت خشية الرجل من المرأة قانوناً كلياً ، فهذا كله منطقي . وذلك يعني أن سيادة المرأة في أكثر الأسر هي سيادة الخوف .

— عندما تصمت امرأتى ، أشعر بأنها تنتظرني على المنعطف . . .

— لا أعرف أين أندسّ ، عندما تنظر إلي بصورة تهكمية . . .
هوذا بعض مواقف المرأة ، التي يخشاها الرجل على وجه الخصوص :

نظرة المرأة

النافذة	السابرة الغور
المتعالية	الباردة
المثيرة	المتكبرة
الغاضبة	الصاعقة
الغامضة	اللامبالية
المتهكمة	المحتقرة

صمت المرأة

المهدّد	الحدرد
المتهكم	المتسم بالشك
الغاضب (غضب ثائر وغضب صامت)	

كلام المرأة

الغضب العنيف المتفجر
القصد المبطن الذي ينتقص من القدر
الهجوم المغلّف باللطف
الاستهزاء
النقد الملح
الكلمة المحتقرة

وبالاختصار ، إن ما يخيف الرجل خوفاً عميقاً هو :

كل ما يبدو ، في موقف المرأة ، أنه يُدّل وينتقص من القدر (وهذا إنما هو موضوع الخصاء ، و « إلغاء » شخصية الذكر) .

كل ما يبدو أنه يضع موضع الشك قوة الرجل وشجاعته ومظهره . فالرجل يحس به وكأنه إثارة يستجيب إليها ، على نحو عام ، بضرب من « تعديل » في الشخصية (عدوانية ، واحتقار ، وتفاجر ، ولا مبالاة متعالية) .

كل ما يضع ذكاء الرجل موضع الشك . « إذا بدت أكثر ذكاء مني ، فإنها تغمرني » (وهذا هو موضوع « الأنثى الملتهمة ») .

كل موقف ، وكل كلام ، يبدو أنهما يخلعان فتاع الرجل ويعرّيان هذا الرجل الذي يلاحظ أن مظهره لا يطابق ماهيته (موضوع الخصاء) .

كل موقف يبدو أنه يمهد لثورة « غضبة الأنثى » ، غضبة يحس بها الرجل أنها لا رحمة فيها ولا ملاذ (موضوع « الأنثى الملتهمة ») .

كل موقف يُشعر الرجل بأنه موضع ترصد ومراقبة وملاحظة ونقد (موضوع « الأنثى » المدمرة) .

هل هذه المواقف ذاتها تخيف امرأة أخرى ؟ إنها تخيفها دونما ريب ، ولكنها تخيفها على مستوى أقل عمقاً بكثير . ذلك أن المرأة الأخرى تنتمي أيضاً إلى النوع الأنثوي ، وفي حوزتها أسلحة الهجوم ذاتها والدفاع . ولا شعورها العميق مماثل .

فحينما تختار امرأة مؤقناً أمام امرأة أخرى ، يفقد الرجل وسائله أمام هذه الضروب من السلوك التي تثير نشاط رهابه الأساسي .

ويقدر المرء إلى أي مدى يمكن أن يكون أساسياً موقف الأمهات
التربوي ، سواء كان ذلك بصدد البنين أو البنات .

وسنجد ثانية ، فيما بعد ، بعض خصائص المرأة ، مع ما تتضمنه
من إيجابي وسلبي على حد سواء . ذلك أن من الواجب أن نتساءل : من
هي المرأة ، عندما تتحرر من الذاتيات التي نلبسها إياها ؟

ثانياً : الإحساسات الإيجابية

١ - المرأة المدتلة

لم نفحص حتى الآن سوى الإحساسات التي تثيرها المرأة لدى الرجل .
وكان نوع الذكر يفضي السواد والظلام على المرأة . وكان ذلك هو
التراجع الغريزي والحذر الذي يتجاوز الحدود .

ومع ذلك فإن تاريخ الانسانية يبيّن أن هذه المرأة ، إياها ، كانت ،
في الوقت ذاته ، قد رُفعت إلى الأوج ، إلى حد لم يسبق أن كان لالهة
إمكانية أن تحلم به . إن نوع الذكور جعل المرأة تدور حول نفسها من
السواد الكتم إلى البياض الساطع ، دون أن تمر بمرحلة انتقال ، ودون
وسط عدل . وتصبح المرأة ، وهي المحترمة ، موضع الدلال .

وإذا لم يكن ثمة من دافع موضوعي يدعو الذكر إلى الخوف من «نوع»
النساء وإلى كرهه ، فليس ثمة كذلك من باعث معقول لديه لكي يحولها
إلى ضرب من مظلة اليهود وإلى قارورة ، وميالغات أخرى تنصف بأنها ،
مهما كانت شاعرية ، لا تطابق الواقع بالتأكيد .

كذلك ليس ثمة من دافع واقعي لأن تكون الأم والأمومة مشحونتين
بالرعب . لكن « العبادة » التي يحيطونها بها ، في بعض الأحيان ،

ليست أكثر اتصافاً بأن لها ما يسوغها . أوليس الخوف كذلك ، عندما تكون المرأة معبودة ، هو الذي يدعم هذه الواجهة الأخرى من البناء؟
ها هي ذي بعض الارتباطات بين الكلمات ، ارتباطات إيجابية ، صنعها بعض الرجال . والمبالغة تسود فيها ، وهي مبالغة تتصف بأنها موضع الظن كذلك .

الكلمة المقترحة : امرأة

أجاب رجل في الثامنة والعشرين :

— تجلّ ، هدوء ، وعاء ، حرارة عذبة .

وأجاب رجل في الأربعين من عمره :

— عديمة الشكل ، بركة ، بزوغ ، مقدسة .

وأجاب رجل في التاسعة عشرة :

— راحة فائقة الوصف ، إنبات ، معجزة .

وأجاب رجل في الرابعة والثلاثين :

— نبع مخصب ، مظلة ، أبدية ، وعاء نور .

وأجاب رجل في الثانية والخمسين :

— الهة ، بياض ، قاعدة الطيبة .

وأجاب رجل في الخامسة والعشرين :

— عنراء السماء ، ينبوع الفتوة .

ثلاثة موضوعات يمكن استخلاصها من هذه الارتباطات التي اخترناها
من بين المثات منها :

الموت والبعث : تجل - راحة فائقة الوصف - وعاء نور - عنبراء
السماء - معجزة - ينبوع الفتوة - أبدية .

الأم (مرموز إليها بالبطن) : وعاء - قارورة - مظلة - حرارة
عذبة - نبع مخصب .

تمجيد المرأة : بركة - مقدسة - بياض - قاعدة الطيبة - إلهة .

٢ - الحصر ذو الوجهين

لا نرى أي جدوى في متابعة عرض الارتباطات . فالتباين واضح
للعيان . وعندما كان بحثنا منصباً على الاحساسات السلبية ، كان التفاوت
سهل الفهم . والحجة كانت بسيطة : المرأة رمز العدم الذي ينبعث منه .
والحال أن العدم مخيف ، إذن فالمرأة مخيفة .

ولكن ما هي الحال بالنسبة إلى الاحساسات الايجابية ؟ ولماذا هذا
الانقلاب في الوضع ، المغالي بالاييجابية ؟ ولماذا هذه العبادة ؟ ويمكن أن
نتساءل فضلاً عن ذلك : وهل ثمة رجل واحد ، من بين هؤلاء الرجال ،
يعتقد اعتقاداً عميقاً بما يقول ؟ أو هل يحاول أن يقنع نفسه به ؟

ويمكن أن يتسع السؤال : من آلاف القصائد الشعرية ، والأغاني ،
والأعمال الفنية الرعوية ، التي تعظم المرأة ، ما العدد الذي يترجم منها
باخلاص لاشعور مؤلفها ؟ والمبالغة والعلو واضحيان في جميع هذه
الأعمال الفنية الكبيرة والصغيرة ، التي كان يقدمها الشعراء الجوالون في

الماضي ، ويقدمها المغنون على التلفزيون في أيامنا هذه (١) .

فلتتصور رجلاً ، غير مزوّد بأي نور ، يجد نفسه غارقاً في الظلام .
ولنفرض أيضاً أن هذا الظلام ، وهذا « العدم » ، يخيفانه . فأفضل
طريقة لإزالة الخوف إيجاد باعث يحمّل الظلام : « كيف يمكنني أن
أخشى الظلام مع أنه يتيح لي أن أتأمل ، أن أكون جيداً ، وأن هذا
الظلام يجعلني أحلم بالنور ؟ »

أوليس هذا هو الذي يحدث مع المرأة ؟ يقول الرجل لنفسه بصورة
لاشعورية: « إنني أخاف المرأة . وعليّ أن أجد الدواعي القوية حتى لا
أعود إلى الخوف منها. ولهذا السبب ، أحوّلها إلى موجود رائع أبيض ،
كالثلج ، وأحوّل ظلامها إلى نور . وأقنع نفسي بذلك وأنا أجدّها
بأغانيّ وقصائدي . وفضلاً عن ذلك ، لماذا أخاف من موجود جميل
إلى هذا الحد ، ومريح للنظر بهذا المقدار ، ولا غنى عنه لاستمرار الحياة؟»
وهذا يؤكد ما قلته وكرّرتّه : الهدف اللاشعوري الوحيد لعدد من
ضروب « لطف » الذكور هو تدليل المرأة ، وبالتالي ، بتوقف خوفهم
منها .

وهكذا تبدو لازمة أخرى من لازمات نوع الذكور ، تتصف بأنها
عكس الأولى كلياً :

(١) يمكن الرد أن القصائد التي تبهر عن حذر نوع الذكور واحتمارهم نادرة نسبياً .
ومن المؤكد أنها « لا تنقل » . ولكن تاريخ النساء يبرهن لنا يوماً عن رهاب الذكور .

— قبل ولادتي في الحياة الشعورية ، كان ذلك هو السلام المطلق
السعيد ، سلام العدم .

— وبعد موتي ، سأجد نفسي في هذا العدم السلمي ذاته . سأكون
ذائباً في هذا الكل الكبير من أجل الأبدية .

— إنني أبارك المرأة التي انتشلتني بطنها من العدم ، والتي ترمز
إلى عدمي المستقبلي السعيد .

يمكن الاعتقاد بأن المسألة مسألة عملية « إنقاذ » ! فلكي بتخلص
نوع الذكور من حصره ، يعظم العدم ورمز هذا العدم : المرأة . ومع
ذلك ، فإن الجلد ما قىء هو الخوف : سواء أزهز على نحو إيجابي أو
سلبى .

ولهذا السبب أيضاً ، والحال هذه ، يعمم نوع الذكور . فالرجل
لا يغني نبل هذه المرأة أو تلك ولا عظمتها ، ولا يغني نبل هذه الأم أو
تلك ولا عظمتها ، بل يغني نبل « ال » امرأة و « ال » أم وعظمتها . (لأنه
كان يعمم حتى وهو يفضح المرأة أو يحتقرها) . ولهذا السبب ، فأننا
لا يمكن أن نكرر كثيراً أن الأمر أمر خوف في ذاته ، لا علاقة للمرأة
الواقعية به . . . مع أنها تعاني نتائجه .

والمرأة كانت دائماً موضوع تناقضات عميقة ، تناقضات نوع
الذكور . وسواء كانت أنثى هدامة أو محبوبة أبدية ، فإن الرجل يثقلها
بالعار أو يغمرها بالأمجاد . والسبب هو الخوف .

٣ — هل ثمة بداية حل ؟

من المؤكد أن أي أخوة صحيحة بين الحسنين لن تكون ما بقي

الذكر يخشى الأنثى ، وما دامت هذه الخشية الصماء تثير ضروباً مزيفة من السلوك (الإيجابي والسلبي) . ولن يقبل الذكر « أن تصعد المرأة إلى مستواه » ما دام خائفاً . ولا يمكن أن نغالي في تكرار القول إن المسألة ليست على الإطلاق مسألة حاجة سطحية إلى التفوق .

على الرجل أن يغير ويكتشف جنوره وروابطه بالأرض والمادة ، وبالحياة والموت (ولكن كيف ومتى ؟) وعندئذ ، على سبيل الحصر ، يتوقف خوفه من العدم وخوفه من المرأة في الوقت نفسه .

وعلى النساء أن لا ينادين بالنصر : إن عليهن ، هنّ أيضاً ، أن يغيرن الاتجاه ، وإلا استمرت الأوثاث الطفولية أو العنوانية في تغذية حصّر الذكر وعدائه .

ودور الأمهات المتوازات سيكون ، في هذا المجال ، ذا أهمية عظيمة جداً . ذلك أن الأم هي الأولى التي تنشئ صورة المرأة التي يحملها الذكر معه طيلة حياته .

وهذا هو السبب الذي من أجله أيضاً لا بد لنا الآن من معرفة رموز المرأة . والواقع أن الرموز تتغلب على العقل لأنها تدوين الإحساسات اللاشعورية .

المرأة هي التي تصنع الرجل ، وتجعله على وفاق مع الديقومة ،
والمادة ، والحيوانية العميقة ، والحياة والموت .

المرأة وطن الرجل الأم ، إليها يرجع دائماً بين سفرين ، وبدونها
يضيع .

والمرأة نجت من مصابرها العجيبة بفضل حسناتها وعيوبها : مرونتها
الساحرة ، وصبرها اللامحدود ، وتكيفها المرن ، وحاجتها إلى أن
تكون محبوبة ، وشهيتها إلى السعادة بأي ثمن ، ونرجسيتها ، ومازوخيتها*
بل ومكرها .

لقد نجت حيث كان الرجل لا محالة هالك .

إذا بدت إحدى النساء ذكية ونشيطة ، رأت نفسها وقد جمدها
الرجل سريعاً ، ذلك الرجل الذي يخشى أن يرفع القناع عن رجولته
المزيفة والمتفاخرة .

ولكي ينجو الرجل من هذا الخطر ، صقل المرأة حتى حوّلها إلى
شيء أو إلى أنثى صرف .

أما وقد حدث ذلك ، فقد احتقرها وكرها .

فمتى إذن يعرفها معرفة حقيقية خارج الرموز التي يلبسها إياها ؟

(٥) انظر « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ، القسم الثاني ، ص ١٥٣ ،
وانظر كذلك الفصل المباشر من هذا الكتاب « م » .

الفصل السادس

سوز المرأة

الماء والمرأة ليس لهما الصفاء ذاته .
سعدي مشرف الدين(*) .

أولاً - المرأة من خلال الصور

١ - كيف تنشأ الرموز

ثمة مشهد سينمائي : مركب شراعي يغرق ، ويترجح في اتجاه شاقولي ، ويغرق شاقولياً . وفي اللحظة التي يغمره الماء ، يُصدر الفيلم في الجزء الذي سجلت عليه الأصوات أغاني نسائية . وتحوم هذه الأغاني ، غمغمة ، بصوت حاد جعلته غرفة الصدى غريباً . فلماذا ترافق السفينة ، وهي تهوي إلى أعماق البحر ، أصوات نساء لا أصوات رجال ؟

ويعرض التلفزيون مناظر لجبل عال ، صامت ، ومغطى بالثلج الذي لا حركة فيه . ويرافق المناظر ، هنا أيضاً ، ضروب من تعزيم النساء .

(*) نعتقد أن ثمة خطأ في الاسم « م » .

وثمة بعض المشاهد من فيلم مخصص للبعد الرابع تعرض مركبة فضائية تنزلق في الكون . وهناك ، مجدداً : نساء يغمغن بلحن لا يعرف المرء إن كان لحن أمل أم لحن وعيد . فلماذا ؟

لقد أصبحت المرأة « رمزاً متقللاً » بحيث تصعب معرفتها إلا من خلال زجاج ضبابي من الإحساسات الإنسانية .

ذلك أن رموز المرأة لم تنشأ بدءاً مما هي عليه ، بل بدءاً مما يبدو أنها عليه . ولهذا ، فلا بد لنا من أن نفحص بعض الأمثلة المبتدلة جداً ، لكي ندرك جمال هذه الرموز (وخطرها !) .

المرأة « خصيب » . والماء يُخصب والحال هذه . والأرض تُخصب بها . فالانفعال الذي تولده المرأة انتقل إلى الماء والأرض . فكان من الطبيعي إذن أن يصبح هذان العنصران رمزين قوين للمرأة .

هل يحس نوع الذكور بالمرأة على أنها تهديد صامت ؟ فمن المنطقي ، منذئذ ، أن يصبح كل عنصر طبيعي ، شديد الخطر أو يهدد بالخطر واقعياً ، رمزاً من رموز المرأة . من هنا منشأ هذه الأغاني ، أغاني النساء ، التي تغتلف السفينة الهالكة ، أو تبرز الجبل الذي يتصف بأهه يهدد بالخطر بصورة صامته وكامنة .

والمرأة كذلك رمز لكل ما يبدو أنه يمتص (يبتلع) لحساب الأبدية : الكون حيث : نفوس المركبة الفضائية ، والبعد الرابع (خارج الزمن) . والجبل ذو السر الغامض ، والآفاق المفقودة ، واللامرئي : كل هذا يعزوه « صدى رتآن » (يبدو وكأنه آت من الأبدية) ، وغمغمة (نقص الكلام الواضح يزيد من انطباع اللا واقعي واللامتمايز) .

وفي السينما أيضاً ، كنا نشاهد شفينينا * بحرياً هائلاً (صورة «الموت ») يحوم فوق أعماق البحر (رمز المرأة) . فهمس أحد طلابي قائلاً : « أوليس لنا الحق بالاستماع إلى صوت النساء ؟ » . وكان لنا الحق في ذلك بعدخمس ثوان .

هل يعلم هؤلاء المخرجون السينمائيون لماذا يستخدمون هذه الصور وهذه الأصوات ؟ يمكن الشك في ذلك . غير أن تواتر الظاهرة يدل على دوام الرمز .

وعلى هذا النحو إذن ولدت الإحساسات العميقة التي تثيرها المرأة رموزاً لا حصر لها . ويزا من آلاف الصفحات حتى نصفها . فها هي أكثرها تواتراً .

إذا كان يبدو أن المرأة سر غامض ومجهولة ، فيُرمز إليها بالعناصر الطبيعية كالماء ، والضباب ، والمدن الراقدة في الليل ، والغابات الغسقية . والنضاء الكوني .

وإذا كان يبدو أن المرأة عسيرة المنال ، فيُرمز إليها بقصور الأحلام وسيدات قصور الأحلام ، والالهات البعيدة ، والآفاق اللامتناهية ، والأدغال ذات الفرجات الضبابية ، والقسم المائلة إلى الزرقة . ولا ينحصر ببال أي شخص أن هذه العناصر يمكن أن ترمز إلى الرجل :

إذا كانت المرأة متمائلة مع بطنها ، كانت رموزها سلبية أو إيجابية . فالسلبية هي ما يتصف بأنه مظلم ، وخائق ، وكهفي ، وأسود ،

() ضرب من السمك « م » .

وفوضوي . والإيجابية ما يُشعر بحرارة الاستقبال : الحدائق المعطّرة ، والكهوف المضيئة ، والمدن المتألّثة ، والمحيطات التي نغمر فيها بهدف رقاد سعيد . وما رموز البطن ؟ إنها حرارة المنزل العائلي ، والبيت المزهر بالأيدي النسائية ، وتجديد الحفاوة ، و « الوطن » ، والأرض المغذية . فهل يمكن للمرء أن يتصور نفسه قائلاً : « إنني أعود إلى وطني الأب ؟ » أو « إلى الأرض الأب ؟ »

إذا كانت « الأثني » تثير الحَصَر ، فإن ما يبدو في الطبيعة أنه يتصف بخصائص أثنوية يفجر القلق ، أي كل ما هو استطاعة خفية وغير متوقّعة (الصاعقة التي تتجمع دون أن تنفجر ، والماء الذي يصعد وهو يغلي وراء السد ، والبركان الذي يزجر في « جنباته » ، الخ) .

وبما أن المرأة « تصنع » الحياة ، فإن الرمز رفعها إلى درجة الحياة أو السحرة التي يتصف نفاذ بصيرتها أنه دون حدود ، والتي تعرف أسرار الحياة والموت ، هذا إذا لم تكن سيدة المصائر الانسانية . إن الولكيز « هن اللواتي يمنحن المصير ، ويساعدن القادة على الانتصار ، ويعيّن المقاتلين الذين ينبغي أن يموتوا . إنهن فارسات ساحرات . ويمثّلن أحياناً بعدراوات ذات ريش البجع . ويطرن في الفضاء . ويحططن أحياناً في المستنقعات ، قريباً من الغابات . ويصبحن عبيد الرجل الذي يفلح في أن يتزع عنهن ريشهن (هنا يبدو إحساس الذكر : الإحساس الذي نعرفه جيداً : الانتقالات من الأثني — أو الانتقالات من الأم — لكي يحقق

(*) Les walkyries : الهات سكانديناوية كانت تراقق المحاربين إلى ميدان المعركة وتحدد من ينبغي أن يموت بحسب أوامر الإله أودن « م » .

مصيره الخاص ولا يكون مدمراً بفعلها (إن صدى هذا الاعتقاد موجود في أغنية نييلنجن ، قصيدة ملحمة في ألمانيا القرون الوسطى . وما هو أكثر أهمية أن هؤلاء النساء هن القلمر (ولنتذكر الارتباطات بين الكلمات حول موضوع كلمة « أنثى ») : وكانت الالهة اللاتينية الثلاثة « مكلفة بالدور نفسه ، وليس من قبيل المصادفة أنهن كن « إناثاً » .

٢ - كل رمز ذو فاعلية

لئن أصبحت خصائص المرأة العديدة رموزاً ، فإن هذه الرموز تفجرت عليها ثانية . إنها تشكل جزءاً منها إلى درجة أننا إذا فكرنا بيت في السحاب الكثيف ، فأننا لا نعلم أين البيت ولا أين السحاب . وبظل ذلك صحيحاً في أيامنا هذه . فالناس لا يعتقدون بـ « الولكيوز » ، ولكن الرجل العادي ما فتيء يحسّ بالمرأة على النحو ذاته . والإحساسات اللاشعورية ، الخاصة بالحياة والموت ، باقية .

كل رمز ذو فاعلية : والعقل يقف أمامه عاجزاً . ولكن الرمز شيء ، وما نفعه بالرمز شيء آخر . والرمز ، في أيامنا هذه ، يتجلى لمجتمعات الاستهلاك بصور مضي عليها الزمن . فالسينما ، والاعلانات على الحيطان ، والاعلانات المتلفزة أو المكتوبة ، تعتمد ، دون علم منها بذلك ، على الرموز . ولكنها توزع على هذا النحو للمستهلكين إحساسات فقدت قيمتها ، إحساسات تتعهد بالرعاية ، دون كلل ، بعض الانطباعات حول المرأة . لقد أصبحت المرأة ضبابية ، لا يمكن ادراكها ، وسر غامض أعلى

(*) Les parques : الهات جهنمية في الميثولوجيا اللاتينية ، مهتها أن تسج خيوط حياة الناس وتقطعها . وكان عددها ثلاث : كلوثو ، لاشيس ، وأتروبوس « م » .

كالشهرة ، مع تشكيل مصوّر يعزّز ذلك . فالأغنيات النسائية في السينما ، التي تكلمنا عايتها فيما سبق ، والتي يسمعاها الناس بصورة لاشعورية على وجه التقريب ، تغذي الاحساسات الموجودة لديهم منذ الأزل . وأمامي عدة صور يرى فيها المرء نساء ذات شعور تسدل حتى الوركين ، مبحرات في قارب على بحيرة يغطيها السحاب ، ويحفّ بهن الضباب (الوطب ا) ، تزهات وحمقاوات بصورة مبهمة : كل ذلك من أجل تمجيد جودة نتاج مخصّص لفصول الشعر (١) .

وعلى هذا النحو إذن يقود الرمز رجل الاعلان الذي يشدّد بدوره على المظهر « السري الغامض » (مرهوب الجانب إذن) للمرأة ، التي تصبح شعباً لا قوام له ، يخرج من الضباب ليعود إليه .

وتتم اللعبة ذاتها فيما يخص الأغنية التي أصبحت نتاجاً صناعياً يتم فيه تمجيد نساء يتصفن بأن ابيضاض الدم لديهن يتزايد . وتجعل الاسطوانة ، التي تباع بالأطنان ، ملايين « المستهلكين » عبر العالم يحملون .

وهكذا إنما ينتهي الناس إلى عدم التمييز بين النتاج الاستهلاكي وبين المرأة ذاتها ، كما لو أن مسيحياً كان يعتقد بأن التمثال من الحص الضارب إلى الزرقة ، الذي اشتراه من سوق من الأسواق ، هو السيدة مريم بالفعل .

إن قدر المرأة المستقبلي منوط إلى حد كبير بالأسلوب الذي نفضلهها به عن صورها التي ينتقص العالم الحديث من قدرها . وعندئذ يمكن للرموز أن تستعيد مكانها في اللاشعور الانساني . ومع ذلك ، فعلينا أن لا نتخيل أن ذلك سيكون قريب العهد ، لأن الرمز العميق ضرب من النجم اللاشعوري .

(١) انظر فصل « ناصات اللون » .

ثانياً - رمز الماء

١ - ثلاثة عشر ارتباطاً بين الأفكار

الماء هو رمز المرأة الذي يتصف بأنه أكثر كلاسيكية ، وأكثر
اصوفاً ، وأكثر واقعية على الغالب . فثمة خصائص أنثوية عديدة ، إيجابية
أو سلبية ، تجعل المرء يفكر مباشرة بالماء .

ها هي بعض الارتباطات بين الأفكار ، صنعتها بعض النساء . فهل
تفضلون بأن تروا كذلك ثمانية أحلام الرجال التي عرضناها في الفصل
السابق ، والتي يبدو فيها الماء بصورة منتظمة ؟

الكلمة المقترحة : الماء

أ - أجابت سكرتيرة في الثامنة والعشرين :

- الماء ؟ آه . . . إنه أنا في أسعد أيامي ! أنا ، مرنة ، أنا ، أنكيّف
جيداً ، سيّالة وطيبة . الماء سيّال ونسوي . والماء نسوي على نحو رائع .
ينساب على الأرض . سعادة الماء . نهر يحمل القوارب . لا شكل له . . .
نعم لا شكل له ، وله جميع الأشكال . تلاؤم يسير وعذب . الماء ،
إنه المرأة ، إنه الحياة التي تغني بين حافيتين والرجل يموت قبلنا .

ب - وقالت مديرة في الثالثة والأربعين :

- غير مستقر ، غير مستقر إلى حد كبير . متدفق . زخّات .
الماء يقتل النار .

ج - وقالت بائعة في الأربعين :

— الماء ، ولكنه هو المرأة ! بكل ما فيها من خير وشر . هل تعرف
هذه البحيرات المتجمدة التي تتكسر تحت الأرجل ؟ أرض قاحلة تحيا
مجدداً . والصحراء تغطيها الأزهار . كل شيء خرج من المحيطات ،
وذلك ما يسرني .

د — وأجابت امرأة ربة منزل في الثانية والثلاثين :

— إنني أتخيل ينبوعاً . إنه يفور أكثر فأكثر ، ويصعد بطريقة
عمودية . ويهبط ثانية ، وينبسط ، ويصبح جدولاً صغيراً ، فنهراً ،
فدلتنا ، فمحيطاً . . . ويغطي الأرض التي تحتاج إليه .

هـ — وقالت طالبة حقوق في الثالثة والعشرين :

— ينبغي أن ألغي الاجتهاد القضائي ! الماء ، الماء ؟ الينابيع بين
يدي ، وصورتي في الماء ، انعكاس ، مجرد انعكاس ، امرأة متغيرة
كوجه امرأة . إنني جاقئة إلى حد المغالاة ، ينبغي أن أصبح أكثر ماء . . .
ولي مرونة الماء اللامتناهية .

و — وأجابت امرأة لا مهنة خارجية لها ، في الخامسة والثلاثين :

— هدوء . طوفان . يغطي الأرض ، كل الأرض تقريباً . . .
منبسط ، أفقي ، لا نجيد فيه ، ماكر ، ماكر ؟ ولكن النساء ماكرات ،
على وجه العموم ! فهل أرواحنا هي كذلك ؟ والماء مع ذلك يتبع طريقاً .
إنه ينزل دون أن يكون بوسعه الصعود أبداً . فهل هو مثلي ، ربما ؟

ز — وقالت امرأة في السابعة والخمسين . دون مهنة خارجية :

— آه ، ياسيدي ، الماء ! إنني أفكر بفيضانات هولاندا ، وجداول
الجبيل . إن الماء مرعب وفانن . فلا أجرؤ أبداً على السير بمحاذاة نهر ،

أشعر إزاعه بضرب من الأجداب الغريب ، السعيد على وجه التقريب . . .
عليّ أن أنتبه . فالماء شبيه بالفراغ . والماء ، يا سيدي ، هو ، بالنسبة
إلي ، أنوثة العالم ، والطبيعة الداخلية . . .

ح - وأجابت طالبة في التاسعة عشرة :

- الماء ؟ في كل مكان وليس في أي مكان ، متقلب ،
ملتف ، ساحر . ساحر ، ولكنه يجتاح ك . . . إيه . . . ولكن كالماء .
هيا ! إن خطيبي يعرف عنه بعض الشيء !

ط - وأجابت امرأة في الثامنة والثلاثين ، دون مهنة خارجية :

- أمير ساحر ، فرجة ، ينبوع . علم اكتشاف . مرح الجري
ونبعه يغذيه . يفقد من حجر إلى حجر . لذة داخلية .

ي - وأجابت امرأة في الرابعة والعشرين ، دون مهنة خارجية :

- ألقذت من المياه ، خارجة من مياه أمها . . . تسبح ، نسبح
دونما توقف ، حتى الراحة الكبرى . أين الشاطئ الآخر ؟ إنها لا تنظر
إلى الوراء ، ولا تذهب إلى المحيط . . .

ك - وقالت موظفة في السابعة والثلاثين :

- الماء هو الطبيعة . إنه ينساب إذا لم نأخذ احتياطاً له . خطر ،
تغيرات في اللون والشكل ، سرعة . غير متوقع ، ولكن الرجال
سَاهرون .

ل - وقالت طالبة في العشرين من عمرها :

— آه كلا ! لا الماء ! إنني أكره البحر . الناس يثقون به إلى حد
ينتفخ في الأفق لكي يهدم البيوت . وكذلك الأنهار . إنها تبدو ساذجة ،
حتى التجمد والأمطار . فهي أيضاً دون رحمة ! الماء ، إني أحبه وأكرهه .

م — وأجاب موطنة في الثالثة والثلاثين :

— إعصارات ، ممتصّة ، منجذبة حتى الأعماق . أسماك لزجة ،
باردة . لقد أفرغني أمي من نخاعي . . .

٢ — ماذا تعني هذه الارتباطات ؟

في كل ارتباط من هذه الارتباطات التي صنعها النساء ، يلاحظ
المرء ، دونما صعوبة ، أن الماء يذكرهن بالأنوثة التي هو مع ذلك رمزها
الكامل . ولن أتحدث هنا عن الرمزية الخاصة بالولادة ، والإخصاب ،
والشباب الأبدي ، والأساطير الزراعية ، وعبادات الماء الأم أو الماء
الحي ، الخ .

فلننصرف ، على سبيل الحصر ، إلى هذه الارتباطات . إن الماء
يتوجه بفعل الاختلافات في سوية التربة . وهو عاجز عن الحركة الفاعلة
(ليس بوسعها أن يصعد منحدرأ ، رقم و) . ويجري ، وينساب ،
ويتسلل ، ويتفجر ، ويخصب ، ويدمر . إنه مهدد وفرح ، ومتحرك ،
ومتوج ، ومتقلب . والسطح الهادئ يخفي أعماقاً شديدة الخطر . إنه
ساحر ومرعب . إنه لا تمايز ، وراكذ ، وذو استطاعة كامنة هائلة .

ونجد هنا إذن ما قلناه فيما سبق . ولنلاحظ ، فضلاً عن ذلك ،
أن العلامة القديمة للماء هي ∇ ، متماثلة مع علامة العضو التناسلي

النسوي ، علامة هي تمثيله الهندسي . وهذا هو السبب الذي من أجله قدّرت أن من المفيد عرض هذا الرمز الأساسي للمرأة . وسنعود إليه ، مع ذلك ، ونحن نحدد بعض خصائص الأنوثة .

لنتناول الارتباطات الثلاثة عشرة السابقة بالبحث . كيف يحسّ هؤلاء النسوة بالماء الذي يربطه مباشرة بالأنوثة ؟

أ — تحسّ هذه السكرتيرة بالأنوثة على أنها مرونة مرحة ، وقادرة على التلاؤم مع جميع الظروف . والأنوثة ، بالنسبة إليها ، قدرة داخلية على السعادة . إنها مفيدة ، ويمكن الاعتماد عليها . ويجد الرجال فيها سندهم وأمنهم (إنها تحمل القوارب) .

ثمة ارتباط غير متوقع يظهر فجأة : « يموت الرجال قبلنا » . وهذه المرأة تقصد بعبارتها هذه أن الأنوثة مستقرة ودائمة بفعل تلاؤمها مع الظروف وعضويتها (ليس له شكل وله كل الأشكال) . وتبدو الأنوثة ، بالنسبة إلى هذه السكرتيرة ، أنها لا تغلب وسعيدة ، ولكنها يتعدّر إدراكها ، وهي غير فاعلة .

ب — ليست مؤبدة للماء إلا قليلاً . ونحن من جهة أخرى لزاء شخص جعلته الحياة « متصلباً » إلى حد بعيد . فهي ترتاب من الماء ، غير المستقر والمتقلب ، وتخشى اللاتوقع الهدّام للماء (زخّات ، متدفق) . ومن الواضح أنها تربط بين الماء والإحساس السلبي بالأنوثة المكبوتة لديها . ونحن نجد موضوع « الأنثى التي تدمر الذكر » (الماء يقتل النار) ، أو أن الأنوثة غير المستقرة تمنع من الفعل ، إذا ترجمنا على نحو آخر . ولا تُظهر هذه الإجابة ، شأنها شأن الإجابة أ ، توازناً بين الإيجابية والسلبية .

ج - الارتباط بين المرأة والماء ارتباط مباشر . والأنوثة محسوس بها أنها مرهوبة الجانب بالرغم من المظاهر (الجليد يتصّف تحت الأرجل) . إنه كذلك لموضوع نعرفه مسبقاً : موضوع الابتلاع . والأنوثة تحصب الأرض وتزكيتها (أرض قاحلة تحيا مجدداً ، أزهار في الصحراء بعد المطر) . ويمكن أن نترجم : الأنوثة الأصيلة تسقي عالم الرجال القاحل وتحببه . إن هذه المرأة تتناول موضوع الأمومة (كل حياة تخرج من المحيط) . ولكن الجملة قد تعني أيضاً : الأنوثة الحقيقية أساسية لاستمرار العالم ، باستثناء ما إذا كنت هنا لا أميّز بين مقاصدها وما أفكر فيه أنا نفسي .

وعلى أي حال ، فالأنوثة ، بالنسبة إلى هذه المرأة ، تنطوي على وجهين : الخطر والعظمة .

د - ليس ثمة من إشارة مباشرة إلى الأنوثة . ومع ذلك تُظهر هذه الارتباطات صورة مثالية للمرأة إلى حد كبير : أنوثة قوية (نبع فوار) تنفذ إلى فاعلية خلاقة (يصعد عمودياً) . ثم إنه ، مجدداً ، موضوع الأنوثة المفيدة بصورة أساسية والمخصبة (الأرض بحاجة إليه) .

هـ - تأمل هذه المرأة الشابة أن تنمي أنوثتها العميقة أو أن تحجبها . ونجد في إجابتها « المرأة المتقلّبة » . وهي تنظر مع ذلك إلى الأنوثة نظرة محابية (مرونة الماء اللامتناهية) .

و - ثمة توحيد سلبي بين المرأة والماء ، وبين الأنوثة والمكر . وتأسف هذه المرأة أن أنوثتها مصابة بالعطالة بعض الشيء (إنها تنزل دون قدرة على الصعود) . وليس ثمة أية إشارة إلى طاقة الإبداعية التي توجد لدى كل امرأة .

ز - ها هي ذي ثانية خصائص نصادفها على الغالب : الأنثى الهدامة التي تجذب الموجودات ، في الوقت نفسه ، نحو أبدية الراحة . وثمة الخوف من « البطن » والعدم ، وانجذاب « سري وغامض » نحو هذا العدم ذاته . ولكن الأنوثة فيما بعد تتعزز في عظمتها العميقة (الطبيعة الداخلية) .

ح - تماثل مباشر مع ذاتها . فالأنوثة تحاصر وتغزو ، ولكن مع احتفاظها هنا بمظهر من العفوية النزوية بصورة مرحة .

ط - إنه موضوع الأمير الساحر والحسنة النائمة . ثم نجد لدى هذه المرأة ارتباطات أخرى حول الأنوثة العميقة (تجري ، يغذيها نجعها) .

ي - إنه الموضوع الكبير ، موضوع الماء والولادة . فهل هذه المرأة تريد أن تقول إنه كان عليها أن تتبعد عن أمها لكي تعيش ؟ ولأنها تشعر أنها ملزمة بأن لا تنظر إلى الوراء أبداً ، تحت طائلة أن « تستعيدها » أمها ؟

وموضوع الولادة موجود على الأغلب في الأحلام الليلية . وقد كانت عادة تغطيس الوليد في الماء الحار سائدة في الزمن الغابر . وكان المقصود مجرد ممارسة وقاية صحية واختبار للمقاومة الجسدية في الوقت نفسه . فاذا خرج الطفل سليماً من هذه « المعمودية » ، فانه كان يُعلن « أنقذ من المياه » ، وبعبارة أخرى : صالح للخدمة (خدمة الحياة بالطبع) .

فلنعد إلى هذه المرأة . إن ارتباطاتها تبين خوفها من العودة إلى العدم (أمها !) ولكن المرء يرى فيها أيضاً « راحة الماء الكبرى » ، التي صادفناها عند بحثنا في الإحساسات الإيجابية نحو المرأة .

ك - ويبدو « خطر » الأنوثة غير المتوقع ، لدى هذه المرأة ، مرة أخرى أيضاً ، ثم ينبعث موضوع مهم : « الرجال يقظون » . والمقصود : يحسّ الرجال بأن عليهم الحذر من الاستطاعة الكافية للمرأة . ولا تشير هذه المرأة ، مع الأسف ، أي إشارة إلى فاعليتها الخاصة . فهي تبقى « محصورة » في الجانب السلبي من أنوثتها .

ل - قد يعتقد المرء أنه يستمع إلى رجل . فنحن نجد فعلاً في ارتباطات هذه المرأة ، نقطة فنقطة ، إحساسات نوع الذكور السلبية لزاء النوع الأنثوي . إن هجوم الماء يتم دون إنذار ، بعد بعض المظاهر الهادئة التي لا بسع المرء أن يثق بها (كما هو الأمر بالنسبة للرقم « ه » ، حيث يتقصف الجليد تحت الرجل) . ثم كذلك إحساس بالمكر ، كما هو الأمر لدى الرقم « و » .

م - وها هو الخوف من أن يجذبنا العدم ، يظهر ثانية . وهذا أمر منطقي ، والحالة هذه ، نظراً لما كانت عليه أم هذه المرأة الشابة .

٣ - الرمز الإيجابي والرمز السلبي

الرمز السلبي والاتجاهات السلبية

الاتجاهات السلبية

الماء

لدى بعض النساء

محسوس به على نحو سلبي

— يُسألن بمهارة كلاماً

— ينساب ويتسائل في أصغر

وأفعالاً ، ويسرّين « السم »

الشقوق .

بصورة مأكرة (المقصود :

افتراءات) .

— يحفر الحجارة القاسية ببطء — يتغلبن على جميع العقبات
وصبر . . . بصبرهن المزعج ، ويقوّضن طاقة
أولئك الذين يقاومونهن .

— يشكّل جيوباً تحت الأرض — يتصرفن على نحو خفي ،
بصورة غير مرئية . ومراء ، وغير مرئي .

— يحاصر ويحيط ويغلف . — يمارسن حرب الغوار .
وينتهين إلى محاصرة الآخر والإحاطة
به ، قبل أن يضرين في النقطة
الضعيفة .

— يفرق بالاختناق ويجذب — يخنقن شخصية الآخر ،
في دوّاماته . و « يمتصن » أطفالهن إذ
يمنعنهن من النمو . ويلتهمن من
الناحية الوجدانية .

— ساحر في سطحه ، ويظل — يفتنّ الرجال لكي يجذبهم
يثير القلق في الأعماق . على أحسن وجه إلى الدمار
والإفلاس .

— سر غريب ، لا يبدي غير — إنهن مهدّات بصورة
سطح يدعو إلى الاطمئنان . كامنة ، و « مياه راقدة » ،
ونرجسيات تحت قناع من العذوبة .
إنهن أحياناً كالمستنقعات التي
تمتص فريستها ببطء (زوجها
وأولادها) تحت مظهر من الانقياد
والحياد الظاهرين .

— يجمع قوته قبل أن يتدفق — يراكمسن الضغائن
ومشروعات الثأر بصورة صامته
حتى ينفجر الغضب الأعمى الذي
لا رحمة فيه .

الرمز الإيجابي والاتجاهات الإيجابية

الاتجاهات الإيجابية

الماء

لبعض النساء

محسوس به على نحو إيجابي

— لا يمكن إنجاز شيء يتصف
بالدوام دون دعم الأنوثة ، المرنة
والتي تتلاءم مع الظروف . حدسهن
وحسهن السليم يقودان أعمال
الرجال ويصلحانها .

— يزكي وينحصب . — إنهن ملهيات بحضورهن
وحده ، ويصبحن ينبوع الحياة
الداخلية .

— يتصف بأنه وثاب بصورة — يستقبلن بعفوية أصيلة ،
مرحة وعفوي . ويدفعن إلى العمل بمرح . إنهن
وسيطات ، وعطوفات ، وفهيمات .

— يغسل ويظهر . — فهمن الأمومي يطهر من
 الحجل . وبوسمين إجراء بعث
 وجداني حقيقي . وبعثن الحياة
 في أعمال الرجال التي أصابها
 الجفاف .

وها هما أيضاً رمزان آخران من رموز الأنوثة ، كلاسيكيان كذلك .
 ونحن سنربط بهما بعض الجوانب المعروفة .

ثالثاً — رمز الجبل

الرمز السلبي والاتجاهات السلبية

الاتجاهات السلبية

الجبل

ابعض النساء

محسوس به على نحو سلبي

— سكونهن وصبرهن ينبئان
 بانفجار الغضب .

— ساكن ومهدّد قبل الأنهار
 (موضوع الماء) .

— متكبرات ، يتحدّين
 الرجال الذين يستجيبون بالبحث
 عن استعبادهن ، وقهرهن ،
 وردهن إلى وضع السبية أو الشيء .

— يبدو منيعاً وبعيداً . ولا بد
 من قهره واستعباده وغزوه وجعله
 حيادياً .

— يحطن الغير ويغلّفنه بصورة
 ماكرة إلى حد اختناق شخصيته .

— الصمت الأبيض بعد
 الأنهار (موضوع الماء الذي يغطي
 ويخنق بصمت) .

الرمز الإيجابي والاتجاهات الإيجابية

الاتجاهات الإيجابية

الجل

لبعض النساء

محسوس به على نحو إيجابي

الرائعتان	— الأم والمرأة ،	— الصمت الأبيض بعد
راحة	والهادئتان ، تحميان	الأنهيار .
الأنوثة	الرجال (موضوع	
	الإيجابي) .	

رابعاً — رمز الأرض

الرمز السلبي والاتجاهات السلبية

إحساسات سلبية

الأرض

إزاء بعض النساء

محسوس بها على نحو سلبي

القوضى الدامية للبطن التي	— الفوضى الدامية للبطن التي	— تتضمن العفونة التي تهيء
تعدّ الحمل والولادة .	تعدّ الحمل والولادة .	حمل الطبيعة وولادتها مجدداً .
«العانسات» موضع سخريّة	— «العانسات» موضع سخريّة	— إنها بلا زرع ولا حصاد .
لأن عضو الذكر لم يجرّهن	لأن عضو الذكر لم يجرّهن	فلم تكن سكة العربة قد شقتها
ويبذرهن .	ويبذرهن .	(رمز عضو الذكر) .
يبدو أن النساء يزجرن	— يبدو أن النساء يزجرن	— تزمجر بصورة خفية قبل
داخلياً قبل الانفجار المدمر	داخلياً قبل الانفجار المدمر	الهزة الأرضية .
(موضوع « الأنثى المفترسة ») .	(موضوع « الأنثى المفترسة ») .	

— القبر . —
— أعماق بطن المرأة الذي
يسود فيه الموت قبل الحمل والذي
ينذر ، قياساً على ذلك ، بالموت
في المستقبل (موضوع صادفناه
غالباً فيما سبق) .

— المغاور الرطبة . —
— بطن المرأة الذي يكثر
بالعدم الرطب قبل الولادة .

— الأرض التي تنشق (الهزة — النساء اللواتي « يبتلعن »
الأرضية) .
أقاربهن (موضوع العودة إلى
العدم) .

الرمز الإيجابي والاتجاهات الإيجابية

الإحساسات الإيجابية

إزاء بعض النساء

الأرض

محسوس بها على نحو إيجابي

— تخصب بالسكة والبدار —
— تخصب المرأة بعضو الذكر
وتمنح الحصاد للحياة والمستقبل .

— القبر (موضوع الماء أو —
الجلبل) .
— الأم الخالدة التي تنغلق
إلى الأبد على الموجودات التي تعود
إلى الكل الكبير .

— البلاد التي يولد فيها المرء : — المرأة والأم « وطننا
والتي إليها يعود دائماً بفكره أو الرجل » ، إليهما يعود بعد المعارك ،
بالفعل . الوطن الأم . معارك الحياة . عنوبة الأسرة ،
والبيت : « محور » شخصية الرجل .

ويلزمنا مئات الصفحات لنستعرض رمزية المرأة . ويمكن إضافة
النساء الأزهار ، والنساء الثمار ، والحارسات الأبديات السوداء
والبيضاوات ، وجنيات البحر ذات الشعور الطويلة ، والنساء اللواتي
يقتلن الذكور الضالين * ، ونبيات الفرجات في الغابات ، والعصافير
المسحورة ، وجميع الأقمار ذات الضوء الباهت ، والنساء اللواتي يأخذن
بالتأر * * ، وجميع نساء الحياة أو الموت ، ونساء الاخفاق أو تجاوز
الذات ، والنساء المرعبات أو المهدتات ، وغضببات المحاربين أو
راحتهم .

ومع ذلك ، فاذا كان كل ما سبق ضرورياً ، فاننا لم نجد بعد
« المرأة » كما هي ، بعظامها ولحمها وحياتها الداخلية .

خامساً — الرموز رواسب فاعلة

١ — ضرورة احتياز الشعور

الرموز لن تزول أبداً . وهي تزهر ما دام للرجال والنساء لاشعور .
فهل هذا خير أم هو شر ؟ أمن الأفضل لأفعالنا أن تغذيها وجدانيتنا
اللاشعورية أم أن تصبح باردة برودة ناظمة آلية ؟

(*) Les Anténéas

(**) Les Erynnies

الشيء الوحيد الذي يمكن للإنسان أن يفعله هو أن يجعل الرمز شعورياً ، لكي يكفّ على هذا النحو عن أن يكون متقاداً به ، ويستطيع عندئذ أن يحس به على أنه حلية داخلية . وما دام الموجود الإنساني يرفض أن يكون ما هو عليه ، ضعيفاً عابراً ، فانه يغني نفسه بصور الأبدية ، وبالأبطال والبطلات الخالدين الذي لا يُقهرون ، وبالآلهة والآلهة التي لا تقبل الفساد ، وبراكبي الدراجات العذائين الذين لا يُغلبون ، والذين «يطيرون ، مجنحين كآلهة ، نحو قسم أبدية لم تظأها قدم الانسان بعد» (مأخوذة من مجلة واسعة الانتشار !) .

وما دام الرجل يخشى صغره ، فانه سيرعى رموزاً للمرأة ، رموزاً بيضاء وسوداء . وما دام يحتفظ بالحنين إلى فردوس مفقود حيث كانت الأبدية تسود ، والعنوبة التي لا توصف ، والتفاهم مع الحيوانات ، فانه سيذهب نحو بلاد يسميها تجار الأسفار بلاد « الحلم » . وإذا يهرب من منزله حيث يرتجف من عزلة الاجازات ، فانه يستمر في الذهاب ، مع ملايين الأشخاص الآخرين ، نحو أماكن « مباركة » لكي يشكو فيها من الناموس والحرارة والضجر العام ، بل ومن قبح النساء اللواتي كان يأمل أن يكنّ رائعات .

ولا يهم : إنه بذلك يكون قد أفاد من حصته في اللجنة الأرضية قبل أن يذهب إلى جحيمه .

وما دام الناس يعيشون على ضروب الحنين والقلق ، فانهم ، من باريس إلى بودابست ، ومن هانوي إلى لندن ، ومن لابرادور إلى فرنسا ، سيحلّمون أحلاماً ليلية تبدو فيها الرموز ذاتها . وسينقلون هذه الرموز في أغنيات تحت مظاهر مختلفة في الظاهر . وسيعتقد ملايين الشعراء أنهم

اكتشفوا صوراً جديدة ، في حين أن فقاعة ، عمرها خمسة آلاف سنة ومنبعثة من لاشعورهم ، تكون قد انفجرت في النص .

الرموز هي الرواسب الفاعلة للإنسانة. وحاجة الموجود الإنساني إليها كحاجته إلى الخبز .

ولو اختفت هذه الرموز غداً ، لسكت المغنون ، وجفت عبقرية الشعراء ، وأغلقت دور السينما أبوابها ، وأفلست شركة دورة فرنسا «الأبطال المجنحين» ، وتختف «الأبطال الرياضيون الذين لا يقهرون» ، وغطى العشب البري ملاعب الرياضة ، وفرغت جزر الأحلام من روادها ، وارتدت الروايات التي تدور حول الولايات الغربية من الولايات المتحدة إلى أمور ثانوية ، وركد غزو الفضاء في ورق مقوى يعلوه الغبار .

ولاختفت ضروب الخوف والقلق ، ومعها الرموز . وسيكون ، على الأرض ، طوف من جليد الموضوعية والعقل المحض اللذين يتصفان بأنهما مع ذلك مفقودان فقدان الدخان بلا نار .

وتصبح المرأة ثانية ما هي عليه . ولكن ماذا يعني هذا ؟

٢ - صعوبة احتياز الشعور

يبين تاريخ المرأة ، المكروهة أو المدللة بصورة ذاتية ، خطر الرموز . فكل موجود إنساني ، والرجل على وجه الخصوص ، يحمل في ذاته رمز «المرأة المثالية» ، رمز الأم العظيمة . ولكنه يحمل أيضاً رمز المرأة التي تفرس ، والتي تحيل إلى العدم .

(*) تخفف : ايس أخف «م» .

وشرح الكيفية التي توضح فيها هذه الرموز في اللاشعور الجمعي ،
المتماثل لدى كل الأفراد ، عبر القرون جميعها وفي أجزاء العالم ، أمر
يطول جداً (١) .

ولكننا نعلم أن هذه الرموز ، رموز المرأة ، مولودة بدءاً من خوف
الإنسان من العدم . فالمرأة (الأم) ، التي تهب الحياة ، أصبحت ممثل
الحياة ورمزها ، ويمثل الموت ورمزه قياساً على ذلك . وكان لهذا
الموت وجهان : إحالة إلى العدم إحالة مطلقة أو السعادة الأبديّة . والمرأة ،
بصفتها ترمز إلى هذه الوجهين من العدم ، كانت محسوسة في الوقت
نفسه بصورة مغالية في الايجابية أو السلبية .

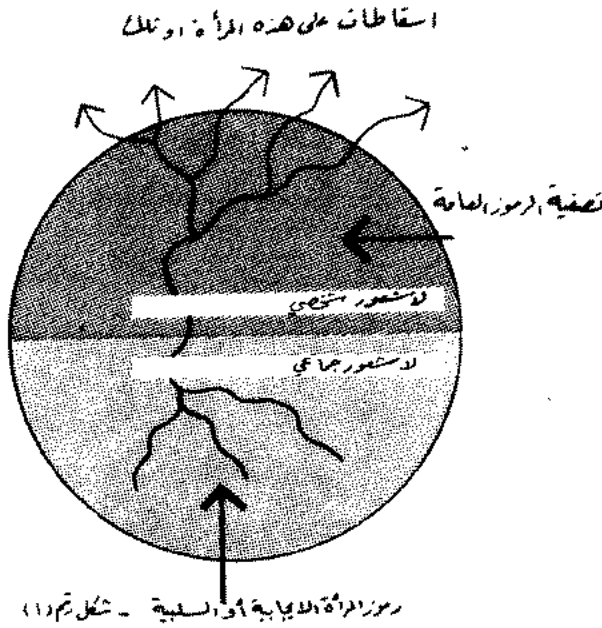
ولئن كان اللاشعور الجمعي متمثلاً بالنسبة إلى كل فرد ، فاللاشعور
الشخصي يختلف بالتأكيد من فرد إلى آخر . ويبقى الرمز الأساسي ،
ولكن « ترجماته » تتباين بحسب ما إذا كان قد مرّ في مصفاة التجارب
التي يعيشها كل فرد في طفولته وفي مراهقته ، مصفاة عقداً أو ضروب
كبتنا ، مصفاة أخلاقنا الشخصية .

كذلك « المرأة » ، الرمز العام ، فإنها تجتاز غربال ضروب اللاشعور
الشخصي ، ويجري إسقاطها إلى الخارج على نمط معين من المرأة التي
تصبح الممثل الخاص للرمز العام .

فكلما كان اللاشعور صديقاً ، ومكبوحاً ، وطفالياً ، وقديراً ، كانت
تعبيرات الرمز منحطة ، دنسة .

(١) انظر حول هذا الموضوع كتابنا : « الاننصارات المذمومة لعلم النفس الحديث »
(نشر وزارة الثقافة ، دمشق ، ترجمة وجيه أسعد) .

ذلك إنما هو ما يحدث حالياً . فقد أصبحت العديديات من النساء ، اللواتي تتصف بشخصيتهن بأنها مصابة بالعطالة كالماء الراكد ، رموزاً ، فاقدة الاعتبار ، بالنسبة لكثير من الرجال . والحال أن هؤلاء النسوة قيمة كبيرة . إنهن جزء من النساء الأشياء ، وهن من جهة أخرى متواطئات مع الرجال بصورة غير إرادية .



٣ - المرأة الشيء

يعود موضوع المرأة الشيء بانتظام ذي باعث فاغتري * . إن المرأة شيء « جنسي » : ذلك هو اتهام الوزارة العامة للمرأة ، الاتهام الأكثر

(٥) فاغنز (Wagner) : الموسيقي الألماني الشهير (١٨١٣ - ١٨٨٣) .

موسيقاه كانت مليئة بالرموز « م » .

ما يتردد . ويبدو أن الصورة التي يعرضها العديد من المجالات ، وصور الإعلان وغيرها ، والأفلام ، تبرهن على ذلك .

ولكننا نرتكب خطأ فادحاً إذا تكلمنا على هذا النحو . ولا نتميز بين الجنسية والتناسلية . ذلك أن التناسلية إذا كانت فعلاً آلياً ، فإن الجنسية حالة من حالات النفس . والجنسية والوجدانية شيء واحد . فكل علاقة وجدانية بأي شيء أو بأي كائن كان — بالطبيعة ، والحيوانات ، والموجودات الإنسانية الأخرى ، — هي علاقة « جنسية » (وجدانية) .

ولا بد إذن من التساؤل إزاء موجود إنساني : في أي حالة من حالات الصحة أو المرض توجد وجدانيته ؟ نحو أي نمط من النساء تدفعه وجدانيته بصورة لاشعورية ؟

ولنفرض صبيّاً صغيراً : شخصيته مزوّدة ، كما هو معلوم : بطبقتين : الشعور واللاشعور . واللاشعور صفيحة فوتوغرافية فائقة الحساسية : غاطسة في الظلام وفتحة نورها تصل حدها الأعلى .

فاذا الصبي ، منذ فترة المراهقة ، غمس الصفيحة الفوتوغرافية في كاشف ، ماذا يرى فيها ؟ يرى فيها عدداً لا حصر له من إحساساته ، إحساسات الحياة ، ولكن ثمة وجه يغزو الصفيحة : وجه أمه . فكيف أحسّ بها لاشعورياً ؟ هل أحسّ بها على أنها ذات تأثير ملامم ؟ غير ملامم ؟ تدعو إلى الاطمئنان ؟ مخيفة ؟ إلهة ، ساحرة ؟ كأم من نور أم كأم من ظلام ؟

ولكن هذه الصور تظل كامنة . وتبقى الصفيحة في الغرفة المظلمة من اللاشعور .

وتتمرّ نساء أخريات في مجال العدسة ، راسخات إلى الأبد . والرجحان للواتي منهن ينيرهن انفعال الصبي إنارة شديدة . فتنة موكب كامل يرتسم : وجوه ثلاث ، نساء « الأحلام » اللواتي يلمحهن في الاعلانات ، بطلات الروايات وقصص الرسوم ، وصبايا صادفهن في الشارع .

وتصبح الصفيحة الحساسة مزيجاً معقداً . فنفس الصبي محصلة إحساساته ، وعواطفه ، ووجوه النساء التي لمحها ، وضروب ، كبتة ، وعقده ، ومخاوفه .

أو لنفرض أيضاً أننا وضعنا بالقرب منك ، مدة خمسة عشر عاماً ، مسجلاً للصوت وآلة تصوير سينمائي يعملان . فعندما تعرض هذا الفيلم وتصفني إليه ، ماذا تكون قد سمعت ورأيت قياساً على ماسجلته الآلتان ؟

٤ - الرجل في بحثه عن النساء الأشياء

يشعر الرجل في بعض الأحيان وكأنه مجزأ إلى اثنين . إنه يحس إحساساً داخلياً بأن وحدته مفقودة ، وأن نفسه ضائعة ، ومهملة ، ومريضة ، وبلا عناية .

ويسعى عندئذ إلى أن يجد وحدته ونفسه بأي وسيلة كانت . ويتعرض إلى خطر أن ينفذ إلى عالم النساء اللواتي يُطلق عليهن اسم النساء « الأشياء » . وهؤلاء النساء يمثلن ، بالنسبة إليه ، ترجمة حرفية لوجدانية مشوّهة ، ولنصيب الحلم الذي أصابه الانحطاط كما أصاب وجدانيته .

ويرعى الرجال في كل يوم عدداً لا يحصى من الأشباح « الشبية » أو « العاشقة » وهم لا يتكلمون عليها شيئاً لأبي أحد . إن ذلك إنما هو

نصيبهم من الأحلام ، والانطباع باكتشاف زاوية تركز إليها النفس .
وعبر هؤلاء النساء الأشياء ، يبحث الرجال في نهاية المطاف ، بحثاً
بائساً ، عن ظل من الحياة . إنهم في بحث عن طبيعتهم العميقة في نطاق
ما بقي منها . والمومسات يعرفن ذلك جيداً .

وعلى هذا النحو ، فإن كل تهتك ، وكل شبقية ، وكل إباحية ،
بحث عن روحية مهما كانت غضة وبائسة . وعندئذ يقول الرجل لنفسه :
إنني أصبح ثانية مع هذه المرأة ما نسيت أن أكون : مرتبطاً بالطبيعة .

هل هؤلاء الرجال يعلمون ماذا يحدث لهم عندما يطوفون في معابد
الإباحية ؟ هل يعلمون أنهم في بحث عن نفوسهم الفاسدة ؟

وللساء ، في فهم ذلك ، فائدة عظيمة . ذلك أن الأمهات إذا كنَّ
يكونّ الوجدانية أو يشوّهنها ، فإن قسوة الكثير من النساء تنمّر الجزء
القليل المتبقي منها .

ويكمن عمل علم النفس — والنساء اللواتي حققن ذواتهن — في تنمية
نفس رجال العصر الحديث وبعثها . ولكن على الرجال كذلك أن يحملوا
محمل الجسد كثيراً أشباحهم وأحلام اليقظة لديهم : بدلاً من أن يبنذوها
نخبلاً . فلكل حلم من أحلام اليقظة مدلول . إنه يفتح الطريق إلى
اللاشعور .

بحث عن النساء الأشياء ؟ عن الشبقية ؟ الطلب كبير : لأن نفوس
الرجال لم يسبق أن كانت بمثل ما هي عليه الآن من المرض والانفصال عن
الحياة . إن هذه الشبقية تمثل ضرباً من التأمين ضد الموت الوجداني ،

لأن الكثيرين يجدون فيها ضرباً من التوحيد ، وإن كان توحيدياً يثير القرف .

بحث عن النساء الأشياء ؟ لحمهن شاهد على السقوط : وعلى ملل الرجال القاتل . ولهذا السبب ، ولا ريب ، لم يسبق للحم الانساني ، عبر الشبقية ، أن يبيع ، وسُحق ، وقطع ، وكان ، في نهاية المطاف ، كريهاً ، بمقدار ما هو عليه الآن .

سادساً - الرموز في المحكمة العرفية

هل ينبغي أن نحكم بالإدانة على الرموز وترجماتها ؟ وهل يجب أن نحاول استئصالها ؟ المشروع مستحيل . فالرموز تستمر في الإزهار ما دام للنساء والرجال لاشعور .

أيمكن أن تصبح هذه الرموز شعورية ؟ بالتأكيد . ولكن المسألة هي مسألة عمل طويل في العمق ، لا يمكن أن يتم إلا بالتحليل النفسي . فهل يعني أن كل رجل ينبغي أن يُحلَّل تحليلاً نفسياً ؟ ربما كان ممكناً لو أن التحليل النفسي الاِلزامي يحل محل الخدمة العسكرية . ولكن عدد المحللين النفسيين أقل بكثير من عدد العقلاء في الجيش . فالعبة ستستمر إذن ، لأن معظم الموجودات الإنسانية لن يكون بمقدورهم وعي الرموز التي تقودهم بصورة مبهمه .

ويمكن للرجل : مع ذلك ، أن تكون لديه فكرة واضحة ، على ما يبدو لي ، عن ضعف طبيعته ، وأن يفهم أن كل حاجة للقوة أو الأبدية تعويض عن حصّار . وتختفي عبادة المرأة (عبادة سوداء أو بيضاء) عندما يفلح الرجل في مواجهة حصّره : والسبب في ذلك ، على

وجه الحصر ، أن المرأة ليست هي المعنية . وخطأها الوحيد أنها صورة جاهزة وفي متناول اليد .

كذلك لا وجود لغير إكاثيتين :

الأولى : أن نعتقد بأننا « نعزو صفة مقدسة للمرأة » ، أو نحترقها - ونحن نجهل أن المسألة مسألة التعبير عن رمز بسيط جداً . ولكنه لاشعوري . إنه إنما هو الحل الخاطيء الذي يتم تطبيقه منذ الأزل .

الثانية : أن نبارك المرأة (أو ننبذها) من خلال الحب (أو الكره) الذي نحمله لها : شريطة أن تكون المسألة مسألة عواطف صحيحة ، ناجمة عن لاشعور أزيلت أوساخه . وعندئذ ، على سبيل الحصر ، يمكن أن تكون « صفة القداسة قد أضيفت » على الثنائي فعائياً : لا لأن تكون الثنائي تمّ بدءاً من رمز ، بل لأنه أصبح بالتدريج ضرباً من الطقسي بفعل انصهار موجودين . وذلك إنما هو الحل الصحيح .

ينبغي أن لا نغضب إزاء هذا أو ذلك ، بل من المناسب أن نبحث إن كان صحيحاً .

يصبح البوليتكنيكي المحض ، على الغالب ، مقياس الإنسانية في الغرب .

هل ستكون السيتزبرغ « المكان الأسمى لضروب الوفرة الأرضية؟ لا ينبغي أن نخشى علماء الفيزياء ولا علماء الرياضيات . إن معظمهم احتفظ بانصاله مع نفسه . ولكن ينبغي أن نخشى أنصار التكنولوجيا ، ورجال الأعمال العالميين الذين لا حياة داخلية لهم ، وأنصار الرجال السياسيين الذين ليسوا إلا أفكاراً تسير .

وليس من الضروري مطلقاً أن نقول : « سأبصق على تقنياتكم وعقلاناتكم » . وسيكون ذلك عبثاً بمقدار ما هو عبث بالنسبة إلى المرء أن يرفض الفادن والكوس في بناء منزله . ولكن ينبغي أن نستبعد ، بوصفهم خطرين ، أولئك الذين ، من الذكور، تاهوا وقد انقطعوا عن جذورهم ، في تجريدات غير ملائمة وغير إنسانية . والخطر الأكبر أنهم لا يشعرون بأنهم لا يشعرون .

(*) Spitzberg : أكبر جزيرة في الأرخييل النرويجي (سفالبارد) ، ينطوي الجليد أكثر من نصفها . ثروتها الأساسية هي الفحم الحجري . كانت عام ١٩٥١ موضع نزاع بين الاتحاد السوفيتي والنرويج « م »

الفصل السابع

ناصلة اللون

بالقرب من شقراي ...
(أغنية محارب .)

١ - ظاهرة جماعية

أود أن أعرض في هذا المجال نموذجاً من المرأة المصنوعة ، التي جُمت أجزاءها جزءاً فجزءاً ، والتي تمثل ، بالعنوان ، الغرب المتأمرق . والمقصود من ذلك ظاهرة جماعية ، ذات أهمية ومثيرة . . . تدعو بقوة إلى اليأس .

هذه المرأة امرأة ناصلة اللون ، بالمعنى الواسع للمصطلح . وأقصد

(*) نصل اللون : خروج ، ونصول الشعر : خروج الخضاب ، ونصول الشخصية (بالتميم) خروج لونها ، أي الشخصية التي لا لون لها . وناصلات اللون : النساء اللواتي لا لون طبيعياً لهن ، والتقنيات الحديثة هي التي تضيف عليهن اللون : Les décolorées

« م » .

بذلك أنها اصبحت بنصول اللون : في شعرها ، معظم الأحيان : وفي شخصيتها .

هذا الموجود المتفصل وُلد مع التقنية الغازية . وقد افترس الانتاج - في البدء - على قليل من النسخ . فبعض النساء ، الشهيرات ، بدأن يجسدن بالرمز حالات مرضية من الناحية الوجدانية ، كمرلين مونرو على سبيل المثال . وأخذت المرأة الناصلة اللون تتكاثر فيما بعد بحسب مجرد عدد كبير من الرجال من إنسانيتهم تجرداً تدرجياً .

هذه المرأة هي البغي اللإرادية لهذه الحقبة . نهاية القرن العشرين . التي تشكل هذه المرأة جزءاً لا يتجزأ منها ، شأنها شأن الاحتشاء . والجرافات . والطرق ذات الاتجاهين المنفصلين ، والناظمات الآلية ، والنمط . والأعمال .

إنها . دون أن تعلم . امرأة قصر الحريم الحديث . إنها « شبيهة بأولئك الذين يتصفون ، وقد ماتت أنفسهم ، بأنهم في جحيم أبدي . إنها ليست سوى ضرب من النسخة الثانية . فلا بد لي إذن من أن أتكلم على الرجل الذي كان صانعها السيكولوجي .

والمذهل أن ملايين الأشخاص : من ذكور وإناث . ينقادون على هذا النحو بمطول . لا يشعرون به .

٢ - الطاقة البياية لناصرلة اللون

أسماءها المستعارة : لعبة جميلة : حيوان أصيل : يمامة عذبة .

(*) • مطول : جمع مطاول : الرسن والمقود « م » .

نزوة مساء - امرأة الحلم ، مخلوق بخاري ، تمثال يتعذر وصفه ، سر
غامض ذابل ، حيوان جميل ، راحة المحارب ، الخ .

مواطنها : الغرب وأمريكا ، على وجه الخصوص .

نسخها : في الأفلام . والروايات ، والمجلات ، وهي موجودة بين
المغنيات ، والعارضات ، والممثلات ، وموجودة في الشارع ،
والصالونات ، والأعمال . ويستهلك الشعر الشعبي منها استهلاكاً لا
حدود له . ويكتسبها المرء كذلك على صورة سكرانيرة ضاربة على الآلة
الكاتبة لدى رجال الأعمال ، أو على صورة « صديقة صغيرة » . وهي
في الروايات عن الغرب الأمريكي : تتكىء بشهوانية على مكاتب
الصالونات . وهي ، على الغالب ، جاسوسة مفضلة لدى المشاهدين .
ويراها المرء في بعض الأحيان على صورة رئيسة عصابة ، في التلفزيون ،
تحيل الذكور إلى حالة ما يشبه النوم المغناطيسي .

خاصيتها : بعض الممثلات من هذه الفئة الناصلة اللون أصبحن
أسطورات حية . وكثيرات منهن ، وقد كان لهن شخصياتهن وشعورهن
السوداء ، « صُنعن ثانية » إلى حد النصول الكامل والعباوة الحقيقية أو
الظاهرة . وهي ، في بعض الأحيان : امرأة ظنل ، شفافه وسريعة
العطب . وفي بعض الأحيان الأخرى ، امرأة تمثال ، نرجسية ومتخثرة .

عينها : زرقاوان أو خضراوان . على وجه العموم . وهما ، في
بعض الأحيان ، مائلتان بصورة اصطناعية على النمط الشرقي . والعينان
الخضراوان مطلوبتان كثيراً . وهما تتخلدان ، بوصفهما سرّاً غامضاً على
نحو إلزامي ، مظهر الأخضر المزرق . وتجميل الجفون يمرّ في جميع
اللويئات بحسب الطلب اليومي .

ابتسامتها : إما أنها ابتسامة طفلية ، أو أنها ابتسامة تختبر في منتصف شوطها .

إيماءاتها وكلامها : ليس لها لون ولا رنين . وهي ، على وجه العموم ، تتصف بفقر يتجاوز الحدود . وتجعلك هذه المرأة تفكر بالطحلب الذي لا تكاد الحياة ، في بعض الأحيان ، تدب فيه حتى يسقط ثانية ، على نحو سريع ، في العطالة والحمود التمثالي . وغفويتها ، إما عنوية طفل . وإما عنوية أصيبت بالتوقف . إنها تبدو ، على الغالب ، شديدة الشحوب . إنها تشارك في المأساة ، وهي لا تعلم . إنها إنما هي ظل وضباب ، وهي موجود لا تمايز .

فتاتها الفرعية : المرأة الناصلة اللون موجودة بالملايين في جميع المدن وعلى شواطئ البحار . هؤلاء النساء فتيات جداً على وجه العموم ، شحيحات ، متسكعات بفتور وجوههن ، لا بهجة فيها . ولا حياة ، ولا تعبير . ومظهرهن مظهر اللامبالاة المطلقة ، وانعدام الألفة على نحو كلي . والاتصال بين متعذر . فهن يزرعن الخوف في نفوس الرجال والنساء الذين يتصفون بالعنوية ، ويدكرن بالفتيات المصابات بانفصام الشخصية .

٣ - الرجال المفتونون

ثمة أربع إمارات

أ - في كل يوم من الأيام ، ثمة رجال يهربون مع هذا النوع من النساء . فقد يكون الهرب فعلياً : أزواج يتركون زوجاتهم ، وأولادهم ، وبيوتهم ، بل ومركزهم . ولا يفهم أحد سبب ذلك ، ولا الزوج أيضاً .

وقد يكون الهرب بالأفكار : يحتر الرجال أضغاث أحلام لا نهاية لها ،
ويؤلفون روايات داخلية ، ويتخيلون سيناريوهات طوباوية تدور حول
العبارة التالية : « آه ! لو كانت لي هذه المرأة ، إياها » .

ب -- ليست المسألة مطلقاً مسألة حب فعلي ، ولا تعلق واقعي ،
ولا ود حقيقي . ولا حنان صحيح . فهؤلاء الرجال يتكلمون عن «الفتنة» .
إن هذا النموذج من المرأة يتسلط عليهم . وغالبية الرجال يهلمون بها
دون أن يعلموا أنهم يهلمون بها . وفي بعض الأحيان ، مع ذلك ،
« يصنعون حياتهم ثانية » معها ، مختبئين في مكان ما ، غير معروفين
كالليل .

ج -- ليس ثمة من حماقة ، ولا جبن ، ولا خسة : أكثر من أن
يكون بوسع هذا النوع من النساء أن يأمر بعض الرجال . فما أن يقفوا
في الفخ حتى يكنّ قادات على أن يطلبن كل شيء : المال والحراب
والإفلاس والفضيحة . ويشهد المرء عندئذ مشهداً لا يصدق ، مشهد
رجل أعمال ، غني مثل كروزوس ، راحل مع امرأة « ناصلة اللون » ،
تظهر سريعاً أنها قاضمة الماس والشخصية . ذلك أن الرجل كان قد نسي
أن النصول العام للون المرأة ليس غير مظهر لا يمنعها من أن تحتفظ بصفة
شخصية : شديدة الخطر لأنها مخفية . ولكن الرجل يستسلم لتجريده
من ماله ومن أناه . بل يُقال إنه يبحث عن ذلك . . . والتاريخ أقل
مأساوية في بعض الأحيان . فيتكوّن ضرب من الثنائي يشوّه الرجل من
خلاله . وينسدل الستار ، مع ذلك ، على القطيعة غالباً : قطيعة يخرج
منها الرجل بشخصية أكثر تضرراً في النهاية منها في البداية .

د - ثمة نموذج معين من الرجال يتملق هذا النوع من المرأة ويكرهه في الوقت نفسه . ولكن هذا النموذج من الرجال لا يتملق غير ذاته -- بسبب من فعاليتها -- . ويكره ذاته بسبب الفقر المخيف . فقر حياته الداخلية . فلا بد من التساؤل إذن : أليست فاصلة اللون هذه هي الصورة الخفية لهذا الرجل اياه ؟

٤ - البطاقة البيانية لهذا النوع من الرجال

موطنه : أوروبا وأمريكا ، على وجه الخصوص .
 خصائصه : لا يمنح قيمة إلا للأشياء المادية ، والمظهر ، والنجاح الخارجي . ولا يؤمن إلا بالانجوع ، والمردود ، والعمل الذي لا تتخلله الراحة ، والذي يهرب من نفسه فيه . لقد أقسم يمين المردودية . إنه الرجل الذي تقول عنه أمريكا : « يساوي كثيراً من الدولارات » . إنه رجل تعفن فيه رمز البطل لكي يصبح رمز الغني القادر على كل شيء . وينبغي أن نضيف إلى هذه القائمة أولئك الذين أصيب عقلهم ومنطقهم بالتضخم ، والمماحكين البارعين ، والمتعصين للفكر ، والتكنوقراطيين الأحماح .

البرهان في ثلاثة أعمدة

أصبح هذا الرجل وجدانته تتصف المرأة التي يبحث عنها ينبغي (أو يلدو من الناحية الخارجية) بأنها أن تكون (أو تبدو)

عصياً مصابة بالعطالة مصابة بالغاوية المزاج ، مصابة بالعطالة

صراًحاً دون صمدى دونما تعبير ، وخرساء ،
وطبّعة

ذرباً (=) رخوة رخوة ، وذابلة

له صفة المتف خلدرة خلدرة ، ودونما عضوية
بافراط

في حالة تأهب دون رنين مريحة غاية الراحة ، وطبّعة

نشطاً بافراط لا شكل لها شفافة

وائقاً من نفسه ذات نزوة ،
وغضبية ذات نزوة ، واندفاعية

إنساناً ألباً لامتمايزة لامتمايزة

متأمراً عطشى للعدوية تنصف بصفات المرأة الشرقية
(أحياناً)

متضرباً بافراط برقية برقية ، وضبابية ، ومحددة
تحدبداً سبباً ، ولا شخصية

(*) رجل ذرب : سليل السان ، حاد .

متخثرة	متخثرة	في حركة
باهتة (بمظهر جذاب)	باهتة	لامعاً
دون شخصية ، وهرة ، وعفوية جداً	ضابرة	ذا عقل مصاب بالتضخم
ضعيفة ، وضبابية ، وغير واضحة الحدود	ضعيفة	ناشفاً ، وفاسباً
ناصلة اللون أو شقراء ، وأثني مزيفة . وامرأة طفل	لا لون لها ، وضعيفة	« ذا ألوان فاقمة » ، ذكراً مزيفاً
مصابة بفصام الشخصية الحامل	دون اتصال مع الحياة	مصاباً بفصام الشخصية الهائج

النتيجة هي أن هؤلاء الرجال يتصفون داخلياً بأنهم عكس ما يبدوون خارجياً . والحال أن أي رجل يساوي على وجه الدقة ما تساوي وجدانته . وهي ، بالمناسبة ، تساوي شيئاً هزيباً هنا .

والمرأة « الناصلة اللون » تمثل ، من جهة أخرى ، نفس هؤلاء الرجال نقطة نقطة . فهي إذن عكس ما يبدوون خارجياً ، ونسخة دقيقة لما هم عليه واقعياً .

٥ - تصنيع المرأة الناصلة اللون

كيف أفلح بعض الرجال في أن يضعوا كثيراً من النساء « في مشغل » لكي يحولوهن الى نساء ناصلات اللون ؟ من اليسير أن نفهم ذلك . فهؤلاء الرجال المصنعون . والتكنولوجيون . والأهوياء مالبا ، والنشيطون بفعل عقلهم المتضخم ، يؤلفون الجزء الديكتاتوري من السكان المتأمركين . إن الصناعة . من جهة ، قذفت إلى السوق بمنتجات الجمال . وبالمنتجات الكيميائية غير المحدودة . ثم إن الاعلان : من جهة أخرى : والسينما . والمجلات : نشرت صورة المرأة المزعومة أنها « أنثى جداً » وهي في الواقع ليست إلا امرأة يرققة . إنها صورة المرأة الطحلب .

ثمة كذلك صيادو البنات وصيادات البنات ، ذوات الأحلام . ويبحث هؤلاء الناس ، خلال العالم ، عن البنات اللواتي يتصفن بموهبة أن يكن عارضات أزياء نجمات . ومن المعلوم أن هذه الصناعة تجمع ثروات ضخمة . وبساهم الإعلان في ذلك الى حد واسع ، لأن هؤلاء الفتيات ، وقد تحولن إلى « ملائكة أحلام » ، يصبحن البرهان « الحي » على جودة المنتج . لمن يؤكذن أن هذه السلعة أو تلك لها قيمة . وذلك إنما هو انعكاس من الانعكاسات المباشرة والتي تثير الاشمزاز ، لظاهرة نصول المرأة ، وإنما هو بغاء فائق الخلدائة ، حيث العرض الذي تقدمه الفتيات يتجاوز الطلب .

وما على المرء إلا أن ينظر حواليه ، وفي الشارع ، وعلى الشاشات ، وفي كل مكان : تلك امرأة ذات شعر أسود ، استحالت فجأة إلى شقراء مزينة (وتشكيلة اللونيات تمضي حتى البياض) .

فلماذا ؟ هل ذلك إنما يحدث بسبب الزي (الموضة) ؟ لا . إن الكثيرات منهن أجن آلياً بأن السبب هو أن ثمة خوفاً يركد في أعماق أنفسهن ، خوفاً من أن لا يلفتن الأنظار ، ومن أن يكنّ وحيدات ومهملات . فهن يعلمن أن امرأة وحيدة ، أو امرأة لا تلفت الأنظار ، محسوبة ، في شكل مجتمعا ، كأنها لم تكن . وثمة أخريات يتبنين النصول بفعل الطفالة . ذلك أن الطفالة لا عمر لها ، شأنها شأن الحاجة إلى الاعجاب بأي ثمن .

وهكذا فإن طلب الذكور يتحقق بصورة طيّعة لاشعورياً .

٦ - وما شأن النساء ذوات الشعر الأسود ؟

لماذا كانت غالبية النساء « النشيطات » (موجّهات المناظرات والقائدات ، والوزيريات ، الخ) ذوات شعر أسود ؟ فإذا ما اقتصرنا في تتبعنا على المناظرات العامة أو المتلفزة ، وجدنا أن ٦٨٦ امرأة من ٧٠٠ كن ذوات شعر أسود ، أي ٩٨ بالمئة .

فما السبب ؟ لا أدري . ويبدو أنهم أقوى ، وأقل خوفاً وعدوانية من الشقراوات (وأنا أتكلم هنا على الشقراوات بصورة طيّبة . لا عن الشقراوات « الناصلات اللون » المصنوعات صنعاً صرفاً) . ويبدو أن نصيب النساء ذوات الشعور السوداء من الهرمونات المذكرة أكثر من نصيب غيرهن من النساء الأخريات ، وهن ، من جراء ذلك ، أقل نزوعاً نحو ردود فعل تغلب عليها الصفة الأنثوية . ومن المؤكد أنهن يظهرن أكثر لطفاً وعطفاً بصورة أصيلة ، وأقل مباحكة وهجوماً .

وما أصل النساء ذوات الشعور السوداء ؟ إنهن ، على وجه الاحتمال ،

سليبات هذه العائلات الجنوبية التي كان يسود فيها نظام الأمومة . فهؤلاء النساء ، إياهن : ملكات وسيدات في منازلهن ، كن يستقبلن الرجل لدى عودته ، بعد أن يكون قد « صاد » في الخارج غذاء الأسرة .

ولا تبدو النساء ذوات الشعور السوداء قاسيات كما هن عليه كثير من الشقراوات . ففي أعينهن يلمع بريق مآكر . ويقال إنهن ، وهن في طوهن ، يفكرن بالرجال . « أحبك جداً بالرغم من ضروب طيشك وهذرك . وبالرغم من أخطائك » . ويؤكد بعضهم أنهن جاهزات لأن يضمنن : « أيها الصبيان القذرون » .

وعندما نلاحظ الرجل خلال المناقشات مع النساء ذوات الشعور السوداء ، نراه ، على الأغلب ، يتصرف تصرف الصبي الصغير وقد وقع تحت تأثير نظرة أم صارمة وغطوف في وقت واحد .

ولكن المناخ يتغير كلياً مع الشقراوات . فالصوت أكثر حدة. إنهن يظهرن قليلات الثقة بأنفسهن ، وبهاجمن ، ويراوغن ، وبعضهن مع الابتسامة. فهل تكوينهن أقل ضعفاً ، وبحسن سريعاً ، وبالتالي ، أنهن في خطر ؟ وبما أنهن أقل اتصافاً بصفات الأمومة ، فهل هن أشد إغواء بوصفهن يرغبن في أن يلفتن أنظار الرجل إليهن ؟

يقال دائماً ، في المناقشات ، إن الرجال يحسون بين آهين أشد خطراً . فيشنون هجوماً معاكساً بسرعة ، هذا إذا لم يحاولوا « تحييدهن » باللطاف المتعلق والمريب إلى حد كبير .

واعتقد أن من المفيد ذكر بعض الارتباطات بين الأفكار ، ارتباطات

أبجها رجال دعوناهم إلى الإجابة عن الكلمات المقترحة بأكبر ما يمكن
من العفوية :

المرأة ذات الشعر الأسود والمرأة ذات الشعر الأشقر

أجاب رجل في الثامنة والعشرين من عمره :

المرأة ذات الشعر الأسود : وضوح - عمل - نجوع - قسوة -
صرامة - منافسة .

المرأة ذات الشعر الأشقر : عدوية - نيلفور . - حلم - هدوء -
اسم ممثلة .

أجاب رجل في الخامسة والأربعين :

المرأة ذات الشعر الأسود: أم نشيطة وصارمة - قسوة - قوة -
حزم - قادرة .

المرأة ذات الشعر الأشقر : سهولة الحياة - منفعة - راحة - خدّار -
حيوانة - رخوة .

أجاب رجل في الثامنة والثلاثين :

المرأة ذات الشعر الأسود : لها صفة الذكر - منافسة - محتقرة -
مشاجرة - أعمال .

المرأة ذات الشعر الأشقر : ماء هادىء - راحة - دون حياة - حلم -
روح .

(هـ) نيلفور : نبات مائي ذو أوراق عريضة وأزهار ذات بتلة بيضاء ، حمراء أو
صفراء «م» .

أجاب رجل في الخامسة والأربعين :

- المرأة ذات الشعر الأسود : هجوم - وقورة - قائدة - جمر -
حامية - شديدة .
المرأة ذات الشعر الأشقر : خامدة - فائنة - لحم دون ذهن - حلية .

أجاب رجل في الثامنة والعشرين :

- المرأة ذات الشعر الأسود : قوة - نضال - طاقة - حازمة - روحية .
المرأة ذات الشعر الأشقر : فتنة - طيبة - عذبة - مريحة - سريعة
العطب - حماية .

أجاب رجل في التاسعة والأربعين :

- المرأة ذات الشعر الأسود : حازمة - ثورة - من النار - صخرة -
قائدة - زميلة .
المرأة ذات الشعر الأشقر : إغواء - هدوء - تجدد - راحة -
بعية - استرخاء - أحلام يقظة - هادئة - خامدة - سهلة .

ماذا ينجم عن هذه الارتباطات ؟

المرأة ذات الشعر الأسود ترمز ، بالنسبة لهؤلاء الرجال ، إلى العمل ،
والقسوة والنار . وفي حسابهم أنها تتصف بصفات الذكر أكثر من
صفات الأنثى .

والمرأة ذات الشعر الأشقر تذكر ، بالنسبة إلى هؤلاء الرجال ،
بالمعاطلة ، والعنوبة ، والراحة ، والحلم ، والماء . وقد أجاب أحد

الرجال : روح ، الأمر الذي يعدُّ شديد الأهمية . ويربط رجل آخر بين المرأة الشقراء وإحدى الممثلات. والحال أن هذه المرأة الممثلة كانت ذات أشعر أسود ، فأصبحت ، كغيرها من ملايين النساء في الوقت نفسه ، « ناصلة اللون » ، لا لكي تستجيب إلى الري (الموضة) ، كما يمكن الاعتقاد ، وإنما لكي تمثل ، على نحو لاشعوري ، « روح » البلدان الحديثة . فروح شعب من الشعوب تتمثل بامرأة دائماً . وإذا كانت روح البلدان التكنولوجية « ناصلة اللون » ودون طعم ، فإن بإمكان المرء أن يتوقع أن تكون النساء اللواتي يرمزن إلى هذه الروح على الشاكلة نفسها . وهذا إنما هو ما حدث . إننا في قلب ظاهرة النساء « الناصلات اللون » ، اللواتي يشبهن ، على الغالب ، مياهاً راكدة .

٧ - شعار حديث

التوقع حتمي ورياضي :

أ - إذا كانت روح شعب من الشعوب مرموزاً إليها دائماً بامرأة ،

ب - وإذا كانت المرأة الناصلة اللون هي علامة الشعوب الناصلة اللون ،

ج - فمن المحتم أن تكون رمز الدول التكنولوجية ، يوماً من الأيام ، امرأة ناصلة اللون .

هل نخفي إلى حد نبحث ثانية تمثال الحرية وتمثال ماريان * ؟ هل سننزع عنهما وجهيهما الحيويين ، وجه مينرفا ، لكي نسوي ثانية ، مكانهما ، الوجه غير المعبر لامرأة ناصلة اللون ؟

(*) Marianne : لقب جمهورية فرنسا « م » .

في الأزمنة القديمة ، كانت تزدهر بعض الأسماء التي أصابها الزوال
في أيامنا هذه ، ولكنها تحدّد وحدها المرأة العميقة الغور والفاعلة :
وفاء ، محبة ، صبر ، حكمة : اعتدال .

هذه الأسماء ذهبت مع الزمن . وصفاتها ينبغي استرجاعها .

هذه الأسماء تثير السخرية بالنساء اللواتي لسن نساء ، النساء اللواتي
تم تجنيدهن بالقوة في عوالم الذكور لكي يتركّز فيها وجودهن الأساسي ،
واللواتي فقدن كل شيء حتى تعبير الوجه ، واللواتي ما أن يبلغن الثامنة
عشرة من عمرهن حتى يتسكعن كالأشباح اللامبالية ، واللواتي أصبحت
القوة الداخلية لديهن ، والصبر الأريب ، والصراخ في المناسبات ، أنيميا
داخلية أو صرير عدواني .

يُقال : الرجل الأسمى ، ولا يُقال المرأة الأسمى أبداً . والسبب
في ذلك أن المرأة وجود منذ أن تولد . ولكن الرجل يحاول أن يبنى نفسه
قطعة قطعة .

تعلم المرأة أن الحياة الفعلية ليست الحياة الآتية ، وحياة الرقم
والهياج ، ولكنها حياة الديمومة والصمت والخلق .

الفصل الثامن

للذوثة والذكورة

(١ = ٢)

الكل في الكل ، قال الفيلسوف .
ورد الكاتب الهزلي ، والعكس بالعكس .

أرغب في أن أبيت لكم أن النساء والرجال غريبون ، بعضهم عن بعض ، أقل مما يعتقدون . وسرى كذلك أن غالبيتهم يحجلون ، غير مستخدمين سوى رقعة ضيقة من الأرض ، جاهلين مياديتهم الواسعة . ما المكان الذي تحتله المرأة « التقليدية » في هذا الفصل ؟ مكان صغير جداً . والرجل العادي ؟ ليس المكان الذي يحتله أكبر . فما فائدة هذه السطور ؟ لا شيء ، بالنسبة إلى النساء والرجال الذين لا يرون فيها غير نظرية مغرية على وجه التقريب .

يقال إن حضارتنا بحاجة إلى إعادة نظر ملحة . هذا أمر مؤكد .

ولكن بماذا يبدأ الإنسان ، إن لم يبدأ بذاته ؟ ما الذي ينقصنا . وهو مع ذلك موجود فينا . ولكننا قطعنا الصلة به ؟ يناقش الناس بحزم لمعرفة «من ينبغي أن يبدأ» . فيختلس النساء نظرة نحو الرجال ، ويختلس الرجال نظرة نحو النساء .

تريد النساء أن يصبحن موجودات إنسانية لمن جميع الحقوق : ذلكم هو شعارهن . فإذا استثنينا حقوقهن الخارجية ، ماذا تعني هذه الكلمات في أذهانهن ؟ هل تردن القول ، إن الرجال نجحوا في حقوقهم الخارجية... فيما أنهم يعيشون في ثمانين بالمئة من حياتهم وكأنهم مشوهون سيكولوجيون ؟

ضروب الالتهاب

ومع ذلك ، يظهر كل شيء في البداية على أنه بسيط بساطة الطفل :

— الصبي الصغير ينبغي أن يصبح رجلاً .

— والفتى الصغيرة ينبغي أن تصبح امرأة .

وتعكف الأسرة ، منفعة ، على المستقبل وتوقعه . وسيكون الطفل ، ذكراً كان أم أنثى ، مشروطاً بحسب صورتي « المرأة » و « الرجل » الضباييتين ، وغير الواضحتين ، وذواتي القوالب الجامدة . ولكن أي شخص عاجز عن توضيح ما يعني أن يكون الإنسان رجلاً ، أو أن يكون امرأة .

لاحظوا الوجه . قلبوا صفحات المجالات ، وانزعوا من صورها العلامات الخارجية الخاصة بالمرأة أو بالرجل (الشعر والمساحيق ، الخ).

فكم مرة تستطيعون أن تحدّدوا تحديداً يقينياً أنكم إزاء وجه « امرأة »
أم وجه « رجل » ؟

الحياة اليومية حولنا تضحج بالرجال « الذين يشبهون الأثني » ،
وبالنساء « اللواتي يشبهن الرجال » . فمن يقوم بالدور الفاعل في هذه
الأسرة أو تلك ؟ المرأة ؟ الرجل ؟ ومن يُقاد ؟ من هو « القوي » ؟ ومن
هو الضعيف ؟ وإذا أصغينا إلى الأصوات دون أن نرى الوجوه ، كم
مرة لا يقول فيها المرء أيها السيد لامرأة ، وسيدتي لرجل ؟

أولاً - نقطة البدء

١ - المسألة الرئيسة

لنلاحظ هذه المرأة القوية الشعبية ، الفاعلة والنشيطة ، المحبة
والمعطاءة ، المؤنثة والمذكّرة في وقت واحد وعلى نحو منسجم . ولنشر ،
دون توقّف ، إلى أن الحواجز بين الرجال والنساء تتصلّب كلما « ارتفع »
المستوى الاجتماعي ، انطلاقاً ولا ريب من تنظيم اجتماعي ذي قوالب
جامدة ، ومن سيكولوجية داخلية مشوّهة .

في ظرف معين . تتصرف تلك المرأة الأخرى بطريقة يُقال إنها
طريقة « الذكر » . فماذا يعني هذا القول ؟ وفي ظرف آخر ، تسلك
بطريقة « نسوية جداً » . فماذا يعني هذا القول ؟ هل هي طريقة نسوية في
حين كان ينبغي أن تكون ذكورية ، أو العكس ؟ وهل تستخدم المرأة
أنوثتها وهي تدرّج ؟ وهل هي سيّدة أنوثتها وذكورتها ؟ وهل يمكنها
أن تنتقل من الواحدة إلى الأخرى دونما صعوبة ، ووفقاً لمقتضى
الأحداث ؟

ها هي ذي امرأة طفل ، واقعة في ضرب من العطالة الرطبة ، تصنع الفتنة بفعل شعر طويل وأهداب مزبّفة . وينتشي الرجال : « كم أنت أنثوية ! » والحال أنها ليست أنثوية ولا ذكورية . وما شأن هذه المرأة الأخرى المنتصبة بعذوانية ، وتنطلق بقذائف متقطّعة ؟ يقال عنها إنها امرأة « مسرّجلة » أو ذكورية . والواقع أنها ليست أنثوية ولا ذكورية . فماذا إذن ؟

ويجري تصنيف الموجودات كما يجري صف الأرقام في المحاسبة : على عمودين . الرجال من جهة ، والنساء من جهة أخرى . وتجمع الفروق بين الجنسين .

وليس ثمة ما يقال لو كانت هذه الفروق حاسمة . ولا ريب في أن الاتصال بين الجنسين سيكون عندئذ متعذراً . ولكن الأبيض سيكون ، على الأقل ، ساطعاً ، والأسود دامساً . فنستسلم لذلك ، وهذا هو كل شيء . ونقرر أن أي امرأة لا تفهم رجلاً على الإطلاق ، والعكس بالعكس . الأمر الذي يتصف مع ذلك بأنه السائد في تسع حالات من عشر ، للأسباب التي سراها . والحقيقة ، بالإضافة إلى ذلك ، أن :

الهرمونات الذكرية تهيء سلفاً ل :	الهرمونات الأنثوية تهيء سلفاً ل :
التقلقل	الثبات
الفاعلية	السلبية (١)
المحاكمة ، المنطق	قابلية الاستقبال
الترحال	الاستقرار
التعبير الخارجي عن الذات	الحمل
المظهر	الماهية

(١) سشرح هذا المصطلح الشديد « الخطر » فيما بعد .

ولن نمضي بعيداً إذا كانت النساء غير قادرات على أن يشغلن غير العمود الأيمن ، والرجال غير العمود الأيسر . وإذا كان الأمر كذلك ، فالرجال والنساء ، الأضداد بصورة كلية ، متناقضون نهائياً ، ومتخرون ، كل في النوع الذي ينتمي إليه ، وقائلون للتفاهم المتبادل : إلى الوداع بصورة نهائية .

والحال أن الحياة اليومية تبيّن لنا أن لكل من الرجال والنساء موقِعاً في كل من العمودين . فالذكر المحض معدوم كالأنثى الصرف .

والذكر المحض سيكون ضرباً من الغول المتفجر ، على نحو مستمر ، بضروب العدوانية والتزو والغضب ، وموجوداً في منتهى الرعونة ، لا يتصرف إلا بالهجوم واللدغ .

والأنثى الصرف ستكون يرقه هائلة ولا متمایزة ، وآلة تكاثر ، كملكة نمل .

فلكي يصبح الذكر رجلاً والأنثى امرأة ، لا بد اذن من أن يتصرف كل منهما « بشيء من الآخر » . والحال أننا نعلم منذ زمن بعيد أن كلاهما يحمل في ذاته بعض خصائص (وبعض هرمونات) « الجنس الآخر » . وهنا إنما تبدأ الصعوبة ، ذلك أن التحديدات تتعثر بتخطيطيات جاهزة .

— ها هي ذي امرأة فاترة . يُقال إنها « أنثوية جداً » . إنها ليست كذلك إطلاقاً . فهي فاترة ، والأنوثة شيء مختلف كل الاختلاف .

— وما هوذا رجل يتصرف تصرف « الصبي اللطيف » ، ليس العريكة ، وفاتن : وذو حركات متموجة . يُقال عنه إنه أنثوي . إنه ليس كذلك على الإطلاق . فهو « صبي لطيف » ، وليس العريكة ، وفاتن . ولكن الأنوثة شيء يختلف كل الاختلاف .

— وها هي ذي امرأة عدوانية بافراط ، قادرة على المنافسة . ويُقال إنها تسلك سلوك الذكر . إنها ليست كذلك أبداً . بل هي عدوانية بافراط ، قادرة على المنافسة . والذكورة شيء يختلف كل الاختلاف .

— وها هي ذي امرأة ذات نزوة . وبنت صغيرة . يُقال إنها أنثوية بطريقة ساحرة . فهي ليست كذلك مطلقاً . إنها ذات نزوة وبنت صغيرة . والأنوثة في جهة أخرى .

ماذا يريدون بقولهم عندما يؤكّدون أن امرأة معينة تتصرف تصرف الأنثى أو تصرف الذكر ؟

و « الأنوثة » ، بالنسبة إلى الغالبية من الناس ، ضرب من الضعف ، والامحاء ، والعاطفية المخنوقة ، والطاعة الضاربة إلى الوداعة . إنها شيء يتصف باللطف ، ولكن من الأجدر أن لا يكون لك منه شيء ، تحت طائلة إصابة الشخصية بالأنيميا العامة . فليس من المدهش إذن أن يرفض الرجال رفضاً صريحاً أن يكون فيهم شيء من الأنوثة ، وأن يحسب النساء أن أنوثتهن تحكّم عليهن أن يعشن في المؤخرة ، حكماً نهائياً .

فإذا كان الناس يخلطون بين الأنوثة والضعف ، فذلك لأن غالبية الأنوثة تالفة بشناعة ، وضامرة . وإذا كان الناس يخلطون بين الذكورة والعدوانية ، فذلك لأن غالبية ضروب الذكورة مشوهة .

فلا بد ، لهذا السبب ، من أن نختار إضاءة جديدة ، وأن نهمل بعض التصورات المتحجرة التي ما فتئت تزيد كثافة الحاجز الذي يفصل بين الرجال والنساء ، ويفصل بين المرأة ونفسها .

قليل من الناس يعرفون أن الحياة الداخلية (الوجدانية ، بكلمة أخرى) تمثل استطاعة هائلة . وغالبيتهم يشبهونها بـ « الحساسية المرتعشة » ، حساسية شاعر السقيفة . فهم يتصورون الحياة الداخلية عندئذ وكأنها زهرة مصابة بآفة ، يتركونها للنباتات ، والفاشلين في العمل ، ولفناني يوم الأحد .

فما الحياة الداخلية ؟ لقد بحث بعضهم عنها حتى في الشرق حيث أن عددًا من الناس ، على ما يبدو ، يعرفون ماذا تعني . ولكن كثيراً من الذين عادوا من « هناك » يتكلمون على الحياة الداخلية بكثير من الإشباه في مواقف المطلعين على الأسرار . لأنهم يشعرونك بأن الحياة الداخلية تقتضي أن يبقى المرء ساكناً ، وعود من البحور ينفث دخانه تحت أنفه .

والواقع أن الحياة الداخلية ذات الحالة الجيدة تكون احتياطي الطاقة ، الذي لولاه لما كان ممكناً أي تحقيق للذات .

مستبعدة بالنسبة إلى فكرة أن « أمارس الاستشراق » . وحسب المرء مع ذلك أن يلاحظ أطفالاً أو راشدين يابانيين يمارسون التأمل الساكن الزيني . قبل الانتقال إلى أعمالهم ، وحياتهم اليومية ، أو إلى فنونهم الحربية ، لكي يفهم أن الحياة الداخلية ليست مزاحاً .

والحال أنه قد يحدث أن تكون المرأة موهوبة ، بصورة حقيقية ،

(*) الزيني : نسبة إلى زن ، إحدى الطوائف البوذية اليابانية ، التي توصي بالتأمل ، والتي ساهمت في تطور الفنون ، إذ بشرت بالمفعولات الطيبة التي يتركها الجمال على التأمل «م» .

لهذه الاستطاعة الكامنة التي تمثلها الحياة الداخلية . ومن يقول بقوة داخلية ، يقول بإمكانية إظهارها في فاعليات خلاقة .
ماذا فعلت المرأة بهذه الثروة ؟

٣ - الجنسية الثنائية

المساواة الماثلة في عنوان هذا الفصل تغطّي الواقع الأكثر أساسية من الموجود الانساني . والتفاهم (أو الأختوة) بين الجنسين منوط بها . وهذه الحقيقة ، شأنها شأن جميع الحقائق الأولية ، غاصت ، وطفّت على السطح ، واختفت ، ثم ظهرت ثانية ، خلال القرون . وتعيشها بعض الحضارات وكأنها بديهية : وهو ما هو قائم من جهة أخرى . ولكن أجمل ما في الأمر أن كل إنسان يطبقها على وجه التقريب ، دون أن يعلم ذلك ، ويطبقها تطبيقاً سيئاً على الغالب .

وبرزت هذه الحقيقة من الظل ، في ثقافتنا ، منذ زمن قليل ، وعلى صورة علمية هذه المرة . وقد أوضحها فرويد ويونغ أيضاً جيداً . فالأول يؤكد أن الموجود الإنساني ثنائي الجنسية . ويقول الثاني إن في الرجل جزءاً من الأنوثة ، وفي المرأة جزءاً من الذكورة . ويتكلم عليها الطب منافساً . إنه لموضوع أساسي من موضوعات علم النفس التحليلي . وبالاختصار : إن ذلك حقيقة لا غنى عنها كالحب : كل رجل ذكر وأنثى معاً ، وكل امرأة أنثى وذكر معاً .

ولنلاحظ أن هذه التصريحات لم تتغير شيئاً . فالحقيقة المعلنة ، والثابتة بالبرهان . ليست لهذا السبب حقيقة معاشة . ويكفي مع ذلك أن تُعاش لكي تصبح ما نحن عليه . ولهذا السبب لا بد من أن نهجر دروبنا المألوفة .

ثانياً - وجهة نظر جديدة

١ - لتعاود التفكير في أنفسنا بمصطلحات الطاقة

لنقل أول الأمر ، مقارنة للصعوبة ، إن الأنوثة والذكورة سلوك كان ، واتجاهان ، وأسلوبان في التصرف إزاء الظروف . ويقال ، من جهة أخرى ، على نحو مألوف : اتجاه مذكّر وأسلوب مذكّر ، واتجاه نسوي وسلوك نسوي .

ولكننا لكي نفهم (ونطبق) ما تعنيه هذه العبارات ، لا بد لنا من أن نفكر في أنفسنا ثانية بمصطلحات الطاقة .

لدى كل موجود إنساني ، في كل لحظة ، كمية معينة من الطاقة . وينبغي عليه أن يسوسها ويستخدمها كما يفعل ذلك مع رأس مال مالي . ورأس المال هذا سيخلق التوازن أو عدم التوازن ، والعطالة أو الفاعلية ، والصحة أو المرض ، وتحقيق الشخصية أو تشوّهها ، وفقاً لكونه استخدم استخداماً جيداً أو رديئاً . وأدير إدارة حسنة أو سيئة ، وجُمع أو سُتت .

والموجود الإنساني عاجز ، في أي لحظة ، عن أن يصرف من الطاقة أكثر مما لديه . ولا يمكن لأي شخص أن يصرف ألف فرنك وفرنكاً إذا لم يكن لديه غير ألف . ولن يستولي أي شخص على ألف وواحد من الغرامات إذا وزن له صاحب بقالة الطاقة ألفاً .

وعندما يفلح موجود من الموجودات في أن « يتجاوز ذاته » (كما يقولون !) ، فإنه لا يفتأ يجمع الطاقات المبدّدة فيه ، وغير المنتظرة على الغالب . ففئة ضرب من الدافعية تقوم لديه مقام الصاعق . إنه يتصرف تصرف الممالي الذي يجمع رساميله المبعثرة لكي يواجه وضعاً غير متوقع .

والتعبيرات التالية معروفة : طاقة اليأس ، نفخ فيه الخوف طاقة هائلة ، وجهه جميع طاقاته صوب الهدف ، الخ .

ولنشر مع ذلك إلى أن « تجاوز الذات » ، الشهير هذا ، معزوّ إلى الرجل بصورة عامة ، وقلّما ينسب إلى المرأة . والحال أن على المرأة ، أكثر بكثير مما هو على الرجل غالباً ، أن تقرّر التعبئة العامة لجميع طاقاتها ، نظراً للحواجز المنصوبة أمامها ، التي تزيد من أعمالها المألوفة . وكون الوسام منسوباً إلى الذكر وحده أمر مفهوم إذا أخذنا بالحسبان « عبادة القضيب » (١) المستمرة في سيادتها ، بالتواطؤ مع العديد مع النساء . إنه لغبر منطقي ، في نسق آخر من الأفكار ، أن يكون لدى المرء طاقة دون أن يستخدمها ، بقدر ما هو غير منطقي أن يترك رأس ماله غير منتج . إنه ، مع ذلك ، إنما هو ما تفعله غالبية النساء ، لأن إبداعيتهن موقوفة .

والتربية ، للأسف ، ليست ، إذا صح القول ، قائمة أبداً على كيفية استخدام طاقتنا ، وإنما هي قائمة على السفساف من الأخلاق ، والأخلاق القبلية . فبدلاً من النظر إلى « الآلة الانسانية » أول الأمر ، ثم إلى قواعد سلوكها ، يحدث العكس . ويُقتضى أن تعمل الآلة على نحو أو على آخر حتى قبل معرفة ما إذا كان ذلك بمقدورها ، أو ما إذا كانت مصنوعة لصورة أخرى من استخدام الطاقة . ثم إن العجز ، عندما تبقى الطاقة « موقوفة » لدى الشخصية ، يعاقب عليه أخلاقياً . إن تربيائنا تركز على أوامر يمكن أن ترتد إلى : « يجب عليك ! » ولكن الطاقة تجيب : « إذا كان باستطاعتي ! »

(١) انظر فصل « عضو المديمة » .

إننا نطلق الصفة الأخلاقية على الطاقة ، ونعجب بها أو نحقرها ، الأمر الذي يتصف بأنه غير معقول ، لا معقولة أن نعجب باليوراانيوم والفحم أو نحقرهما .

ومفروض أن يتعرض الموجود الإنساني إلى اللوم إذا كَبَتِ الطاقة . وإذا سأل لأي شيء يستحق اللوم ، فلن تكون الإجابة على الإطلاق أنه ساس طاقته سياسة سيئة . ولا يتم البحث عن سبب هذا القصور في الطاقة إلا بعد إطلاق الصفة الأخلاقية ، بدءاً من قوانين ذات قوالب جامدة ، وبدءاً من مجردات طنّانة .

٢ - الطاقة ليس لها جنس

الطاقة ، من الناحية التقليدية ، من ماهية الذكر . والحال أن ذلك خطأ بصورة مطلقة . ومع هذا ، فإن كل شيء يجعلنا مستمرين في هذا الاعتقاد . والصدارة في ذلك للسينما ، بأبطالها الذين لا يُقهرُونَ . وحذت حذوها الرياضة . وعندما بنحت الفنانون تماثيل النساء - انظر الأضرحة الأوابد ، والنساء اللواتي يقدن الرجال إلى النصر ، والنساء اللواتي يمثلن العمل والحصاد والخطط الخمسية والعشرية - فإنهم يعتقدون في أنفسهم أنهم ملزمون بأن يضيفوا عليهن قامة ضخمة كقامة الجندي الذي يعمل في التحصينات .

إننا ، على هذا النحو ، لا نتميز الشكل من المضمون ، والعضلة من الحياة الداخلية ، كما لو أننا نحسب أن كأساً من الماء يزن أكثر من قذح من الزئبق ، بسبب كونه أكبر منه .

وإذا اعتقدنا ، من جهة أخرى ، أن الطاقة ذكورية ، استنتجنا من ذلك أن الأنوثة دون استطاعة ، أو دون استطاعة على وجه التقريب .

كل هذا غير معقول . فالطاقة هي ما هي عليه : ليس لها جنس .
وهذا هوذا مثال واحد : من المؤكد أن لدى ربة أسرة ، فاعلة ، من الطاقة
أكثر مما لدى مستخدم عاجز عن أن يقوم بأي شيء آخر غير العمل
المكتبي . والوسيلة الوحيدة — الطوباوية — للحصول على ضرب من
المقارنة هي تقييم كميات الطاقة التي يحتوي عليها نساء العالم بأسره ورجاله .
والنتيجة ليس لها مع ذلك أي أهمية . ذلك أن الطاقة التي لدينا شيء ،
وطريقتنا في استخدامها شيء آخر . . وهذا الاستخدام ، سيئاً كان أم
جيداً ، غير منوط بتريبتنا فحسب ، بل هو منوط بالاسلوب الذي
نتصرف بحسبه إزاء تريبتنا .

ويمكن التمول ، بصورة عامة ، إن ثمة اتجاهين إزاء الطاقة :

الاتجاه الأول : أن نحتجز الطاقة فينا .

الاتجاه الثاني : أن نحورّ الطاقة خارجنا .

كيف تستخدم المرأة طاقتها في كل ظرف من ظروف حياتها ؟ هل
تستخدمها بطريقة مناسبة ؟ أي غير محلها ؟ بطريقة غير معقولة ؟ هل
تغالي المرأة في الصرف بالنظر إلى ما لديها من رأس مال من الطاقة ؟ وهل
تستخدم منها كمية زهيدة في حين أن الاحتياطي ممتاز ؟

لماذا ملايين النساء ، اللواتي يملكن طاقة تتيح لهن إبداعية فكرية
عظيمة ، يجمدن في الداخل ، دون أن ينتقلن أبداً إلى تحقيق هذه الأفكار ؟
ما السد بين الطاقة الداخلية وبين التعبير عنها في الخارج ؟ وما منشأ هذا
السد ؟

من الجوهري ، أول الأمر ، أن نفهم جيداً أن الأنوثة والذكورة

مصطلحان ليس لهما علاقة ، على الاطلاق ، بكون الموجود الانساني رجلاً أو امرأة . والمسألة ، كما سأبين لكم ، هي مسألة اتجاهين إزاء طاقتنا . ولكن الناس أضفوا الصفة الجنسية على الطاقة . فيقال إن المرأة تتصرف مثل هذا التصرف ، والرجل يتصرف مثل ذلك . والمرأة تفكر على هذا النحو ، والرجل يفكر على نحو آخر .

لماذا يتصرف ويفكر رجل وامرأة ، لديهما كمية واحدة من الطاقة ، بصورة مختلفة ؟ إن فرقاً قدره ٤٦/١ بالمئة ، على مستوى الصبغيات ، لا يمكن أن يشرح مثل هذا التفاوت . ولحل هذه الصعوبة ، لا بد من محاولة تحديد ماهية الأنوثة وماهية الذكورة ، أيا كان الجنس .

فنحن دائماً إزاء حركة دائرية من ثلاث مراحل ، سواء كان الأمر ذا علاقة بالطبيعة ، بآلة من الآلات ، أو بموجود من الموجودات الإنسانية :

كمية الطاقة صرف الطاقة شحن جديد للطاقة

ولسوء الحظ أن الناس أضفوا الصفة الجنسية على الطاقة . فنحن ننفذ على هذا النحو إلى تصور للمرأة خاطيء أعظم الخطأ ، تصور سبب «إخفاقات» عديدة في الشخصية .

٣ - «السلبية» والفاعلية

يقال : الأنوثة = سلبية والذكورة = فاعلية

ولكن الناس لا يميزون بين السلبية والعطالة في أذهانهم . وذلك إنما هو الخطأ الأساسي المرتكب منذ زمن طويل . وعندما يُقال إن المرأة مهياة سلفاً للسلبية بفعل هرموناتها الأنثوية ، فثمة ترجمة فورية تتم في

أدمغتهم الانسانية : المرأة مهيأة سلفاً للعطالة . الأمر الذي يتصف بأنه خاطيء كل الخطأ .

ويندهش غالبية الناس إذا أكدنا لهم أن اللبوة الموجودة هناك : الساكنة ، وذات العضلات المتوترة جميعها ، والمتجمعة حول نفسها في انتظار فريستها ، هي في حالة من السلبية . والحال أنها ، في هذه اللحظة المحددة ، سلبية .

والسلبية الحقيقية حالة من الراحة والانتظار ، ومن التوتر التدريجي المتناغم ، حيث يجمع الموجود ضاقاته بغية القيام بحركة من الحركات ، بغية وضع هذه الطاقة موضع الفاعلية .

وتقتضي السلبية القوية ضرباً من الحالة الداخلية المتناغمة . فإذا كانت السلبية صحيحة ، أتاحت حالة « التنصت » ، وأتاحت التقاط الاحساسات والمعلومات وتخزينها . فالسلبية مصدر رئيس لكل تجميع في الطاقة . ويمكن إذن أن نستنتج أن المرأة ذات استعداد مسبق لاستطاعة داخلية، وكذلك الأنوثة ، إذا كانت ذات استعداد مسبق للسلبية . ولكن الطريقة التي تُستخدم بها هذه الاستطاعة الداخلية حكاية مختلفة كل الاختلاف ، كما سنرى فيما بعد .

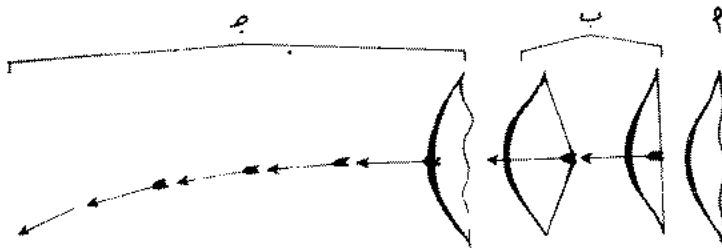
وعلى هذا النحو إذن :

السلبية = شحن الطاقة ، أو الطاقة الكامنة

الفاعلية = تفرغ الطاقة ، أو الطاقة الحركية

ومن المؤكد أن لدى كل موجود إنساني هذا الايقاع في داخله .

لماذا يفلت الشيطان من القوائين التي تحكم الكون والطبيعة والفصول ؟
 وكون هذا الإيقاع قد يخلت عقب الأمراض ، واضطرابات الشخصية ،
 لا يغير من الأمر شيئاً .
 وقد يكون مثل القوس والسهم مثلاً رائعاً .



شكل رقم (٢)

ففي الحالة الأولى ، يكون القوس في حالة استرخاء بصورة كلية ،
 في حالة من الانتظار غائبة ، وغائبة أن يُوتر لكي يقدر على قذف السهم .
 وفي الحالة الثانية، يُوتر القوس فجأة على نحو تدريجي . إنه يجمع
 الطاقة .

وفي الحالة الثالثة ، تتحرر الطاقة المخزونة وتظهر إلى الخارج .
 فالسهم مقدوف لكي يفقد الطاقة المجموعة تدريجياً فيما بعد .
 كذلك فان كل ما هو أنثوي ، في الطبيعة ، هو في حالة من الانتظار ،
 والكمون ، والسكون والتجميع .

٤ - القطبان

ويمكن أن نرسم على هذا النحو تخطيطية لما سبق :

القطب المذكر (الذكورة)

يشتمل فينا على كل ما هو

— في حال من الاسترخاء ، ومن — في حالة الحركة ؛

الراحة ؛

— ساكن ، وفي حال من الانتظار ؛

— سلبي ؛ — فاعل ؛ أو بالحري ، في حال

من بذل الفاعلية ؛

— « بالقوة » ؛ * — « بالفعل » ؛

— يجمع الطاقة الكامنة ؛ — يفرغ من الطاقة المجموعة ؛

— يعدّ لعمل خارجي معين . — يتصرف خارجياً على نحو معين .

إن رجحان أحد هذين الاتجاهين هو الذي يجعل منا ذوي صفات نسوية أو ذكورية إزاء الظروف .

ولنتخيل ساعة من ساعات حياتنا . هذه الساعة يمكن أن تتجزأ إلى عدد كبير من الظروف التي نتصرف إزاءها بصورة شعورية أو لاشعورية . فكل جزء من الثانية يقابله فينا رد فعل — جسمي أو نفسي — من الانتظار أو من الحركة . إذن ، رد فعل مؤنث أو مذكر .

ومن المتعذر إثارة هذين الاتجاهين في لحظة واحدة . فلا يمكن أن يكون المرء ، في وقت واحد ، سلبياً وفعالاً ؛ يجمع الطاقة ويفرغها ، في حالة من الراحة والحركة . ففي أثناء هذه الساعة من الحياة ، كنا إذن أكثر اتصافاً بالصفات الأنثوية من اتصافنا بصفات الذكورة ، أو أكثر

(*) ما هو بالقوة عكس ما هو بالفعل ، أي كامن « م » .

اتصافاً بصفات المذكورة من اتصافنا بصفات الأوثة ، وذلك بحسب ما كنا قد وصلنا التيار بنشبة هذا القطب أو ذاك .

كل هذا غير مرئي « بالعين المجردة » ، طبعاً . ونحن لا نرى غير الاتجاه الراجح ، ولا شيء أكثر . ويمكن القول إن فيلماً سينمائياً يتصف بأنه من القطب المذكور ، إذ يبدو أنه في حركة دائمة . ولكن العين لا ترى الانغلاقات الأربعة والعشرين التي تحدث في الثانية (منها ٢٤ توقفاً في الفيلم ، ٢٤ « انتظاراً » . . . أي قطباً مؤنثاً) .

فكل موجود إنساني يمكن إذن أن يتخذ الاتجاهين إزاء طاقته ، كما يتخذ الاتجاهين إزاء رأس مال مالي ، على وجه الدقة .

الاتجاه الأول

يقوم (كالفوس) على :

— أن يجمع الطاقة : ويحفظ بها في ذاته : ويخزنها ، الأمر الذي يستلزم :

أ — أن يكون في حالة الانتظار : والراحة ، والسكون .

ب — أن لا يتسرع ، وأن يراقب ويتأمل ، وأن يكون في حال من « التنصت » لإحساساته وعواطفه وحدوسه .

ج — أن يجمع إحساساته ، وعواطفه ، وحدوسه ، ومعلوماته ، التي تدخل بفضل هذه الاستقبالية .

هذا الاتجاه ينتمي إلى القطب المؤنث .

ونقول بعبارة أخرى : إننا إزاء اتجاه من اتجاهات الأنوثة : ولكنه
غير ذي صلة ، بحصر المعنى ، بالمفهوم المألوف لـ « الأنوثة » .

الاتجاه الثاني

ويشتمل هذا الاتجاه (شأنه شأن السهم) على :

— تحرير الطاقة المجموعة و صرفها . الأمر الذي يستلزم :

أ — الوجود في حال من الحركة ، حركة الجسم أو حركة الفكر .

ب — المحاكمة والتصرف الخارجي ، وتنفيذ قرار اتضح خلال

الاتجاه الأول ، وتنفيذ عمل تجمع الهامه خلال الاتجاه الأول .

هذا الاتجاه ينتمي إلى القطب المذكور .

ونقول بعبارة أخرى : إننا إزاء اتجاه من اتجاهات الذكورة ، ولكنه

غير ذي صلة ، بحصر المعنى ، بالمفهوم المألوف لـ « الذكورة » .

٥ — بعض الأمثلة

هذان الاتجاهان ، هذان « القطبان » ، هاتان الطريقتان في استخدام

الطاقة ، موجودتان في الطبيعة برمتها .

هو ذا حيوان مقترس

أ — إنه في حالة توقف . جميع عضلاته تتوتر تدريجياً . إنه

بعد عمله . إنه لا يجمع الطاقة العضوية فحسب ، بل يجمع كذلك آلافاً

من المعلومات (سرعة الريح واتجاهه ، واقتراب فريسته ، وحساب

القفزة التي عليه إنجازها ، وتقدير المسافة ، الخ) . هذا الحيوان المقترس

«موصول» بقطبه المؤنث . واتجاهه اتجاه يتصف بصفات المؤنث . وهو سلبى أيضاً ، بالمعنى الذي حدّدناه فيما سبق .

ب — يقفز الحيوان . فالعلاقة المجموعة تتحوّل إلى حركة . إنه ، في هذه اللحظة ، «موصول» بقطبه المذكور . واتجاهه اتجاه مذكر .

ها هو ذا بركان

أ — إنه يهدر بصوت غير مسموع . ويجمّع حجماً من الغاز يمثل طاقة كامنة هائلة : إن هذا البركان ، في هذه اللحظة ، «يعيش» على قطبه المؤنث . واتجاهه ، إذا صح قولى ، اتجاه مؤنث .

ب — وينفجر البركان ، وتنبعث الحمم . وتصبح الطاقة الكامنة طاقة حركية . إنه القطب المذكور ، أو «ذكورة» البركان .

ها هو ذا نحّات

أ — هو ساكن داخلياً . إنه يتأمل في الصورة التي سيعطيها لصلصاله . ويجمّع إلهامه وإحساساته . ويهيء «استخدامه» المقبل . فهذا النحات «موصول» بقطبه المؤنث . واتجاهه اتجاه مؤنث .

ب — يمسك النحات بأدواته ، ويعمل على صلصاله . فهو ينتقل إلى حالة الحركة : ويفرغ إلهامه المتجمع . ويتخذ الصلصال صورة . إن النحات أدار المحوّل إلى قطبه المذكور . فاتجاهه اتجاه مذكر .

قد يلومني بعضهم على أنني أكرر نفسي . ولكن ذلك يبدو لي أمراً لا غنى عنه ، نظراً لأن هذه الضروب من الأنوثة و الذكورة هي عكس ما يعتقده الناس بصورة عامة .

٦ - الاتجاهات المذكورة والاتجاهات المؤنثة

يمكن للمرأة إذن ، شأنها شأن كل كائن حي ، أن تتبنى اتجاهين أمام الظروف :

أ - الاحتفاظ (تجميع) بالطاقة . وسيكون اتجاهها هذا اتجاه الأنوثة .

ب - تحرير (تفريغ) الطاقة . وسيكون اتجاهها هذا اتجاه الذكورة . وهذان الاتجاهان مشوهان على الغالب لدى المرأة . فالأنوثة غير متميزة عن الضعف ، والتبعية ، والخضوع ، الخ . أما فيما يخص ذكورتها ، فإنها لا تعرف ماذا تفعل بها ، هذا إذا لم تستخدمها استخداماً سيئاً جداً .

وواضح ، عندما نلاحظ القوس والسهم ، أن المقذوف (السهم) أكثر عطوبية من القوس بما لا يقاس . فحركته تجعله يتعرض إلى خطر أن يصادف عثرات يمكن أن تفسده أو تتلفه ، أو تحرفه عن مساره . يضاف إلى ذلك أن هذا المسار ، الممتد والنافذ ، لا يبقى غير لحظات ، حتى استنفاد الطاقة الحركية .

أما القوس ، فإنه غير عطوب من الناحية العملية ، بفعل سكنون طاقته .

من هنا منشأ هذه التخطيطية التي تُطبق على كل موجود إنساني :

القطب المؤنث = استقرار ، لا عطوبية ، ديمومة .

القطب المذكور = عدم استقرار ، عطوبية ، آن .

فاذا نقلنا مثال القوس ، لاحظنا في الحياة اليومية :

— أن ثمة نساء طاقتهن الداخلية (القطب المؤنث) ضامرة أو موقوفة .
 إنهن لا يستطعن توتير القوس ولو أن لديهن سهماً جيداً .

— أن ثمة نساء طاقتهن الداخلية جيدة ، ولكنهن يخشين إظهارها إلى الخارج ، ويخشين التصرف ، والتقرير ، وفرض ذواتهن . فالقوس في حالة جيدة ، غير أن السهم يبقى رهين كنانته .

— أن ثمة نساء لديهن قدرة ممتازة على العمل ، ولكن طاقتهن الوجدانية « مسدودة » . إن لديهن سهماً جيداً ، ولكن القوس قوس طفل .

وتكشف المرأة السوية ، بالتأكيد ، عن رجحان في الاتجاهات الأنثوية . إنها أكثر اتصافاً بأنها « تحتفظ » بطاقتها . وهي ذات استعداد مسبق للاستقبالية ، والداخلية ، اللتين تتغلبان على الإظهار إلى الخارج .

والرجل السوي يُظهر طاقته إلى الخارج كثيراً . فعدد مواقفه المذكورة يتجاوز عدد مواقفه المؤنثة .

امرأة سوية

خلال فترة معينة



شكل رقم (٣١)

(القطب المؤنث أكثر استعمالاً من القطب المذكر)

رجل سوي

خلال فترة معينة



شكل رقم (٤)

(القطب المذكر أكثر استعمالاً من القطب المؤنث)

ثالثاً : دور الأنوثة والذكورة

١ - الأنوثة

تنجم خصائص الأنوثة عما سبق. ويمكن تحديدها من جهة أخرى بما لا يتصف به . إن الأنوثة ليست ضعفاً ، إنها ليست عجزاً ، وهي ليست . . . كل ما حكى حول موضوعها .

وما علينا أن نبحث عن الطوباوية . إن ٩٩ بالمئة من الأنوثات بعيدات عن الأنوثة بمقدار ما يمكن أن يكون عليه الفرق بين بيل كهربائي ومركز ذري . ومع ذلك ، فإن الأنوثة استطاعة في حد ذاتها . والأنوثة تمثل مدخرة الشخصية . وإذا أصبحت هذه القوة ، على الغالب ، ثقلاً مصاباً بالعطالة ، أو بخاراً دون قوام ، فإن ذلك ناجم عن أسباب عديدة لا بد لنا من أن نخوض في تفصيلاتها .

والأنوثة هادئة بصورة آلية ، لأنها سلبية على نحو قوي . فهي موصولة بالواقع مباشرة . إنها في حالة التنصت على الأشياء والموجودات ، ومرتبطة بالزمن .

وذلك أمر رئيس : فلا يمكن لامرأة أن يكون لديها ذكورة ذات نوع جيد إذا كانت أنوثتها تالفة . شأنها في ذلك شأن فنان يتعذر عليه أن يعبر في الخارج عن عمل في ذي شأن إذا كان إلهامه فقيراً .

بل يمكن القول إن الذكورة ليست مبدعة على الإطلاق . ذلك أن كل إبداعية تحدث في داخل الشخصية : وإذن ، في دائرة القطب المؤنث . ولا يتصور المرء مثل مدام كوري أو مثل بيتهوفن يعبران في الخارج عن عمليهما دون أن يتركا أولاً للإلهام أن يتجمع . أو كذلك ، هل يتصور المرء أن ثمة إمكاناً لوضع سطح بيت من البيوت على الفراغ ؟

والفاعلية المبدعة ، التي برزت إلى الخارج ، منوطة بالاستقبالية التي تهيئها . ونوعية الفاعلية التي تبرز إلى الخارج منوطة باستطاعة الاستقبالية . ذلك إنما هو القانون الأساسي . وعندما يبدع خارجياً رجل أو امرأة ، فإنهما لا يفعلان سوى « استخدام » إبداعيتهما الداخليتين .

ومن الجوهري أن نضيف أن الأنوثة استطاعة لامتمايزة . يقول لاباليس* : لا بد لأي شيء من الأشياء أن يكون دونما صورة قبل أن يتخذ صورة . ويقول أيضاً : من المتعذر أن يكون التمثال تمثالاً قبل أن يكون مادة لا صورة لها : صلصالاً أو رخاماً .

ذلك يعني أن أي امرأة لا يمكن أن تكون مذكرة (صورة) على نحو واقعي ، إلا إذا كانت أول الأمر مؤنثة (من غير صورة) على نحو واقعي .

(*) لاباليس ، Lapalice : مارشال فرنسا (نحو ١٤٧٠ - ١٥٢٥) « م » .

والحياة الداخلية لامتمايزة . فهي تلتقط . إنها شبيهة بالرادار الذي يجمع المعلومات ، ويعكس جميع الأصداء ، سواء كانت نديفة ثلج أو طائفة طائفة . والعامل المحلل هو الذي ينبغي أن يقوم بعملية الاصطفاء وتمييز الأصداء .

والأنوثة لامتمايزة : لا صورة لها ، مثل الحياة الداخلية ، لأنها لا تتميز منها .

ولكن أي صورة تخرج من المادة التي هي غير ذات صورة ؟ من هذا الصلصال ، المادة التي لا صورة لها ، هل يخرج تماثل ، أو مزهرية ، أو صحن ، أو حوض متدفق ، أو بيت مزهر ؟

من هذه المادة ، دونما صورة ، التي تثوي في بطن امرأة ، أي صورة تبعث ؟ صبي ؟ بنت ؟ هل هذه الصورة سوية ؟ أم غير سوية ؟

والصمت ، هو أيضاً ، لا صورة له . أي « صورة » ستخرج منه ؟ محاكمة ؟ صراخ ؟ غضب ؟

ومن هذه السلبية التي تجمع الاحساسات ، أي صورة ستفجر ؟ عمل فني ؟ موسيقى ؟ فكرة ؟ عمل بناء أم هدّام ؟

ولهذا السبب : يتعلم أن توجد امرأة مؤنثة على سبيل الحصر . فهي تظلّ من غير صورة كالماء . ولا تدبر أبداً محوّل التيار إلى التعبير عن نفسها خارجياً . وتقضي حياتها في « تجميع » إشارات العالم ، دون أن يحدث أي استخدام لها . إنها تكون شبيهة برسام يجلس بصورة دائمة يتأمل في لوحة لن ترى النور أبداً .

وسنرى أن مثل هذا النوع من المرأة ، المجردة من كل ذكورة ،
موجود مع ذلك .

وأخيراً ، فإن الأنوثة استطاعة مستقرة . ومثال القوس والسهم يبين
جيداً ما يلي :

إذا كانت الأنوثة = استطاعة كامنة = سكوناً ،

فالأنوثة عندئذ هي استقرار .

ولهذا السبب ، تظل الأنوثة الحقيقية مساوية لذاتها مع تكييفها ،
في الوقت نفسه ، مع تقلبات الوجود . إنها ذات حس سليم لا يُطعن به ،
وذات مقاومة كبيرة للألم . ولهذا السبب كذلك ، كانت المرأة «الحقيقية»
شاهداً على الهياجات المذكورة .

٢ - الذكورة

إنها شيء زهيد في حد ذاتها . فهي لا تفعل سوى أنها تستخدم الطاقة
المتجمعة مسبقاً . وكل إظهار إلى الخارج - جسدي أو فكري - ليس
غير محصلة . والرصاصة ليست شيئاً في حد ذاتها . فنجومها منوط بشحنة
البارود ونوعيته ، ومنوط بكمال السلاح وتصويبه .

والذكورة لا تفعل سوى « التصنيع » ، سواء كان الأمر بصدد عمل
فني رائع أم عمل فني هزيل . فليست الذكورة متصفة بالعبقرية على
الإطلاق . إنها مجرد العامل المنفذ للأنوثة (أو للحياة الداخلية) .

والنساء اللواتي يعتقدن ، بوصفهن عاجزات عن الإبداع بصورة
خارجية ، أن ذكورتهن في حالة سبئية ، عديدات . وهذا أمر صحيح في

بعض الأحيان ، ولكن الأغلب أن أنوثتهن هي المشوّهة أو « المصابة بالعقد » ، وهي ، من جراء ذلك ، لم تعد تقدّم الطاقة الضرورية للفاعلية الخلاقة المدعومة .

وكثير من النساء قلن لي ، في بداية تحليل نفسي ، ما يلي على وجه التقريب :

– إنني لا أفلح في التعبير عن نفسي ، ولا أن « أفعل » شيئاً
– أتمنى أن أصبح أكثر ذكورة.

وهن في أغلب الأحيان كنّ مخدوعات ، وكان عليهن أن يقلن :
– أتمنى أن تعود أنوثتي ، الموقوفة في جهة من الجهات ، لتصبح ما هي عليه بصورة واقعية . وعلى هذا النحو ، فإن ذكورتي يمكن أن تفتح وقد تمت تغذيتها بصورة سوية .

وهؤلاء النساء فهمن تدريجاً ، من خلال التحليل النفسي ، أن صعوبتهن الحقيقية كانت تكمن هناك .

والذكورة تمثل المرحلة النهائية ، والصورة الأخيرة. إنها هي « التمثال » الذي ينبعث من الصلصال . ولهذا السبب ، تتصف أيضاً بأنها الأيمن الذي يطمح إليه النساء والرجال .

إذا قلت لامرأة أو لرجل : « أنتِ (أنتَ) تملكين موهبة مذكرةً جداً » ، فانك تمدحهما بذلك . أما إذا صرخت لأحدهما : إن أفكارك وموهبتك مؤنثة جداً ، فانه يلمّ رأسه إلى الداخل كما تفعل القنفاذ . وقد يُقال إن هذا إنما هو رد فعل « ثقافي » ، إذ أن « الأنوثة »

كانت ، ولا تزال ، غير مفهومة وفاقدة للحظوة . ولكن ألا يوجد شيء آخر ، بصورة أكثر عمقاً ؟

٣ - طبقتا البناء الإنساني

لاحظوا الرسم المعروض في الصفحة التالية ، وادرسوه . فأنا أعتقد أن مدلوله ذو أهمية كبيرة .

عندما يظهر إلى الخارج موجود إنساني شيئاً من الأشياء ، أو فكرة تتخذ صورة على الورق ، أو أثاثاً يجمع أجزاءه في صورته النهائية ، أو جملة يلفظها وهو يضعها في صورة ، الخ ، يمكن أن نتميز في هذه الظاهرة ثلاث مراحل :

أ - مرحلة الفوضى التي تعوم خلالها الأفكار بصورة مبهمه ، دونما قوام ولا اتجاه .

ب - مرحلة الاعداد : تظل الفكرة داخلية ، ولكنها تنفصل عن السياق . وثمة هدف يبدأ بالارتسام انطلاقاً من هذه الفكرة . وحول هذه الفكرة والهدف ، تتجمع إحساسات ، ومشروعات ، وتوقعات ، وملاحظات . وذلك صحيح بالنسبة إلى (المحرق) الذي « يعدّ داخلياً » رفته الجداري ، مثلما هو صحيح بالنسبة إلى الرياضي الذي يجمع في ذاته جميع المعطيات الممكنة قبل المعادلة النهائية . هذه المرحلة تقابل الطابق رقم ١ من اللوحة . ذلك إنما هو طابق الألوثة .

ج - مرحلة المآل ، مرحلة الانجاز النهائي والمعبر عنه خارجياً . فالوجود الإنساني ينتقل إلى التأليف . ذلك هو الطابق رقم ٢ ، طابق الذكورة .

والحال أن ما هو صحيح بالنسبة إلى الفكرة ، صحيح كذلك بالنسبة إلى جميع ظروف الحياة . فاللوحة تبيّن ، من الناحية الرمزية ، أننا «نصعد» من الفوضى نحو الذكورة ، كما نصعد على وجه الضبط من اللاشعور نحو الشعور ، ومن المادة نحو الصورة ، ومن كتلة الرخام نحو التمثال ، ومن اللاتمايز نحو الوجود الفردي .

فطابق الأنوثة موجود في منتصف الطريق بين الفوضى والذكورة .
ويكوّن طابق الذكورة قمة اللوحة .

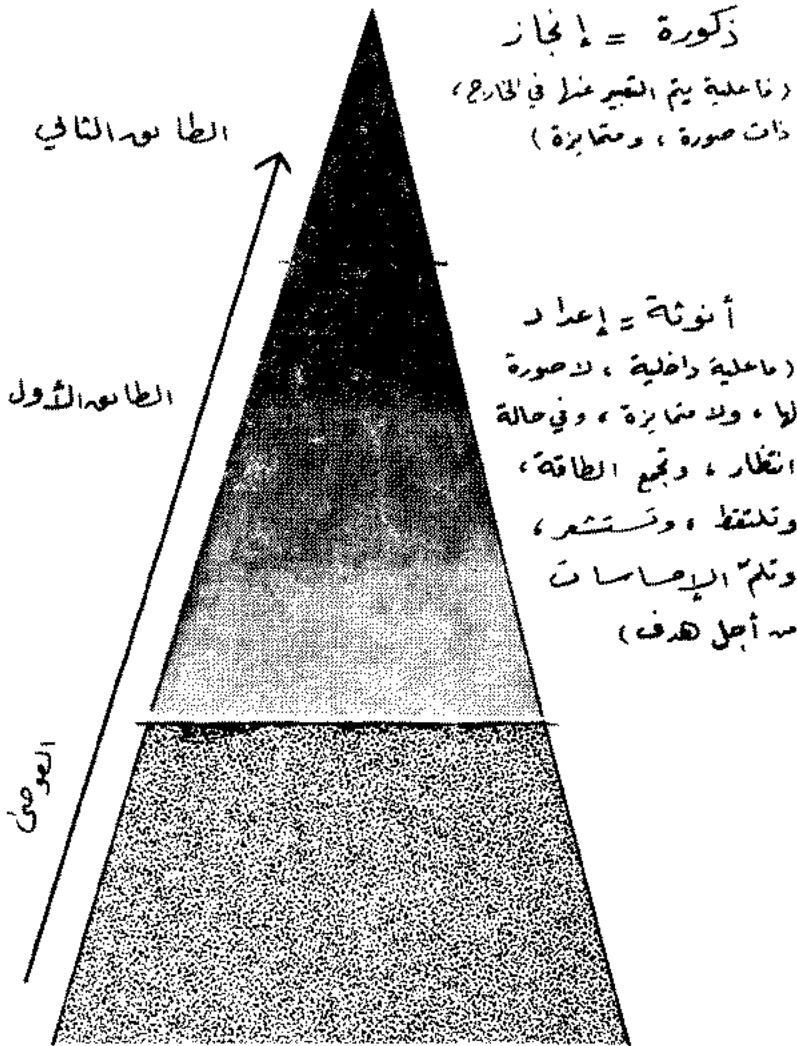
ويظلّ هذا صحيحاً بالنسبة إلى المرأة . فطابق الذكورة يمثل المرحلة الأخيرة ، يمثل قمة تراتبها الخاص . والمسألة هنا ليست مسألة قيم ، بل هي مسألة « راقات جيولوجية » للشخصية الانسانية .

وإذا كان طابق الذكورة يجلب الأمن ، فذلك لأن أي موجود إنساني يشعر فيه بأنه متمايز ، وشخصي ، وناجح .

من الواضح أن بناء الشخصية منوط بمتانة الطابق رقم ١ وباستطاعته .
والحال أن هذا الطابق ، لدى غالبية الناس ، لا يتصف إلا بالقليل من القوام . وحياتهم الداخلية رخوة .

ماذا يعني القول المجامل في هذه الحال : « إن لك موهبة مذكرة جداً » ؟ لاحظ الرسم . فليس هذا إطاراً للشخص ، كما يمكن أن يعتقد بعضهم ، بل هو اطمئنان . وبالنظر إلى أن أنوثة (طابق رقم ١) ضعيفة المتانة ، فإنها لا تقدّم أي نقطة ارتكاز . وتحتها توجد الفوضى ، والفراغ . ونفهم أن الفرد يرغب في أن يفلت من هذا الطابق رقم ١ ، لكي يبلغ القمة على وجه السرعة (الذكورة) . حيث يزول الإحساس بالخطر .

لدى كل موجود انساني



شكل رقم (٥)

ذلك أن المرء إذا كان بإمكانه أن يصعد من الأنوثة إلى الذكورة ، فإنه يتعرض إلى خطر أن ينزل ثانية نحو الفوضى والعدم ، انطلاقاً من أنوثة قليلة المتانة .

وهذا هو السبب الذي من أجله تتمسك الموجودات الانسانية بفكرة الذكورة كما يتمسكون بعوامة النجاة .

ونحن ننتهي إلى اكتشاف معرفة قديمة : خوف الموجود الإنساني (والرجل على وجه الخصوص) من العدم .

وليس لدى الصبي الصغير : منذ طفولته ، شيء أكثر استعجالاً من أن يغادر طابق الأنوثة لكي يبلغ طابق الذكورة . وفي هذا المجال إنما يرتكب ، على الغالب ، أخطاء فادحة . فهو شبيه بمتسلق جبال لا يتأني في التحقق من رباطاته ، وفي غرز كلاباته ، وفي سبر الحواجز : وفي مراقبة الطقس . إنه يهمل أن يمتن أنوثته . وهو يبدأ في التسلق دون ارتكاز كاف . وينتهي : على الغالب ، من ذلك إلى أن يصبح هذا الذي نكلمت عليه أحياناً : الرجل الحديث ، المحروم من أنوثة متينة : وليس لديه غير طاقات داخلية هزيلة .

عمره الوجداني ثماني سنوات . على الرغم من مظاهر الرجولة المفرطة . والطابق رقم ١ ملغوم بالعقد والمخاوف . وهو غير ذي قوام كالضباب . فكيف لا يصبح هذا الرجل اندفاعياً ، ومشوداً ، ومشوشاً ، ومهتاجاً ، وذا نزوة ، وغضبياً : وقليل المرونة ، ومتسلطاً ؟ إنه يتمسك بأي شيء لكي يبرهن على ذكورته ، ذكورة مشوهة مثل شخصيته كلها . ويتقدم بتوازن غير مستقر على حرف ذلاق من ذكورة فاشلة ،

ويتصف بأنه أكثر حصراً بقدر ما يتعذر عليه أن يكون تلقائياً : إن الطابق الأسفل عجينة ضبابية لا توقفه في سقوطه بالتأكيد .

ومن جهة أخرى ، ألغ الطابق الأول وانظر ماذا يبقى : فراغ ، يسبب الدوار ، بين القمة والفوضى .

٤ - لنصح

من الضروري أن نضع موضع التساؤل ، وأن نصحح : بعض الأفكار التي تلقيناها (والحاطة جداً) ، والتي تفصل الرجال والنساء إلى معسكرين متميزين كثيراً جداً .

يقال : المرأة حدسية ، والرجل منطقي .

ينبغي القول : الأنوثة : أيا كان الجنس : حدسية ، لأنها تحس بالأشياء على نحو لامتناهية . والأنوثة تلتقط جملة ، من خلال الاحساسات . والذكورة منطقية ، لأنها تصطفي الاحساسات التي نلقاها ، ثم تلجأ إلى المحاكمة منتقلة من نقطة إلى أخرى بصورة شعورية .

يقال : المرأة تستشعر ، والرجل يحاكم .

ينبغي القول : الأنوثة تستشعر ، والذكورة تحاكم ، وذلك أمر صحيح بالنسبة إلى كل موجود إنساني ، أيا كان جنسه .

يقال : المرأة تنظر إلى الحياة بصورة تختلف عن الرجل .

ينبغي القول : الأنوثة مستقرة وساكنة . وهي شبيهة بالماء العميق . إنها تكون حياتنا الداخلية كلها . وتحسّ بالحياة كما هي : بطريقة مشخصة ، ومباشرة : وعملية ، ودون موارد . والذكورة ، التي

تتصف بأنها في حركة غير مستقرة كسهم ، تشعر بالحاجة إلى أن تجهز نظريات وضروباً من الأخلاق ، تستخدمها صوى لتعلم طريقها ، وأماً حتى لا تسقط ثانية في الفوضى . وبما أن الأنوثة لدى المرأة أكثر اتساعاً ، فإن من المؤكد أنها تحس بالحياة على نحو يختلف عن الرجل .

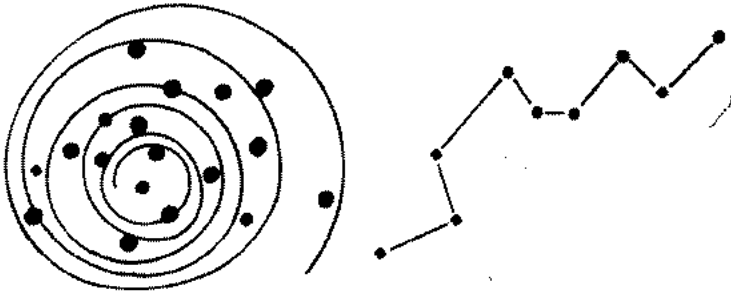
يقال : المرأة تحسن التمثيل أكثر من الرجل ، أو هي أكثر مراعاة من الرجل .

وينبغي القول : الأنوثة ، أياً كان جنس الموجود الانساني ، لامتمايزة، شأنها شأن رمزها الماء ، الذي يمكن أن يتخذ شكل أي وعاء دون أن يكف عن أن يكون ذاته . ويمكن للأنوثة ، بوصفها مرنة وسيالة ، أن تتكيف مع أي ظرف . ويمكنها كذلك أن تتضمن كل شخصية ، وأي دور ، بل وأي أكلوبة . أما الذكورة ، فإنها ، على العكس ، خارجية ، ومتحركة . وهي ، بالإضافة إلى ذلك ، تمثل «صورة» مكتملة ، أقل تكيفاً ، وأكثر تصلباً ، ودون مرونة . ونحن نفهم ذلك ، على نحو أفضل ، إذا فكرنا بكثير من الرجال والنساء الحديثين الذين يعيشون على ذكورة ضامرة بافراط ، ويعجزون عن التكيف مع الظروف . فهم لا يسرون على درب ، بل هم مثبتون على خط حديدي . ويمثلون ، هم أيضاً ، ملهاة دون أن يعلموا ، ولكنها ملهاة وحيدة ، ذات قوالب جامدة . وكلمة « ملهاة » ينبغي أن تؤخذ هنا ، بالطبع ، بمعنى عريض جداً ، مع مجموعة تدرجات تمضي من السوي (الأنوثة تتكيف) إلى جميع ضروب الشنوذ : ذلك أن أنوثة مريضة ، أو طفالية ، قادرة على أن تمثل أي « ملهاة » ، وقادرة على جميع ضروب الخلداع ، والأكاذيب ، دون أن ننسى — وذلك برهان

جديد على المرونة — قدرتها على أن تقع ، بصورة محتومة ، واقفة على رجليها .

في كل موجود انساني . . .

الذكورة و الأنوثة



شكل رقم (٦)

تمثل النقاط ظروف الحياة . ويمكن أن تكون هذه الظروف حوادث ، وإحساسات مشتتة ، وملاحظات ، الخ .

اتجاه الأنوثة يقوم على التأثر بصورة إجمالية ، وبصورة غير ذات شكل ، ولا تمايزة . ولا تجري الأنوثة أي اصطفاء . وهي تجمع الانطباعات قبل أن تظهرها إلى الخارج في كلام أو فعل واضح (ذكورة) . والأنوثة خط مائل وغير إقليمية .

اتجاه الذكورة يقوم على أن يمضي من حادث إلى آخر بطريقة متطقية ، وذات شكل ، ومتمايزة . وتجري الذكورة اصطفاء . إنها عقلية . إقليمية .

والأمر هنا لا يختلف عما هو عليه في السياسة : لا يمكن لليمن أن يستغني عن اليسار .

يقال : الرجال لن يفهموا النساء أبداً (أليس من المستغرب أن الناس قلّما يؤكّدون العكس ؟)

وينبغي أن يقال : لا يمكن فهم الأنوثة بصورة عقلانية : إذ أنها لامتمايزة ، وبالتالي لاعقلانية . وليس بالإمكان سوى أن تستشعرها من خلال الاحساس والحس ، ولكن لا من خلال العقل والمنطق أبداً . ولن يستشعر الرجل امرأة على الإطلاق ما دام لم يحقق أنوثته الخاصة . كذلك فإن المرأة لا يمكنها أن تفهم ذكورة الرجل ما دامت لم تنجز ذكورتها الخاصة . وذلك يثير صعوبة من الصعوبات . ذلك أن النساء السويات (أنوثتهن وذكورتهن سويتان) يفهمن بصعوبة معظم الرجال الحديثين الذين ينهمكون في الصراع من أجل أفكار مجردة ، أكثر مما ينهمكون في الصراع من أجل وقائع إنسانية ومشخصة .

يقال : المرأة ذات نزوة واندفاعية .

ينبغي أن يقال : كل موجود إنساني ذي حياة داخلية مشوّمة يصبح ذا نزوة واندفاعياً ، سواء كان امرأة أو رجلاً .

ومن العبث أن يزعم المرء أن « المرأة » تتصرف على نحو معين ، ويتصرف « الرجل » ، على نحو آخر . فذلك يعني أن كل جنس يتصرف جملة على الدوام ، وبطريقة لا تنتمي إلا إليه وحده .

والواقع أن أي رجل ، أو أي امرأة ، يتصرفان بحسب « القطب » الذي يعيشان عليه في لحظة معينة . ولكن المرأة ذات استعداد مسبق لبعض الاتجاهات ازاء الحياة ، ولبعض الأساليب في الاحساس بالوجود وتصوره . ولبعض أنماط التفكير ، والمحاكمة ، والتصرف ، لأن ضروب سلوك

الأنوثة . لدى امرأة سوية ، أكثر عدداً من ضروب سلوك الذكورة .
إن المرأة ، بمعنى آخر ، ذات استعداد مسبق لخصائص الأنوثة كما
حددها .

هـ - وبالاختصار ، لا بد من ثورة . . .

— كون الموجود الانساني امرأة نتيجة بنية غدّية بالتأكيد .
ولكن الأنوثة و الذكورة هما ، لدى امرأة أو رجل ، طريقتان في
استخدام الطاقة التي هي في حوزة كل منهما .

— ينبغي أن لا نفكر بالنساء والرجال ، أول الأمر ، على أنهم
جنسان ، بل على أنهم مستقبلو الطاقة أو مرسلوها .

— المصطلحات القديمة ، مصطلحات التفوق أو الدونية ،
والمساواة واللامساواة ، تفقد معناها كلياً .

— تتصرف امرأة سوية بفعل عدد من اتجاهات الأنوثة يتجاوز
عدد اتجاهات الذكورة . فهي إذن مستقبلة للطاقة أكثر مما هي مرسلة .

— وهذا هو السبب في أن أي امرأة تتصف بجملة من الخصائص
العميقة ، والمستفرة ، والداخلية ، والمرنة .

— ينبغي أن تكون أي امرأة سوية قادرة على الانتقال ، دونما
صعوبة ، من استقبال الطاقة إلى إرسالها ، ومن إضفاء الداخلية إلى إضفاء
الخارجية ، ومن الابداعية الداخلية إلى الابداعية التي تتفجر في الخارج .

— ثمة الكثيرون الذين لا يفهمون إلاّ بشق النفس أن الأنوثة
استطاعة ، بالرغم من أن دورها تجميع الطاقة . وينشأ سوء الفهم هذا

من الالتباس بين الأنوثة و « الأنوثات التقليدية » ، اللواتي لسن غير نسخ هزيلة من الواقع .

— وهذا هو السبب الذي من أجله لا يفهم الرجل والمرأة إلا بشق النفس أنه لا بد من أن يكون الموجود الانساني مؤنثاً ، أول الأمر ، قبل أن يكون مذكراً . ولكنهما يقبلان قبولاً حسناً جداً أنه لا بد ، أول الأمر ، من طاقة قبل أن يكون بوسع العنفة أن تدور .

— النساء مخدوعات ، شأنهن شأن الرجال . إنهن مخدوعات لأن الابداعية وُصفت لمن على أنها نزعة الذكر . والرجال مخدوعون ، لأن كل تلقائية لديهم أضيفت عليها الأثمية ، إذ يحول ذلك بينهم وبين التخلي عن الصورة العنيفة للذكر ، ذي الرجولة المفرطة .

— كل شيء ينقلب إذا كان صحيحاً أن الأنوثة (طاقة أساسية) ينبغي أن تنتقل إلى المستوى الأول ، وأن الذكورة هي مجرد تفرغ هذه الطاقة .

فهل نقول إن كل هذا مثالي وطوباوي ، وإنه لا بد من ثورة ؟ حسن ، نعم : لا بد من ثورة في الأفكار ، وفي التصور الذي يكونه كل موجود إنساني عن ذاته . وحتى لو أن هذه الثورة لن تحدث في المستقبل القريب ، وأنه لا بد موقتاً من رفع رايته ، فإن ذلك لا يعني أن ننكس هذه الراهية .

إن كون كثير من النساء والرجال يقرفون من الدور الذي يُفسرون على تمثيله ، أمر يمثل عامل نجاح مهم . فالأنوثة كانت قد فقدت حظوتها استجابة لحاجات الثقافات ، وضروب الأخلاق ، والأديان ، واستجابة

لحاجات التكنولوجيات في أيامنا هذه . وأفرغت الحياة الداخلية من مضمونها ، وأصبحت عطالة . والقاسم المشترك بين النساء الحديثات ضرب من اللأمن الداخلي القطيع . ومنذ أن تفقد الأنوثة استطاعتها ، فان الطاقة الأساسية هي التي تزول . وأنتم تعرفون النتيجة المترتبة على ذلك .

رابعاً : مثالان

١ - قصة نبلي

- بلغت من العمر خمسة وثلاثين عاماً ، إنني عزباء لأنه كان عليّ أن أعنى بوالدي بعد وفاة أمي فما استطعت أن أجد زوجاً . . . ولكن لي صديقاً ، متزوجاً ، يخدع امرأته معي . بيد أنه يخدعني أيضاً مع أخرى .

- هل تعملين في الخارج ؟

- إنني ضاربة على الآلة الكاتبة .

. . . .

- أنت ترى ، يا سيدي ، أنني حاولت أن أجد «نفسي» من خلال صديقي . . . حاولت أن أعرف ما كنت عليه ، وما كنت قادرة على فعله . . . إنه كان رجلاً . أكان من المحتمل أن يكون بوسعه أن يقودني ، وأن يكشفني أمام ذاتي ؟ ولكنه يتصف بعدم الاستقرار مثلي ، ولا أستطيع إلا أن أتمسك بما أتمنى أن أكون . وعندما لا يأتي إلى الموعد المضروب ، أذهب إلى السينما . إنها ملجأني .

— هل كنت قد قلت لي إنك درست الرسم ؟

— نعم ، أتمنى أن أرسم ، ولكنني لا أستطيع أن أفعل ذلك .
أقول لنفسي كل يوم : سأشتري المواد غداً . وأخطط كثيراً من
المشروعات دون أن أنجز على الإطلاق أي شيء . إنني أعتمد على صديقي
في مساعدتي على أن أخرج من ذاتي . ولكن دون أمل ، وأنا أعرف
ذلك . فهو ينجدني على جميع المستويات ، وعلى المستوى المعنوي خاصة .
إنه ينجدني . والمجتمع ينجدني . حاولت خلال شهر أن أتزوج ، فإنا
جميلة بما فيه الكفاية ، مع ذلك ؟ إذن فأنا أتمنى أن يقال لي لماذا لا أفلح
في تحقيق ما ينتفخ في ذاتي ، لماذا لا أفلح في تحقيق جميع ضروب الابداع
الفني التي أتصورها دون أن أمضي إلى ما هو أبعد . أتمنى أن يقال لي
لماذا أنا منبوذة . . .

كانت نيللي تقول لي ذلك خلال الاتصال الأول ، قبل مباشرة
التحليل النفسي . لقد كانت فريسة ضرب من اللا أمن الوجداني الحاصر .
وكان المستقبل يبدو لها مسدود النوافذ . وكانت تشعر بأنها محكوم عليها
بالعزلة الداخلية . ومع ذلك ، ففي فرنسا وحدها ، ثم حظ لامرأة من
أربعة نساء ، تجاوزن الخامسة والعشرين ، في أن تتزوج . الأمر الذي
يجعل ، في كل مرة ، ثلاث نساء متروكات في الدكان الخلفي لضروب
الحب الإنساني .

وحالة هؤلاء النساء قلما تكون اللا أمن المادي . وأملهن الكبير أن
يجدن زوجاً . والحال ، من الناحية الإحصائية ، أن تسعة رجال من عشر ،
في هذا العمر ، متزوجون .

تقول نيللي إن هذا الرجل خدعها . هذا صحيح ، ولكنها ، على وجه الخصوص ، خدعت نفسها بنفسها .

كان بوسعي أن أقول لها :

— ذكورتك ، وعملك المعبر عنه في الخارج ، موقوفان . فأنت نجمتين في نفسك أفكاراً ومشروعات . ولكن في أي حالة هي أنوثتك؟ ولماذا لا تنفجر إلى الخارج جميع هذه الطاقة ؟ إنك تتصرفين كما تصرفت قبلك ملايين النساء : وبدلاً من أن تبحي عن هويتك في نفسك ، تطلينها من إنسان آخر: وفي هذه الحال ، من رجل يسبب لك الاحباط ويهملك . فليس ثمة فيه أي نجدة لك ، لأنه يفعل ما تفعلينه بالضبط : إنه يبحث فيك عما ينقصه . وبدلاً من أن تجمعا قوتين . يحاول ثنائيك أن يمزج ضعفين . وكل منكما يجعل الآخر حياً . إنكما تبحثان في الخارج عما هو موقوف في الداخل . إنك لا تطلين أن يحبك ، بل تطلين أن لا يهملك . وأنت لن يكون بوسعك ، ولو كان هذا الرجل زوجك ، ولو كان متيناً ، أن تعيشي إلا به ، في حين أن عليك أن تكوني موجودة وجوداً مستقلاً ، وأن تعيشي داخلياً مع الآخر ، لا بفضل الآخر . وستبقين . ولو أنك متزوجة ، في حالة مختلة من اللأمن . وستظالين ، بسبب ما أصاب أنوثتك من التشوه إصابة قوية ، غيرة ، ونزاعة إلى الملك ، وتحتانية . وستراكمين الضغائن . وستكونين مترصدة أدنى علامة قد يبدو أنها « تهرن » لك أن زوجك « يخدعك » ، ولو لم يكن إلا مع عمله أو سيارته . إنك ستكونين ماء يتلعب ، ولن تكوني النار أبداً . وستكون أقل حرية للآخر ، بالنسبة إليك ، علامة إهمال . فلا بد

لأنوثتك ، التي فقدت استطاعتها ، من أن تمتص طاقة الآخر لكي تستمر في بقائها . أما ذكورتك ، فلن يكون بوسعها أبداً ، في هذه الظروف ، أن تفلح في أبسط إنجاز شخصي .

وكان بوسعي أن أقول لها أيضاً :

... هل تعتقدين في نفسك محرومة ؟ إنك لست كذلك . طاقتك في حالة من الانتظار في جهة ما . إنها في دارة صغيرة . ومن الضروري أن تكتشفي في ذاتك ما تطلبينه من الآخر . وإذا استمررت على هذا النحو ، أصبحت أكثر تبعية للآخر ، مع كل العداوة الخفية التي يفرضها ذلك . وثمة كثيرات من اللواتي هنّ في مثل هذه الحال .

ها هي ذي امرأة لا تفلح في أن تعبّر عن ذاتها في الخارج ، ولا أن تتصرف وتقرّر وتبدع . والأسباب يمكن أن تكون كثيرة . فمن المحتمل أن يكون التعبير عن الذات في الخارج ممنوع عليها خلال مراهقتها . فأوقف البخار ، حائلين بينه وبين أن يمضي نحو العنفة . ومن الممكن أيضاً أن تكون بعض العقد قد غزت اللاشعور ، والتهمت طاقة كبيرة ، فأضعفت الأنوثة . وكذلك ربما بقيت الأنوثة في حالة جيدة ، ولكن الخوف من العالم الخارجي يقيم سداً بين الأنوثة والذكورة .

حالة الأنوثة لدى هذه المرأة حالة الذكورة لدى هذه المرأة

— طاقة مجمّعة ، ولكنها — صرف للطاقة يتجاوز
مستخدمة استخداماً سيئاً . الاحتياطات .
— انحطاط تدريجي في — متاعب .
الشخصية . اضطرابات جسدية شتى .

- ضغائن . — أعمال ضعيفة الإرادة :
- ضروب حَصْر . — ولا مستقبل لها .
- عدوانية مكبوتة
- عناد .
- تخل .

ها هي ذي امرأة أخرى بسبب رأي الغير حَصراً لها . وقد يكون هذا الحصر شعوري بصورة غامضة ، ولكن الجزء الأكبر منه منظم في اللاشعور . وستتبنى هذه المرأة ، دون أن تعلم ، سلوكاً بوسعها أن يضرب قناعاً على حصرها . فهي تمثل دوراً ، وتراقب (دون أن تفهم ذلك) كل موقف من مواقفها ، وكل حركة من حركاتها . وتصرف كميات كبيرة من الطاقة لكي تحمي نفسها . إنها شبيهة بشخص يدفع مبلغاً كبيراً من المال لفريق مثير من « المغاوير » في كل مرة ينبغي عليه أن يعبر الشارع .

فلدى هذه المرأة :

- تُستخدم الطاقة على نحو غير مناسب كلياً ، ومحص هدر .
- الطاقة الباقية لا تكفي للأعمال العادية .
- شحن جديد سيء لـ « البطارية » . من هنا منشأ المتاعب .
- والاكتئاب ، والصداع ، وتصلب الشخصية ، الخ .

حالة الأنوثة لدى هذه المرأة حالة الذكورة لدى هذه المرأة

- فقدان المرونة والتكيف .
- تغذية سيئة .
- نزح الطاقة .
- كل تعبير عن الذات في الخارج يمر بغربال الحصر .

- خضوع لاشعوري للغير . — فاعلية تم بقذف متقطع .
- مازوخية . — عجز عن فرض الذات
- بصورة طبيعية .

ها هي ذي امرأة «حديثه» . كانت هذه المرأة مشروطة بأن لا تنظر إلا إلى النجوع والتنافس ، وبأن تهمل حياتها الداخلية . إنها تصرف من الطاقة أكثر مما تجمع .

حالة الأنوثة لدى هذه المرأة حالة الذكورة لدى هذه المرأة

- تجميع للطاقة غير كاف
- فقدان الاتصال بالشخصية في الخارج .
- عدوانيات يتم التعبير عنها العميقة .
- قابلية للهيجان ، ونزوات ، وغضب .

- آراء حاسمة .
- هبوط عنيف في الفاعلية
- ترافقه الاكتئاب والأحزان دون
- باعث ظاهر ، وفقدان توتر
- العضلات ، وأرق ، الخ .

٢ — حالة أنيس

هذه الحالة توضح الصعوبة التي كانت نبلي تعانيها ، ولكن في ظل إضاءة أخرى. كانت أنيس ، المهجورة ، تقول لي :

— وهبت نفسي وجسدي إلى هؤلاء الرجال الأربعة . وكنت أتق بهم ثقة مطلقة ، وتركت نفسي تقاد بهم انقياداً تاماً . وأمطروني

بالعود ، ليهملوني فيما بعد ، لأنهم لم يكونوا يتحملون أن أظهر
مشاعري التي تنطق عن الهوى . ومع ذلك ، يا سيدي ، لم يكن ممكناً
قط لرجل أن يلقي من البراهين عن الحب أكثر مما لقيه هؤلاء الرجال .
ثمة ثلاثة أسئلة تطرح نفسها مباشرة :

أ - ما هي النقاط المشتركة التي كانت بين هؤلاء الرجال الأربعة؟
ب - ماذا كانت تمثل ، بالنسبة لآئيس ، هذه النقاط المشتركة ؟
ج - لماذا كانوا يفرون أمام التعبيرات « العاطفية » لهذه المرأة
الشابة ؟

وقالت لي آئيس أيضاً :

- ما كان يربطني بهم أنهم كانوا واثقين من أنفسهم . اثنان
واثنان ، بالنسبة إليهم ، أربعة . وكانوا على حق دائماً . وكنت أشعر مثل
ذاك الاعجاب ! وكانت لهم آراء واضحة جداً عن الحياة والناس .
ثمة سؤال رابع يطرح نفسه :

لماذا وضعت آئيس نفسها ، خلال أربع مناسبات ، في وضع مشابه؟
لماذا تركت نفسها يخطفها بسرعة أربعة رجال علامة صنعهم كان يبدو
أنها ليست سوى : اثنان واثنان أربعة ؟

قالت آئيس :

- أنا ، لست ذكية ، أما هم فكانوا أذكاء .

- ماذا تقصدين بقولك هذا ؟

— حسن ، لم تكن أحكامهم قابلة للدحض . ولم يكن ثمة غير
الانقياد والاصغاء .

— الإصغاء أم الاستسلام ؟

— نعم ، ربما الاستسلام . ولم تكن معارضتهم ، مع ذلك ، مطروحة .

— تتكلمين عليهم وكأنهم لم يكونوا يكوّنون غير رجل واحد .

— هذا صحيح . كان لهم أسلوب الحياة نفسه .

— ألم يكن يبدو أبدأ أنهم يعانون ضرباً معيناً من الشك ؟

— أبدأ . وكانوا يسخرون من العواطف التي لم تكن ، بالنسبة

إليهم ، غير حماقات .

— وهل كانوا يبدو فخورين وهم يصرحون بذلك ؟

— نعم ، كانوا فخورين جداً . وهذا كان يصعقني ، ولكني . . .

كثير من المعلومات الأخرى جاءت ، خلال الجلسات ، لتكمل
اللوحة . ولم تكن آئيس تجرؤ على أن تصدر رأياً عقلائياً . فعندما كان
عليها أن تعطي رأياً ، كانت تقول : « سأقول حماقة ولا ريب ،
ولكن ألا تظنون أن... » أو كانت تقول : « ها هو ذا ما أستشعر ، ولكنه
لا عقلائي ! . . . » كانت هذه المرأة الشابة تعتقد في نفسها أنها عاجزة
عن محاكمة منطقية . وهي ، في الوقت نفسه ، كانت تصاب بحالة من
الغشيان أمام منطق « الذكر » . ولم تكن تدرك أن هؤلاء الرجال كانوا
يعيشون على مبتدلات تافهة ، ولا أن « ذكاهم » كان يرجع إلى واقعة
أنهم محقون ، ولا أن « منطقتهم » كان صورة من صور العجز .

ولكن لماذا كانوا يفضّون من حول آئيس عندما كانت تبدي لهم
غرامها ؟

كانوا يفرون لأنهم كانوا ، ربما ، خائفين . فالرجال الأربعة كانوا
جميعاً « فرنسيين متوسطين » . وجميعهم كانوا من « الناجحين » .
اثنان واثنان ، بالنسبة إليهم : أربعة ، ولكنهم لم يكونوا يفهمون شيئاً
من الحياة ولا من أنفسهم . ولم تكن حياتهم الداخلية سوى ضرب من
الفراغ . كانوا « دهاة صغاراً » دون ذكاء إجمالي . وما وضع عواطفهم ؟
عواطفهم مكبوتة . وإحساساتهم الداخلية ؟ لقد فقدوا الاتصال بها . وحياتهم ؟
كانت تدور حول النجوع والمال .

وكانت عواطف آئيس تدعوهم إلى الدخول في عالم مجهول ،
وضبابي ، وشديد الخطر بالنسبة إليهم . وما كان بإمكانهم أن يبيحوا
لأنفسهم مثل هذه « العفوية » ، تحت طائلة الحصر ، وتحت طائلة
وجوب الاعتراف بأنهم لم يكونوا في الواقع غير صبيان صغار . وكان
غرام آئيس ضرباً من المحيط الذي كانت تتعرض فيه ضروب أمنهم
المتصلب إلى خطر الغرق .

ففروا بسرعة كبيرة صوب واقعتهم التي يمثلها $2 + 2 = 4$.

أما فيما يخص آئيس ، فإن ذكورتها تحوّلت إلى ضرب من
الكاريكاتور : أن تبدو واثقة من ذاتها ، وأن تتبجح بكل شيء ، وأن
تعقلن دون تمييز . إنها لم تكن تميّز الذكورة من منطلق هواة المنطق . وكان
بوسعها أن تكون مغرمة بألة من الآلات الحاسبة .

وكان محتملاً أن تسقط آئيس على رجال مشوّهين كانوا يمثلون

المثال المزيف لدكورتها الخاصة . وكانت قد تشبث بهم ، على نحو يتصف بنزعة الملكية ، وعلى نحو متشنج .

خامساً — أهمية الوجدانية

١ — الوجدانية لدى عدد من النساء الناطقات بالفرنسية

كيف تبدو أنوثة المرأة في البلدان الناطقة بالفرنسية ، وكيف تبدو ذكورتها؟ عندما يراقب الانسان هذه المرأة، وعلى وجه الخصوص المرأة التي تسكن مناطق لغة أويل * ، يشعر أنها نسيت فضيلة الابتسام ، والشكر ، والألفة العميقة . ويبدو أنها تحرم على نفسها التعبير العفوي ، تعبير نظرة وعاطفة وانفعال . وهي تبدو أنها تريد أن تحتفظ ، بأي ثمن ، بموقف الفردانية المفرطة ، وأن تتسكع حتى في دكاكين البقالة ، حيث تسام ، إلى ما لا نهاية ، على ثمن الفاصوليا . إنها تتعسف في استعمال المحاكمة على الأمور الأشد اتصافاً بأنها ليست ذات معنى . وتبقى في حالة من الخلل ، ومزبرة . وتؤكد « أنا » ها ، وهي تجادل في كل شيء وفي لا شيء ، كما لو أنها كانت تحاول بذلك أن تبرهن لنفسها عن وجودها .

وتبدو أنها فقدت هذه الاستطاعة الداخلية الهادئة التي تتيح ، وحدها ، ضروب المنطق العظيمة . ولم تعد تفلح في أن تكيّف انفعالها مع الظروف ، وتتخبط في سلوكات متناقضة تحاول تبريرها وهي تتكلم

(*) لغة أويل **Langue d'oïl** : اللغة المحكية ، في القرن التاسع الميلادي ، جنوب خط يمضي من بواتيه إلى غرنوبل في فرنسا ، كانت تسمى لغة أوك (OC) ، واللغة المحكية شمال هذا الخط كانت تسمى لغة أويل «ام» .

ومن المؤكد أنها أجبرت ، منذ أيام ديكرات ، على عدم التمييز بين العقل والذكاء . وكانت مشروطة بالاعتقاد أن حسبها ، لكي تعيش عيشة جيدة ، أن تتظاهر بأنها تلجأ إلى المحاكمة . وأكد الناس لها أن استشعار الحياة بصورة عميقة — والآخريين — لا ينطوي على أي أهمية ، وأثبتوا لها أن المحاكمة هي كل شيء ، وأن اللاشعور شيء زهيد . ونحن نعلم في أيامنا هذه أن العكس هو الصحيح . فحياة اللاشعور مستمرة ، شبيهة دوماً بلذاتها ، كالنهر القوي الذي ينقل القوارب والفضلات في الوقت نفسه . ونحن نعلم أنه ليس ثمة شيء أكثر تقطعاً من الحياة الشعورية التي تفصلها العادات ، والعقد ، وضروب الحصر ، والمنعكسات ، والموروثات .

ووصفت لها حياة اللاشعور والتعبير عن الانفعالات على أنها مريبة . كان ذلك ، بالنسبة إلى المرأة ، عبادة العقل الالزامية التي ارتبكت فيها . وضعفت قوتها الداخلية بمقدار ما كان بسود التعسف في استعمال العقل . وبوضفها عاجزة عن الابتسام — عن أن تبسم لنفسها — ، لم تجد وسيلة أخرى غير التهكم من شريكها لتحمي نفسها . ذلك أن الدعابة تنقصها على نحو مرعب .

وحق صوتها ، فقد فقد رنينه العميق . إنه نزاع نحو الحدّة بمبالغة . فهو صوت صادر من « الرأس » ، محروم من « الخزنة الوجدانية » ، ومحروم من « البطن » ، ومحروم من النفس الهادئة .

وصنع لنا ديكرات سلوكيات مناوئة للإنسانية . لقد أجبر امرأة بلدان الأوبيل على أن ترفض أن تكون عضوية مع الآخر ، بالرغم من أنها

ممزقة بين الانفعالات التي تدفعها نحو الآخر ، وبين العقلنة الفردية المزيّفة التي تبعدها عنه . وبعبارة أخرى : إنها تخشى أن تترك ، ولو للحظة ، أمن « المظاهر » العقلانية المزيّف .

وما كان بإمكان الكاثوليكية القديمة إلا أن تستجيب لهذه الظاهرة الثقافية . وإن قصد ديكرت أن اللاشعور والحياة الداخلية ، وبالتالي الأنوثة العميقة ، كانت غير جذيرة بالموجود الانساني ، فإن الكاثوليكية حدثت المرأة على أنها تلك « التي بفعلها تحدث الكارثة » . وبما أن المرأة كانت متوحدة بأنوثتها وحدها ، فإن الأنوثة ذاتها أصبحت معيبة . وحدث ، هنا كذلك ، عدم تمييز بين « الجنس » والطاقة الداخلية . فمن كان إذن ، في هذا العصر ، يجرؤ على الكلام عن استطاعة الأنوثة : أو ينظر إلى ذكورة امرأة على أنها أمر سوي ؟

ومع هذا ، فالانفعالات العميقة ، بما أن « الأنوثة » هي محل الكارثة ، قد أصبحت كذلك (للسبب ذاته) ، ومثلها العواطف والإحساسات . والتدين الحقيقي (الارتباط بالآخر وبالعالم) كان محكوماً عليه بالمنع .

عديدات من النساء الناطقات بالفرنسية كنّ قد وُضعن على هذا النحو في مشد مزدوج . فكان على أنوثتهن أن تجزىء امتداداتها الواسعة . وذكورتهن تمخّضت ، بصورة مباشرة ، عن هوس المناقشة ، والسلوكات المتقلّبة أو ضروب الهزء .

ولا تعرف هؤلاء النساء ما يفعلن بهذه الوجدانية المحرّمة . وهن ، تحت المظاهر ، يسقن نفساً حنينية أصبحت العاطنة فيها عاطفية منكفئة .

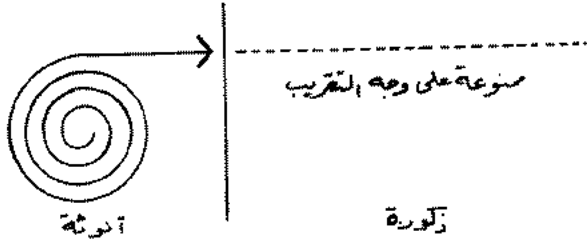
٢ - عندما التربية تزيّف البنات . . .

كل ما يوقف الطاقة ، الداخلية ، أو يكبحها ، أو يحولها . يرفع من الأنوثة جزءاً من استطاعتها . والحال أن الاشرطات الثقافية والعقد تكوّن ، بالنسبة إلى الطاقة ، أفنية تحويل حقيقية . وضروب الكف ، من أي نوع كانت ، تصبح كذلك كميات كبيرة من الطاقة . أما الحصر ، فإنه يلتهم الطاقة الداخلية تماماً .

ولا ينبغي أن ننسى أن الذكورة ليست سوى محصلة الأنوثة (أو الطاقة الداخلية) .

ماذا يعلمون ، والحال هذه ، للبنات عادة ؟ يعلمون أن الطاقة من ماهية الذكر ، وأن الطاقة المرئية والمعبر عنها في الخارج هي وحدها التي ينبغي أن تؤخذ بالحسبان ، وأنه ليس للأنوثة من هدف سوى أن نلت إليها الأنظار وأن تكون محبوبة . وأن الأنوثة طعم لا قوة في حد ذاتها ، وأن الأنوثة كلما كان مستضعفة و « ساحرة » كان للفتاة نصيب في أن تكون محبوبة ، وأن الذكورة مربية لدى الفتاة ، وأن ضرورياً عديدة من التعبير في الخارج عن الطاقة مباحة للصبي ولكنها محرمة على الفتاة . إنهم يعلمون الفتاة على هذا النحو أن تمسك طاقتها . وأن تحتفظ بها في الداخل ، وأن تجمّعها . وأن لا تظهرها . ويمكن رسم تخطيطية هذه الظاهرة كما يلي :

توقف تربوي



شكل رقم (٧)

والبنت ذات اعتماد مسبق ، بفعل بنيتها الغدية إلى درجة كبيرة ، للحياة الداخلية . فبدلاً ، والحال هذه ، من تنمية الجناح الآخر من شخصيتها (ذكورتها) ، تُستثار مواهبها الطبيعية . وذلك شبيه على وجه الدقة بطلابة : موهوبة في الفلسفة ، ترى نفسها مجبرة على أن تقتصر طيافة حياتها على الفلسفة وأن تهمل فروع المعرفة الأخرى ، مع احتمال أن تصبح فأرة مكتبة .

٣ - ما هي النتائج ؟

ونحن ، إذ نتصرف على هذا المنوال : نبيح للبنت أن تجمع كل الطاقة التي ترغب في أن تجمعها ، ولكننا نضع سدادة بين الرجل والعفة . من هنا منشأ الخثر الوجداني . فالبخار يظل تحت الضغط . بيد أنه لا ينبعث إلا قليلاً أو كثيراً بحسب السدادة التي وضعتها التربية . وتصيح البنت ، إذا كانت ذكورتها موقوفة ، شبيهة ببطارية سيارة مشحونة ، لكنها موضوعة بعيداً في زاوية من زوايا المرآب حيث تلتف ببطء وبالتأكيد .

وتنشوء الأنوثة بمقدار ما تنخفض الطاقة الداخلية . وتصيح البنت عاجزة بالتدريج عن أن تحب . فلا تبحث إلا عن أن تكون محبوبة . وليس بوسعها أن تكون معطاءة ، ولا تطلب إلا أن تكون مثلية . ويتعذر عليها أن تكون مستقلة . فهي تبحث عن العون والحماية .

وحين تكف الأنوثة عن أن تكون قوة حيوية ، تصيح المرأة «مصيدة رجال» . وبما أن ذكورتها ، من جهة أخرى ، غير موجودة إذا صح القول ، فإن المرأة تعاني الحاجة إلى البحث عن ذكورتها في الآخر . لدى رجل والحال هذه ، كما فعلت نيللي التي ذكرناها فيما سبق . وغني عن البيان أنها لن تجدها فيه أبداً ، ما دامت هذه الذكورة ليست ذكورتها الخاصة . فتبدأ عندئذ حياة « بالوكالة » . ويصبح نجاح زوجها نجاحها . وتنكث عيش الرجل لكي يكون دائماً أكثر بريقاً في « المظهر » ولا تجني سوى الفتات .

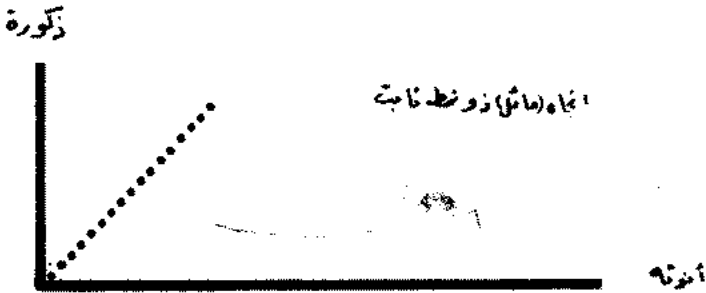
وعندما تشعر هذه المرأة برغبة « الانبجاس نحو الخارج » ، وبرغبة في أن « تصعد » نحو الإبداعية والعقل ، فإن ثمة شكاً يعذبها : « إذا أبدعت وتصرفت ، هل أظل أنثوية بما فيه الكفاية ؟ » . إنها لا تفكر بأن تظل أنثوية بما فيه الكفاية لكي تغدّي إبداعيتها ، وتكون معطاءة ، وتحب ، بل « أنثوية بما يكفي للاغراء والطلب والتلقي » . إنها تعكس قيم الأنوثة . وذلك أمر مفهوم : إذ أنهم علموها أن الأنوثة لا تمثل قوة الشخصية ، بل تمثل ضعفها .

وفي كل مرة تنظر في بعد « عمودي » ، ثمة إثمية خفية تطفو على السطح : « إنني عاجزة عن ذلك . . . الرجال هم وحدهم الذي يستطيعون . . . هل أكون شبيهة بالرجال ؟ إنني سأكون فاقدة الخطوة . . . لن يحبوني أبداً » .

فهي تردّد إذن بين :

أ - البعد الأفقي (المتلقي ، والراكد ، واللامتمايز ، والوجداني على نحو واسع ، والملتحم بالأشياء) الذي يميّز الأنوثة ،
ب - . . والبعد العمودي (المنبجس ، « والصاعد » ، والمتنصب ، وذو الشكل الواضح) الذي يميّز الذكورة .

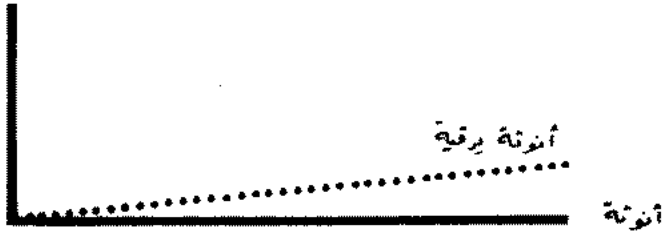
والمرأة ، في أحسن الحالات ، تتختر في بعد « مائل » ، لا مستلق ولا واقف ، لا مؤنث ولا مذكر ، لا عنزة ولا ملفوف ، عاجزاً عن النوسان بصورة منسجمة من بعد إلى آخر .



شكل رقم (٨)

أو أنها تصبح امرأة - ليست - سوى - مؤنثة . فترتدّ إلى حالة يرقية ، لامتمايزة . وهي : من الناحية الرمزية ، ترقد أمام الحياة ، دون أن يكون لديها القدرة على أن تنتصب .

ذاتورة



شكل رقم (٩)

الترية والثقافة تعلمان المرأة حالياً أن عليها أن تعيش في بعد منتصب بمغلاة ، عمودي إلى حد الإفراط . ولهذا السبب ، فهي إما أنها تنسخ رجولة الرجال الحديثين المزيّفة ، والعشية ، وإما أنها تقف ضدهم ، والأمران سيّان .

والمرأة مغلوبة سلفاً في هذا الصراع العصبي . فليس بإمكانها إلا أن تعزز الخوف الذي يعانیه الرجل إزاءها . وليس بإمكانها ، بوصفها عاجزة عن الابداع ، إلا أن تتبنى إبداعات الرجال سواء كانت أصيلة أم لا . وليس بإمكانها ، وقناعها عصبي مهيمن ، إلا أن تكون تابعة والحصر رفيفها .

وتنخرط المرأة على هذا النحو في وضع دون مخرج ، في ردّب حقيقي .

رابعاً : هل ثمة إمكان لثورة ؟

١ - المرأة حائزة على المنافع الضرورية

تذكروا : كل شيء في البداية كان يبدو بسيطاً . فعلى الصبي الصغير أن يصبح رجلاً ، وعلى البنية أن تصبح امرأة . ولكن كلا من هاتين

الشخصيتين أصبح مضاعفاً . فالمرأة اتخذت وجهين : الأنوثة والذكورة . وانتقل مركز الثقل بالإضافة إلى ذلك : ذلك أن الأنوثة احتلت مركز الصدارة ، في حين أصبحت الذكورة محصّلة .

ومنذئذ تغير كل شيء . فليست المسألة مسألة هرمونات : وإنما هي مسألة أسلوب استخدام طاقة معطاءة . واختفت المقاييس التقليدية المعزوة إلى « الجنس المؤنث » ، في الوقت نفسه : فالمرأة مستقبلة للطاقة ومرسلة .

والحقيقة أن هذا الفصل يبدو ضرباً من السخرية في مقابل ما يجري حولنا ، وفي مقابل اللرب الذي يبقى علينا أن نسلكه . وما علينا إلا أن نقوم بمحاولة : اطلبوا من القادم الأول أن يقول لكم الكلمة الأولى التي تخطر على باله جواباً لكلمة « أنوثة » . إنكم تحصلون على جميع الإجابات الممكنة ، سوى الاجابة الجيدة التي هي : طاقة داخلية ، طاقة كامنة : طاقة أساسية ، قاعدة لا غنى عنها لأي إنجاز إنساني .

والأنوثة استطاعة في حد ذاتها ، بالتأكيد . ولكن ماذا تفعل المرأة إذا كانوا يظهرون لها العكس في كل مناسبة ؟ وإذا كانوا يتعهدون بالرعاية صورة عدد من الأنوثات اللواتي يثرن الشفقة ، ويتعهدون بالرعاية استخدامهن وبيعهن : وعدد من النساء النباتات ، والنساء اللواتي تحوّلن إلى تماثيل ، والنساء الترجسيات . والنساء عارضات الأزياء ، والنساء المغاليات في لبس الأطواق والخواتم والشعور المستعارة ، والنساء الدمى الناصلات للون ، والصبايا اللواتي يجرون ضجرهن في الغبار كما يجرون سراويلهن في الوقت نفسه ؟

ونظراً لطاقاتهن الهزيلة . كيف يمكنهن أن يصبحن مبدعات على

نحو مستقل وغير عدواني ؟ ولا يبقى لمن غير أن يلجأ إلى ابداعية خارجية تقوم للدين مقام البديل : ابداعية الرجل. ولكن هؤلاء النساء ، إذ يتصرفن على هذا المنوال ، يراكن ، في جميع الحالات ، كثيراً من ضروب المرارة اللاشعورية ، بحيث يفضين إلى ضرب من الخضوع الشرس ، الذي يتصف بأنه نموذج انحطاط الأنوثة . أما النساء الأخريات ، فمن المحتم أن يحتقرن وضعهن ، إذ أنهن سيكمنن حياتهن وفاق المعادة التالية : الأنوثة هي الضعف .

٢ - الفضائل الأساسية

وبالاختصار : إما أن تكون النساء ملزمات بالبقاء أنثويات بصورة مشوهة ، بحسب المعايير القديمة ، أي ظليلات ، وبلون الأخضر المزرق ، ودون قوام . وإما أن يكنّ مجبرات على « ذكورة » مزيفة كذلك ، منسوخة عن ذكورة الرجال الحديثين .

وتظهر بعض النساء الشهيرات على المسرح من وقت إلى آخر . فهل تعتقدون بأن وصف هؤلاء النساء يتم على صورة أنهن حقتن أنوثتهن وذكورتهن الأصيلتين ؟ على الاطلاق : بل يعزون إليهن ، بصورة قبلية ، ضرباً من العبقرية . وعلى هذا المنوال ، يصنع منهن نماذج «استثنائية» ، ويعززون ، بنتيجة ذلك ، حالة الدونية لدى النساء الأخريات .

قالت لي إحدى الصبايا بهذه المناسبة :

— إننا نشعر عندئذ بأننا بلهاوات ، ذوات أسنان طويلة جداً ، يُقال لمن : « النساء أيضاً قادرات على أن يفعلن شيئاً ! » فلماذا لا يقال ببساطة : « ها هي ذي المرأة الحقيقية ! »

هذه الصية كانت على صواب . إن تياراً واسعاً من الاعلام
السيكولوجي ينبغي أن يحض النساء على مباشرة ثورتهم الخاصة . ولا بد
من تنظيف كلمة « الأنوثة » من بقع الدونية ، والإثمية ، والحصر ،
واللاأمن ، والعداوة .

ومن المؤكد أن ثورة شخصية تحتاج إلى زمن : وصبر : وثبات ،
ووضوح . والأشخاص الذين يباشرون تحليلاً نفسياً (الثورة الشخصية
الأعمق التي يمكن إجراؤها) يعرفون شيئاً عنها (١) .

والحال أن الزمن ، والصبر ، والجرأة ، والوضوح ، من خصائص
الأنوثة . فالنساء إذن ذوات استعداد مسبق لهذه الثورة الداخلية . ولكن
سيكون من الضروري ، بالنسبة إليهن وإلى العالم ، أن يفهمن ذلك .

٣ - احتياز الشعور أمر غير يسير . . .

قد يجد المرء ، من مليون امرأة يختارهن مصادفة ، عددًا كبيراً من
الأنوثات في حالة جيدة ، ولكنها في حالة الانتظار العقيم . فقد يجد إذن
كثيراً من الذكورات الممكنة ، ولكنها تظل آسائنة .

بيد أن من المتعذر استرجاع هذه الطاقة الداخلية ، وفتح دروب الظهور
لها نحو الخارج ، إلا إذا عادت المرأة إلى طفولتها لكي تستأنف مسارها
من نقطة البدء . فمسار الحياة يصيبها الترييف خلال مرحلة عقدة أوديب ،
على وجه الخصوص . والأسباب هي ذاتها دائماً : تربية ، ورد فعل أمام
التربية ، ومناخ عائلي ، ومعايير أخلاقية ودينية واجتماعية ، الخ .

(١) انظر « انتصارات التحليل النفسي » ، بير داکو ، مارابو . وقد كلفني
وزارة الثقافة والإرشاد القومي بترجمته إلى العربية « م » .

ونجري البنية، ثم المراقبة فالمرأة . نحو آفاق لم تكن مخصصة لمن قط .
انظر فصل : « البنت المحصورة » .

وتواجه البنية ، منذ بداية حياتها ، شخصية رئيسة : أمها . وهذه
الأم تطبع علامتها (سلبية كانت أم إيجابية) على أنوثة ابنتها . فيها هي
ذو أنوثة البنية إذن تنطلق . ولكن الأم . بالرغم منها . ولا بد من
الاعتراف : هي التي تسحب الخيوط . ثمة منذئذ سؤال يطرح نفسه :
في أي حالة هي أنوثة الأم ؟ أية استطاعة هادئة ، أي وضوح ، يمكنها
أن تنقلها إلى القطب المؤنث لدى ابنتها ؟ وتواصل البنت تربها وهي :
بالطبع ، تجهل جهلاً كاملاً ما يجري في داخلها . ومع ذلك ، فإن
أنوثتها الناشئة في حال « النقص » . ذلك هو دورها . فالأنوثة تستشعر .
وتلك هي وظيفتها . والأنوثة تلتقط : إنها لا يمكن أن تفعل على نحو
آخر .

والسؤال الآخر : كيف تستخدم الأم طاقتها ؟ هل هذه الطاقة جيدة
النوع ، أم أنها ليست ذات شدى ؟ هل أتاحت الحياة لهذه الأم تنمية
أنوثتها الخاصة وذكورتها الخاصة ؟ فكون البنية تنسخ أنوثة أمها أو
تبتدئها ، خلال زمن معين على الأقل ، أمر واقع والحال هذه . ولكن
من المؤكد أن بنية لها من العمر عشر سنوات تتروى قبل أن تقلد أنوثة
الأم ، التي تطابق ما سمعت يقال في أغلب الأحيان ، أي : الأنوثة
« ليست إلا . . . » وغير ممكن مع ذلك أن نطلب إلى طفلة عمرها عشر
سنوات أن تصلح الوضع : مدركة أن أمها تعشرت بظروف مدمرة !
فما هي أنوثة الأم إذن ؟ وكيف تعبر عن هذه الأنوثة في الخارج ؟
هل تعبر عنها بفاعلية صاحبة ومستقلة ؟ أم بسلوكات عدوانية ؟ مدققة ؟

خاتمة ؟ هل تعبّر عنها باتجاه يتصف بتزعي المطالبة والملكية ؟ بسلطوية
لاذعة ؟ بسلوك الشهيد ؟

الحالة الأكثر شيوعاً أن البنية ترفض بصورة لاشعورية أن تكون
«شبيهة بأمها» . ولا بد من أن نجعل لهذه العبارة مضموناً . ومضمونها :
«إذا كان الأمر كذلك ، أي أن أكون امرأة ، فاني سأبحث في مكان
آخر» . ولكن أين ، مادامت ، وهي تقول ذلك ، تكون سلفاً قد شرعت
في إيقاف أنوثتها الخاصة ؟

إن البنية تتبنى اتجاهاً «مناوئاً للأنوثة» إذن . فلنشرح المقصود : إنها
تبتد أنوثة أمها . ولكنها ، بطريقة غير مباشرة ، ترفض أنوثتها الخاصة ،
وبالتالي ترفض استطاعتها الداخلية الخاصة . وستشرع عقده ، وضروب
كف ، في الظهور وفي التهام الطاقة .

وإذا لم يكن يوسع البنية أن تجمّع الطاقة الكافية ، فان ذكورتها
تتحط بصورة آلية . من هنا منشأ جميع المراهقات ذوات العيون الخالية
من الحيوية ، اللواتي تتصف فاعليتهن بأنها ثقيلة كالرصااص ، واندفاعيتهن
مغالية ، ونزواتهن غير متوقعة ، وخطرستهن لا تصدق . إن بعضهن
يركذ في العطالة والخضوع والمازوخية ، وبعضهن الآخر ينطلق في
تنافس حاد ، لأن أنوثتهن لم تعد تجمّع الطاقة . وذكورتهن ، بوصفها
سيئة التغذية ، هي في انتظار الرجل الذي سيصبحن ظله .

ووظيفة الأب الرئيسة ، الذي يتصف تأثيره أنه مهم بالتأكيد ، أن
يعلم ابنته أن تحسن التمير عن طاقتها في الخارج . إنه ضرب من المدرب
على الحياة الاجتماعية ، وعلى المعركة اليومية . ولكن ينبغي مع ذلك أن

تكون قد استطاعت تجميع الطاقة على نحو كاف : الأمر الذي يعيدنا إلى الدور الذي تؤديه الأم . فليس عمل الأب ممكناً إلا بقدر ما تكون أنوثة ابنته من نوع جيد . وإلا كانت محاولته شبيهة بمحاولة من يطلق رصاصة مسدس . مستخدماً كبسولة فارغة .

بعض اتجاهات للتفكير

ما هي ذي بعض الاسئلة التي يمكن لكل امرأة ، وينبغي عليها ، أن تطرحها :

— هل استطعت أن أسوس طاقتي الداخلية على نحو سوي ؟

— أي موقف كان لي ازاء والدي ؟

— ماذا جمعت في أنوثتي : إحساسات جيدة خاصة بالحياة ؟

— ضروباً من المرارة ؟ ضروباً من الغضب الخفي ؟ ضروباً من الخضوع
« أظفر بالسلام » ؟

— هل كنت مرتاحة عندما كنت أطاق حركة ذكورتني . وأعبر عن نفسي في الخارج ؟

— عندما كنت أبرز ، وألب ، وأبدع ، وأعطي رأيي ، ألم أشعر بأنني عاجزة ، وعدوانية ، وطفيلية ، وشديدة الوثوق بنفسي ، ومجرمة ، ودنيا ، ولا يكاد يقبلني الآخرون ؟

— كيف تعبّر طاقتي عن نفسها في الخارج ؟ بالعدوانية ؟ بالتهكم ؟ بعفوية أصيلة توحى بالثقة ؟

— وهل طاقتي ، في الواقع ، تعبّر عن نفسها في الخارج ؟

— ألم تفسد الضغائن وضرور المرارة أنوثتي تلميحياً ؟

٤ - دور علم النفس الحديث

الدور الأول لعلم النفس الحديث ، ولكنه الدور الهائل ، أن يعيد لمفهومي الذكورة والأنوثة معنيهما الحقيقيين .

ودوره الثاني مشتق من الأول . فإذا كانت الأنوثة الحقيقية قوة حية لا غنى عنها ، ينبغي أن نشربها خلال العالم . وأعني بذلك مساعدة الموجودات الانسانية على أن تكتشف في أعماق ذاتها قيم الرحمة والشفقة والانسانية والسلام . وأنا أعتقد أن الكثيرين يرغبون في ذلك ، لا بداعي ضرب من الأخلاق ، بل لأن التجرد من الانسانية تجرداً عاماً يخيفهم . ودافعية البدء ليست مهمة مع ذلك ، إذا كانت النتيجة الحاصلة جيدة .

لا بد من أن تعود للأنوثة مكانتها : ولكن ليست المسألة مسألة ضرب من تمرد النساء ضد « قانون الذكر » . بل الصعوبة أعمق بكثير : إنها خاصة بالحصص والخوف اللذين يشرحان هذا القانون المزعوم ، « قانون الذكر » . (انظر مرة ثانية فصل « المجازر وضروب التأخي ») .

ولا يعرف محض التكنوقراطيين إلى أي حد قطعوا صلتهم بالأنوثة والحياة ، إنهم يمحضون ، مدفوعين بخوف مظلم ، من كوكب إلى كوكب ، ومن فكرة إلى فكرة ، ومن نظرية إلى نظرية ، ومن حرب إلى حرب : كيف يمكنهم التوقف ما داموا لم يكتشفوا صحوهم وطاقاتهم الداخلية ، وما دامت كلمة « إنسانية » تظل فارغة من المعنى لديهم ؟

أن نعيد الأنوثة إلى العالم ، ذلك يعني أن نمنحه ثانية حكمة عميقة وقوية ، تعتبر عن نفسها في الخارج مباشرة بفاعليات إنسانية ضرورية ، وذات حس سليم .

ذلك يستلزم أيضاً ضرباً من التحوّل الجذري في الفكر الذي يغذّي
التكنوقراطية (١) . وإذا كانت التكنوقراطية قد اتخذت وجهاً غير
إنساني ، فذلك لأن الخصائص الكبرى التي تتصف بها الأنوثة تنقصها :
النظام ، والصحو العميق ، والحكمة ، والتفكير ، والزمن ، والسلم .
هل يفهم الناس إلى أي مدى يحتاج العالم إلى رجال ونساء « ذوي
قطبين » ؟ وكَم من الملح أن يكفّ الناس عن تغذية فاعليتهم ذات الأنوثة
المريضة ، والطفالية ، والفوضوية ؟

وعندما الأنوثة تجد المكانة التي تستحقها - ولكن لا بد من انقضاء
مئات السنين ، دون ريب - ستصبح الأمهات ، بفعل ذلك ذاته : ركاتز
العالم . ذلك أن المنشأ المباشر لكل قوة داخلية عند بنت أو صبي - شأنها
شأن كل ضعف - هو الأم .

ولهذا السبب ، فإن علم النفس الحديث ينبغي أن يحدّد لنفسه هدفاً
أول هو مساعدة المرأة على أن تكتشف نفسها بنفسها :

- أن تصبح ثانية مراقبة صاحبة ، ومنتبهة ، وثاقبة النظر ، وهادئة .

- أن تصبح ثانية مشاهدة لذاتها وللعالم بدلاً من أن تكون « ممثلة »

تطيع الأوامر القديمة أو الجديدة بفعل الأتمية .

- أن تعيد تنظيم أنوثتها بالمعنى الأقوى لهذا المصطلح .

- أن تتخذ « بعداً » معيماً يتيح لها أن تكشف الأخطاء الحالية وأن

تصلحها . نعم ! قد يحدث ذلك في بضعة قرون . . .

(١) ينبغي أن نميز بين التكنوقراطية وبين التقنيات . فلو اكتشفت التكنوقراطية
نفسها ، لاستخدمت تقنيات لن تكون مجردة ، بل مشخصة ، بمعنى أن نحسب هذه التقنيات
حساب الموجودات الانسانية قبل كل شيء .

عندما نقول امرأة لرجل ، أو رجل لامرأة : « أحبك » ، فإن
المضمون على الغالب : « أحب فيك ما ينقصني » .
وذلك يعني أنهما يجبان نفسيهما حباً شديداً .

ذكاء الأنوثة يمتدّ عرضاً ، وذكاء الذكورة يمتدّ عمودياً . أوليس
ذلك ضرباً من الكاملية الرائعة التي ينبغي لكل رجل ولكل امرأة أن يجوز
عليها ، كل في ذاته ؟

ولو أن بعض النساء ، ذوات الأنوثة الواسعة ، قدن العالم ، لكان من
المحتمل أن يكون متخلفاً ألف سنة عما هو عليه ، لأنه ظلّ مشخصاً ،
إنسانياً ، منظماً .

ولكنه كان مستقراً .

المرأة ، من الناحية السيكولوجية ، بطن مغلق واسع الأرجاء .
وهكذا ، فالعالم يصبح لها أبناً هائلاً يطلب يقظتها وحنوها . ولكنها إن لم
تحرسه ، فإن بطنها يستحيل إلى منخق ضخم ، يبحث عن الاحتفاظ بمن
ولد .

الفضل التاسع

صوب الثنائي

حبهما هو الطفل الوحيد الدائم للثنائي .
هيلين تيبول يارت .

مئات العناوين الخاصة بالثنائي كانت قد صدمتك مثلي ، وأنت تتصفح مجلات وكتباً وصحفاً . وها هي ذي بعض العناوين ، نسوقها دون ترتيب : « هل الثنائي - أسطورة ؟ - الثنائي موضوع موضع التساؤل ، - الثنائي في خطر . - هل الزواج وهم ؟ هل الزواج مقضي عليه ؟ » لماذا هذه الهجمة من الحمى ؟ لماذا اتخذ مفهوم « الثنائي » فجأة أهمية لم يكن يبدو أنه كان يتصف بها ، ولماذا كان الناس يرفضون وضعه موضع التساؤل ؟

ولكن من الضروري مع ذلك أن نعرف ما المقصود . فكثير من المؤلفين يقذفون بالثنائي ، بصورة قبلية ، إلى النجوم من خلال ضرب من أسلوب الشعر الغنائي الذي أضيفت عليه المثالية ، ومن خلال لغة تزيّف المعطيات مهما كانت موضع إعجاب في بعض الأحيان .

وعلى هذا النحو يبدأ بعضهم من النهاية ويتكلمون عن المنشور في وسط فصل الشتاء . إن تأملاً أول ينبغي مع ذلك أن يحضنا على مزيد من الحذر .

والثنائي ، من الناحية المنطقية : = ٢ . ولكنه ماذا يساوي من الناحية الواقعية ؟

لكل فرد بعدان : شعوره ولاشعوره : قطبه المذكر (الاظهار إلى الخارج) وقطبه المؤنث (الحياة الداخلية) .

الأمر الذي يعطي الآن ما يلي : ثنائي = ٤ .

أربعة شخصيات في شخصين . ولكن هذا ليس كل شيء على الإطلاق . فاللاشعور ، إذا كان في حالة من القوضى ، ملجأ لجمهور من الشخصيات المختلفة والمتناقضة . التي نجهلها نحن أنفسنا . ولكنها تسحب بمهارة خيوط سلوكنا . ذلك أن كلا من هذه الشخصيات ستتدخل بحسب مخاوفنا ، وضروب كفتنا ، وعقدنا ، وعاداتنا ، وضروب طفالتنا وتعويضنا ، وعدوانياتنا ، وانفعالاتنا ، ومحاسباتنا ، وإحساساتنا الآتية .

وهذا يعني أن كل عنصر من عنصري الثنائي يمكن أن يتشظى ، في يوم واحد ، إلى فيض حقيقي من الأفراد المشتتين ، ولكنهم فاعلون . ونرى أن عدد الشخصيات ، التي ستكون مهمتها تكوين الثنائي ، يرتفع ارتفاعاً مدهشاً ، هذا الثنائي الذي ينبغي له أن يكون ، مبدئياً ، مقتصرأ على اثنين .

أولاً : ما هو الثنائي ؟

ليني أنقل بأمانة عن أحد المعاجم * :

(*) نقل من أحد المعاجم القرنية بالطبع : والمقصود معاني كلمة «ثنائي» : Couple

ثنائي : شيطان من نوع واحد ، منظور إليهما معاً أو موضوعان معاً ،
ولكنهما مقترنان اقتراناً عرضياً ، ثنائي من البيض ، ثنائي مشوي من
السمانيات : على سبيل المثال .

فاذا فحصنا الأمر من كل وجوهه ، فاننا لم نصبه بعد .

ثم - من المعجم ذاته :

ثنائي : موجودان توحدتهما الارادة ، أو العاطفة ، أو أي سبب آخر
يجعلهما قادرين على أن يتصرفا باتفاق وتعاون . مثلاً : ثنائي من العشاق ،
ثنائي من الأصدقاء .

وفي ميكانيك العصر :

ثنائي * : منظومة من القوى المتساوية ، المتوازية ، ولكنها ذات
الاتجاه المعاكس . .

إننا نقرب . فالمسألة هنا مسألة عنصرين متشابهين بعض التشابه
(العشاق ، الأصدقاء) . هذا العنصران يجتمعان ويكونان « مجموعاً »
يحصل بفعل الخصائص الخاصة ذاته . ما هي هذه الخصائص ؟

١ - من الآن إلى الديمومة

لنتصور رجلاً ومومساً . هل يؤلفان ثنائياً ؟ قد يقال ليس بينهما
سوى صلات تناسلية آلية . ولكن هذا أمر متعذر . ذلك أن أي عمل
إنساني ، أيا كان ، ينبع من الوجدانية (انفعالات فظة أو مهذبة ،
شعورية أو لاشعورية ، وعواطف وإحساسات سلبية أو إيجابية) .

(*) المقصود هنا « مزدوجة » ، في الميكانيك « م » .

بين هذا الرجل وهذه المومس إذن صلوات وجدانية . سواء علما
بذلك أم لا . والمألوف أن الرجل يبحث عن وهم ضرب من المحبة .
وتشعر المرأة بجنو أمومي مبهم . ووجدانيتها يمكن أن تدور حول
السادية أو المازوخية ، حول « الحب » أو « الكره » ، الخ .

هذا الرجل وهذه المرأة يكونان ثنائياً . ولكن رابطتهما موسومة
بسمه قصر المدة . فهي : دائماً على وجه التقريب ، ما أن تتكوّن حتى
تنحلّ .

**والثنائي الحقيقي يفترض ديمومة . ذلك هو القانون الأول . فليس تمنع من
ثنائي حقيقي رابطة آنية .**

ولكن كم مرة في اليوم : لدى العديد من ضروب الثنائي ، لا تفقد
المرأة والرجل اتصالهما لأن هذه الشخصية أو تلك ، التي انبعثت من
اللاشعور ، أخذت تمود الرقص ؟ ويكفي لذلك ذكرى ، أو حلم من
أحلام يقظة في خلوة ، أو حنين ، أو خوف من الآخر . ويكفي أن
يستشعر الرجل امرأته كأم ، ليكفّ عن أن يكون زوجاً وليصبح «ابناً» .
فثمة الكثير من المناسبات التي يمكن لكل عنصر من عنصري الثنائي أن
يصبح شبيهاً بعامل على الراديو يطلب عبثاً زميلاً له ، موصولاً بطول
آخر من أطوال الموجات !

**في هذه البرهات إياها ، يكفّ الثنائي عن أن يكون موجوداً من
الناحية الوجدانية . فالديمومة تنقطع ويحتل الثنائي مجدداً مكانه في الآن .
وليس ثمة غير مجرد رابطة اجتماعية بين فردين منفصلين .**

وهكذا تصبح الحياة على صورة تناوب بين ثنائي حقيقي (في
الديمومة) ، وبين ثنائي منفصل الرابطة (في الآن) .

فما الملائم ، إذن ، الذي يمكن أن يؤمن استمرار الثنائي ؟ هل هي العادة ، هذه « الديمومة » السَّيفِة والمتحجرة ؟ كلا . بالتأكيد . هل هو الحب إذن ؟ ولكن ماذا تعني هذه الكلمة ؟

٢ - الاتحاد الصعب بين وجدانيتين

يقول المعجم : الثنائي يتصرف تصرفاً « متناغماً » . ذلك يفترض أن للشريكين هدفاً مشتركاً . ومن المؤكد أن عدداً كبيراً من ضروب الثنائي يتزع نحو هدف واحد . وربما يدخل الرجل والمرأة معاً مخزناً من المخازن ، يكون أحدهما فيه قريباً من منضدة عرض البضائع ، والآخر يدفع الحساب . ويعمل بعضهم متعاونين من أجل قضاء إجازاتهم السنوية ، ويتابع آخرون معاً بحثاً واحداً لأن لهم مثلاً واحداً وينظرون إلى الحياة على النحو ذاته . ويبدو هنا بعد جدد وأسامي :

الثنائي = الديمومة + الوجدانية

والحال أن الوجدانية تمثل كلية حياتنا السيكولوجية على وجه التقريب . فكأننا نقول إنها غير قابلة للوصف . لقد فعل علم النفس ما استطاع : إنه فرز الوجدانية إلى مناطق سُميت ، لعدم وجود تسميات أفضل ، إحساسات وعواطف وحدوس . ولهذه المناطق ضيوفها الطفيليون : عقد ، وضروب حصّر وكف ، ونهاشون كبار آخرون للطاقة الداخلية .

الثنائي اتحاد ومزج بين وجدانيتين . كذلك لا بد من أن ندرس كيف يمكن لوجدانيتين أن يجتمع شملهما ، لكي نحدد ماهية الثنائي .

ولكن من يستطيع ، في يوم من الأيام ، أن يصف الوجدانية

ويحللها؟ دماغنا يتلقى بضعة مليارات من المعلومات في الثانية . فكيف يمكن وصف التموجات اللامتناهية لاحساساتنا العميقة والسطحية؟ أما عواطفنا، فليس بوسعنا أن نقدّم عنها سوى تخمينات غير محكمة الصنع تدور حول كلمات رئيسية : كالحب ، والكراهة ، والتعاطف ، والتنافر ، والصدقة . فكيف يمكن أن نحيط بعاطفة ما دامت هي فوح احساس يجرب الموجود الإنساني أن « يعبر » عنه تعبيراً على نحو يكاد يكون مرضياً ، محاولاً على هذا النحو تعقيل اللامعقول ؟

والحال أن المرأة والرجل إنما يحاول كل منهما الاقتراب من الآخر ، انطلاقاً من احساساتهما وعواطفهما . فاعتماداً على الاحساسات والعواطف إنما يؤمن الثنائي ديمومة الرابطة واستمرارها وخلودها . ويؤمنان كذلك ، بالطبع ، أوامها ، تلك الأوهام التي تصدر عن الاحساسات والعواطف المزيفة .

وبالإحساسات والعواطف كذلك إنما يتوصل موجود من الموجودات إلى الارتباط بكل ما يحيط به . ولكنه لا بد له أولاً ، مع ذلك ، أن يكون على صلة مع نفسه .

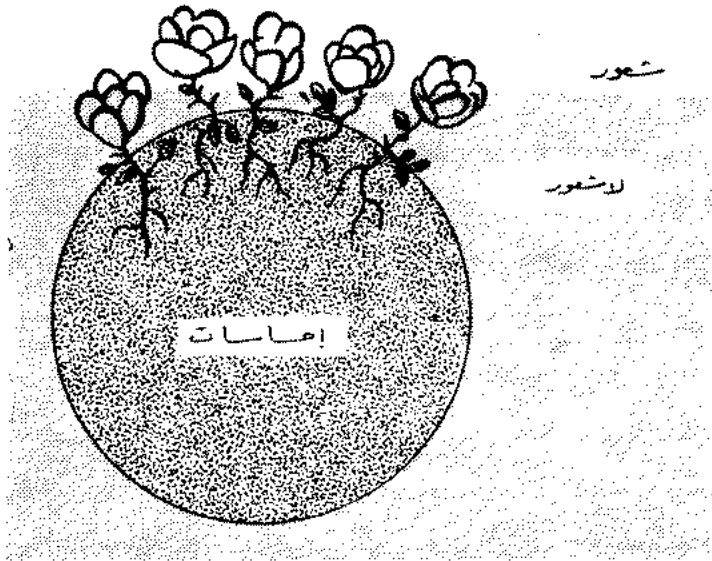
من هنا منشأ جميع الالتباسات التي تحيط بمفهوم الحوار . فالحوار أصبح أمراً مبتدلاً ، مثله مثل البيئة ، واحترام الطبيعة ، ومساوىء مجتمع الاستهلاك . ولم يسبق لأي عصر أن جرت فيه « مناظرات » بهذا العدد ، كما هي عليه الحال في أيامنا هذه : ويبدو أن علمنا لم يعد يستطيع الاستغناء عنها . والواقع أن الحوار الذاتي الهادر هو السائد : فكل يقص « نفسه » للآخر الذي يفكر في نفسه خلال هذا الوقت .

إن أي تبادل حقيقي ، وأي حوار واقعي ، لا يمكن إقامتهما إلا

إذا كان المرء قادراً على أن يحاور ذاته . فكيف يمكن للمرء أن يستشعر الآخر إذا لم يكن من خلال وجدانيته ؟

وهذا هو السبب الذي من أجله يتكوّن الثنائي الأصيل بمقدار ما تتحرّر المناطق اللاشعورية تدريجاً من طفيلياتها وطفالاتها التي تُزيغ الإحساسات ، وتضللّ العواطف ، وتحوّل « الآخر » إلى سراب نعدّه واقعاً .

العواطف الإيجابية أو السلبية



شكل رقم (١٠)

ولهذا السبب فإن الثنائي الناجح هو الميدان الأسمى للحوار الداخلي .
والأكثر إثارة للدهشة أن ثمة إمكان لحوار وجداني أن يتحقق بين المرأة والرجل .

فهذا الثنائي ، وهذا المزيج ، يكونان العلاقة الانسانية التي تتصف بأنها الأطول والأعمق ، والأصعب كذلك . ذلك أن النساء والرجال ، العاديين ، يستشعرون الوجود وينظرون إليه بأسلوبين هما من الاختلاف بحيث يبدو معجزاً أن يكون بوسعهما ، على نحو تدريجي ، أن يلتقيا . ومع ذلك ، ثمة المليارات من ضروب الثنائي ، التي تكاثرت على سطح الأرض . ويمكن الاعتقاد بأن عدداً كبيراً منها لاقى « النجاح » : وحقق المزج العميق ، في الديمومة ، بين الوجدانيات ، والانفعالات ، والأهداف .

ولكن كل ثنائي ناجز ، ضرب من « الأعجوبة » . إنه تحدّ ضد البعد المتعالي الذي يفرضه كل موجود انساني على موجود آخر خوفاً من أن يفقد فرديته الضعيفة . فالخوف من الغير هو ، على الغالب ، الحصر من « الضياع » في الآخر ، أو من أن يكون محجوباً به . والموجود الإنساني مصنوع على نحو يزكي في نفسه الخوف من أن « يتهدّم » أقل تهديد ضد شرارة الشعور ، والخوف من أن يعود إلى هذا العدم الذي عانى كثيراً من المتاعب ليخرج منه (١) .

ومع ذلك ثمة ضروب من الثنائي ناجحة ، وممتينة ، ودائمة ، ومتحدة اتحاداً عميقاً ، ودون عواصف مخربة ، وليست ذات قابلية لأن تقوّض ، لا بالأخلاق بل بالحب ، لا بالعقد بل بصحو داخلي . فكل واحد من الزوجين أصبح الآخر ، مع أنه يبقى ذاته في الوقت نفسه . ألم تصادفوا نماذج من الثنائي بلغت من الكبر عتياً ، حيث يدوب الشريك في الشريك إلى درجة يبدوان أن لهما روحاً واحدة ؟

(١) انظر فصل « المجازر وضروب التآخي » .

في الصفحات التي تلي ، سأصف الموانع العميقة ، على وجد الخصوص ، التي يتعرض الثنائي إلى خطر الاصطدام بها . وأعني بذلك الصعوبات الرئيسة التي ينبغي أن يتجاوزها ثنائي يريد أن يتحقق .

ثانياً — دور المرأة في الثنائي

ولنعد إلى المرأة : ذلك أنها ، أخيراً ، إنما هي المقصودة في هذا الكتاب . ماذا تمثل المرأة في الثنائي ؟ ما هو دورها ؟ إنني أفترض أن الرجل جيد التوازن بصورة نسبية ، وأن له قدرات من الذكورة والأنوثة من نوع جيد . وإلا فإن من الضروري ، في كل مرة ، أن نحلل ردود فعل الرجل تبعاً لما هو عليه ، راشد أو طفلي ، عفوي أو مدعور ، الخ .

١ — قانون العرض والطلب

في كل علاقة إنسانية ، يعرض كل فرد على الآخر ويطلب منه شيئاً ما ، بصورة سطحية أو عميقة ، بصورة مرئية أو غير مرئية . وكل امرأة ينبغي أن تتساءل :

— ماذا يمكن أن أعرض على الرجل الذي يعيش معي ؟

— ماذا أطلب منه ؟

هذان سؤالان يوميان ، إن لم يكونا سؤالين كل لحظة . ذلك أن العرض والطلب يتغيران بحسب الحالة الداخلية ، والأمزجة ، والمتاعب ، وجاهزيات الفكر والقلب ، وضروب الوفاق أو عدم الوفاق .

ويتغير العرض والطلب بالتأكيد وفق العمر والنضج الداخليين .

المرأة التي تملك الزهيد ، لا يمكنها أن تعرض غير الزهيد . وعندما لا تملك المرأة غير الزهيد ، تكون مطالبها في بعض الأحيان لامتناهية . إنها تعرض سحرها التزوي وجبها الطفولي ، لأن أنوثتها ضعيفة ، وذكورتها عدم من الناحية العملية . وهي ، من جهة أخرى ، تطلب أن تكون باستمرار مرفوعة على رؤوس الأصابع ، محاطة بالرعاية والاهتمام .

وماذا تقدم إلى رفيقها امرأة جعلتها الغيرة متصلبة ، إن لم يكن أغلالاً ؟ وماذا تطلب غير أن تكون المركز الوحيد (المرضي) لرجلها «هي» ؟

وما دامت مثل هذه الأوضاع مستمرة ، فإن الثنائي لا يمكن أن يؤكد ديمومته . إنه يمضي من آن إلى آن ، تحطمه ، بصورة مستمرة ، ضروب اللوم والحصام ، والضغائن . ثم يستأنف ديمومته الهزيلة . ولا يكون هؤلاء الرجال والنساء ثنائياً ، بل سلسلة من ضروب الثنائي ، ضروب تختلف من يوم إلى آخر على الرغم من المظاهر الخارجية .

ها هي ذي امرأة « لها حنان الأم » . ماذا تعرض ؟ إذا كانت أنوثتها قوية ، أمكنها أن تظهر نزعاتها الدافئة ، والمتسامحة ، والمسؤولة ، والحفيّة ، والنشيطة ، والمشاركة . ولكنها إذا كانت ذات أنوثة مشوّهة ، فليس بإمكانها أن تعرض غير نزعة لها حنان الأم المشوّه . وستصبح دبقه ، ونزاعة إلى الملك ، وسلطوية ، ومدققة ، و « مراقبة » .

وماذا تطلب ؟ إذا كانت أنوثتها متحقّقة ، طلبت ثقة الرجل و « عفويته » ، وأصبحت ، بالنسبة إليه ، زاد السفر الذي لا غنى عنه . أما إذا كانت أنوثة هذه المرأة مشوّهة ، فإنها تقتضي (بصورة لاشعورية)

أن يبقى الرجل طفلاً بوسعها السيطرة عليه . إنها تطلب أن يكون رفيقها بحاجة إليها ، بالمعنى السيء للكلمة . وتريد أن يقدم إليها تقريراً بصدد كل شيء ولا شيء . ومن المؤكد أنها تتلقى الاجابة التي تطابق ما تعطيه ، ويستخلص أي رجل سوي ، بأي ثمن ، من هذه السلاسل التي تحول بينه وبين الحياة . وتمنحه إحساس السقوط مرة ثانية في عبوديات الطفولة ويقودنا هذا البعض من الأمثلة إلى التساؤل حول ما يجري عادة لدى ثنائي ، حيث وقعت المرأة . وقد فقدت استطاعة أنوثتها ، في حبال نقائص صفاتها .

الأنوثة المتحققة والأنوثة المعطلة

تتصف الأنوثة المتحققة بأنها : الأنوثة لدى عدد من النساء اللواتي لم يحققن ذاتهن مستقرة — يكف الاستقرار عن أن يكون مرناً ، ولم يعد يتكيف مع الظروف . إنه يصبح شبيهاً بماء يجمد . ولا تفهم هذه المرأة إلى أي مدى تتصف الرجل بأنه « صيرورة » ، على عكس المرأة التي تتصف بأنها « وجود » . إنها نزاعة إلى النظر إلى أن كل حماسة ، أو فكرة ، أو تسلية ، ليست ، لدى الرجل ، سوى صبيانيات . واستقرار المرأة عنصر من العناصر التي تجعل الرجل آمناً ، ولكنه يتحول إلى مصدر إن تحجر . فهذه المرأة لا تفرض شيئاً مهما ، إن لم يكن ضرباً

من القسوة في الحكم يحتمل أن تستنزف إبداعية الرجل
وفاعليته في هذه الحاجة التي يشعر بها إلى أن يتخذ بعداً
عن الأشياء كيما يفهمها .

جلود

— يكفّ الجلد ، هنا أيضاً ، عن أن يتصف بالمرح
والمرونة . وتتناثر المرأة من الناحية الوجدانية ، وتصبح
باردة ، وقاسية ، ولوماً حياً .

— ويمكن أن يتشوه الجلد فيتحول إلى رعايات مجامة
حاضنة ، إذ تحوّل الرجل المعامر تدريجياً إلى رخوية
جبانة .

— ويصبح الجلد حضوراً أخرس ، صامتاً ، مفعماً
باللوم . فيشعر الرجل بأنه مراقب ، ومطارد ،
ومشلول ، كما أو أن المرأة كانت تدمم بصوت
خفيض : « مهما فعلت وقلت ، سأبقى حاضرة في
بيت الأسرة ، أعاني دون أن أقول شيئاً ، ولكنني لن
أكون أقل تعكيراً بذلك ، وسيلاحقك جلدي إلى
القبر » .

حنون حنان الأم — المرأة نزاعة إلى الابتلاع ، إلى أن تجعل من نفسها
ذات حضور كلي ، مالكة ، عاجزة عن أن تترك
مبادرة لرفيقها . وكل شيء يحدث كما لو كانت
تريد أن « تأكل الرجل » أو تخنقه تحت ما تقدمه من
عناية .

— تتحوّل خاصة الأمومة إلى مراقبة فظة . وتصبح
المرأة أما « مرعبة » .

وقور

— الوقار ينعطف نحو الكآبة ، ويصبح ضرباً من قابلية الاحترام ، الخارجية على نحو صرف . فلا تفكر هذه المرأة إلاّ بانقاذ ماء الوجه والمظاهر ، إذ تدفع الرجل إلى أن يصبح دمية اجتماعية .

— وعلى الرغم من السلوك المتصلب ، تحتفظ المرأة بقاع يتصف كثيراً بحنان الأمومة ، ويجعل استمرار الشئني ممكناً . ولا يمكننا أن نتمنى للرجل هنا إلا أن تكون نزعتة الخيالية غير نامية .

وفية

— وفاء الأنوثة العميق يتحول إلى المطالبة . ويصبح الوفاء ضرباً من الواجب ، ومن الأخلاق المتصلبة والمطالبة . والوفاء ينضم إلى الجلد المشوّه : « مهما صنعت ، سأبقى أمينة ، وتأنيب ضميرك سيكون تأري » .

منظمة

— تنظيم الأنوثة العميق يصبح هوس النظام ، والنظافة ، والترتيب ، والجدول الزمني المحدد . والرجل موضع هجوم بضروب اللوم التهكمي ، والساخر ، التي تصل في بعض الأحيان إلى حد لا يجرؤ على أن (يحرق) في زاوية من الزوايا ، ولا أن ينقل شيئاً من مكانه إلى مكان آخر .

نافذة البصيرة

— يتقلّص الذكاء الداخلي ، الواسع ، البناء ، ويصبح صحواً بارداً ، جليدياً ، يبرز إلى الخارج على

صورة تهكم لاذع . ويختفي التفاهم ليحل محله نكد دائم ، ولا يفهم الرجل شيئاً مما يُلام عليه . وحذار إن كانت شخصيته تنطوي على بعض النقاط الضعيفة : فستمسها المرأة في المحل المناسب . والرجل ، في هذه المبارزة الهدامة ، مغلوب سلفاً . ولن يكون في سلام إلا بالهرب .

ماذا تعرض النساء ذوات الأنوثة المتحققة ؟ كل شيء . وسيكون جواب الرجل إيجابياً ، موحياً بالثقة . ذلك أنه لا بد من أن يكون مريضاً مرضاً خطيراً ، أو قليل الأدب في الكلام على نحو شنيع ، حتى يكون عاجزاً عن تكوين ثنائي متناغم ، بصورة فرحة ، مع امرأة تمثل ، على هذا النحو ، نبل عرقها !

ولكن ، ماذا يستطيع الرجل أن يفعل أمام امرأة ذات أنوثة مشوّهة غير أن يهرب ، أو يخضع ، أو أن يكون عديم التيقظ ؟ فالعرض لا يطابق الطلب . ويموت الرجل موتاً بطيئاً من الخواء الوجداني ، إذ يُحرم من فيتامينات الأمن والسعادة والدفء .

ولنشر مع ذلك إلى أن النساء اللواتي تم تصنيفهن في العمود الأيسر يجدن ضرباً من الصدى . فهن قادرات على تكوين ثنائي يبلو منسجماً ، شريطة أن لا ينظر المرء إليه عن كשב . ثمة ، على هذا النحو ، كثير من ضروب الثنائي « المتكامل » ، كما سنرى مباشرة .

٢ - الثنائي المتكامل

هل ينبغي لتكوين ثنائي : كما يُعتقد بصورة عامة ، أن يكمل الرجل والمرأة أحدهما الآخر ؟ وأن يجد كل منهما في الآخر ما يفتقده ؟

— الثنائي المتواطئ —

ثمة بعض ضروب من الثنائي ، يتصف فيها الرجل بأنه « ذو رجولة قوية » ، وتتصف المرأة بأنها « أنثوية جدا » ، ويبدو أنهما يحققان اتحاداً دائماً . ومن المؤكد أن الشريكين « يتكاملان » . ومن المؤكد أيضاً أن كلا منهما يحتاج إلى الآخر . ولكن من المحتمل جداً أن يعيش كل منهما بفضل الآخر ، لا مع الآخر . فهما يكونان مجموعاً منسجماً بصورة نسبية ، ولكن كلا منهما ، إذا نُظر إليه على نحو منفصل ، لم يحقق كمال شخصيته .

إن أي فُرْض في خشبة ، وأي لسان حديدي داخل فيها ، يكونان مجموعاً كاملاً . ولكنهما يلبثان فرضاً ولساناً عندما يُفصلان .

يمكن للمرء أن يشك في وجود تفاهم عميق في ثنائي من هذا النوع . فليس للشريكين غير جزء من شخصيتيهما . وواضح ، والحال هذه ، أننا لا نستطيع فهم الآخر إن لم يكن عبر جزء مطابق ، أو مشابه ، من شخصيتنا الخاصة .

وما يجعل ، على الأغلب ، من ثنائي « متكامل جداً » ثنائياً متلاحماً إنما هو ضرب من التواطؤ اللاشعوري ، وليس التفاهم . فكل منهما ينتظر من الآخر أن يطابق ما يتوقع منه ويستمر المجموع ما دام الرجل يحفظ بقناعه الرجولي بمغلاة ، والمرأة باتجاهها الأنثوي بافراط (أو المزعوم أنه كذلك) .

ومن المحتمل ، احتمالاً يبلغ التسعين بالمئة ، أن مثل هذا الثنائي قائم على الإعجاب (من جهة المرأة) وعلى اتجاهات تفوقية (لدى

الرجل) : وبعبارة أخرى ، قائم على صلوات سيطرة (لدى الرجل)
وخضوع (لدى المرأة) .

هنا إنما يبدو « التواطؤ » على نحو واضح . فاذا غير أحد الشريكين ،
المرأة أو الرجل : من اتجاهه ، أنهار التوازن المزيّف والبناء السريع
العطب .

هذا النموذج من الصلات ، صلوات التفوق والدونية ، والسيطرة
والخضوع ، خدّاعة مع ذلك . فالرجل الذي يدلّ مظهره على رجولة
مفرطة ذو وجدانية ضعيفة جداً . ولا يفهم شيئاً كثيراً عن الحياة العميقة ،
في حين أن المرأة « الأنثوية جداً » مزوّدة بنفاذ بصيرة يتصف في بعض
الأحيان بأنه حاد على نحو فريد ، بحيث أنها ، في نهاية الأمر وبالرغم من
مظاهر خضوعها ، هي التي تفقد المركب . إنها تتصرف تصرف
«الذباباة الدقيقة» . إنها ضرب من الدماغ المبدع ، مع كل ما يفترض
ذلك من تمييز على الرجل .

وصدقوني أنها تتصرف دائماً بحيث يكون الرجل موجّهاً عن بعد إلى
حد كبير ، وهو يعتقد في نفسه أنه المعلم والسيد .

كل شريك من الشريكين يعرج في هذا النوع من الثنائي الذي يبدو
غالباً أنه « غير متوافق على نحو عجيب » .

ولكن الاثنين ، في آخر المطاف ، يتقدمان بالجرى في خط مستقيم ،
على الرغم من أن أحدهما يمشي في الساقية والآخر على الرصيف ،
شريطة أن لا يتعثّر أي منهما .

ب- بعض الأمثلة :

أمثلة الثنائي المتكامل ليست مفقودة . ويجده المرء دائماً ، في أحدهما ، ما يفقده الآخر .

إنه لرجل « قوي » ذلك الذي سيتزوج امرأة « ضعيفة » : أو على العكس ، سينجذب الرجل الذي أنوثته تغلب على ذكورته (رجل شديد الانطواء على سبيل المثال) بامرأة اتجاهاً مذكورة أكثر مما هي مؤنثة (امرأة شديدة الانبساط على سبيل المثال) .

وعديدات أيضاً هي ضروب الثنائي السادي - المازوخي . وبصورة أقل خطورة ، الثنائي المتكوّن من سائد ومسود أو العكس . ومن النموذج نفسه . ضروب الثنائي القائمة على حاجة أحد الزوجين إلى أن يكون ساحقاً والآخر مسحوقاً ، وإلى أن يكون معجباً والآخر معجباً به . وأن يكون محبباً والآخر محبوباً .

وثمة مثال نموذجي آخر هو مثال الرجل المنطقي بمغلاة الذي يتزوج امرأة « غير منطقية على نحو ساحر » . وهما أيضاً يكوّنان ثنائياً « سيء التوافق على نحو عجيب » . وفي هذه الحال ، تشبه المرأة جهاز رايبو دون انتقائية ، يلتقط عدة ارسالات معاً . إنها ، في الواقع ، امرأة مفسدة ، غير منظمة بصورة كلية . ولكنها ، في نظر الرجل الذي يحتاجها ، تبدو على أنها خيالية فاتنة . والمهم في الأمر أن تصادف ضدها ، والمقصود بضدها ، على نحو عام ، رجل جاف ، وذو ذكاء بارد ، وواضح بمغلاة : وعقلاني بصورة ممتازة . وتمثل هذه المرأة ، بالنسبة إليه ، ما ينقصه وما يأسف لكونه لم يستطع تنميطه : أي خياله ووجدانيته .

وستكون هذه المرأة هي الناشطة دون فائدة ، وستبدو متقلبة ، وازقة وفق المراد . وسيرسم الرجل الجفاف نفسه حازماً ، وسيصيه الغيظ ألف مرة في اليوم ، ولكن دون قدرة على الاستغناء عن هذه المرأة التي تصنع افتتانه ويأسه في الوقت نفسه ، لأنها ترمز إلى الجزء المكبوت من ذاته . والمثل الرائع على هذا النوع من الثنائي كان قد أعطاه أحد الأفلام ، المأخوذ من كتاب ستيمن : القاتل يسكن في الشقة ٢١ . تمثيل بيير فوزنه وسوزي دولبر .

قالت لي إحدى النساء :

— لو كنت تعلم كم يتقن فرض الطاعة زوجي بنظرة واحدة ! أحبه لأنني أشعر بلذة في خضوعي إلى سلطانه . . .

وقالت أخرى :

— الحقيقة أنني ألتذ عندما يرفع صديقي صوته . وأتظاهر أنني أتعد ، ولكنني لا أعتقد بأي كلمة أقولها عن تمردني .

وقالت أخرى أيضاً :

— يوبختي زوجي غالباً ، وهو نصف جاد ونصف غاضب . ويصفني بالحلماء والباردة كالصقيع . فأتحول عندئذ إلى بنت صغيرة كل الصغر . وأشعر أنني محبوبة كبنت صغيرة .

وقال رجل خلال التحليل النفسي :

— أدرك الآن أنني مارست الابتزاز خلال سنين . فعندما كنت أعود إلى بيتي ، كنت أبالغ بتعبي وهمومي . وكنت احتاج إلى أن ترثني

امرأتي لحالي ، وأن تأخذني بين ذراعيها لكي تفرّج عني الهم . وهي
لم تكن امرأتي ، بل كانت أمي !

وقالت امرأة :

— أشعر أنني إلى درجة من التعاسة والنفاهة بحيث أجد من غير السوي
أن لا يحضرني زوجي . فعندما يكون قاسياً معي ، أكون سعيدة بذلك .
هل الثنائي من هذا النمط « متلائم » ؟ نعم . بمعنى ما ، وشريطة أن
يتوافق العصايبان . وفي هذا المجال إنما يمكن أن ينطوي التحليل النفسي
على ضرب من الخطر . والواقع أن أحد الزوجين ، إذا استعاد صحته
الوجدانية . لم يعد يشعر بالحاجة إل أن يكتمله الآخر . أما إذا شرع
الشريكان في تحليل نفسي ، فجميع الفرص مهيأة لهما لكي يبنيا ثنائياً
متيناً . ولكنه جديد كل الجدة . مختلف كل الاختلاف عن الثنائي
الذي كوّنناه في البدء .

صورة أخرى من صور الثنائي المتكامل ، صورة نادرة الوقوع ،
هي صورة الثنائي — الهلوسة . فالرجل يسلك إزاء امرأته ، بصورة
لاشعورية ، كما يسلك إزاء أمه ، أو أن المرأة ، بصورة لاشعورية
أيضاً ، تنظر إلى الرجل كأبيها .

٢ — « إنني بحاجة إليك : إذن أحبك »

هذه الصيغة التي اكتشفها المحلل النفسي فروم يمكن أن تحدّد
ما يجمع بين شخصين في العديد من ضروب الثنائي . وحسبنا أن نعكس
الوضع حتى نكتشف عبثه :

— إذا لم أعد أحتاج إليك ، في يوم من الأيام ، سأكفّ عن أن أحبك .

ويعني هذا الحب المزعوم أيضاً : أحبك لأنك أنت أمني ، ولأنني عاجز عن أن « أكون » . إنه التصريح بـ « حب » . يمكن لمثل ذلك جبال أن يوجهه إلى رزته .

قالت لي إحدى النساء :

— أشعر أنني ضائعة منذ أن يتغيب زوجي برهة . إنني أحتاج إلى حضوره الذي يوحى بالطمأنينة ، حاجة كبيرة .

تقول المرأة « حضور يوحى بالطمأنينة » : لا « حضور محبوب » : وهنا إنما يكمن كل الفرق .

وقالت أخرى :

— إنني بحاجة إلى أن يكون هناك باستمرار ، على بعد خطوتين مني ، وإلى أن يحكي لي ويحني ، وإلى أن يكون بحاجة إلي ، وإلى أن يكون شقياً إذا لم أكن هناك .

اللعبة اللاشعورية هنا مزدوجة : أ) تطلب هذه المرأة قبل كل شيء أدلة مرئية على الاهتمام . ب) لأنها تحتاج إلى أن يكون زوجها بحاجة إليها ، وهي تستلزم أن يكون زوجها « والدها » : لأنه يتصرف على هذا المنوال بأنه ضرب من الأمن بالنسبة إليها ضد الشعور بالدونية والتفاهة .

ويبدو لي مفيداً أن أقدم في هذا المجال ضرباً من « سلم قيم » . وغير مهم أن يشبه جدولاً إجمالياً . إن بإمكانه على الأقل أن يساعد الأزواج على التساؤل عن الدافعية الحقيقية لحبهم .

أحبك ...

لأنني أحب نفسي

(أبحث فيك ما أفتقده في نفسي)

لأنني بحاجة إليك

(حتى اليوم الذي تنتهي فيه حاجتي إليك)

لما أنت عليه

(شريطة أن تبقى كذلك)

لأنني معجب بك (أو معجبة)

(شريطة أن لا تكفّ عن أن تكون موضع إعجاب في نظري)

كما أنت عليه

(ولكن ، إن كنت ضعيفاً ، سيصبح حي حماية شفقة ، بل
احتقاراً خفياً)

لأنك أنت ما أنت عليه

(إنجازك الداخلي يتيح لي أن أكون ما أنا عليه ، بضروب قوتي
وضعفي)

لأنني أنا ما أنا عليه ، ولأنك أنت ما أنت عليه ، متحققين ومتحدين
لتكوين كل بهيج ومتجدد كل يوم .

٣ - رواسب عقدة أوديب

عقدة أوديب تمثل المرحلة الأكثر حسماً في حياة المرأة . فهي تستمر في التأثير بصورة خفية ، وعلى نحو لاشعوري كلياً في بعض الأحيان . وطيلة الحياة . في عدد كبيراً جداً من ضروب الثنائي . وذلك بسبب كونها قلماً تنحلّ .

وتظهر هذه العقدة بوجوه كثيرة ، أذكر أربع حالات منها يصادفها المرء في أغلب الأحيان .

أ - المرأة الطفل

لم تكن ترغب هذه المرأة ، خلال فترة مراهقتها ، إلا في شيء واحد : أن تكون محط نظر أبيها . وأن تروق له ، وأن يُعجب بها ، وأن تكون موضع تهنئة واطمئنان (وعلى وجه الخصوص إذا كانت للفتاة بعض الصعوبات مع أمها) . فالفتاة كانت تجعل مكانها « تحت » أبيها ، منتظرة أن يتفضل فيدع نظرة تسقط عليها . وفي الثنائي ، يظل الوضع ذاته دون تغيير .

إنها تعرض

إنها تطلب

- | | |
|--|---------------------------|
| — إخلاصاً كلياً لزوجها ، | — أن تكون مطمئنة ، مسموكة |
| ولكنه إخلاص طفل . | باليد في كل لحظة . |
| — صورة السعادة منذ أن يظهر زوجها راضياً منها . | — أن تكون محط الأنظار |
| — سلوك ربة المنزل المكتملة ، | باستمرار بين كل النساء . |
| — سلوك ربة المنزل المكتملة ، | — أن تُذكر على أنها |
| يهدف أن تروق له وأن يهنئها . | الأجمل ، والأكثر سحراً ، |
| — دعماً معنوياً ، ولكنه | والأكثر « أنوثة » . |
| سطحي : « إنك قوي ، وذكي ، | — أن تكون (وأنها كانت) |
| ومدهش ! » . | الوحيدة في حياة زوجها . |

— لا يسهى زوجها أبداً أن يكون يفظاً ، حتى في الظروف المبتدلة .

— سلوكات ذات نزوة ، بال « زرجها أن يعدها ملكة العالم .

— وتطلب ، في نهاية الأمر ، صورة سعادة مزبقة ، ككل شيء . ومن المحتمل أن تكون استبدادية ، بصورة عنبة ، في متطلباتها أن تكون متميزة وماللة برفيقها .

— وتطلب ، في نهاية الأمر ، كل شيء . ومن المحتمل أن تكون استبدادية ، بصورة عنبة ، في متطلباتها أن تكون متميزة وماللة باستمرار ، وطيبة حياتها كلها .

إن المراهقة فاشلة جعلت من هذه المرأة امرأة لا زالت في مرحلة الرسم الأولي . وهي ، على الغالب ، تتزوج كيما « تسلب » من صديقاتها صبياً يُعجب به جميعهن ، كما لو أنها تشتري شيئاً يشتبهه جميع الهواة في صالة من صالات البيع . وهي لا تفتأ تكرر حالة مراهقتها ، عندما كانت تهلّل لأن لها ، وحدها ، أباً كان يتخاطفه الآخرون .

وإذا حدث أن كان الزوج طفالياً ، هو أيضاً ، فليس بإمكان المرء إلا أن يرتعش إزاء المصير المدخر لأطفال هذا الثنائي ، حيث لا تستطيع المرأة إلا أن تلعب لعبة البنات الصغيرات ، في حين أن الرجل عاجز عن تأمين ضرب من الأمن الوجداني لمتزل الزوجية .

ب — المراهقة الأبدية :

إما أن المراهقة الأبدية حسبت أباهاً « إلها معصوماً » ، وإما أنها ،

وقد عجزت عن أن تتصل به اتصالاً عميقاً ، تستمر في البحث عن صورة أيها المثالي عبر زوجها .

إنها تطلب

إنها تعرض

— أن يكون زوجها شهيراً ،
وأن ينجح ، وأن يلفت إليه
الأنظار .
— أن لا يفشل زوجها أبداً .
— أن يسيطر عليها زوجها .
— مساحيق يتم تنقيحها
باستمرار ، وأثواباً تتجدد دائماً .
— وبوصفها تمثل دوراً
بصورة لاشعورية ، فهي تفتضي
أن يفعل رفيقها الشيء نفسه .

— « حباً » يمكن تلخيصه
بالصيغة التالية : « أحبك لأنني
معجبة بك » . ومع ذلك ، فإذا
بقي زوجها منصرفاً إلى أعمال
ثانوية ، اتهمت بذلك الظروف
أكثر مما تتهمه . وهي ، إذ تفعل
ذلك ، تُشعر الآخرين بأنها « نحمة »
زوجها و « ترأف » بمصيره .
والواقع أنها تبحث عن الاحتفاظ
باعجابها سايماً .

— عدوانية خفية . فللمرأة
تريد لنفسها أن تكون تابعة لزوجها ،
وتحتاج أن تكون السيد . ولكن كل
تبعية لا تكون مقبولة قبولاً حراً
تولد العدوانية .

هذا الزوجان يعبران الحياة جنباً إلى جنب دون أن يعرف أحدهما
الآخر أبداً . فللمرأة لا ترى الزوج الموجود إلى جانبها ، إذ أنها تبحث
فيه عن أب .

ج - المرأة المنافسة

كانت ، وهي مراهقة ، في تنافس ضد أبيها : في تنافس إما فاعل (« الصبي الفاشل » الشهير) ، وإما فكري .

كيف تسلك في وسط الثنائي ؟ حسن ... إنها تثابر على سلوكها السابق . والرجل يغير وجهه فقط : فالزوج يحل محل الأب ، وتستمر المنافسة . وتتصف لعبة هذه المرأة ، على الغالب ، بأنها معقدة . فهي ، من جهة ، ترغب في أن تهزم زوجها في ميدانه الخاص ، وهي من جهة أخرى تتمناه أن يظل الأقوى . وذلك كيما يكون بوسعها أن تعجب به ، وأن تحتفظ ، سليمة ، بهذه الصورة التي تحملها في نفسها لأب لا يُغلب . وليس من النادر أن تشرع في دراسة زوجها نفسها أو في مهنته ذاتها .

إنها تعرض

إنها تطلب

— زوجاً يقبل المنافسة ، — « روح الفريق » ،
وأن يكون « رقيقاً ممتازاً » ، وأن وإخلاصاً على الغالب في كل
يكون له « روح الفريق » بالمعنى اختبار .
الرياضي للكلمة . — سلوكاً يتصف بحنان الأم ،

يجعلها تقبل عيوب زوجها وأخطائه
(الذي يصبح ثانية ، عندئذ ،
« طفلها ») .

— أن يكون زوجها محط إعجاب الآخرين واحترامهم .
— عدوانية مستترة ، لأنها تريد أن تكون نداءً لزوجها على جميع المستويات .

ويتصف الثنائي ، على وجه العموم ، بأنه منسجم ، متعاطف جداً في نضال الشريكين جنباً إلى جنب نحو هدف مشترك . بالرغم من وجود عناصر مراهقة سيئة الحل لديهما . وتذكرنا فاعلية هذا الثنائي بضرب من سياق التتابع .

د - المرأة العقلانية

إنها صنف شديد الخطر على الثنائي ! شديد الخطر : لأن هذه المرأة لا تميّز التزعة العقلانية من الذكاء . وكونها قاسية ، منقفة جداً ولكنها « جافة » ، فلا يمكنها أن تسلّم بأي تفوق للذكر . وقطبها المؤنث مصاب بالخفاف ، في حين أن قطبها المذكر مصاب بالضمور الشديد .

ويتصف هذا النموذج من المرأة بأنه عطوب بصورة دائمة على وجه التقريب ، ذو جنسية مثلية خفية أو معلنة . إنها « ضد الرجال » . وعانت ، في جميع الحالات على وجه التقريب ، صعوبات خطيرة مع أمها .

شعارها يمكن أن يكون : حيث يسود العقل ، ينبغي أن تموت الغريزة . ومن المؤكد أنها عاجزة عن تكوين ثنائي جدير بهذا الاسم .

إنها تعرض

إنها تطلب

— الاعتراف اللامشروط — حماية مفرطة في الحلم
بثوقها « العقلي » . لمن يطلب رأيها أو عونها من
— أن تعترف النساء الأخريات النساء والرجال . الأمر الذي يتيح
بها ، اعترافاً بتواضع ، أنها القائد لها الاحتفاظ بشعورها بالتفوق .
المعصوم .

— أن ينحني جميع النساء — ضرباً من عاطفة «الأمومة»
وجميع الرجال أمام رغباتها . إزاء زوجها . فهي تحسبه طفلاً
— أن يكون زوجها أدنى ستكون هي الملكة الأم . وتبدي
منها ، ضعيفاً وخاضعاً . له حسن التفات فيه ظل من الاحتقان .

هذه المرأة امرأة تمارس الخياء ، بكل ما للمصطلح من مدى .
وهي تشغل على الغالب مهنة حرة . أو أنها تزوجت رجلاً « عقلياً »
بتصف وضعه الاجتماعي بأنه مرموق . وبالنظر لتزعاتها المتصفة بالجنسية
الثلثية ، اللاشعورية أو الشعورية ، فإنها تسود زوجها ، إذ تمطره بضروب
من التهكم . والسخرية : والعطف المستعلي ، من خلال سلطوية مموّهة
أو معلنة .

٤ — لكي تتوقف الهلوسة :

كل من الشريكين يصل إلى الحياة الزوجية بعد أن يسلك بصفة
شخصية طريقاً طويلاً . وكلاهما ينشآن من طفولتيهما البعديتين
ومراقتيهما . وكلاهما يجلب ماضيه برومته ، ماضياً يتصف الوضع
الراهن بأنه مجرد محصلته .

إنهما يجهلان ذلك من الناحية الداخلية ، ولو كانا يعرفان ذلك
عقلياً . فالذكريات ، والرضوض ، والعقد ، والتربية ذاتها ، أقصيت
في سرايب اللاشعور . ولكن كلاهما يقول في نفسه : « ها أنا ذا ،
جديد كل الجدة ، دونما متاع » . لا ، بالتأكيد ! فلكل منهما حقائق
مترعة ، مقفلة بأحكام ، في معظم الأوقات .

ومن المهم أن يعلم كل من الشريكين أن اختياره الشعوري شيء

زهيد بالقياس إلى ما يُدبّر في لأشعوره بالرغم منه . وتتبوأ الصدارة بين الدافعات عقدة أوديب ، مسيطره . وعلى وجه الخصوص لدى البنت ، التي قلما تعبر هذه المرحلة دون أن تمس النقطة الحساسة من نفسها (١) . أيقال ، اختصاراً ، إنها تبحث عن أب في زوجها ؟ هذا أمر لا ريب فيه ، ولكن ثمة أكثر من ذلك . والواقع أنها ستطلب إلى زوجها ، وقد سببت لها أمها الضرر على الأغلب ، أن يكون « أما طيبة » . مهما كان ممكناً أن يبدو ذلك عبثاً . إنها ستكون بحاجة إلى علامات مستمرة من المحبة الدافئة التي يمكن لها ، وحدها ، أن تعوّض فقدان الأمن لديها .

هنا إنما سيعمل الذكاء الداخلي للثنائي . فبعض المؤلفين يصرون : « لا بد من الرعي ! » هذا أمر مؤكد ، ولكن ذلك غير بسيط . فالوعي يتطلب الزمن ، والصبر ، والنفاهم ، والتسامح إزاء الآخر وإزاء الذات . وكل فرد نزاع جداً إلى أن يكتب ما يؤثر أن لا يراه ، بدلاً من قبوله لكي يدججه بصورة تدريجية . إن البنت التي استهلكتها أمها أو أبوها ، خلال عقدة أوديب ، ستحتاج إلى رفيق متوازن يساعدها ، شيئاً فشيئاً ، على أن تستعيد توطيد نفسها في معايير الراشدين .

واكتهما سيستمران ، إذا كان كل منهما يخفي الواقع عن نفسه ، في البحث عن « حب مطلق » ، ومباشر ، ويتحقق فوراً ، دون أن يعلما أن تكوين الثنائي حَمَلٌ بطيء . ويريد كل منهما أن يكون الآخر هذا المطلق الذي افتقده خلال فتوته . ويبقى عاجزاً عن أن يرى ، بصورة موضوعية ، هذا الموجود من لحم ودم ، الموجود إلى جانبه ، الذي ليس هو أباه ولا أمه ،

(١) انظر فصل « البنت المحصورة » .

وإنما هو زوجة أو زوج يبحث كل منهما عن نفسه . وتتذبذب الأسرة
بخطورة إلى أن يبئس للزوجين شعاع من نور ، صادر من المرأة أو من
الرجل أو من شخص خارجي ، أنهما كانا يحاولان أن يمدّدا ماضيها
باتّداً .

ولا جدوى من الانخداع : فجميع ضروب الثنائي تتكوّن ، من
الناحية العملية ، على نحو تكاملي . هذا أمر محتم . ولكن ذلك يعني أن على
الثنائي مواجهة المخاطر التي تفرضها هذه التكاملية . وعليه أن يصوّب
نحو انسجام المجموع ، أو ، إذا آثرنا ، نحو توازن بين الطرفين .
والرجل مزوّد ببعض الأنوثة (وإن كانت ضعيفة ، فهي موجودة
مع ذلك) ، والمرأة مزوّدة بذكورة (ربما كانت كامنة كذلك) .
ولكنهما لا يستطيعان أن يفهم أحدهما الآخر إلا من خلال هذين
التماثلين . وبالرغم من ضروب « فقدان الاتصال » الكثيرة ، ينتقل
الثنائي ، شيئاً فشيئاً ، من الآن إلى الديمومة .

فاذا كان المجموع متلاحماً بصورة نسبية ، ومتلائماً ، ومرناً ،
وبهيجاً ، وخلاقاً ، كوّن الثنائي طاقماً جيداً ، ولو أن أحد العنصرين
عاجز عن مواجهة مخاطر الطريق إذا ما نُظر إليه منعزلاً عن الآخر .

٥ - حصر الرجل

آ - خوف قديم

ما منشأ أن الرجل ، في كثير من ضروب الثنائي ، بخشي كثيراً أن
يترك نفسه على عفويتها إزاء زوجته ؟ تذكروا هذه الواقعة التي ضغطت
بثقلها على تاريخ جميع النساء ، والتي وصفتها في الفصل الخامس : إن

نوع الذكور ، الذي يرقد في كل رجل ، يصاب بالذعر ازاء النوع الأنثوي الذي يمثل كل امرأة .

ثمة سؤال يطرح نفسه مندثذ : هل نجد هذا الخوف لدى جميع الأزواج من الرجال ؟

الجواب بسيط : من المؤكد أن الخوف موجود في جميع ضروب الثنائي إذا كان المقصود حصراً ذكرياً ، وكلية ، وميتافيزائياً . ولنعتبر بصورة أخرى : كل رجل عادي يخشى امرأته بعمق .

وليس لهذا أي صلة بالكاريكاتوريات على نمط دويو : إن موقع هذا الحصر هو في أعماق الشخصية . إنه يرقد أو يتجلى تبعاً للظروف ، وبصور شتى . وتتباين ردود الفعل بحسب التربية المتلقاة ، والثقافة الشخصية ، والدكاء ، وبحسب اتجاهات المرأة بالطبع .

وحسبنا هنا أن نضرب مثالين ، إذ أن الفصل الخامس كله يظل تطبيقاً في هذا المجال .

لنفرض رجلاً متزوجاً بامرأة « متواضعة جداً » وذات اعتدال في الطبع . فهذا الرجل يحتفظ في حقيقة نفسه ، بخوف حيواني وطبيعي لإزاء النوع الأنثوي . ولكن هذا الخوف لن يظهر وسط الثنائي ، لأنه لن يحدث لأي قاطعة أن تضعه في الدارة . فالمرأة « المتواضعة » تعني امرأة لا تنلر بالخطر ، امرأة أضفي عليها الحياد . ولكن إذا اتفق أن أثارت المرأة عاصفة أسرية ، فإن الرجل يستشعر ضيقاً لا حدود له . ذلك أن الرجال يعيشون بصورة عامة على مستويين :

أ - إنهم يعانون خوفاً عميقاً لإزاء الأنثى .

ب - وثمة مخاوف خاصة شتى أمام نموذج معين من المرأة ،
منشأها التربوية والشعور بالدونية ، يُحتمل أن تبعث الخوف العميق الأول
في أي لحظة .

أو أيضاً ، ها هو ذا رجل ، ككثير من الرجال الآخرين ، ربته
أم طاغية ، ذات حضور كلي ، خنقت شخصية ابنها وامتنعتها (أكدت
على كلمتي « خنقت وامتنعت » ، اللتين تمثلان تماماً خوف نوع
الذكور : أن تبتلعه وتذيبه الأثني التي ترمز إلى العدم) .

فقد كان هذا الرجل إذن ، منذ طفولته ، في مواجهة مع أمه التي
كانت تجسّد حصره العميق في كل لحظة . ومهما كانت امرأته تتصرف ،
هي أيضاً ، بأنها لا تجسّد بالرمز كثيراً نوع النساء « الملتهم » ، فان
الزوجة المذكورة ستتعهد بالرعاية ، على نحو دائم ، مناخاً يعرفه زوجها
منذ زمن بعيد .

ومن المحتمل جداً ، من جهة أخرى ، أن لا يدرك الزوج ذلك :
فقد يقدر أنّ « من غير اللائق به » جداً أن يكون في خوف من امرأته .
وسيحاول عادة أن يضيفي الحياد على خوفه بشئ المناورات : بالعدوانية ،
والحزم الجاف ، والغضب ، والاحتقار . واختصاراً نقول : بكل
ما يتيح له أن « يحتفظ بالفضوق » . هذا اذا لم يجتذب امرأته بوسائل
اللطيف .

ب - الحل

والحل غير يسير .

ثمة الحياة اليومية أول الأمر . فاذهب إذن وقل لهذا الرجل المشدود

في أعماله ، وهو اجسه ، وريبه أمام الحياة ، وثقته المزيقة بنفسه : « إن لديك خوفاً من امرأتك » ، يجبك بابتسامة ، وهزة كتفين ، ومظهر ساخر . وسيقول لك إن ذلك لمن قلة الأهمية بحيث لا يستحق أن يتوقف عنده المرء ثانية واحدة . فما له الأهمية قبل كل شيء عنده إنما هو الدماغ وليس الوجدانية . هذا إذا لم تكن العضلات ذات الرأسين هي التي لها الأهمية قبل كل شيء .

وليس بوسع الرجل ، من جهة أخرى ، أن يستشعر بصورة حقيقية حصره إلا بصعوبة قصوى . وذلك لا لأن الحصر في منتهى العمق فحسب ، بل لأنه يفعل كل شيء لكي يخفيه عن نفسه . فالرجل يشعر أن هذا الخوف من المرأة يضع « رجولته » موضع الاتهام . وهذا صحيح فيما يخص الرجولات المزيقة : رجولات من يدعون الشجاعة . وهذا خاطيء عندما نكون إزاء رجولة حقيقية : رجولة تركز على حياة داخلية قوية .

إن زوال هذا الخوف يمكن أن يجدد تفاهم الزوجين بصورة تامة . ولكن العمل ، ولنكرر ذلك أيضاً ، غير يسير . ذلك أن على الرجل أن ينزل درجة درجة قبل أن يصل إلى مغاور اللاشعور .

ولكي نساعد على التأمل ، ها هي ذي بعض الحالات المتبدلة. تلك حالة الرجل الذي يعنف امرأته عندما تبدي له الحنان (الذي يسميه لطفاً متكلفاً) . وحالة الرجل الذي يصاب بتهييج الأعصاب عندما تصحح زوجته هيئة ثيابه . وحالة الرجل الذي يشعر بغضبه يتصاعد إذا قالت له امرأته أمام ملاء من الناس « يا عزيزي » ، أو أي كلمة لطيفة أخرى ، لأن ذلك يشعره بأنه يُعامل معاملة « الصبي الصغير » . وحالة الرجل الذي

يشعر بالانزعاج عندما تتكلم عليه زوجته إلى أشخاص آخرين . وحالة
الرجل الذي يتدلل أمام غضب زوجته ، الخ .

ويمكن أن نرسم تخطيطية لردود الفعل الكثيرة هذه ، كما يلي :

موقف الزوجة

يدكر

بحنان الأم (أو غضبها)

التي تذكر

بتبعية الطفولة

التي تذكر

بالعدم قبل الولادة

الذي يدكر

بالحصر أمام الموت .

ولهذا السبب كان موقف المرأة الفهم ذا شأن عظيم بالنسبة إلى الثنائي .

ثالثاً - الثنائي الذي « أضيفت عليه القداسة » .

ليس بوسع أي موجود إنساني أن يستغني عن إضفاء القداسة .
فكلُّ يبحث عن « الارتباط » بما يحيطه به ، بالموجودات والأشياء .
وذلك صحيح على وجه الخصوص بالنسبة إلى المرأة التي تتصف بأنها
ذات طبيعة متديتنة بعمق * .

(*) يأخذ المؤلف كلمة « تدين » بمعناها الاشتقائي في اللغة الفرنسية : من كلمة

Relier ، Religare ، أي يرتبط « م » .

والقول إن العالم الراهن لم يعد يفلح في إيجاد إضفاء القداسة هذا ،
إضفاء يحتاجه مع ذلك حاجة حيوية ، قول أصبح على كل شفة ولسان .
والانسان الحديث : شأنه شأن كل إنسان ، نزاع نحو شيء ما يتجاوزه :
فهو يبحث في الخارج عما هو ، في الواقع ، موجود فيه .

والثنائي ، فيما يخصه ، يدفع بهوائياته في اتجاهين :

أ) نحو الداخل : وتلك هي العلاقة الداخلية في الثنائي .

ب) نحو الخارج : وتلك هي العلاقة الخارجية بالعالم الاجتماعي ،
بما في ذلك الأطفال ،

١ - إضفاء القداسة الآتي من الخارج

ذلك هو الزواج المؤسسة ، والعقد في ظل القسم ، سواء كان علمانياً
أم دينياً . فالالتزام أولاً ، ثم الانطلاق . وببذل الثنائي جهداً في احترام
العقد ، بالرغم من الصعوبات ، لأن الزوجين أقسماً على أن يظلا معاً
في السراء والضراء .

أعتقد أن ليس ثمة أشد شؤماً على الثنائي من مفهوم « الواجب
الزوجي » ، مع ما ينجم عنه من ضروب الإثم والرفض والكبت
والعدوانية والكذب . هذا من غير أن نتكلم على « الجزاءات » ، سواء
كانت مفروضة بالقانون أو من الله .

هذا الثنائي ، إياه، يلتزم إزاء سلطة خارجية، كالأطفال أمام والد
قوي كل القوة . وعمر الزوجين الوجداني يجعلهما عاجزين عن توظيف
شخصيتهما في نجاحهما الداخلي الخاص ، وفي الثنائي . إنهما ينظران إلى

الثنائي على أنه شيء خارجي بالنسبة إليهما . وحتى ليس لديهما فكرة أن بإمكانهما أن يوظفنا نفسيهما في الثنائي : كما يفعل ذلك في مهنته صانع ممتاز . أليس الثنائي : والحال هذه ، هو « المهنة » الحياتية التي بتم تعلمها وصلاحها بالتدريج ؟

٢ - إضفاء القداسة الحقيقي

أي إضفاء للقداسة غير ممكن ، حتى داخل دين من الأديان ، إذا لم يستند إلى القدرة الداخلية على ارتباط الإنسان ارتباطاً كلياً بذاته وبالآخرين .

والثنائي لا يمكن أن يتحقق إلا بمقدار ما يحقق كل عنصر من عنصريه انسجامه الخاص . فالتزوع نحو هذه الانسجامية الذاتية . إنما هو السير نحو تحقيق تدريجي للثنائي الذي التزما به . وبعبارة أخرى ، نقول : بكل بساطة ، إن على العنصرين أن يصبحا راشدين على المستوى الوجداني .

فتكوين الثنائي إنما هو إعداد الديمومة ، إنما هو عقد رهان ضد الزمن بل ومع الزمن أيضاً ، إذ أن هذا التكوين هو افتراض أن العلاقة مع الآخر علاقة طويلة ، وأنه التسليم كذلك بأن الثنائي ينبغي أن يكون في امتداد دائم ، تحت طائلة الوقوع في الركود ، والتصلب ، والموت الوجداني .

ها هي ذي جان ، ٢٦ سنة ، وها هو ذا بول ، ٢٨ سنة : مثال في عداد مئة ألف مثال . عمر جان الوجداني - إذا صح لي أن أقول ذلك - خمسة عشر عاماً . وقد ظلت موقوفة في عقدة أوديب . وليس بول أكثر

نضجاً منها . إنه « ناجح » في الحياة ، ولكنه يجهل ما هي القوة الداخلية . وهو ، في نهاية المطاف ، كل ما نشاء بالنسبة إلى جان : أخوها الأكبر ، وأبوها . إنها بنت صغيرة شديدة الإعجاب لا به ، بل شديدة الإعجاب أمام « نجاحه » ، وأسلوبه في تدبر أمره ، وأفكاره ونظرياته . فهو يمثل دعامتها الوجدانية (وبالعكس) ، إذ أنها تنظر إليه على أنه نصف إله . وأنتم تعتقدون تماماً أن من المحتمل أن يستمر الثنائي — أو بالحرى هذ الاجتماع بين شخصين — زمناً طويلاً في متابعة هذه اللعبة المزدوجة : لعبة التواطؤ ، وأن يجدا نفسيهما ، في الخمسين ، بال عمر الوجداني ذاته ، عمريهما يوم الزواج .

وذلك ما يسوقنا إلى السؤال المثير للحصر ، الذي طرحه علي عدد من المراهقات :

— متى أكون جاهزة للزواج ؟

ليس ثمة من جواب غير الجواب الداخلي للأسئلة التالية :

— هل أنا قادرة على الاتحاد وجدانياً وانفعالياً ؟ ماهو عمري الوجداني ؟ ماذا يمثل الآخر بالنسبة لي ؟ ما هي ضروب حصري ومخاوفي ؟ هل أنا على صلة مع ذاتي ، أو ، هل أنا على الأقل نزاعة نحو هذا الهدف ؟

سمعت في أحد الأيام « ناصحاً » يقول بخشونة إلى إحدى النساء :
— كيف ! أبعد اثني عشر عاماً من الزواج ، لا يزال لديك خوف من زوجك الذي يتصف مع ذلك ، بحسب ما تقولين ، أنه طيب وعطوف ؟

ذلك كله صواب لو لم يكن قد رفع صوب السماء ذراعين حائقين .
وكان الأبسط أن يدعو المرأة إلى البحث عن سبب خوفها الذي ربما
لم يكن للزوج ، في ذاته ، أي يد فيه . وكان لدى هذه المرأة خوف من
زوجها لأنها كانت دائماً تخاف الآخرين . وكان الزوج قد اتخذ مكانه في
الدائرة . وكيف يكون بإمكانها أن تتحد به ، وأن تكون عضوية إزاءه ،
ما دام لم يكن بوسعها أن تفعل ذلك إزاء الحياة ؟ . . . وذهبت هذه
المرأة وهي تشعر أنها غير جديرة ، وأنها آثمة بالإضافة إلى ذلك ! -
لأن لديها خوفاً .

يبقى السؤال المقلق :

... متى أكون مهياً للزواج ؟

لا بد من تعديل السؤال والتساؤل :

- ما الذي يحول بيني وبين أكون مهياً ، جاهزة أمام نفسي ،
وجاهزة إزاء « الزوج » ، في حال حدوث الأمر المحتمل ؟ هل أستسلم
على نحو كاف حتى لا أحس به من خلال تشوّهاتي ؟ هل أنا على درج
الكمال لكي أبحث عن رفيق لا عن عكاز ؟ هل أنوثتي قوة أم هي ضعف ؟
وثمة كثير من الأسئلة التي تدور حول : « هل ذاتي ، هل أنائي ،
مستقلة بما فيه الكفاية ؟ » والمرأة الفتية ستكون مهياً للزواج منذ أن
تباشر سيرها نحو حرمتها الداخلية ، التي ينبغي تمييزها من ضروب
العدوانية وضروب السلوك المناوئ للامتنالية بأي ثمن . وينبغي أن
تنضاف إلى هذه القدرة الداخلية ، إلى هذه القوة ، قوة الأنوثة ، إمكانية

أن تعبّر المرأة عن إبداعيتها في الخارج ، بدلاً من أن تتكل على إبداعية زوجها .

وهكذا يمكن للنساء الفتيات أن يقلن أيضاً :

— إننا ، أنا وهو ، نصل الحياة الزوجية مزوّدين بمجتمع ذي شأن : ماضيها . وقد حدّد هذا الماضي ما نحن عليه — أو ما نبدو أننا عليه — الآن . . . كل منا نزّاع إلى أن يلوم الآخر لما هو عليه حالياً دون أن يتساءل لماذا هو كذلك ، بحيث أن توبيخ الآخر يعني انتقاد ماضيه ، حتى قبل معرفته . إنني لا أعرف من هو الآخر إذا كنت أجهل من أين يأتي ، وماذا كانت طفولته ، وتربيته ، وحياته الداخلية . وعندئذ ، حصراً ، أستطيع أن أقرّبه بعمق ، في كليته .

وتسأل فتيات أخريات :

— هل أنا قادرة على أن أحب ؟

إنه سؤال يكرر السؤال الأول على صورة أخرى . فليس ثمة حب حقيقي للآخر إذا لم يكن الإنسان يحب ذاته. والسؤال : « هل أنا قادرة على الحب ؟ » يعني السؤال التالي : « هل أنا قادرة على أن أكون ، أن أشعر بالاحترام لنفسي وللآخر ؟ »

من هنا منشأ الجواب التالي :

— ما دمت غير قادرة أن أكون على صلة مع نفسي ، فلن أستطيع أن ارتبط بالآخر. وما دمت أعد نفسي أنني شيء ، أعني ما دمت فريسة الشعور العنيف بالدونية ، والإثم ، والخوف ، والحصر ، فلن يكون بوسعي بناء ثنائي جدير بهذا الاسم. أستطيع بالتأكيد أن أباشر البناء، أن أبدأه ، شريطة أن أعمل لتحرري الداخلي الخاص بمساعدة رفيقي .

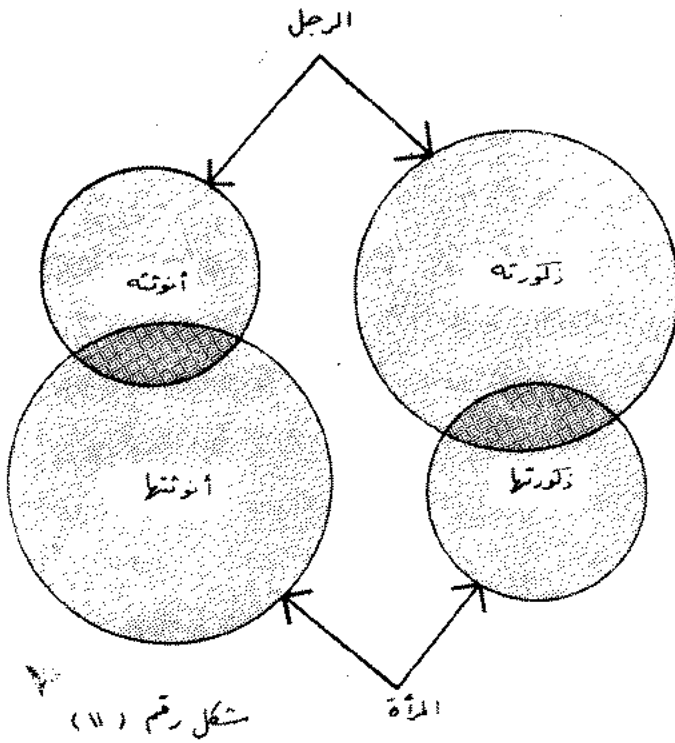
رابعاً - ثنائي من أربع شخصيات

أعود إلى النقطة التي بدأنا منها . ومن حسن الحظ الكبير ، أن الطبيعة منححت كل موجود إنساني كمية معينة من هرمونات الجنس الآخر . لهذا كان لا بد لكل فرد من أن يعرف ذلك من الناحية السيكولوجية ، وأن يقبله ، وأن يحققه ، بدلاً من أن يكتبه .

ونعرف أيضاً أن الأنوثة والذكورة اتجاهاً من الحياة ، أسلوبان في إدارة الطاقة . ولا بد للرجل والمرأة ، لكي يحققا ثنائياً عميقاً ودائماً ، من أن ينميا الأنوثة والذكورة الموجودتين لديهما . وسيكونان عندئذ موجودين كاملين في ذاتيهما . فتمتد أنوثة الرجل في أنوثة المرأة ، وتمتد ذكورة المرأة في ذكورة زوجها .

وهكذا ، فبمقدار ما يتحقق الثنائي ، بمقدار ما يكون متين الروابط ، خلقاً ، مسروراً ، ويتابع طريقه التي يغذيها بالنشاط روح واحدة . فانتم ترون أن الثنائي الحقيقي اتحاد بين خادم الحياة وخادمة الحياة .

أنوثة زوجين وذكورتهم



أنوثة الرجل ، لدى الزوجين المثاليين ، تمتد في أنوثة المرأة . فالقطب المؤنث لدى الزوجين ذو استقرار كبير ويمنحهما ذكاء داخلياً مفتوحاً على العالم . وتتيح هذه الأنوثة المشتركة « حملاً ثنائياً » للسعادة .

كذلك تمتد ذكورة المرأة بفعل ذكورة الرجل .

والزوجان فاعلان ، خلاقان بسعادة ، قادران على أن يعبرا في الخارج عن الطاقة المجمعة وكأهما موجود واحد .

كثيرات من « المتحزبات لحقوق المرأة » يعقدن بأنهن يصارعن ضد الرجال . والواقع أنهن يناضلن ضد أنوثة مصابة بالعطالة ، لاحظوها لدى عدد من النساء ، بدءاً من أمهاتهن .

إنهن يردن ، وقد أعماهن الماضي وجهلن الأنوثة الحقيقية من جراء ذلك ، أن يسحقن أنوثات زميلاتهن اللواتي يرغبن أن يصبحن ثانية نساء . إنها ضرب من الحرب الأهلية إذا صح القول .

من المحتمل أن يكون ذلك قد قبل ألف مرة ، ولكن « الأنوثة » كما تعهدها بالرعاية كثيرات من النساء ، أصبحت ورق صر ، صناعياً ومصطنعاً ، مخصصاً للاستجابة إلى الطلب العصبي للرجل .

وهذا يعني أن الأنوثة ستكفّ عن أن تكون استطاعة ، لكي تصبح الجزء الأفقر ، والأكثر مرضاً ، من شخصية المرأة .

يُقال : امرأتان أخويتان * . فمؤنث « أخوي » يبقى ، على هذا النحو ، ذا جذر مذكر . وكأننا نقول : هذه الكلمة لا تنطوي على مؤنث . فهل هذا هو التأكيد بأن الأخوة ما وجدت أبداً بين النساء ؟

(*) ترجمنا هنا حرفياً . وكلام المؤلف منسب على اللغة الفرنسية « م » .

الفصل العاشر

ما يحدث لمن في بعض الأحيان...

ماما ، هل الأمر لم ينته ؟
(لويس السابع عشر إلى ماري
انطوانيت)

أولاً - المرأة المسماة باردة جنسياً

١ - البرودة الجنسية حالة نفسية

٢ - مقارنة أولى

اشقاق لغوي : المصطلح الفرنسي المقابل لـ « البرودة الجنسية » هو Frigidité ، أت من الكلمة اللاتينية Frigidus ، ويعني بارد : Froid .
اعتقاد : لا يمكن لامرأة باردة جنسياً أن تكون كذلك إلاّ خلال العلاقات التناسلية . وهذا خطأ فادح .
واقعة : عدد النساء اللواتي يُسمين بارديات جنسياً لا يُحصى .

حقيقة مزيّفة : البرودة الجنسية عجز حديث .

حقيقة : معظم الناس الحديثين يعيشون على وجدانية مريضة.

مناقشة أبدية : هل البرودة الجنسية عيب جسدي أم سيكولوجي ؟
هل العوامل الوجدانية ليست غير نتيجة الشروط العضوية ، أم أن العوامل
السيكولوجية والاجتماعية هي الأولى ؟

يقين : ينعكس الاضطراب الوجداني بصورة آلية على الحياة
الجنسية .

اقتناع غالب : البرودة الجنسية لدى المرأة منوطة بخرق شريكها .
وهذا خطأ في ذاته ، مع أن بوسع خرق الشريك أن يعزّز البرودة الجنسية
لدى المرأة . وهو خطأ لأننا بذلك ننسى العناصر الوجدانية . ويمكن
لامرأة باردة جنسياً ، من الناحية الوجدانية ، أن تشعر بلذة تناسلية .
كذلك بوسع رجل عاجز من الناحية الوجدانية (عاجز عن إبداء الحنان ،
على سبيل المثال) أن يكون فحلاً من الناحية التناسلية .

ب - بعض الآراء التقليدية

يُنظر إلى البرودة الجنسية عادة على أنها صعوبة معقدة ومثيرة .
إنها ، في بعض الأحيان ، نتيجة بعض الآفات التي تتدرّج من الطفيف
إلى الأكثر خطورة : إعياء ، وهموم ، وإرهاك ، وسوداوية ، ووهن
نفسي ، ومرض السكر ، الخ .

ويحدّدها بعضهم أنها بطء الشهوة الجنسية ، أو توقّفها ، أو فقدانها .
وتقبل المرأة ، بصورة نسبية ، أن تكون باردة جنسياً بمقدار ما يكون
متعلّفاً عليها أن تقوم بالتمثيل .

وتؤدي بعض الانحرافات إلى البرودة الجنسية التي تتوقف عندما يمكن للانحراف أن يصل إلى حد الأشباع : تلك هي حال امرأة مازوخية تزول برودتها الجنسية إذا عاملها الشريك بقسوة في الكلام أو في الفعل ، أو حال امرأة فيثيشية * تثير لذتها الجنسية رؤية موضوع الرغبة أو لمسه . كذلك فإن امرأة معينة تزول من الناحية التناسلية برودتها الجنسية إذا استخدمت بعض الأشباح : رجلاً تفكر فيه بصورة خفية ، أو سيناريو تعرضه في ذهنها ، أو بعض الأوضاع المنحرفة التي تتخيلها .

وقد تكون الأسباب العرضية للبرودة الجنسية عديدة . فالحياة الحديثة تحول بين الإنسان وبين الهدوء والاستجمام اللذين لا غنى عنهما لجنسية عميقة وسوية . ولتقتصر على التفكير بالحياة في المجمعات السكنية الكبيرة التي لا تمنع انتقال الصوت والضوضاء في الشارع ، وباللمن الكثيرة التي تسبب التعب الشديد . ولكننا عندئذ نكون إزاء برودة جنسية مزعومة ليس لها صلة باضطراب في الشخصية .

يضاف إلى ذلك أن تسعة أعشار سكان كوكبنا يعانون اضطرابات وجدانية كالاضطرابات التالية :

— انفعالية مفرطة ، أو انفعالية مكفوفة .

(*) ننصح بالعودة إلى كتاب بيير داكو « الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث » ، الذي نقلناه إلى العربية ، ونشرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ص ١٥٥ ، القسم الثاني ، الفيتيشية . ونقول بصورة موجزة : إنها حالة من لا يوقظ الاهتمام الجنسي لديه غير جزء معين من الجسم أو الثياب . والفيتيشية موجودة لدى الرجال أكثر من النساء . فإذا اقترنت رؤية موضوع الرغبة الجنسية أو لمسه مع الفعل التناسلي زالت البرودة الجنسية لدى المرأة كما تزول لدى الرجال « م » .

— صعوبة (أو عدم القدرة) أن يحب الإنسان : أو أن يستسلم للحب .

— إحساسات مشوهة : إحساسات الدونية ، والقصور . والعجز ، والإثمية ، والحصر .

— عواطف تالفة : صعوبة (أو تعذر) إبداء العواطف : أو . على العكس ، مبالغة في العروض العاطفية . وعدوانية ، وعداوة مفتحة ، وتعذر التلقائية ، وعدم القدرة على السعادة أو الاستمتاع بالحياة . وبالاختصار ، جميع هؤلاء الأشخاص يتصفون بعلاقات مزيفة مع ذواتهم ، وبالتالي مع الغير .

ج — برودة جنسية مزدوجة

يعاني العديداً من النساء ضرباً من البرودة الجنسية المهبلية ، في حين أن البَطْرَ حساس بصورة سوية . ويقول فرويد إن الاستمتاع البظري يكون ضرباً من التثبيت الطفالي . وعلى المرأة ، بالنسبة لفرويد أيضاً ، أن يكون بوسعها « الانزلاق » نحو الاستمتاع المهبلي . هذا الانزلاق لا ينجح بصورة تامة أبداً ، وللمرأة ، خلال النضج الجنسي ، عضوان جنسيان اثنان . وتتردد هذه المرأة ، إذا جاز لنا القول ، بين صورتين من صور الاستمتاع ، بالرغم من أن الاستمتاع البظري عادةً لديها على الغالب .

هل المرأة « ذات الاستمتاع البظري » . امرأة سوية ؟ من العسير أن نجيب إجابة قاطعة . إنها امرأة غير تامة بالتأكيد ، ولكن الحالة ليست مرضية بالضرورة .

د - البرودة الجنسية عرض

يعتقد الناس بصورة عامة أن امرأة باردة جنسياً ليست كذلك إلا في السرير . بيد أنه يصبح من الواضح أن هذا الرأي خاطيء ، إذا سلمنا بأن البرودة الجنسية لدى هذه المرأة ناجمة عن اضطراب في الشخصية . وفي هذه الحال . تتصف برودتها الجنسية بأنها عرض ، ولا شيء أكثر .

وعلى هذه المرأة أن تلاحظ جيداً برودتها التناسلية . ولكنها قلتما تتساءل فيما إذا كانت كذلك « باردة » في علاقاتها الاجتماعية . فقد تلاحظ فيها وجلا ، وصلابة . وعدوانية . وضروباً من الحصر . ولكن هل تقول لنفسها إنها في حياتها الجارية مثلما هي في السرير ؟

فاذا كانت برودتها الجنسية «حالة نفسية» ، نقلتها معها حينما حلت وتؤثر برودتها الجنسية الداخلية بالضرورة على النحو الذي نرتب فيه بيتها ، وعلى تربية أطفالها ، وعلى علاقاتها مع جيرانها أو مع بوابة البناية التي تسكن فيها ، ولو كان ذلك لا يلاحظ بصورة مباشرة .

وذلك لا يعني أنها ستكون « باردة » مع الغير ، بالمعنى المألوف للكلمة . ذلك أن وجدانية مضطربة يمكن أن تؤدي إلى حساسية مغالية وإلى التعبير عن الذات تعبيراً خارجياً ، مغالياً ، وكذلك إلى خدر في العواطف .

ويقال على الغالب إن المرأة الباردة جنسياً تكف عن أن تكون كذلك عندما تغير الشريك . وهذا صحيح إذا كانت البرودة الجنسية عرضية : كعدم فهم من الرجل ، وجهل الجنسية الأنثوية ، وقسوة ، ونقص في الحنان ، الخ . وهو خطأ إذا كانت البرودة الجنسية ذات أصل وجداني .

وربما توصلت هذه المرأة إلى اللذة التناسلية « بوساطة » شريك جديد . ولكن ذلك لا يصلح وجدانيتها المضطربة . فاذا كفت عن أن تكون باردة جنسياً في السرير ، ثمة بعض الأعراض الأخرى تظهر : غيرة ، وسلطوية ، ونزعة ملاكية ، واقتضاء علامات الحب الدائمة ، الخ .

والمسألة ليست بسيطة كما نرى . بل ، بمعنى ما ، يتعذر الاحاطة بالصعوبة ، لأن من المتعذر أن نحلل محيط العواطف ، والهيجانات ، والاحساسات ، والأفكار التي تعصف في اللاشعور الإنساني .

٢ - أسباب البرودة الجنسية

آ - هل المرأة ذات استعداد مسبق للبرودة الجنسية ؟

هل ثمة في طبيعة المرأة نزوع نحو كفة وجدانيتها وإيقافها ؟ وهل ثمة لديها استعداد مسبق لرفض أنوثتها ؟

لقد فحصنا من قبل هذه الأسئلة . لذلك نقتصر على تلخيص بعض النقاط المهمة تلخيصاً سريعاً .

المرأة أكثر اتصافاً بالداخلية من الرجل . والرجل انفجاري ، أما المرأة فانبجاسية . والرجل متوجه نحو الخارج ، والمرأة منكبة على «داخلها» . إن وجدانيتها تسيطر عليها سيطرة تامة . وهي تشارك في كل شيء مشاركة كلية . إنها تمنح نفسها برمتها « جسداً وروحاً » ، أو ترفض .

وفيما يخص التناسلية ، يتصف العضو المؤنث بأنه « مفتوح » ، ومحسوس بأنه بارد ، وغير منيع ، وعطوب . ويشعر به بعض النساء

وكانه جرح أو تشوه . وكثير من النساء يخشين الإيلاج ، الذي يحسن به وكأنه « اغتصاب الشخصية » . فليس من المدهش ، للوهلة الأولى ، أن يصطدم هؤلاء النساء بصعوبات هائلة في تفتيح شخصيتهن . والحال أن العلاقات الوجدانية والتناسلية تقتضي انتشار الحرارة الداخلية ، الأمر الذي يتصف بأنه نقيض التوقف الوجداني الذي هو البرودة الجنسية الحقيقية .

ب - العوامل الخارجية :

١ - إنها ، أول الأمر ، الظروف التي جعلت المرأة مشروطة سلبياً ، والأحداث التي كبحتها في التعبير خارجياً عن عواطفها وفاعلياتها . وقد حالت هذه الظروف دون تفجر شخصيتها وانتشارها . وأكرهتها على أن تبقى في ذاتها ، وعلى أن لا تخرج منها . من هنا منشأ الانطواء على الذات ، بكل معنى المصطلح .

وما فتئت هذه الظروف ، مع ذلك ، تضخم نزعة طبيعية لدى المرأة : أن تبقى في داخلها (السيكولوجي) . وإمكانية الإظهار إلى الخارج موقوفة في الوقت نفسه .

وعندما يفكر المرء ، من جهة أخرى ، بأن الرجل الحديث عاجز عن العفوية ، فليس ثمة ما يدهش أن تكون « البرودة الجنسية لدى الزوجين » وضعاً منتشرًا انتشاراً كبيراً .

٢ - المرأة موسومة منذ الأزل بضرب من اللعنة . لقد كانت (وتبقى على الغالب) تلك التي « بفعلها تحدث الكارثة » . وكانت موسومة بالحديد الأحمر بوصفها غير ظاهرة . وكان فرويد يقول :

« لم تساهم الأعضاء التناسلية في جمال جسم الأنثى . . . » ولا تعتقدوا أن عصرنا كنس كل ذلك . فهذه الاحساسات — اللاشعورية — ستبقى ما دام الانسان يشعير بالحصر أمام المرأة (انظر ثانية الفصل الخامس المهم جداً) .

٣ — عديدون هم الأزواج الذين يتهمون نساءهم بالبرودة الجنسية حتى يخفوا عجزهم عن أنفسهم . ولا يعود تاريخ أكباش الفداء إلى أباننا هذه .

٤ — ولا بد من أن نثير المفهوم المرعب : مفهوم « الراجب الزوجي » الذي يلحق بعقد الزواج . ولأن المرأة « تمنح » زوجها اللذة ، فهي تلغي شعورها بالإثم كونها لم تحس بشيء . وهي ، على الغالب عندئذ ، تحت مظاهر نرجسية ونسوية مغالية ، بالرأس بارداً برود قطعة جليد . وبالنفس مصابة بالعطالة كالموت .

٥ — قد يكون مؤلف برمته ضرورياً لوصف التخيلات ، والمخاوف ، والأشباح ، وضروب التقزز ، التي تبرز خلال الفعل الجنسي ، ولوصف كل النرجسيات والمازوخيات والنساء اللواتي يعتقدن أنهن « واسعات جداً » أو « ضيقات جداً » . والعدد الكبير من اللواتي يخفين برودتهن الجنسية عن أزواجهن ، وهن يعددنها « سوية » ، حتى لا يسببن لهم الألم أو النكد .

ج — العلاج

النساء الباردات جنسياً يستشرن . بصورة عامة ، طبيياً عاماً أو طبيياً للأمراض النسائية ، وقلما بلجان إلى علم النفس . فهن إذن يبحثن

عن أخصائي في العضوية الجسدية ، وينسب بنيتهم السيكولوجية .
وذلك ببيّن :

١ - أنهم ينسب (أو يجهلن) أن الجنسية مرتبطة بالوجدانية . وأن
كل اختلال في الحياة الداخلية ينعكس على الحياة المسماة جنسية .

٢ - أنهم ينظرون إلى برودتهم الجنسية على أنها سوية بصورة
نسبية وقليلة الأهمية . وهن يتصرفن كما لو كن يطلبن دواء ضد
أوجاع في المعدة يجهلن أسبابها .

ويبدو أمراً ثابتاً أن الطب التقليدي بنطوي على إمكانية ضئيلة في
شفاء برودة جنسية ، للسبب المتميز الذي مفاده أن « المستويات » ليست
واحدة . فالمرأة تسمع السؤال العرة يُطرح على الغالب : « كيف
تتفاهمين مع زوجك ؟ » . وهذا السؤال ، مهما كان يتصف بالطقسية ،
شديد الخطر بصورة نسبية . وبالرغم من أنه ، في حد ذاته ، يتعلق
بوجدانية المرأة التي تطلب الاستشارة ، فإنه يورطها على الأغلب في درب
خاطيء . والسبب في ذلك أن هذا السؤال يضع الشريك موضع الاهتمام
في ذهن طالبة الاستشارة على الأقل . والحال أن البرودة الجنسية الواقعية
ضرب من « السلوك » : ولو أن بعض الظروف الخارجية تتعدها
بالرعاية .

إنها « حالة نفسية » تلك التي تجعل المرأة باردة في جميع الأفعال
التي تقوم بها في حياتها . وقد يحدث بالتأكيد أن يكون زوجها عاجزاً عن
أن يمدّ لها يد العون . ولكن هذا أمر لم يقم عليه الدليل .

ولهذا السبب . من الخطأ أن نقول إن البرودة الجنسية عصاب

شخصين . هذا القول قول سهل جداً . فلكل شريك من الشريكين ،
مهما كانت التفاعلات داخل الثنائي . وجدانيتها الخاصة ، مريضة كانت
أم سليمة .

ولهذا السبب ، كان سؤال : « كيف تتفاهمين مع زوجك ؟ »
شديد الخطر . فالمرأة تتعرض إلى خطر أن تبحث في الخارج عن سبب
داخلي على نحو صرف .

أما فيما يخص علم النفس ، فإنه يعدّ أن كل سلوك سيكولوجي ،
شعورياً كان أم غير شعوري ، يؤثر على الجسمي بالضرورة . وعلم
النفس ينظر دائماً إلى الفرد في كليته .

فمن المناسب إذن أن نعيد طرح السؤال كما يلي :

— هل البرودة الجنسية في السرير عرض منعزل ، أم أنه حلقة في
سلسلة أعراض أخرى تصدر عن اضطرابات في الشخصية ، عميقة على
وجه التقريب ؟

وبعبارة أخرى : هل البرودة الجنسية في السرير « علامة خطر »
تندّر بأن شيئاً ما « يصرّ » في أعماق اللاشعور ؟

ومن الواضح أنّ ليس بالإمكان كشف الصعوبات التي تشوه
شخصية من الشخصيات بنظرة واحدة . ويعرف عن هذه الصعوبات
شيئاً ما علماء التحليل النفسي الذين يتنقلون ، طيابة حياتهم ، في أعماق
الغير اللاشعورية .

والواقع أن قليلاً من النساء يباشرن تحليلاً نفسياً « بسبب البرودة
الجنسية » . فقد وجدت في عداد النساء اللواتي أجريت لهن تحليلاً

نفسياً ، ثلاث فئات : النساء اللواتي كن يرغبن ، وهن متحمسات للحياة ولسن مريضات على الإطلاق ، في تنمية أناهن إلى الحد الأقصى . والنساء اللواتي كن يعانين صعوبات في التكيف مع أنفسهن ومع الحياة . وأخيراً ، النساء المصابات بـ « عصاب » ، مع كل اضطرابات الشخصية التي يثيرها هذا المصطلح .

بيد أنني ، فيما يخصني ، لم أعرف على الإطلاق امرأة باشرت تحليلاً نفسياً بهدف شفاء برودتها الجنسية ، بوصفها عرضاً رئيساً . ولا بد ، خلال التحليل النفسي ، من مرور زمن طويل قبل أن تقول المرأة ، دون أن يبدو عليها أنها تعلق على ذلك أهمية كبيرة : « إنني ، من جهة أخرى ، باردة جنسياً » .

ماذا نجد لدى المرأة الباردة جنسياً ، بالإضافة إلى برودتها التناسلية ؟ إن أنوثتها لا « تعمل » كما ينبغي أن تعمل . ويلاحظ لديها اضطرابات في الحيض ، وتشنج في المهبل ، ودورات مضطربة . ثم يلاحظ ، في المجال السيكولوجي ، هياج ، وإنهاك . وحصر ، ووساوس ، وقابلية التهيج ، واكتئاب : إما بصورة دائمة ، وإما قبل الطمث .

وهذه الأعراض ليست بالطبع غير بعض الأعراض الشائعة . ولكن ثمة أعراضاً أخرى ، منها ، على سبيل المثال ، تعذر التوقف عن العمل ، والإثمية عندما تندفع المرأة بعضويتها إلى السعادة ، والحاجة إلى العقلنة ، والكره الموجه إلى الرجال : واحتقار النساء ، وضروب الغيرة المرضية ، ونزعة الملكية الخائفة ، والشعور بالدونية ، والإحساس بالضآلة وبأنها غير محبوبة ، والحذر المبالغ فيه ، والمطالبات المفرطة ، وأعراض أخرى كثيرة أيضاً . . .

وتبين هذه الأعراض المختلفة على الأقل ما تعانيه هؤلاء النساء من صعوبة في إقامة علاقة وجدانية مع ذواتهن ومع الغير ، ومع الشريك على وجه الخصوص .

٣ - البرودة الجنسية : حسد ومطالبة

تمة صورة من صور البرودة الجنسية تتصف بعواطف الحسد والمطالبة ازاء الرجل الذي تعده المرأة صاحب امتياز . والأسباب كثيرة : اجتماعية وتربوية ، بالنظر إلى أن الرجل موصوف بأنه « أسمى » ، أو لاشعورية : فالمرأة ترفض أنوثتها .

هذه العاطفة ، عاطفة الحسد والمطالبة ، لاشعورية على الغالب . ولكن المرء يندم من عدد النساء « الأنثويات كثيراً » . اللواتي يرفضن أنوثتهن ، ويحسبن أنهن أدنى . وتافهات ، وسطحيات . وبعبارة أخرى . يعتقدن أن أنوثتهن عيب ، بل خطأ من أخطاء الطبيعة .

وستحاول المرأة . في هذه الحال . أن تمتلك الرجل . بالمعنى الاصطلاحي للكلمة . ووضعهن شبيه على وجه الضبط . خلال الفترة الأوديبية ، بوضع بعض المراهقات اللواتي يحاولن . بمظاهر « نسوية » جداً . أن يوقعن بآبائهن عندما تسنح لهن الفرصة .

ولا بد هؤلاء النساء . من أن يحاولن الخط من قيمة الرجل . كيف ؟ فهن . بوصفهن يعتقدن أنهن عاجزات عن مصارحته صراعاً مكشوفاً ، يبدأن صراعاً مرثياً ، ماكرأ . وستكون المرأة باردة جنسياً بوصفها نائرة ضد الرجل دون أن تعلم . ومضمون ما تبطنه : « استمتع ، ولكن لا تعتمد علي في المشاركة بعملك : عمل الذكر » .

هذه المرأة تخدّر نفسها ، وتجعل نفسها ميتة . إنها تعاني « هجوم »
الذكر بعطلة وجدانية كاملة .

وتبدأ الحلقة المفرغة على هذا النحو :

-- البرودة الجنسية تولد الشعور بالدونية .

-- الذي يولد مطالبات جديدة لإزاء الشريك .

-- تولد رفض الأنوثة رفضاً متزايداً ، وتعزيز البرودة
الجنسية إلى حد الإغلاق الكامل . ونكتشف على هذا النحو .
مجدداً ، عقدة أوديب التي تظهر في حياة المرأة عند كل منعطف .

آ — حالة جميلة

كان هذا الاسم ، غير الموجود في الروزنامة التقليدية ، يمثل تمام
التمثيل هذه المرأة ذات الاثني عشر و ثلاثين ربيعاً ، التي « كانت تصنع
الإغراء » . لقد كانت تتذمر من الشعور بالدونية :

— ما أن يلاحظني الناس حتى تزل قدمي كما لو أنني شيء تافه
ليس له الحق في الوجود

ومن الشعور بالإثم :

— إن منعكسي ، عندما أكون في السيارة ، إزاء أوهي صفرة أو
أوهي صوت لمنبّه سيارة ، هو : « ماذا فعلت ؟ »

ومن الحصر :

— في الصباح ، ما أكاد أفتح عيني حتى تكون الكرة هناك ، في

حلقي ، ومعدي منقبضة . وأعلم أن نهاري سيكون مترعاً بالمخاطر ،
والمخاوف ، وضروب الوجل . أعتقد أنني لست مجبولة لأكون
سعيدة ! فإذا كان لدي متسع من الوقت لأنجز عملي كله ، زال الحصر .
ولكن عليّ أن أبدأ عملي مباشرة دون أن أنتظر ثانية واحدة . فأنا أتمنى
أن أفعل كل شيء في وقت واحد . وأسرع كما لو أن العالم بأسره يجده
في أثري . فأحتاج ، وأتعب ، وأنجز كل شيء نصف إنجاز . ثم إنني
عندما أنهى كل شيء على وجه السرعة ، أجد نفسي مجدداً أمام ساعات
فارغة ، دون أن يكون لدي أي شيء أقوم به . وعندئذ يبدو الحصر
ثانية ، كما لو أن « الناس » كانوا يلوموني على بقائي عاطلة عن العمل .
إنها لم تقل لي إلا بعد ما يقارب العشرين جلسة :

— آه ! « كنت قد نسيت » إنني باردة جنسياً .

ها هي ذي ، على نحو سريع ، حالة جميلة . إن جميلة : المتروجة
من مهندس مرموق : معجبة به بولع . أما معرفة ما إذا كانت تحبه كما
تتحيل . فتلك حكاية أخرى . ففاعلية زوجها وإبداعيته أصبحتا إبداعيتها
الخاصة . إنها تعيش « بالوكالة » . لقد استولى عليها هذا الرجل ، ضرب
من الخالق الذي يفجر الجبال . ويشق الطرقات . ويخضع الطبيعة . إنها
في نهاية المطاف ، شبيهة بهذه الطبيعة :

فهي تشعر بأنها عبدة هذا الزوج الاله . وفي يوم من الأيام : التقيت
بهذا الرجل : إنه موجود جافاً كان يقطع المعمورة والموجودات إلى
أرقام معقدة . وموجود دون وجدانية كان يسوس الناس كما كان
يفعل بآلاته .

فكيف كان بوسع جميلة أن تبيح لنفسها أن تكون عذوية إزاءه ؟
لم يكن بإمكانها أن تكون غير خاضعة له . وخوفاً من أن يحتقرها هذا
الزوج اللوغارتمي ، لم يكن بإمكانها أن تبيح لنفسها أن تكون امرأة
«حيواناً» في السرير . وهي : في قرارة نفسها ، كانت تشعر بأنها موضع
إطراء كبير حين « يتفضل » إلهها فيأخذها ، و « ينازل » فيجعل منها
فريسته . فالمشاركة ، بالنسبة إلى هذه المرأة : كانت أمراً متعذراً : إن
الوجدانية كانت ذات اتجاه وحيد ، دون أدنى صدى من جانب الرجل .
فالبرودة الجنسية لدى جميلة لم تكن سوى ضرب من « تحفظ » وجودها
كله إزاء رجل كان يكبت كل عاطفة .

ب - حالة ماري آن

تتدخل الأم في هذه الحالة التي تبيح أن يفهم المرء عدداً من الحالات
الأخرى . وها هي ذي فقرة مستخلصة من حديث اتصالنا الأول :
- أمي كانت هي التي ربتني . وكان أبي خارج البيت دائماً . إنه ،
بوصفه ممثلاً تجارياً ، لم يكن يظهر إلا لفترات قصيرة . والداي لم يكونا
متفاهمين . وكان أبي يسمع اللوم الذي توجهه له أمي في كل مرة
بسبب روحائه وجيناته ، غير المتوقعة ، بدلاً من أن يكون موضع
ترحاب . إنني أعلم أن ذلك لم يكن يسيراً على أمي ، وكنت أشفق عليها .
وكنت ألوم أبي داخلياً ، وأمي حينذاك فتية جداً ، لإهماله لها وعدم
تغيير مهنته . والحقيقة أن أمي كانت متصلبة ، وقاسية ، وعنيفة ،
وأعلم الآن أن أبي كان يؤثر تمديد أسفاره بدلاً من أن يكون عليه
أن يعاني مزاجها السيء . ولم أعرف والدي في نهاية الأمر . لقد بقي
«فلاناً يبدو ويختفي» . ولم أستطع قط أن أتكلم إليه بصورة صميمية .

وكانت أمي لا تكفّ عن انتقاده ، وما كان بإمكانني إلاّ أن أصغي وأسلم ، لم يكن لي سواها ، أفهم ؟ ولا أعلم فيما إذا كنت أحب والدي ، ولكنني كنت أحتاج إلى بيت ، إلى دفء ، وتركت نفسي أقع على عاتقها . وكانت تقوم بمقامي في كل شيء إلى حد أنها كانت تتزع شيئاً من يديّ قائلة : دعي إذن ، إنك رعناء إلى حد المغالاة .

ها نحن عدنا إلى حالة نعرفها جيداً . الأب ؟ رجل مجهول . الأم ؟ مستتقع ينعلق على الضحية . والوضع الأوديبي فاشل بصورة كلية . والشخصية الوحيدة المهمة هي الأم .

ولهذا السبب تبحث ماري آن ، من خلال زوجها . عن « الأب » الذي لم تعرفه . ولكنها تظل لاشعورياً . في الوقت ذاته : « تحت وصاية » أمها . إنها لا تفلح ، إذا صح القول ، في الخروج من دورها ، دور البنت الصغيرة .

لماذا تتصف ماري آن بأنها باردة جنسياً ؟ لأنها ، أولاً ، تحذر الرجال بوصفها مشروطة بأمها : « إنهم يتركون النساء » . وكيف يمكنها . من جهة أخرى ، أن « تنوب » في رجل تعتقد بصورة قلبية أنه يستطيع في كل لحظة أن يخدعها ، ويهملها . وبنها ؟

وعلى هذا النحو ، فإن ماري آن ، بمظهرها العطوب الحجول ، كانت قد استمرت ، وهي في الثامنة والعشرين من عمرها . متوحدة بأمها . إنها كانت قد أصبحت « مثل » أمها . وهل ينبغي أن نضيف أن هذه الأم كانت ، على وجه الاحتمال الكبير ، باردة على جميع المستويات ؟

برودتان جنسيتان لا تتشابهان مطلقاً . أياً كانت مظاهرها السطحية .
ذلك أن وجدائيتين لا تعملان أبداً على نحو واحد .

والاستاثة الأولى التي تطرح نفسها هي التالية :

١ - هل البرودة الجنسية با تترى هي برودة جنسية مزعومة .
أم نحن بصدد اضطراب وجداني ليست « البرودة الجنسية » غير عرض
من أعراضه ؟

٢ - من أين ينشأ هذا الكف في التعبير عن الذات ؟

٣ - كيف تستشعر هذه المرأة أنوثتها ؟

٤ - ماذا يمثل شريكها بالنسبة إليها ؟

وعلى أي الأحوال . ليس ثمة امرأة باردة جنسياً بالطبيعة : فذلك
إنما هو رأي مسبق ينبغي استبعاده .

وفي يوم من الأيام ، ربما تم اكتشاف دواء يساعد العمل السيكولوجي
باصلاح بعض « الدارات الصغيرة » العصبية . فهذا أمر ممكن ، بل
محتمل .

وبانتظار مثل هذا الدواء . يبقى . على الأغلب . حل اللغز :
لغز ضرب من البرودة الجنسية . عملاً وفقاً على علم نفس الأعماق :
الذي يميز المظهر من الماهية . ذلك أنه لا بد من القول إن لكل برودة
جنسية دلالة . فهي . على الغالب : وسيلة دفاع : وضرب من رفض
الذات والآخر أو الآخر .

وبعبارة أخرى ، إن البرودة الجنسية ، على الغالب ، اضطراب
في التواصل مع الذات والغير .

ثانياً : المرأة الرجسية

من الشائع في ثقافتنا أن الناس يعزّون إلى غالبية النساء ضرباً من
الرجسية المفرطة . ويعتقدون عن طيب خاطر أن الرجسية تشكلت جزءاً
من طبيعتها العميقة . ومن المهم أن نعرف ما إذا كانت هذه الأحكام
المسبقة تطابق واقعاً معيناً .

أما وقد قلنا قولنا هذا ، فإنه يبقى صحيحاً أن عدد النساء الرجسيات
كبير . فما السبب ؟

١ - الرجسية السوية

يمكن صياغة الرجسية كما يلي :

— إنني موجود . وعليّ أن أتكيّف مع ظروف الحياة . وعليّ في
كلّ آن أن أناضل للاحتفاظ بسلامي الداخلي وتوازن شخصيتي . فعليّ
إذن أن أكون ، في نطاق معين ، موضوع اهتماماتي الأول . وعليّ أن
أحمي صحي ، وتوازني ، وسعادتي ، من أجلي ومن أجل الذين أعيلهم .
ويمكن أن أضحى بنفسني إذا كان ذلك ضرورياً ، ولكنني لا أشعر على
الاطلاق بأي حاجة مرضية إلى التضحية . إنني أعاني الألم ككل
موجود حي . وأقبل أن أعاني الألم بقدر ما يكون ذلك أمراً لا مفر منه ،
ولكنني لا أشعر ، على أي حال من الأحوال ، بالحاجة إلى معاناة الألم .
إنني أحب الآخرين ، ويروق لي كذلك أن يحبني الآخرون . ومع هذا
فلا أشعر بأي حصر إذا لم يحبوني .

قوام الترجسية السوية إذن أن يهتم المرء بذاته اهتماماً موضوعياً . لا اهتماماً تحت ضغط الحسرس أو الخوف من الغير .

٢ - الترجسية غير السوية

طرحنا السؤال التالي على نساء ورجال :

- كيف تتصورون امرأة نرجسية ؟

ها هي ذي الاجابات :

- أرى امرأة تقضي الساعات الطوال أمام المرآة . . .

- المرأة النرجسية امرأة مغرمة بذاتها . . .

- إنها امرأة تهتم قبل كل شيء بجمالها الخارجي . . .

- أنتخيل امرأة موقفها ذو قوالب جامدة ، وابتسامتها ذات قوالب

جامدة ، ولا تكاد تتحرك عندما تكون بين الناس في مجتمع . . .

- إنها امرأة شاءت لنفسها أن تكون مغلقة إلى درجة تبدو أنها بلهاء.

يقال في الواقع . بصورة عامة : إن الموجود النرجسي - مثل

مثل نرجس بالطبع - مغرم بالصورة التي تعكسها مرآته . وهذا صحيح

في نهاية المطاف : ذلك أن هذا الموجود لا يميّز بين ما هو عليه وبين

«الانعكاس» الذي يعرضه على الآخرين . ولا يميز نفسه مما يتوهمه عن

نفسه . ويمكن القول إذن إنه يبائع مبالغة شديدة في أهميته ، ويتخيل أن

جميع النظرات تدور حوله .

وتهتم المرأة النرجسية ، قبل كل شيء ، بالآثار الذي تحدثه . فثمة

رأي مسبق (خاطيء) قوامه ، مع ذلك أن لا تُرى غير فتية وجميلة .
 فالمرأة الرجسية تبحث على هذا النحو عن المظهر لا عن الماهية . وبوسعنا
 أن نستخلص من ذلك أن الرجسية وسيلة دفاع . ولهذا السبب ، تظهر
 الرجسية على الغالب في الوقت الذي يظهر الشعور بالدونية والعجز .
 والتخطيطية التالية تبيّن الآلية التي تثير الرجسية لدى إحدى النساء .

تحمي المرأة بما يلي : ضد الإحساسات التالية :

عليّ أن «أبدو» أسمى أو لامبالية	لأنني أشعر بالدونية .
عليّ أن أبعدو مغلفة	لأنني أشعر باللامن .
عليّ أن أفعل بحيث يُعجب الناس بي	لأن الناس يلاحظوني ليوجهوا إلي النقد واللوم والسخرية .
عليّ أن انغلق على ذاتي وأدور حولها	لأنني لا أفصح في أن أنبجس خارج ذاتي
عليّ أن أتخثر	لأنني لا أجروء على التصرف
عليّ أن أتلقى	لأنني لا أستطيع أن أعطي .
ينبغي أن يبرهن الناس عن حبهم لي	لأنني لا أستطيع أن أحب .
عليّ أن أخفي شخصيتي كيلا أخدع أبداً	لأنني أخشى بحصر أن أخدع .
عليّ أن « أظهر »	لأنني لا أفصح في أن « أكون ما أنا عليه » .

عليّ أن لا أكشف عن نفسي،
وعليّ أن أحفظ سري الغامض
لأنني أعاني حصراً من أن
أكشف عن ذاتي ، وأن أظهر
نفسي إلى الخارج .

عليّ أن أبدو إنساناً مهماً
أريد أن أكون مركز العالم
عليّ أن أُلطف الآخرين
عليّ أن أحب ذاتي قبل كل شيء
عليّ أن أضخم ذاتي
لأنني لست شيئاً .
لأنني منبوذة من الجميع .
لأنني محكومة بالإخفاق .
لأنني أكره ذاتي .
لأنني فقدت ذاتي .

عليّ ، بأي ثمن ، أن أكون
مركز العالم
لأنني أتمنى أن أغرق في العدم .

الرجسية هي إذن « حماية » الذات . والمرأة الرجسية تتوهم أنها
كل شيء لكي تتخلص من الاحساس بأنها لا شيء . فهي تريد باستمرار
أن تحدث لدى الغير انطباعاتاً رانعة عنها . ويفهم المرء أنها ، لكي تفعل
ذلك ، ملزمة بأن توقف عفويتها : ذلك أنها إن عبرت عن نفسها
تعرضت إلى خطر أن تحدث « أثراً سيئاً » . فتضع نفسها في ضرب من
الخطر الوجداني .

والمرأة الرجسية ملزمة ، تحت طائلة الحصر ، أن ترعى الأوهام
التي تصنعها عن نفسها . كتب كارن هورنه يقول :

— أساءل على الغالب فيما إذا كانت هذه الأوهام لا تحول بين

الفرد وبين أن يُصاب بالدمار على نحو تام ، وفيما إذا كانت هذه الأوهام ، بفعل هذا ذاته ، لا تنقد حياته بصورة كلية . . .

ويبدو لي ذلك صحيحاً كل الصحة . ولكن المرأة الرجسية ، إذ تتعهد بالرعاية ، على هذا النحو ، وهم أنها ذات شأن ، معرضة للانخفاق باستمرار كل التعرض . ومن المحتمل أن تلاحظ أنها أقل « إثارة للإهتمام » مما تعتقد بكثير . وعندئذ يبدو الحصر . وعلى المرأة الرجسية أن تعزز مجدداً وهم قيمتها الخاصة ، حتى تحتمي منه . وتلك هي الحلقة المفرغة . فاذا تحطمت ، دخلت الهازوخية ، مسبوقه بطولها السوداء .

وتبدو المرأة الرجسية أنها تحب ذاتها . والواقع أنها تكره نفسها . وهذا هو السبب الذي من أجله تهتم ، على وجه الحصر ، بالصورة الخارجية التي تعرضها على الغير . وهذا الجانب المرئي سيكون : سحرها ، وجمالها ، ورنه صوتها ، و « سرها الغامض » . وطريقتها في الملاحظة . وحركاتها المحسوبة مع مغالاة في الحساب . ويمكنها كذلك أن تتبنى سلوكات تجعلها تبدو في جو ملائم : أن تظهر نفسها شهيرة ، وعالمة ، ومغرية ، الخ .

وإذا كانت المرأة الرجسية لا تتمتع بـ « صفات » يمكنها استغلالها على نحو يسير ، فإن عليها أن تضاعف جهودها حتى تلفت الأنظار . ولكن هذه الجهود ذاتها يحتمل أن تهم الأوهام التي ترعاها عن نفسها بعض الهز ، فتولد الحصر على هذا النحو .

وتؤدي المرأة الرجسية دوراً في المجتمع . فهي تبدو لاشخصية ،

ومتجمدة . ابتسامتها ثابتة على الغالب . وعسيرة على الفهم . إنها تبسم لكل فرد على طريقة واحدة . ولكنها لا تبسم لأي شخص في الواقع (ويمكن التساؤل فيما إذا لم تكن الابتسامة الشهيرة في لوحة الجوكوندا = ابتسامة رجسية على نحو صرف) . فكل شيء محسوب : طريقة السير ، والجلوس . والوقوف . والاشارات بطيئة في بعض الأحيان . ومقدورة . وموسومة بهدوء لامبال . إنها لميئة حية ، إذا جاز لنا القول ، هذه المرأة .

إنها في بعض الأحيان شبيهة بالحرباء . وهي إذ تخشى أن يُوجّه إليها الانتقاد ، تفتدي بالشخصية الأكثر أهمية ، التي تشاطرها الرأي . دون أن تكفّ عن الابتسام « بهدوء » .

والمرأة الرجسية — وإن كان الجميع يتهافتون عليها — تهرب من الآخرين ، إذ تحيط نفسها بهذا السر الغامض المزيّف الذي يثير سحرها الزيتف . وهي لا تبدي وجهها الحقيقي أبداً حتى في المجتمع الأكثر اتصافاً بالعنوية .

ثم تهلّ البرهة المأساوية التي يصبح فيها هذا الدور عديم الجدوى . فالمرأة الرجسية التي لم تعد تشعر أنها تلفت الأنظار امرأة شبيهة بالميتة . وتلك هي مرحلة المساحيق المغالية . ورفض الشيخوخة . والزينة الشاذة . ولا يمكن لجميع هذه الأناقات إلا أن تبعث مرارتها مجدداً . وعندئذ : تقع المرأة على الغالب في الهستيريا : مع شبيهاتها اللواتي يتسكن كل يوم في جادات ضروب الغسق المنسي .

(*) لوحة الرسام أنشوين ليونارد دوفنسي «م» .

ثالثاً - المرأة المازوخية

يقال غالباً : المرأة مازوخية بصورة طبيعية . فهل هذا يا تُرى رأي مسبق خاطيء؟ وإذا كانت مازوخية ، فهل هذه الخاصة أساسية أم أنها عرضية؟ وهل طبيعتها ذاتها هي التي تدفعها إلى المازوخية أم المجتمع؟ وهل المرأة ذات استعداد مسبق للمازوخية أكثر من الرجل؟ من العسير مع ذلك تحديد المازوخية . فهذا المصطلح يجرّ وراءه ضروباً عديدة من العفن . ويتخيل المرء بصورة مباشرة ضاربين ومضروبين ، مغتصبين ومغتصبات ، قنلة وقتيلات : مذليين وذليلات . بأقري البطون ومبقورات . وبعبارة أخرى ، ثمة نزعة للاعتقاد بأن كل مازوخية مرضية بوضوح . ولكن ، ألا توجد مازوخية سوية على وجه التقريب؟

يضاف إلى هذا أن الناس لا يميّزون على الغالب بين المازوخية والانحراف التناسلي الذي يقوم على البحث عن الضربات ، والجلد ، والإهانات . والحال أن المازوخية هي قبل كل شيء انحراف وجداني ، وتعبيرها التناسلي المحتمل ليس سوى عرض في عداد أعراض أخرى .

١ - ما يعتقد بعض النساء والرجال عن المازوخية

استطعت أن أطرح السؤال التالي على أشخاص عديدين ، ينتمون إلى شتى الأوساط :

إذا افترضنا أن المازوخية تتألف ، في عداد ما تتألف ، من :

- استصغار الذات استصغاراً عميقاً ، بل احتقار المرء شخصه

الخاص .

- شعور بالدونية بالغ حده .
- حاجة عميقة إلى الإخفاق ، أو إلى حصر الإخفاق ، حصر دائم .
- كشف المرء عن ضعفه ، وشقائه ، وعجزه ، كيما يتملق الآخر .
- القدرة على الانتظار زمناً طويلاً لكي « يوقع بالآخر » عندما تسنح الفرصة .
- القدرة على أن يجعل الآخرين يتصرفون لمصلحته ، ولكن مع قوله لنفسه : إنهم لا يعادلون نصف ما يدعون .
- كونك تنتظر أن يأتي الآخرون للبحث عنك والاعتراف بمزاياك . دون أن تبذل أدنى جهد لتتيم نفسك بصورة موضوعية .
- الحصر أمام أوهى عمل غير ودي يقوم به الغير .
- الحاجة إلى أن لا يقطن إليه أحد ، أو أن لا يكون بسلام إلا إذا شعر بأنه يلفت الأنظار أو بأنه محبوب .
- أن يجد المرء نفسه متزعجاً كل الانزعاج لزاء المديح والنقد على السواء .
- حاجة عميقة إلى التبعية أو الخضوع ، محجوبة في بعض الأحيان تحت مواقف الاستقلال اللفظ .
- كون المرء يحتفظ بكل شيء لذاته ، ويوجهه فاعليته نحو «الداخل» دون أن يفلح في إظهار ذاته إلى الخارج .
- فهل يبدو لكم ، في هذه الشروط ، أن كثيراً من النساء مازوخيات؟

ها هي ذي النقاط المشتركة في الإجابات التي حصنا عليها .

النساء

- ١ - نعم ، نحن مازوخيات . وإذا كان الأمر غير ذلك ، لماذا تركنا أنفسنا نسهق خلال هذا المقدار من القرون ، مع الرضى الخفي بأن نكون تابعات للرجل ، وأن نكون محبوبات منه ؟
- ٢ - كلا . إذا كنا مازوخيات في بعض الأحيان ، فذلك لأن الرجال يتقصون من قدرنا إلى حد أننا ننقص من قدر أنفسنا .
- ٣ - كلا ، ولكننا ملزمات بأن نجعل من أنفسنا « كما لو أننا مازوخيات » . فالرجال يحبوننا تبعاً لهذا الخضوع الظاهر .
- ٤ - كلا . ولكن ساعتنا ستأتي ، وعندئذ . . .
- ٥ - نعم . نحن نتحمل كثيراً من الآلام دون تدمر . وهذا أمر غير سوي .
- ٦ - كلا . فكوننا نعرف أننا عاجزات عن أن نفعل كما يفعل الرجل ، لا يعني أننا مازوخيات .
- ٧ - نعم . تريد النساء أن يكن محبوبات ، وبدون ذلك لسن شيئاً . إنهن يصنعن أي شيء ليجذبن الحب .
- ٨ - نعم . تشعر المرأة سريعاً بأنها مهملة ، شهيد ومنبوذة .
- ٩ - نعم . يتصرف النساء في أغلب الأحيان خفية ، دون أن يظهر عليهن ذلك ، إذ يبسطن ضعفهن . ولا أعلم ما إذا كان ذلك عرضياً ، غير أنه يتيح لها أن تصل إلى غاياتها .

١٠ - نعم . لا تفلح المرأة في أن تظهر ذاتها إلى الخارج ، وهذا أمر طبيعي .

الرجال

١ - كلا ، فأنا لا أعتقد ذلك . ولكننا نحب أن يتظاهرن بذلك .

٢ - نعم . حتى النساء الأكثر تصلباً يذبن كالثلج عندما ينشئ عليهن .

٣ - كلا . لسن مازوخيات أكثر من الرجال . ولكن هؤلاء بحاجة إلى الخضوع النسوي .

٤ - كلا . إنهن أقل مازوخية منا . ومقاومتهن الداخلية هائلة .

٥ - نعم . إنهن يذهبن مدحورات دائماً مهما فعلن ، لأن حاجة طبيعية إلى أن يكن محبوبات قبل كل شيء تسيطر عليهن .

٦ - نعم . إنهن مازوخيات بقدر ما هن ساديات ، وقادرات على تدمير كل شيء .

٧ - كلا . شعورهن بالدونية دمرهن غالباً ، ولكن هذا إنما هو ظاهرة ثقافية . فمفهوم القوة زيف كل شيء .

٨ - كلا . مازوخيتهن ناشئة من اللا أمن الذي فرضناه عليهن ، ومن كون امرأة وحيدة لا تحمّل حمل الجسد . إنهن مازوخيات حتى لا يكن وحيدات ، وحتى يتخلصن من اللا أمن .

٩ - كلا . ففاعليتهن طبيعية أكثر من فاعليتنا .

١٠ - نعم ، ولكن ذلك إنما هو عرضي . إن مجتمعنا يجعل منهن مازوخيات منذ طفولتهن .

٢ - الحاجة إلى الأمن

المرأة ، وفاقاً لرأي مسبق واسع الانتشار ، خاضعة بصورة طبيعية ، إذ لا تجد سعادتها وأمنها إلا بالتبعية . فما هي الحقيقة ؟ أي يمكن القول إن المرأة ، على عكس حاجتها إلى الاستقلال الاجتماعي ، لا تجد هناها الوجداني إلا بطاعتها لرجل تعجب به ؟ أو أيضاً هل كل امرأة سوية نزاعة إلى التبعية ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، هل تتصف نزعتها بأنها طبيعية ، أم أنها نتيجة اشراط اجتماعي ؟

علينا أن نتذكر أن كل موجود إنساني يبحث لاشعورياً ، في كل آن من حياته ، عن سلوك يمنحه أفضل توازن ، وأعظم « سلام » ممكن . و « يستجيب » الشخص ، أمام كل حدث ، محاولاً إيجاد أفضل أمن ممكن ، مع النظر إلى الظروف .

والحال أن الخضوع حل يزود دائماً ببعض من إعادة السلام الداخلي . ويبدو أن من الأيسر على المرء أن يكون عريفاً من أن يكون عقيداً . والواقع أن الخضوع إلى الغير يعني عدم الدخول في منافسة معه ، وعدم التعرض لعدوانيته وغضبه ولومه ونبذه . ويؤمن الخضوع حماية الغير . والطاعة تستبعد الخوف من الإهمال . وهذا السلوك يلغي الحصر بصورة مؤقتة : لأنه يمنح الاحساس للمرء أنه محبوب من الآخر .

والتبعية والخضوع (من حيث هما سلوكان مخصصان لاستبعاد الحصر) خاصتان من خصائص المازوخية . ولكن ، إذا كان صحيحاً أن هذين الموقفين منتشران انتشاراً واسعاً ، فالصحيح أيضاً أننا نجدهما لدى الرجل والمرأة على السواء .

ومن المؤكد : مع ذلك ، أن المرأة تخشى أن تفقد الحب أكثر من الرجل . بل إن فرويد يفترض أن ذلك إنما هو خوفها الجوهري . ويقول رولان كاهن (١) إن الحب ، بالنسبة إلى المرأة ، هو « العمل العظيم في حياتها » . الأمر الذي يتصف بأنه جيد جداً لو أن المرأة ، على وجه السرعة : لا تنحرف صوب الحاجة الأساسية إلى أن تكون ملفت الأنظار .

ولعقدة أوديب كلمة تقولها في هذه الحاجة إلى أن تكون ملفت الأنظار . ولكن المسألة ، هنا أيضاً ، هي مسألة « عَرَّص » يحدث ، دونما ريب ، حياة برمتها ، ولكنها مسألة عرض مع ذلك .

يضاف إلى هذا أن كل امرأة وحيدة أو مهجورة يحسبها الناس ، حتى في مجتمعنا الذي تعادل المرأة نفسها فيه بالرجل ، أنها فقدت « معناها » . وينظر إليها الناس على أنها غير متحققة وعديمة الجدوى . من هنا منشأ رفض الشيخوخة ، وسباق عنيف نحو شباب أبدي ، ونحو تجديد الشباب بأي ثمن . وكل ذلك يتضمنه الحصر بأنها ليست ملفت الأنظار .

وحسب المرء أن يلاحظ ، على المستوى الاجتماعي أيضاً ، كثرة من النساء اللواتي أصبحن ، على الرغم من دورهن الفاعل : « ضاربات إلى الوداعة » . فلكني يرقن للرجل الحديث ، ويستجيب لمتطلباته العصابية . كثيرات من النساء « لن » إلى حد محوون في بعض الأحيان كل شخصية مرثية : وثمة جماهير برمتها من النساء قبلن أن يحملن العلامة الخارجية

(١) رئيس الجمعية الفرنسية لعلم النفس التحليلي والمترجم المكيف لكتابات يونغ .

لهذا اللون : وبالتالي الخضوعهن . وأصبح نصول لون شعورهن شعار طاعتهن . فليست مطروحة مسألة أن يحملن شعوراً سوداء يخفن الرجال . وكل لون آخر يتبينه : أشقر أو أبيض : فضي أو ضارب إلى الصهبة . ويطمئن النساء على هذا النحو بأنهن ملفت أنظار الرجل (١) .

إنها المازوخية لا تقول اسمها .

فكل صورة من صور المازوخية تمثل إذن ضرباً من الأمن . وإذا يتحى التردد أو يخضع ، فانه يبحث عن بعض الأمن الداخلي ويحصل عليه . ومن المؤكد أن العداوة الصامتة ، بل الكره ، هما من حصته : ذلك أن أي موجود إنساني لا يقبل الخضوع دون أن يتمرد . ولكن الطاعة في هذه المناسبة إنما هي التي تثير الحصر الأقل . وقد «اختيرت» لهذا الهدف .

وما النتيجة في المستقبل ؟ ليس ثمة من شخص يستطيع أن يقولها . فقد بينت بما فيه الكفاية أن استقلال المرأة ليس على الغالب سوى رماد في العيون . في عينيها بالطبع . والصعوبات بين الجنسين لم تصغر ، بل هي على العكس انشحذت . بيد أن من الطريف جداً ، بعد كل حساب ، أن يلاحظ المرء أن غالبية النساء يجدن ، ما أن يبلغن بعض الاستقلالية ، وسيلة من الوسائل يسجلن بها ، على الرغم من كل شيء ، طاعتهن للرجل .

فهل هذه المازوخية أساسية أم لا ؟ نحن نعلم أن الرغبة الأساسية

(١) انظر فصل « ناصلات اللون » .

للمرأة ، وغير الممكنة التحقيق : هي ، بالنسبة إلى فرويد ، أن تمتلك العضو المذكور .

ولهذا السبب ، إذا اقتضينا أثر فرويد :

— فان المرأة ، التي أصابها الاحباط دون رحمة : تعدت نفسها بصورة لاشعورية أنها « مشوّهة » : جسدياً وسيكولوجياً . وهي لا تفلح في أن تعبث عن ذاتها في الخارج إلا بصعوبة ، وشريطة أن تثير العنف . وقد تشعر ، ولو كانت شهيرة ، أنها غير جديرة بأن « تفكر » (وتلك وظيفة يزعمون أنها وقف على الرجل) . وليس مع ذلك من النادر أن يرى المرء نساء تنزل بهن « عقوبة » صداع شديد على أفكار أو آراء أصدرتها ، كما لو أنهن يخصين أنفسهن في الرأس .

وكل شيء يجري كما لو أن هذه المرأة كانت تستشعر ما يلي :

— من غير المجدي أن أتجه نحو الخارج ، بما أنني مخصية « بعد كل حساب » ، وأن أشق طريقي الخاص ، وأن أتصرف لحسابي الخاص وإذا فعلت ذلك بالرغم من كل شيء ، تعرضت في كل لحظة إلى الشعور باللامن ، أو بالإثم .

٣ — مقاومة الألم

يمكن للمرء أن يتساءل فيما إذا لم تكن مقاومة الألم ، لدى بعض النساء ، متجذرة في الشعور بأنهن « مخصيات » .

— إنني مشوّهة تشويهاً طبعياً . ودرجة التشويه ، أكثر أو أقل ، لا تنطوي على أهمية كبيرة أبداً .

فهذا ، جزئياً ، أساس بعض ضروب « شجاعة » النساء ،

شجاعة يعرفها الأطباء ، والأطباء الجراحون ، أو أطباء الأسنان ؟ وهل هذا سبب من أسباب هدوئهن الرائق ازاء الألم ؟

يضاف إلى هذا ، أوليست المرأة ، وقد تعودت على معاناة الظواهرات الفيزيولوجية : مشروطة بأن تعاني الألم مع الانصاف بعطالة أكبر من عطالة الرجل ؟

كانت إحدى النساء قد قالت لي ، وسبق لكم أن قرأتم ملاحظات من هذا النوع :

— مصيرنا يلزمنا بأن نوجه انتباهنا « إلى » داخلنا ، لأن كل شيء يحدث « في داخلنا » : عاداتنا الشهرية ، وحملنا ، ووضعنا . فإذا استخدمنا العادة السرية ، في مرحلة المراهقة ، فإنه يتعذر علينا أن « نرى » إن كانت أعضاؤنا متأثرة بها . ونخشى في بعض الأحيان ضرباً من الشذوذ يحدث ، هو أيضاً ، داخل جسمنا .

ولنكرر بأن ، لدى المرأة :

من الناحية العضوية
— كل شيء يحدث « فيها »
— وتجرى الفاعلية الفيزيولوجية
في داخل الجسم .
ومن الناحية السيكولوجية
— كل شيء يحدث في « نفسها » .
— وتمتجه الفاعلية الذهنية نحو
داخل الشخصية . إنها فاعلية خفية
وعميقة ، كما لو أنها مغلقة على
ذاتها .

وقالت لي امرأة أخرى :

— نحن ، من الناحية العضوية ، محكوم علينا بالصمت . فلا نتكلم ،
أبدأ على وجه التقريب ، عن ضروب ضيقنا ، وآلامنا ، ومخاوفنا . ذلك
أن الرجال لا يقبلون غير الألم الذي تثيرة الخروج المرئية . فيرق قلبهم
للجرح المكشوف ، والذراع المكسورة ، ولكنهم يرتعشون أمام ما هو
خفي . وهذا هو السبب الذي من أجله يخشون السرطان اللامرئي
أو التدرد الرئوي الذي يخرب من الداخل أكثر مما نخشاهما . وهم
يخشون كذلك آلامنا الداخلية . فماذا بوسعنا أن نقول لهم ؟ علينا أن
نطمئنهم ، في حين أننا ، نحن أنفسنا ، غير متأكدين . ماذا نستطيع أن
«نبيّن» لهم ما بوسعهم « رؤيته » وما بوسعهم تهادئتهم ؟ وعندئذ ، نقول
لأنفسنا : « ذلك إنما هو لا شيء ، وسيمر . . . » ثم نسكت .

وقالت لي امرأة أخرى :

— نحن نعاني الألم من « داخل أبدي » . . .

وقالت أخرى أيضاً :

— ثمانية أيام في الشهر ، أنطوي على « داخلي » الذي يؤلمي . فأصبح
كحيوان ينسحب إلى جحره . ولا أقول شيئاً لزوجي حتى لا أقلقه .
ويؤكد بعض المحللين النفسيين ، هيلين دوتش على سبيل المثال .
أن المازوخية تمثل الأساس الذهني للمرأة . فهي تقول :

— نجد المرأة ضرباً من الأشباع المازوخي في الصعوبات والهجوم
التي تنطوي عليها الأمومة .

— الولادة لذة مازوخية بالنسبة إليها .

— تتمنى المرأة بصورة لاشعورية ، أو عبر شتى الأشباح . أن تكون ذليلة وأن تُعامل بالعنف .

— قدر النساء أن يكن بارديات جنسياً إلا إذا شعرن (أو تخيلن) ، خلال الفعل التناسلي ، آههن معتصبات ، ومجروحات ، وذليلات . وينبغي ، على أي حال ، أن نأخذ مصطلح « المازوخية » هنا بمعناه الواسع . ويمكن القول ، مع ذلك ، إذا عكسنا المسألة : إن الاندفاع الأساسي السادي للرجل هو « الأخذ » ، والسرقة ، والاختراق ، والثقب ، والنتح ، والاعتصاب ، وإن قوانينه الأخلاقية وحدها هي التي تحول بينه وبين أن يستسلم لنزعاته .

ويمكن القول كذلك ، إذا نحن استخلصنا النتائج المترتبة على ما نقوله هيلين دوتش ، إن النزعة الأساسية لدى المرأة هي أن تعيش خاضعة وتابعة ، وإن حاجتها إلى الذكورة هي ضرب من الدفاع ضد هذه المازوخية التي تحس بها تجوس في داخلها .

وإذا كان ليس ثمة من شيء يبرهن على أن ذلك صحيح بصورة أساسية ، فليس ثمة من شيء يبرهن على أن ذلك خطأ .

٤ — الانزلاق نحو اللاسوي

إذا افترضنا أن المرأة ذات استعداد مسبق للمازوخية (شأنها شأن الرجل ، ذي الاستعداد المسبق للسادية) ، فإن بوسعها أن تنحرف نحو اللاسوي ، انحرافاً يزداد سهولة بقدر ما لا يستغني مجتمعنا عن دعوتها إليه .

وانطلاقاً من شعور المرأة بأنها أضعف جسدياً ، يمكنها أن تنحرف نحو

- الشعور بالدونية .
- استغلال هذا « الضعف » (أحببني ، فلست غير امرأة ضعيفة) .
- الحاجة إلى أن تكون تابعة ، لكي تمنح نفسها شعوراً بالأمن .
- الاستمتاع بأنها تابعة وخاضعة .
- الحاجة إلى أن تتمسك بشخص ، بفكرة ، بمثال .

وانطلاقاً من قدرتها على السلبية (١) والانتظار ، يمكن أن تفضي

إلى :

- أن تنتظر بعبالة أن يعمل الآخرون اصلحتها .
- أن « تنتظر زمنها » ، مع ما يرافق ذلك من أحلام الانتقام التي لم تتحقق أبداً .
- أن تحلم ، خلال حياة برمتها في بعض الأحيان ، بحبيب مثالي ، من أجله تستشهد وجدانياً .
- والتخطيطية التالية تبين الانزلاق التدريجي من المازوخية والسادية اللطيفتين إلى الصور المرضية .

(١) هذا المصطلح ، الذي يتصف دائماً بأنه يفسر تفسيراً سيئاً ، مشروح في فصل « الأنوثة والذكورة » .

القطب المؤنث والمازوخية

القطب المذكر والسادية

— انتظار يرافقه تجميع الطاقة .
— فاعلية يرافقتها استخدام الطاقة المتجمعة .

— سلبية يرافقتها تناقض في تجميع الطاقة ، ونزعة نحو العطالة .
— فاعليات تتصف بضعف متزايد في الارادة ، أو تتصف بالتشتت .

— ركود .
— اندفاعات .

— عدم الاهتمام بما يفعله الآخرون .

- إفراط في الفعل

— استسلام لما يفعله الآخرون

— واستسلام للهجوم .
— هجوم .

— حاجة إلى الخضوع .
— حاجة إلى الهجوم وسحق الآخر .

— استسلام للنفاذ دون رد .
— نفاذ بعنف (بالأفعال ،

فعل ، نفاذ الحياة ، والكلام الجارح ، وأفعال الآخرين .
والكلام الذي ينتهك حرمة شخصية الغير) .

— اتخاذ مكان « دون »
— اتخاذ مكان « فوق »

— الآخرين .
— الآخرين .

— استسلام للإذلال .
— إذلال .

— البحث عن الذل .
— بحث عن إذلال الآخرين .

— بحث عن الألم .
— حاجة إلى إلام الآخرين .

- طمثنان بفعل الألم . — اطمثنان بفعل لإلام الآخرين .
 — بحث عن النشوة في الألم . — بحث عن النشوة في لإلام الآخرين .
 — بحث عن الإخفاق الكلي . — حاجة إلى إفشال الآخر ،
 والموت الداخلي أو المادي . — حاجة إلى إمامته معنوياً أو مادياً .

ومن الواضح أننا ، في القطبين ، نتجه من الأعلى إلى الأسفل نحو
 اللاسوي أكثر فأكثر .

٥ — دلالة المازوخية

ها هي ذي أم تعلن عن نفسها أنها شهيد ولا يفهمها أولادها . وإذا
 نظرنا إليها عن كثب . أدركنا أنها (تمثل) دور الشهيد . فلماذا؟ وكيف
 يمكن لهذا السلوك أن يجلب لها ضرباً من الأمن؟ فهي لا تتظاهر بالألم،
 بل إن ألمها واقعي . ولكن ماذا يوجد في الخلفية؟ أي هدف كانت
 تنشده « آلتها الناظمة » اللاشعورية عندما تأمرها بهذا السلوك؟ يبدو
 من العبث ، للوهلة الأولى ، أن يُقال إن هذه الأم تجد لذة في أن تتألم .
 ومع ذلك . . . فليست المسألة مسألة لذة مباشرة ، وإنما هي تجد اللذة
 بصورة غير مباشرة . وربما تحاول ، بألمها ، أن تفرض على زوجها
 تبكيه الضمير ، وأن تجعل من نفسها محبوبة منه . أو أن ذلك سيكون
 ضرباً من الابتزاز : « إنك أنت الذي تمنيت موتي » .

كذلك فإن المرأة عندما تضح الأغلال في عنقها أمام رجل ، فلائها
 تجد في هذا بعض الأمن الداخلي ، حتى عبر الألم ، بل عبر حقد خفي .
 وهي « ترغب » بصورة لاشعورية في الخضوع ، لأنها تجد في هذا
 الموقف من الفائدة أكثر مما تجده في الاستقلال .

ويمكن القول ، بمعنى واسع ، إن كل طفل يبدأ بأن يكون مازوخياً على نحو سوي . بقدر ما يقتضي أن يكون ضعفه محمياً . فبين هذا الموقف : وبين أن « يسعى للافادة » فيما بعد من هذا الضعف . إذ يسقط في ضرب من المازوخية المفرطة . ليس ثمة غير خطوة واحدة . والمنعكس الأول للزرد . أمام صدمات الحياة . أن يخفي وجهه بيديه . وأن يحمي نفسه . ثم أن يحاول ملاطمة ما يخيفه . فبين هذا الموقف . وبين أن يتخذ مكاناً « دون » الآخريين الحصول على عطفهم وحمائتهم . لبس ثمة ثانية غير خطوة واحدة .

وفي نهاية المطاف ، أيسر على المرء أن يكون محبوباً من أن يحب . وينتهي المرء ، وحصراً الحاجة إلى أن يكون محبوباً بلا حقه ، إلى أن يفعل كل شيء ليحصل على هذا الحب : مع احتمال أن يتجرد من شخصيته . كذلك فإن كون بعض النساء يتحولن من مازوخيات إلى « ساديات » . ليس من غير دلالة . إنهن يزعجن الرجل ، ويحتقرنه بصورة مكشوفة . ويلذ لهن أن يحططن من شأنه . فهل هدفهن الوحيد أن يسيطرن عليه؟ على العكس . إنهن يطلبن بصورة لاشعورية أن ينتصب الرجل ، وأن يستعيد الأولوية . وأن يفوز ثانية بمظهر الذكر . ويمكن للمرأة على هذا النحو أن تعجب بالرجل ثانية وتخضع له . وليس من النادر أن يرى المرء نساء يتمنين بحرارة (ولكن على نحو خفي) رشقة من الضربات أو هجراً ، كيما يكون بمقدورهن (كما كانت تقول لي إحداهن) « أن تركض خلفه ، وأن تلتذذ بأن تنال الصفح » . أو سيكون ذلك كما تصرح بعض بطلات السينما ، مبتهجات ، بعد رشقة الضربات المذكورة : « إنك ، أنت ، رجل على الأقل ! »

إن مجتمعا يُكره المرأة على أن تكون موضع إعجاب ، بالمعنى
 السيء للكلمة . ولا بعلمتها الناس أن تكون جذابة . بل كيف تغري .
 وعصرنا لم يغيّر سوى المظاهر . والمرأة التي تتصف بأنها أكثر «استقلالا»
 بين النساء تعلم بعمق أنها تجازف بأن تجد نفسها وحيدة ، وأن لا تكون
 موضع إعجاب . وثقافتنا تازم النساء بأن يكن مازوخيات - أو ساديات
 إذا اتخذن الطرف المعاكس . وتلك هي . في اعتقادي ، خلاصة كل
 ما قيل حتى الآن .

رابعاً - السحاقيات

١ - بعض العموميات

قد يعتقد بعضهم أن الموضوع الذي أتناوله هنا لا يهم غير قليل من
 النساء . إنني أعتقد ، على العكس ، أن فهم السحاقيات (أو السبيات*)
 يتيح أفضل مقاربة لسلوك المرأة السوية . ولعلاقات الأمهات بالبنات
 على وجه الخصوص .

عدد السحاقيات « الفاعلات » : بالرغم من أننا نجعله بصورة
 عامة ، مرتفع . فاذا أضفنا إليه عدد النساء ذوات السحاق الكامن ،
 وصلنا إلى أرقام مذهشة .

ولا بد من القول . أولاً ، إن الجنسية المثلية ليست من « الجنسية »

(*) السبيات أو السافيات ، نسبة إلى لسبو ، جزء من مقاطعة سافور . ولسبو جزيرة
 يونانية في بحر إيجه . ويبدو أن هذه الممارسة كانت منتشرة لديهن . انظر « الانصارات
 المذهلة لعلم النفس الحديث » ، بيبير دأكو ، ترجمة وجيه أسعد ، وزارة الثقافة والإرشاد
 القومي : دمشق ، ١٩٨١ ، الفصل العاشر ، القسم الثاني « م » .

في شيء بالمعنى المألوف للمصطلح . وهي . من جهة ثانية : عرض من أعراض أخرى لاضطراب في الشخصية .

ومن الضروري أن يكون الآباء والمراهقات على علم بالآلية العامة الجنسية المثلية . لأنها تنشأ دائماً في مرحلة الطفولة أو مرحلة المراهقة . فثمة عدد من البنات اللاتي يتصفن بوجدانية طافحة . أو بوجدانية مصابة بالإحباط . يتعرضن إلى خطر أن يكن ضحايا سحاقيات خبيرات . وها هي ذي ملاحظة نذكرها عابرين : إن مصطلح « الجنسية المثلية » ينطبق عموماً على الرجال . غير أن الجنسية المثلية تعني . من حيث جأرها في اللغة الفرنسية ، علاقة «جنسية» مع شخص من الجنس نفسه . ويبدو مفيداً أن نكشف عن بعض الأخطاء الشائعة :

ما يعتقد الناس غالباً ما الواقع ؟

— يتصف جميع النساء — يتصف عدد من السحاقيات
السحاقيات على وجه التقريب بأنهن بأنهن ذوات مظهر نسوي بمغلاة ،
ذوات مظهر رجولي . وعلى العكس ، كثير من النساء ،
ذوات المظهر « المذكر » ، لسن
سحاقيات على الإطلاق : لا
بالكمون ، ولا فاعلات . وكثيرات
من السحاقيات يتصفن بالأناقة
التامة في لباسهن . فلا البنطال ،
ولا الشعور القصيرة ، ولا المشية ،
تصنع السحاقة .

(*) المقابل الفرنسي هو Homosexualité . ونعني Homo المثل : فالمصطلح
العربي « الجنسية المثلية » يعبر عن المعنى المقصود بدقة « م » .

– ليس للسحاقيات علاقات تناسلية إلا مع النساء .
لكثيرات من السحاقيات علامات تناسلية مع الرجال أيضاً .

– جميع السحاقيات يعتمن الرجال .
هذا خطأ . فكثيرات من السحاقيات يبحثن عن رفقة الرجال الذين يتماثلن معهم .

– الجنسية المثالية وراثية لا ، إنها عرضية ، وعرض من أعراض عصاب . يضاف إلى هذا أنها ، على الغالب ، صورة من صور الحماية الذاتية التي تشيخ للمرأة أن تحتفظ بتوازن نسبي .

– تحتل الأم مكاناً كبيراً ، إيجابياً أو سلبياً ، في سيكولوجية السحاقيات .
بالتأكيد ، في غالبية الحالات على الأقل .

– يمكن للعلاقات السيئة بين الأم والبنات أن تكون سبباً من أسباب الجنسية المثلية .
نعم .

– النساء مهددات بالجنسية المثلية أكثر من الرجال .
صحيح إلى حد ما .

– كل مراهقة تجتاز مرحلة من الجنسية المثلية .
نعم ، ولكن الأمر ، بصورة عامة ، حالة انفعالية على نحو صرف ، وسلوك لاشعوري . وثمة خطر مع ذلك .

-- بعض السحاقيات شبيهات ، نعم
من الناحية الفيزيولوجية ، بالرجل
على وجه التقريب .

-- الجنسية المثلية ترسم في لنقل ، بالحري ، إن الصلات
الوجدانية بين الفتيات والأبوين أولية
في جميع الأعمار .

-- بعض السحاقيات يقمن بالدور الفاعل أو المنفعل على
السواء .

-- السحاقيات « مريضات » . نعم ، بالمعنى الذي نعد فيه أن
سلوكها علامة من علامات عصاب .
فكل جنسية مثلية ، شعورية أو
لاشعورية ، مصبوغة بالطفالة ،
وباللاأمن الوجداني على وجه
الخصوص .

٢ - الوجدانية المثلية

آ - ثلاثة قوانين أساسية

القانون الأول

الجنسية

الوجدانية

كل علاقة مع أي كان ، كل صورة من صور الجنسية ،
إنسان أم غير إنسان ، قائمة على سوية كانت أم مشوهة ، حالة
إحساسات وعواطف ، شعورية نفسية ، حالة وجدانية . فالجنسية
أو لاشعورية . وكل علاقة والوجدانية شيء واحد وحيد .
إنسانية هي علاقة وجدانية . والتناسلية ، بوصفها فعلاً آلياً ، ثانوية .

إذن :

كل علاقة إنسانية ، أيا كان موضوعها ، علاقة جنسية . وبدلاً من جنسية مثلية ، ينبغي القول : وجدانية مثلية ، أعني وجدانية يوجهها الفرد نحو موجود يتمثل معه بالجنس .

القانون الثاني :

في غالبية العلاقات بين امرأتين (أيا كان العمر وصورة هذه العلاقات ، سوية كانت أم غير سوية) ، نجد بديلاً للعلاقة بين الأم وابنتها .

القانون الثالث :

إذا كانت الجنسية والوجدانية شيء واحد وحيد :

— فمن السوي أن يوجه الفرد جزءاً من وجدانيته نحو شخص من الجنس نفسه (صداقة ، عداوة ، إعجاب ، احتقار) . ومن السوي إذن أن يكون ثمة نصيب من الجنسية المثلية لدى كل كائن (أي وجدانية مثلية) . والوجدانية المثلية الأعمق خاصة بالعلاقات بين الأب والابن ، وبين الأم والبنت .

— ومن غير السوي أن يتوجه الجزء الأكبر من وجدانية الفرد نحو شخص من جنسه نفسه .

ب — المراهقات في غليان

لا تتعرض مراهقة إلى أي خطر من الناحية العملية ، إذا كان قطبا

الأوثمة والأكورة لديها متوازنين . ويبقى ذلك صحيحاً ولو أنها تشعر
بهوى إزاء بنت أخرى تحميها أو تُعجب بها .

ولكن المراهقة ليست . بالنسبة لكثير من الفتيات . راقية . فترعات
«الحنسية المثلية» (الوجدانية المثلية إذن) تعبّر عن نفسها باتجاه فكري
وبدوافع انفعالية على نحو عميق . ولا شعورية على الغالب . ومن المؤكد
أن المخاطر تتصف بمنحنى صاعد . إذا كانت الفتاة تعيش في وسط
عصابي (مدرسي . عائلي . اجتماعي . ديني) .

وعمّ تبحث مراهقة من المراهقات ، إن لم يكن عن مظاهر الاهتمام
والاعتبار والحب ؟ فكل مراهقة خائبة الأمل من الحب ، أو أنها تعتقد
ذلك ، ستبحث عن إرواء حاجتها إلى التلقّي والعطاء في جهة أخرى .
والصدقات . في فترة المراهقة ، التي تتصاعد بسرعة نحو الهوى
الافلاطوني . معروفة . إنها الوجدانية المثلية التي تصرّح عن نفسها : فهي
لا تنطوي على أي خطورة . ولكن من المناسب مراقبتها . ذلك أنه قد
يحدث على الغالب . بوصفه نتيجة أولى ، أن يفضي « اندماج » فتاتين -
إحدهما بالأخرى اندماجاً كبيراً ، الى عدم اهتمامها بالصبيان . وتاريخ
المدارس والمدارس الداخلية طافح بهذه الأهواء . وثمة رسائل متبادلة :
«ملاكي العزيز . ليس بوسعي أن أقضي يوماً دون أن أراك . . . » -
وثمة ضروب من التواطؤ تنعقد : وضروب من الغيرة الشرسة تنفجر ،
وضروب من الاكتئاب العصبي تتمدد .

وعندما يكتشف المربون هذا النوع من الانجذاب الوجداني ، من
الجوهري أن لا يخطر على بالهم « رذيلة » - غير موجودة بالمناسبة . ولكن
ينبغي أن يبحثوا عن الاحباط الأساسي وعن فهمه ، وإلاّ أمكن للمناخ

الوجداني أن يتطور نحو الاتصالات المادية : عادات سرية متبادلة ،
وتماس صميمي يلبث دون مستقبل في بعض الأحيان . ولكنه يستمر
استقراراً دائماً في بعض الأحيان الأخرى أيضاً ، استقراراً يواكبه
الشعور القوي بالإثم . فيبدأ العصاب .

وثمانون بالمئة من المراهقات يعانين حياً لفتيات أخرى أو المدرسات .
فإذا كان البلوغ سويًا ، توجهت الوجدانية بصورة تدريجية نحو الصبيان ،
ونشأت الوجدانية المثلية في درج الأعمال المحفوظة .

ولكن ماذا تصبح عليه هذه الوجدانية المثلية ؟ قد يحدث أن تترك
هذه الوجدانية المثلية في اللاشعور إلى الأبد . ولكن قد يحدث كذلك أن
تبرز في يوم من الأيام على صورة كامنة . وهذه الوجدانية المثلية
« تنسamy » في أغلب الأحيان . وتلك هي : على سبيل المثال . ضروب
الصدافة والإعجاب بين النساء . وتماثل مع نساء نادرات : ممثلات ،
ونساء شهيرات ، ونساء فنانات . ويمكن ، من جهة أخرى . لهذه
الوجدانية المثلية أن تنسamy من خلال المثل : هذه امرأة تضيء المثالية على
« المرأة » وتناضل لهذا الهدف ، وتلك امرأة أخرى لا تعيش إلاّ انتقد
البعايا ، وثمة امرأة ثالثة أيضاً تنذر حياتها لجماعات النساء ، الخ .

٣ - عقدة المسألة

آ - الجنسية حالة وجدانية

ينبغي أن لا نخلط بين الجنسية والتناسلية . ونفهم ذلك على نحو أفضل
انطلاقاً من قطبي الأنوثة والذكورة ، الموجودين لدى كل شخص
إنساني ، رجلاً كان أم امرأة .

القطب المذكور

القطب المؤنث

الجنسية مصنوعة من تراكم والتناسلية عمل خارجي وعمل
الاحساسات والعواطف ، بالمعنى أضفيت عليه الصفة الخارجية .
الأوسع ، والجنسية مشاركة الوجود والتناسلية ضرب من تفريغ
برمته . إنها تجمع الطاقة ، وموقعها الطاقة المتجمعة موقعها في الآن ،
في الديمومة . وهي دائمة ، شأنها وهي مؤقتة .
في ذلك شأن الإحساسات ،
والعواطف ، والحياة الداخلية .
إنها كامنة . والتناسلية حركية .

فالجنسية ، سوية كانت أم غير سوية ، هي إذن حالة وجدانية .
إنها علاقة داخلية بالموجودات والأشياء . وهي حاضرة في كل علاقة
إنسانية . ما دامت كل علاقة مشحونة بالوجدانية ، ولو كانت هذه
العلاقة ضعيفة القيمة وسطحية .

والجنسية حاضرة عندما يتبادل النظرات في الشارع شخصان يجهل
أحدهما الآخر (إنها يشعران بالاحساسات والعواطف) . وهي تتدخل
عندما نلاحظ شجرة ، وشيئاً ، وأثاثاً ، وحيواناً ، وعندما نفكر بالوطن .
ويمكن أن تكون الجنسية إيجابية (انجذاب ، ومحبة ، وإعجاب ، وتأمل ،
واهتمام) ، أو سلبية (نفور ، وعداوة ، واحتمار) .

ومن المؤكد أن التناسلية متعذرة من الناحية العملية دون وجدانية ،
ولو كانت هذه الوجدانية تافهة ، وأولية ، وعنيفة ، وطفالية . إن
ضرباً من التناسلية ، من غير وجدانية كافية ، هو الذي يعطي - من جهة
أخرى - لـ « الجماع العابر » طعم الرماد .

وبوسعنا أن نستخلص من ذلك أن كل علاقة إنسانية بوجود من
الجنس نفسه هي علاقة جنسية مثلية ، ما دامت علاقة وجدانية مثلية .
ويسأل بعضهم أحياناً إن كانت المرأة أكثر جنسية من الرجل .
والواقع أن بإمكان الرجل أن يكون متصفاً بـ « الجنسية » كالمرأة سواء
بسواء . إذا حقق كمال قطبه المؤنث (أو حياته الداخلية) . وإذا
أصبح ثانية قادراً على المشاركة وجدانياً في العالم الذي يحيط به . أما في
الحالة الراهنة للأمور ، فإن المرأة أكثر جنسية لأن :

— المرأة تعيش على إحساساتها وعواطفها أكثر مما يعيش الرجل
عليها بما لا يقاس ؛

— المرأة أكثر « ارتباطاً » بماهية الأشياء والموجودات ؛

— موقع المرأة في الديمومة ، بوصفها لا تغريها العقلنة والتعسف
في العقلنة . والزمن ممنوح لها لتدرك العالم .

— المرأة : باختصار . تشارك في حياة الموجودات والأشياء ، على
نحو طبيعي . بفضل سعة قطبها المؤنث .

وفيما يخص السحاقيات ، فإن مشكلهن ليس ذا علاقة بتناسلتهن ،
وإنما بجنسيتهن أو وجدانيتهن .

ب — سعادة مرة

تزعم غالبية السحاقيات أنهن سعيدات سعادة تامة . ويقلن لأنهن
لا يعانين أي صراع داخلي ولا صعوبة خاصة . وهن في سلام ، ولا
يشعرن بالحاجة إلى استرداد شخصيتهن . إنهن سعيدات لكونهن محجوبات .

وحسب المرء ، في الواقع ، أن ينزع القشرة حتى يبدو الجرح .
وعندئذ يكتشف عصاباً دائماً وشرخاً في الشخصية . وغبظتهن المزعومة
هي إلى هذا الحد من السطحية بحيث توضع موضع التساؤل في كل يوم :
وعندئذ تبلو مشاهد مخيفة من الغيرة واللوم ، ورقابة مستمرة على
الشريكة . . . إلى أن يعود « اليقين » بأنها الوحيدة المحبوبة إلى الظهور
ثانية .

**كل امرأة سحاقية هي امرأة وحيدة . وليست شريكها غير أمن
متذبذب . وهي تعلم ذلك في طيات نفسها . ولكن تسليمها بذلك على
نحو شعوري يعني قبولها أن يُفتح باب السقف الذي يطلّ على كهوف
العصاب .**

ولهذا السبب كانت المحاكمة مع السحاقية عديمة الجدوى إطلاقاً.
فعندما يضع الإنسان على عينيه نظارتين حمراوين ، يرى العالم أحمر .
فماذا يستطيع العقل أمام ذلك ، ما دام يرى العالم أحمر بصورة واقعية ؟
ويضهم المرء منذئذ أن من النادر أن تطلب العلاج إحدى السحاقيات .

فاما أن يعتقد الكثيرات أن حالتهم فيزيولوجية : وبالتالي فهي
طبيعية . وذلك خطأ بنسبة تسعين بالمئة . فعالية السحاقيات لا يتصفن
بأي اضطراب هرموني ، في حين أن عدداً من النساء ، اللاتي يعانين من
هذا الاضطرابات الهرمونية : لا يظهر عليهن أي عرض من أعراض
الجنسية المثلية غير السوية . وإما أن يقلن إن هذا العرض يشكّل جزءاً من
شخصيتهن الباطنية .

والحقيقة أن السحاقيات لا يجرؤون على أن يضعن موضع التساؤل جنسيتين المثلية التي تتيح لمن الاحتفاظ ببعض التوازن ، مهما كان هذا التوازن عابراً .

وعندما تبدأ إحدى السحاقيات عملاً سيكولوجياً عميقاً ، فإن ذلك ، على الغالب ، بهدف استبعاد أعراض أخرى أشد ألماً : الحصر ، والشعور بالدونية أو بالإثم ، وناحراً ما يكون ذلك بهدف استئصال الجنسية المثلية لديها . ولهذا السبب أيضاً ، كانت الملاحظات السريرية فيما يخص السحاقيات قليلة العدد نسبياً .

٢ - النساء ذوات الجنسية المثلية الكامنة

لا يمكننا أن نغالي في التكرار بأن كل موجود إنساني ناشئ من قطب مؤنث وقطب مذكر . فمن السوي إذن أن يتوجه جزء من الوجدانية نحو أشخاص من الجنس نفسه : وإلاّ استبعدنا كل صداقة بين الرجال ، وبين النساء ، وبين الأب وابنه ، وبين الأم وابنتها . فالوجدانية المثلية إذن سوية على نحو دقيق : ما بقيت خاف حدود المبالغة .

ولكن ، أين توجد الحدود التي تفصل السوي من المرضي ؟

ثمّة نساء صبايا يتساءلن بقلق ، لأنهن يحبن إحدى الصديقات « حباً شديداً » . فهل هذا جنسية مثلية ؟ بالتأكيد : ما دامت الوجدانية المثلية موجودة. ولكن إلى أي حد ؟ ثمّة مع ذلك حظ كبير في أن يكون بينهما ، بصورة لاشعورية ، علاقة أم بابنتها ، علاقة حامية بحماية ، علاقة ناصحة بطالبة نصح : علاقة مؤتمنة على الأسرار بمخدولة ، علاقة حفيّة

بمحتفى بها ، علاقة معجب بها بمعجبة . فأين السوي ، وأين تبدأ الطفالة
الوجدانية ؟

ولا علاقة للجنسية المثلية الكامنة بالتناسلي في غالبية الحالات . إنها
علامة عدم نضج داخلي .

وثمة خوف غامض ، ناجم عن نقص في النضج ، يحول بين عدد
من النساء وبين أن يتوجهن صوب الرجل . وفي هذه الحالة ، نجد ، على
الغالب ، جنسية مثلية كامنة ، ولكن غالبية هؤلاء النساء لا يشعرن أبداً
بالحاجة إلى صلات مادية مع صديقاتهن . فهن يعقدن مع الصديقة ضرباً
من علاقة البنت بأماها الحامية .

ويستشعر كثير من النساء ، بصورة غامضة ، من خلال تخيلاتهن
أو أحلامهن الليلية ، انجذاباً معيناً نحو النساء ، أو نحو امرأة محددة .
ولكن أخلاقيتهن تتدخل ، والإثمة تبدو . ويخشين أن يكشفن عن « هراهن
المجرم » بجرأة أو بعبارة . ويصعد الحصر شيئاً فشيئاً . وفي هذه اللحظة
على الغالب إنما يبدأ تحليلاً بهدف استئصال هذا الحصر الذي يجهل
جذره العميق .

وتكون غالباً ردة فعل المرأة ذات الجنسية المثلية الكامنة (التي لا تشعر
بأنها كذلك) آراء مسبقة عنيفة ضد الجنسية المثلية . انهن يمتن السحاقيات
بصورة قبلية ، دون أن يكون بوسعهن على الإطلاق أن يشرحن موقفهن .
فيجدن ، على الأكثر ، أفكاراً مبتذلة ، ليست جديدة بذكائهن .
... فماذا يحدث ؟ إن هذه الآراء المسبقة تحميهن . والسحاقيات يقمن ،

بالنسبة إليهن ؛ مقام المرأة ، بكل بساطة . فيتعرفن على أنفسهن في هؤلاء اللسيات . وبما أنهن يكرهن بصورة لاشعورية نزعتهن الخاصة ، فأنهن يحاولن تدمير الأخريات بأراء مسبقة جاهزة ، شأنهن في ذلك شأن موجود إنساني تسوّل له نفسه تحطيم المرايا لأنه يمقت وجهه الخائن .

ثمّة حالة أخرى غالبية : ينفر بعض النساء من أن تمسهن نساء أخريات ، أو يقبلنهن ، أو يجاملنهن ، بدءاً من أمهاتهن أو صديقاتهن . ويتعذر عليهن شرح سبب هذا النفور ولكنهن يرفضن ، رفضاً قاطعاً ، أن يرقدن في سرير واحد مع رفيقة ، سواء كان في الفندق أم في السفر .

ويشعر بعض النساء كذلك بالانزعاج ، وتحمّر وجوههن ، منذ أن ينصب الحديث على اللسيات ، كما لو كن يشعرن بأنهن مقصودات ، وبخشين أن ينكشف القناع عنهن . والحال أن من المحتمل أنهن لم يستشعرن قط بضرب من الانجذاب المغالي صوب امرأة أخرى . فما سبب ردود الفعل هذه ، إن لم يكن لأن مجرد الحديث عن السحاقية ينعش نزعة مكبوتة ، ربما كانت طفيفة مع ذلك ؟

ها هو ذا ما كانت قد قالت لي امرأة خلال التحليل النفسي :

— . . . كان لزوجي صديقة من صديقات الطفولة . وبقي صديقين حميمين . وقد أصبحت صديقة زوجي صديقتي الحميمة . وكنت أحبها إلى درجة أنه لم يكن بإمكانني أن أتصور أنه عمل دون موافقتها والعلاقات بينها وبين زوجي كانت طبيعية ، لا أكثر . إنني أنا ، أنا نعم ولا أدري كيف دفعتهما ، الواحد منهما إلى حضن الآخر . وكنت أقول لنفسي : « أتمنى أن أراهما معاً ، يحضن أحدهما

الآخر » . ولكنني كنت أجهل سبب هذه الرغبة التي كنت أعددتها
شنيعة إنها كانت أقوى من ارادتي وأخلاقي ، وأقوى من الاعتبار
والمحبة التي كنت أكنهما لزوجي كنت أقول لنفسي إنني مسخ ،
ولكنني دفعتهما ، الواحد نحو الآخر آه ! لم أستعجل الأمور . . .
وناورت لكي يصبحا حبيين وعندما تم ذلك « إنني أعاني
خجلاً مرعباً) تظاهرت بالخروج ، ثم عدت دون أن أحدث
ضحكة ، ونظرت إليهما من ثقب القفل

بسيط شرح هذا السلوك . كانت هذه المرأة تشعر بانجذاب
(لاشعوري) قوي نحو صديقتها . بيد أننا إذا فرضنا أنها كانت واعية
لهذه النزعة ، فإنها لم تجرؤ قط على أن تصرّح لصديقتها بأي شيء .
فاتخذت عندئذ واسطة ، على نحو لاشعوري دائماً . وكانت تتخيل
نفسها ، وهي تنظر إلى الإثنين في هذه الحالة ، أنها موجودة مكان
زواجها : إنها « كانت تمتلك » صديقتها سحاقياً ، بالإجابة .

ويرى المرء إلى أي مدى تتعرج الحدود بين السوي ، والسوي « على
وجه التقريب » ، والمرضي .

وفي بعض الأحيان ، يتفجر الكبت ، وتدخل المرأة في العصاب ،
بل في اللذهان . فتلك امرأة تؤكد أن الناس في الشارع ، أو الجيران ،
يتهمونها بأنها امرأة فاسدة ، امرأة « سحاقية » . إنها تحس بأن كل فرد
يعرف نزعاتها ، ويشير إليها بالبنان ، ولو أنها لم تحقق قط ، بصورة
فاعلة ، نزعاتها السحاقية . وفي هذا النوع من الحالات ، تتصف الجنسية
المثلية الكامنة بأنها ضرب من السد الذي يفرّخ الحصر والإثم خلفه .

هل هذه مفارقة ؟ السحاقية الأكثر شيوعاً هي السحاقية المزيفة . إن لها وجدانية طفل ، سواء كان مظهرها الخارجي مظهر نسوي أو مظهر الرجولة . إنها لا تطلب غير شيء واحد : أن تجد « أما » تحبها ، أو تعثر على « بنت » : بوسعها أن تحميها كما تفعل أم . وهي ، على الغالب ، امرأة بنية تعيش في نخوم فاتنة وصيفة . بيد أن من المؤكد أن هذه الفاتنة ، السحاقية الفاعلة ، تلعب لعبة تلائم عصابها الخاص كل الملاعبة .

هذه السطور ، من رواية لكوليت * : كان ينبغي الاستشهاد بها على الأغلب :

إمرأتان ، تحتصن إحداهما الأخرى . تكوّنان لوحة سوداوية ، وتعبّران عن ضعفين . وربما تحتمي إحداهما في أحضان الأخرى لتنام فيها ، ولتبكي ، ولتهرب من الرجل ، الخبيث في أغلب الأحيان ، ولكي تلذوق ما يُرغب أكثر من أي لذة أخرى : سعادة الشعور المرة بأنهما متشابهتان ، تافهتان ومنسيتان .

ونحن ، مجدداً ، نكتشف الثنائي « الأم - البنت » معزولاً كما لو أنه وسط جزيرة من الجزر ، تجمعان شقاءهما ، وتجبران خلفهما الشعور بأنهما مهجورتان ، من العالم ومن الرجال .

آ - حالة آني

آني سحاقية صبيّة وامرأة طفل ، كانت تعيش مع مدبرة مشروع ،

(*) كوليت (غابربل) : رواية فرنسية ، عاشت بين ١٨٧٣ - ١٩٥٤ « م » .

أنيقة جداً ، وسحاقية من النموذج « الفاعل » ، وتتنصف بحنان الأمومة .
وما هي ذي بعض ارتباطات الأفكار للمرأة الصبيّة ، التي سجلناها
إبان جلسة من جلسات التحليل النفسي :

يحتمي : إيماً (صديقتها) احتفت بي . . . لأنني لا شيء بدونها . . .
إنها أمي ، وأختي ، إنها كل شيء . . .

رجل : لا أعرف غير والدي . . . ضرب من البهيمية . . . الرجال
هم من الضخامة والشراسة . . . ومع ذلك ، لا أعلم ، يوماً من الأيام ،
إذا . . . وكانت أمي تريد أن أبقى بقربها . . . إيماً ملجأ . . .

ينام : يموت ، يزول . . . لو كانت إيماً رجلاً ، لكانت كالاله . . .
إنها طيبة ، شهية ، عطوف ، حامية . . . إنني خادمتها ، وأتمنى لو
تحتفظ بي دائماً . . . مرارة وسرور . . .

ويمكن أن نرسم تخطيطية قطبي آني كما يلي :

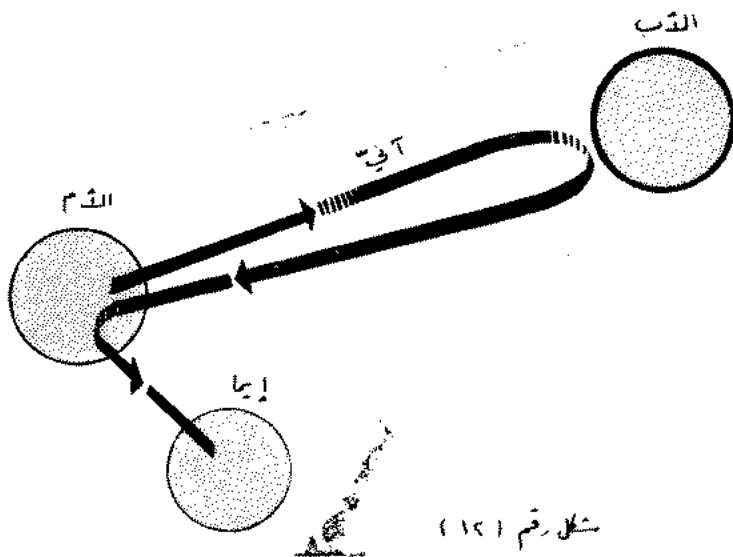
القطب المؤنث	القطب المذكر
— عطالة .	
— ركود .	— عدم . لا وجود لأي
— حاجة إلى الانغمار والموت	— حدث للفاعليات .
وجدانياً ، وإلى أن تكون منسية	— ثمة ، على الأكثر ،
بين « ذراعي أمها » . وحاجة إلى	بعض ضروب تفريغ الطاقة بالغيرة
العودة إلى بطن أمها ، نحو العدم .	الغضبية .

وما تاريخ آني بصورة سريعة؟ كان لا بد لآني ، وقد أوقفت في

مكانها خلال مرحلة عقدة أوديب (١) ، ووقعت في فكي كماشة بين أب فظ وأم كانت تريد « أن تستعيد ابنتها » ، من أن تنزل في عطالة كلية ، خارج الزمان والحياة . ودارت آني ، الواقفة أمام أبيها ، نصف دورة نحو أمها التي بحثت عندها عن الحماية ، ثم صادفت إيماناً ، أماً بديلة .

وتبدو مازوخية عميقة من خلال إجابات آني :

يموت ، يزول ، إنني خادمتها ، شريطة أن تحفظ بي دائماً ،
(أي : شريطة أن لا تنبذني في ظلمات العدم السوداء) .



١ - أنظر فصل « البنت المحصورة » .

ولنشر أيضاً إلى أسلوبها الطفلي في التعبير عن نفسها : « الرجال هم من الضخامة والشراسة . . . » ، وإلى أسننها إزاء الرجل الذي تنتظره على الرغم من كل شيء : ومع ذلك ، لا أعلم ، يوماً من الأيام ، إذا... هل هذه جنسية مثلية ؟ نعم ، بمعنى وجدانية شلية . وكانت تتلخص التناسلية بأمور تافهة : مداعبات وملامسات . وكانت جنسية آني مشبعة بدفء « منزل الأسرة » (إيما = أم !) وبهذه العلاقة المزيّقة ، علاقة بنية بحاميتها .

تحليل آني النفسي ساعدها كثيراً على إزالة هذا الفقدان المرعب ، فقدان الأب ، وساعدها في الوقت نفسه على إزالة حاجتها إلى أن تغرق في انتحار معنوي ، ربما يصبح انتحاراً مادياً في يوم من الأيام .

ب - حالة مارسيل

عمر مارسيل خمسة وثلاثون عاماً . و « تستميل » مارسيل ، بوصفها سحاقية « فاعلة » ، كل فتاة ناعمة وطبيّعة . إنها جميلة ، ومتميِّزة ، وذات أناقاة دقيقة ، وذكية و « مثقفة » .

كان لمارسيل أب فظ وسكّير ، وأم سوقية وغبية . وفي يوم من الأيام ، هربت مارسيل ، ووجدت عملاً ، وتابعت دراستها « كالحَيوان » (كذا) . وكانت قد توصلت إلى وضع ممتاز . ولكن رب عملها أغواها ، وقطع لها ألف وعد ، لكي يهجرها فيما بعد . وكانت مارسيل قد أقسمت لنفسها ضرباً من القسم :

— أقسمت لنفسي أن لا أدع رجلاً « يمتلكني » ، ولا امرأة .

والبقية كانت مؤكدة :

— قلت لنفسي إنني ، من الآن فصاعداً ، أنا التي سأمتلك الآخرين .
لقد تقيأت المجتمع . وكل نجاح في مهنتي سيمنحني الاحساس بأنني
ظفرت « عليهم » : على أرباب العمل ، والزبائن ، والبورجوازيات !
كان بإمكان مارسيل كذلك أن تتزوج رجلاً غنياً وضعيف
الشخصية ، تشد على سبيل الحصر أن « تمتلكه » إلى أن ينتهي من الناحية
الجسدية والمالية . ولكنها سلكت درباً آخر . فقد رفضت أن تتصرف
تصرف المرأة :

— المرأة ، إنما هي شيء يُؤخذ ويُبذ

ومارسيل تحقر جميع النساء .

— إنهن جميعاً متشابهات . وينخدعن بكل كلام يتملقهن . أما أنا ،
فإنني أتباهى بأن أراهم عند قدمي !

وتبحث مارسيل ، في الوقت نفسه ، عن صحبة بعض الرجال ،
الأمر الذي لا يتصف بالمفارقة :

— أفضل الرجال المهذبين . فهم أكثر ذكاء من النساء . ولكن
شريطة أن لا يمتهدون لي لعقد صداقة ، وإلا فإنني أسحقهم .

وعلى هذا النحو إذن كانت مارسيل تريد :

١ — أن تحط من شأن الرجال بأن تبدو أكثر ذكاء منهم ، وأن
تبقى في صحبتهم ما لبثوا « حياديين » أو مختئين .

- ٢ - أن تسحق النساء بالسيطرة عليهن .
- ٣ - أن تكون ضرباً من « الملكة » .
- ٤ - أن تكون محبوبة من حيث هي امرأة متفوقة .
- ٥ - أن تخلص هؤلاء « الصغيرات الفقيرات » (كذا) من مخالب الرجال .
- ٦ - أن تقوم بجيلة خبيثة ضد الأزواج مفادها إثارة زواجهم الفتيات .

وكانت مارسيل قد أصبحت امبراطورة من الورق المقوى ، محاطة بالنساء الأطفال والنرجسيات ، واستحالت إلى بنماليون * امرأة : فقد كانت « تعدّ » النساء الصبايا ، اللاتي كانت تسيطر عليهن ، باعطائهن محاضرات في التماسك والثقافة . وكل شيء كان ممتازاً ما دامت العبدة تلبث خاضعة .

وكان حلم مارسيل السري :

— كنت أريد أن أكون رئيسة دير من المصفقات .

كانت ترغب في أن تكون « أمّاً » ولكن على شرط أن تكون بناتها تحتها ، مقبذات الرجلين واليدين . والحقيقة أن ذلك إنما هو حكاية ضرب من « نظام أمومة » بولغ فيه حتى بلغ اللديكتاتورية السادية .

(*) بنماليون : Pygmalion : نحات قبرصي أسطوري ، نحت تمثال غالته واغرم به ، ثم حصل على أفروديت التي منحها الحياة وتزوجها « م » .

٤ - بعض التلونات حول موضوع واحد

أ - السحاقية الفيزيولوجية

ثمة ضرب (نادر مع ذلك) من السحاقية الفاعلة التي تقترب بصورة طبيعية من الرجل ، بفعل كثير من الخصائص التشريحية والفيزيولوجية . فالجسم ثقيل ، ومتين ، ومتعضل . والتمفصلات كثيفة . ومشيها مشية رجل . وهي تتصف بعلامات خثاوية على نحو واضح : الصوت خشن ، والثديان متقلصان ، بل مفقودان . وغني عن البيان أنه لا بد من أن نميزها من المرأة التي تقلد أساليب الرجل لسبب من الأسباب .

ولكن ماذا تريدون أن تصبح هؤلاء النساء ؟ فهن يحسنن بأنهن رجال أكثر مما هن نساء . ولكنهن رُبين نساء . وسقطت الحقوق المدنية غالباً عنهن في مجتمع له تقاليد القرون الوسطى ، مجتمع لا يمكنه أن يتصور وجود أحد الأشخاص على حدود الجنسين من الناحية التشريحية . وقد يحدث أن يكون بوسع علم الجراحة أن يعيد إليهن طبيعتهن الواقعية فيصبحن « هم » . ولكن من اليسير على المرء أن يتخيل الصعوبات الاجتماعية الجديدة التي سيصطدمن بها ، صعوبات لا يمكن التغلب عليها تقريباً .

ب - التماثل مع الرجل

يقال عن هذه المرأة إنها « صبي فاشل » ، أو إن لها روح رجل في جسم امرأة ، أو إنها أيضاً « نسخة » عن أبيها .

والمسألة هي دائماً حالة سيكولوجية . إن هذه المرأة ، في علاقة

سحاقية ، تقوم بالدور الفاعل (المذكر) . ولكن سلوكها حريّ بأن
يذكر المرء بسلوك أم مثشدة ، ومتعالية - ولا رحمة عندها أمام ضروب
«الضعف» ، تحاول باستمرار « أن تتجاوز نفسها » .

ونقول بصورة عرضية : تساءلت دائماً كيف يمكن للمرء أن
يتجاوز ذاته . وبوسعه في بعض الأحيان أن يبلغ الطرف الأقصى من
ذاته ، مع أنه يبقى في أغلب الأوقات بعيداً عن هذا الحد . ولكنه ما أن
يبلغ الطرف الأقصى حتى يتعذر عليه أن يمضي إلى ما هو أبعد . فالمسألة ،
منجداً ، هي مسألة تعبير جاهر ، ولكن ضرباً من إرادة القوة ، التي
تتمنى أن تسود المعمورة ، يلوح منه .

ولنعد إلى المرأة التي هي موضوع حديثنا . اصطدمت هذه الفتاة ،
خلال مراهقتها ، بأب « عسير البلوغ » (كان ، على سبيل المثال ،
شهيراً ، يجني جميع النجاحات) . وبحثت الفتاة بجميع الوسائل ، وهي
مبهورة بأبيها وشاعرة بالدونية ، عن أن تتوصل إلى هذا النصف إله
الذي يحوم فوقها . واستخدمت كل شيء لتجذب انتباهه ، ولتكون
شبيهة به ، وفعلت كل شيء لتصبح « مثل » أبيها ، بل لتجاوله .

ثمّة ضرب من الوضوح : إنها لم تستطع ، وقد حاولت أن تصبح
كأبيها ، أن تصبح ذاتها . إنها مضت إلى جانب ذاتها ، ودلفت درجاً
لم يكن ممكناً أن يقودها نحو شخصيتها الخاصة . فأصبحت نسخة ،
وتقليداً أعمى ، ومحاكاة .

وينظر الرجال إليها نظرة ترافقها السخرية ، والإعجاب في بعض
الأحيان . وتحسدها النساء أو يمقتنها ، هذا إذا لم يعجبن بها لهذه «الرجولة
التي تقاوم الرجال» .

ويبدو بالفعل أن لها روح رجل في جسم امرأة . والواقع أن وجدانيتها لبثت موقوفة في مرحلة المراهقة . وكيف يبدو القطبان لديها ؟
قطباها في حالة سيئة جداً ، إذ أن الأب يحتل مركز كل منهما .

القطب المذكر

القطب المؤنث

— مرفوض إلى حد ما . — متضخم ومنسوخ عن
— متصلص . تتجمع فيه قطب أبيها .
إحساسات زيتفتها الحاجة إلى أن
تكون « مثل » أبيها . فقدان
الصبر . عدم فهم وتبهيج .

فهل امرأة من هذا النوع تسقط بصورة آلية في السحاق؟ كلا ،
بالتأكيد ، ولكنها ذات استعداد مسبق للسحاق . فتصبح هذه المرأة ،
إذ تتماثل مع أبيها وتكره على تمثيل دورها إلى نهايته ، عدوانية ، ومغالية
في الثقة بذاتها ، ومغالية في حب القتال . وهذا يعني أنها تشعر شعوراً
ضعيفاً بالثقة بذاتها ، وتشعر بالدونية .

ماذا تصبح هذه المرأة ؟ الامكانيات شتى :

- ١ — إنها لا تجد رجلاً « على قدمها » ، وأعني بذلك أن يكون
يوسعها موازنته بصورة ملائمة مع أبيها . فتبقى عزباء وسحاقية بالكمون .
- ٢ — تتزوج رجلاً مرموقاً ومحط إعجاب . . . كأبيها . فهي اذن
تتزوج أباه « بالإناثة » . ولنتحسّر على هذا الزوج إذا « فقد اعتباره » ،
في يوم من الأيام ولسبب من الأسباب ، في عيني زوجته التي تبقى ،
بالطبع ، سحاقية بالكمون .

٣ - تتزوج رجلاً ضعيفاً وخاضعاً . وفي هذه الحال ، تحقق جنسيتها المثلية . فهي تتزوج « رجلاً امرأة » ، اذ أن الأنوثة لا تتميز ، بالنسبة إليها ، من الخضوع . وتصبح ، على حد سواء ، مسيطرة ومتصفة بخنان الأمومة ، ديكتاتورية ورحيماً ، متعرجة باستمرار دون أن تفلح في أن تجده نفسها أبداً .

٤ - توجه وجدانيتها نحو النساء . وبما أنها « قائد » ، فهي تبحث عن الفتيات الخائفات والطيبات اللواتي تسوقهن بالسوط .

إنها إذن سحاقيّة بالكمون ولو تزوجت . فهل تحب الرجال ؟ إنه لأمر متعذر . فهي تجده نفسها باستمرار في تنافس معهم ، وتبحث عن تجاوزهم ، والظفر عليهم .

إنها امرأة عصابية تنتظر ، بصورة خفية وإلى الأبد في بعض الأحيان ، تنتظر الرجل القوي ، على نحو حقيقي ، الذي قد يساعدها على التخلص من روحها الطفلي .

ج - عارض اجتماعي

ها هو ذا ما كانت جوليان تقوله لي :

— هل ترى شعر البدن الذي ابتليت به ؟ وصوتي ، هل تسمعه ؟ ...
أشعر أنني امرأة جداً ، مع ذلك ، ومستعدة كل الاستعداد للمضي نحو الرجال . . . ولكني لم أسمع ، خلال مراهقتي ، سوى مناداتي : « أي ، جول ! كيف حالك ؟ » ، وسخرجات أخرى من النمط نفسه .
ثم أسمع كذلك : « لو تتخيلين أن يرغب فيك صبي ؟ » ولا حظت سريعاً بالفعل ، أن أي صبي لم يكن ينظر إلي أبداً . وعلى هذا النحو إنما بدأ كل

شيء م التفتت بسحافية صبية ، وها أنا ذا ولكنني أمتح
كل شيء مقابل أن يجني رجل ، بدلاً من أن أمثل دور الرجل ، كما
كنت ملزمة على وجه التقریب بذلك

٥ - خاتمة

٦ - خلاصة

لبعض النساء نزعة إلى التماثل مع عالم الرجال . إنهن يضحخن
قطبهن المذكر (الفاعلية ، والحركة ، والسلطان) على حساب قطبهن
المؤنث (انتظار ، وصبر ، وفهم ، واستطاعة داخلية) .

ويبحث هؤلاء النساء ، في الوقت نفسه ، عن الخط من قدر النساء
الأخريات اللواتي يعتبرنهن أدنى منهن . إن هؤلاء النساء سحافيات
بالكمون ، على وجه العموم . فهن يبحثن عن رفقة الرجال ، ولكنهن
يرفضن كل اقتراب تناسلي . والغالب أن تبقى جنسيتهن المثلية لاشعورية .

وفي هذه الحالة كيف تعبر الجنسية المثلية عن نفسها ؟ العلاقات
التناسلية مع الزوج تثير إحساسات النفور أو القرف . فالبرودة الجنسية
مؤكدة . وتشنج المهبل غالب . وتجد حالات اكتئابية ، وضروباً من
عدم التلاؤم الاجتماعي ومن الهوس ، ومخاوف مرضية . وقد تبدو
أزمات اختناق ، وأزمات تقيؤ كذلك : إنهن « يتقبأن » عضو الذكر
بصورة رمزية .

هؤلاء النساء ممزقات بين ذكورة يتمنين امتلاكها ، وبين أنوثة
موجودة على الرغم من كل شيء . وبعبارة أخرى ، إن توازنهن ،
بالنظر لكون جزء الجنسية المثلية في شخصيتهن هو الأقوى ، منوط

بِتحقيق هذه الجنسية المثلية . والحال أن هذه الجنسية المثلية مكبوته في
اللاشعور ، بحيث أن شخصيتهن تتصف بما يشبه الانقسام إلى جزأين ،
الأمر الذي يثير الشعور بالكف ، واللا أمن ، والدونية ، والحصر .

ب — عودة إلى الميناء تنذر بالخطر . . .

المرأة السحاقية الأكثر انتشاراً هي المرأة الرجسية ، امرأة طفل
تركد وجدانيتها في مستوى البنت الصغيرة . وتبحث هذه المرأة السحاقية ،
من خلال شريكها الفاعلة ، عن بديلة للأم . وهاكم كيف تبدو هذه
الحالة بصورة عامة :

الشخصية الرئيسة . تتصرف الأم ، وقد أصيبت بالإحباط والشقاء
لسبب من الأسباب ، كما لو أنها تريد أن توجه ابنتها صوبها ، وأن
تعيدها إليها ، وأن تحتفظ بها إلى الأبد ، وأن تبتلعها وتقتلها وجدانياً .
ثمة سياق شائع . هذه الأم الشقية تحاول ، بصورة لاشعورية ، أن
تحطم منزل ابنتها الزوجي . إن غياب الزوج غياباً متكرراً يسهل على
وجه الاحتمال مهمتها .

أملها . إذا أصبحت البنت شقية و « مهجورة » بدورها ، فإنها
ستكون من الحرمان بحيث تعود إلى أمها ، وتترك نفسها كلياً إلى « حماية »
الأم .

المستتر اللاشعوري . « إنني وحيدة ومهجورة ، شقية ومنعزلة .
وأنت كذلك . عودي إليّ ، واصبحي ثانية الطفل الذي كنت . وسنوجد

تعاستينا . وسنصبح متواطئين اثنتين ضد العالم . في الجزيرة المهجورة ،
جزيرة بيتنا . »

إن الأم، في هذه الحالة، هي التي تتصف ، من الناحية الوجدانية ،
بأنها ذات جنسية مثلية كامنة تجاه ابنتها .

الخطر . إذا اتجهت البنت إلى الوراثة ، سقطت ثانية تحت سيطرة
أمها ، وتتقدم البنت على قمة زلقة ، مغلولة اليدين ، ومحاطة بالكلام
المعسول والرعاية والتغذية ، وتعرض في كل آن إلى أن تقع إما في
الطفالة ، وإما في الجنسية المثلية المرضية . وحسبها أن تصادف سحاوية
فاعلة حتى يقع المقدور .

٦ - كيف الوقاية من الجنسية المثلية المؤنثة ؟

وما دامت الجنسية المثلية ليست سوى عرض ، فإن العصاب المستتر
هو الذي ينبغي أن نمنع حدوثه . ولا بد في هذا المجال من أن نكرر
القول - مع احتمال أن يكون مملاً - . إن الجنسية والوجدانية شيء واحد .
ولهذا السبب يتممخص كل نقص في النضج ، بصورة حتمية ، عن
اضطرابات جنسية ، وذلك أيا كانت تعبيرات التناسلية ، قوية أم ضعيفة .
والحال أن فقدان النضج هذا يجرد إحساساً بالأمن ، وعدم التلاؤم ،
والحصر . إحساساً سيدفع هذا الشخص إلى البحث عن ملجأ في أمن
وهمي ، وفي جهة من الجهات ، ولدى « شخص ما » في الحالة التي هي
موضوع حديثنا . وهذا ما تغلله السحاقيات دائماً .

وليس الجنسية المثلية المؤنثة ضرباً من « الانحراف ضد الطبيعة » .
وصعوبات السحاقيات العميقة ليست حيث يعتقد بعضهم أنها موجودة .

فهي ليست من مجال « الجنسية » بالمعنى المألوف للكلمة : بل هي من مجال الوجدانية .

ومن المحتمل أن تبدو بعض النساء قليلات الاتصاف بالموضوعية جداً عندما ينصب الحديث على الجنسية المثلية المؤنثة . ويرعى بعض النساء ، إزاء السحاقيات ، آراء مسبقة هي من العنف بحيث يتصدىبن لكل محاكمة . وقد قلت سبب ذلك : لأنهن يتعرفن على أنفسهن (بصورة لاشعورية جداً) في هؤلاء السحاقيات ، الأمر الذي يعني أنهن كبتن نزعاتهن السحاقية الخاصة .

وثمة بعض النساء الأخريات اللواتي ، على العكس ، يظهرن أنهن مغاليات في العطف على السحاقيات . ويتعطل الموقف الموضوعي لدى هؤلاء النساء أيضاً ، ويتخذن تسامحن في بعض الأحيان مظهر « التواطؤ » . فهؤلاء النساء يستشعرن في أنفسهن نزعات سحاقية ، وهن يتصفن بأنهن مغاليات في العطف على السحاقيات لأنهن يشعرن بالجزاء في أن يلاحظن أنهن لسن الوحيدات اللواتي يجدن أنفسهن في هذا الوضع .

وها هي ذي نماذج الفتيات الصبايا اللواتي يتصفن بأنهن أكثر تعرضاً :

- ١ - البنات الأطفال ، المتعلقات بأمهاتهن .
- ٢ - البنات الرجسيات .
- ٣ - البنات « ذوات الأنوثة المفرطة » .
- ٤ - الفتيات الصبايا اللواتي ينكرون وضعهن المستقبلي بوصفهن

نساء .

• - الفتيات الصبايا اللاتي يتماثلن مع آبائهن . أو يخشينهم . أو يعقبتهم ، وكذلك الفتيات « الصبيان الخائبون » .

وفي حدود ما يكون الأبوان موضع اتهام ، في حالة الجنسية المثلية المؤنثة - وبالتالي في حالة الاضطرابات الوجدانية . نجد دائماً إحدى الأوضاع التالية :

- ١ - أبوين عصبيين .
- ٢ - أبوين منفصلين بالطلاق .
- ٣ - أبوين يعدان التناسلية قدرة أو محرمة .
- ٤ - أباً فظاً ، وغير فهم ، ولامبالياً ، وكندراً ، ومسيطرأً :
وعسير البلوغ بطريقة أو بأخرى .
- ٥ - أباً يدلل ابنته .
- ٦ - أما نزاعة إلى الملك ، أو ميالة إلى الوداعة ، أو سلطوية ، أو مصابة بالاحباط . أو شقية ، أو مطالبة : أو طفالية ، أو شرسة ، أو جميلة بافراط : أو ذكية بافراط .
وبعبارة أخرى ، إننا لزاء أبوين يمنحان ابنتهما ، في مواجهة الحياة ، إحساساً بالعجز ، والعزلة ، والدونية . ويدفعانها ، في الوقت نفسه ، إلى البحث ، في الخارج ، عن الأمن الوجداني الذي لا تجده لليسما .
ويتصف الآباء ، في أغلب الأحيان أيضاً ، برعونة مذهلة . فما رأيكم بأب يصرح لابنته أو يشعرها أنه كان يؤثر أن يكون له صبي ؟
والواقعة تتكرر ، على الرغم من أن ذلك يبدو من عصر آخر .

وما تقول بأب مرموق يررب ابنته كما يررب صبياً . ويتنفخ فخرأ
لأن ابنته تحاول أن تكون كقرأ له . . . ولكنها تتزلق على هذا النحو
صوب « التماثل مع الرجل » ؟ وماذا تقولون بأب آخر : تُعجب به
ابنته اعجابأ يتجاوز الحمود ، يترك هذا الانبهار الذي يتملقه ينمو ؟

وما رأبكم بهذه الأم التي تحاول ، وقد انتصبت ضد زوجها وصارت
« متواطئة » مع ابنتها ضد الرجال ، أن « تبتلعها ثانية » ، وتحتفظ
بها بقربها ؟ إن سلوك الأمهات اللواتي يرفضن ، بصورة شعورية أو
لاشعورية ، أن يكنن نساء ، ينعكس على تربية بناتهن . فليس بوسعهن ،
مهما قلن أو فعلن ، ومهما كانت إرادتهن الطيبة وذكاؤهن ، إلا أن
ينقلن ما يستشعرنه . فتصاب البنت بالإحباط في فرحها بأنها امرأة .

إن القوانين تدفع السحاقيات إلى تعزيز انعزالهن وعداوتهن ضد
المجتمع المسمى صائب الرأي ، المجتمع الذي يمثل دور الحواريين
الطيبين ، ويحتفظ بطريقة قديمة في النظر إلى الأمور . ذلك أن المحققين
في محكمة التفتيش مستمرون في صحة جيدة ، وإن كانت محكمة
التفتيش ميتة . فكأن الأمر شبيهه باعلان قانون يدين العصاب أو الحصر !

أما فيما يتعلق باضفاء الصفة الأخلاقية ، فليس بوسع هذا الإضفاء
إلا أن بعزز الاحساس بالخطيئة ، وبالإثم الذي يتصف بأنه مرتبط دائماً
بالمرض السيكولوجي .

ويمكن تلخيص كل ما سبق بجملتين اثنتين :

— حتى يكون بوسع فتاة أن تستشعر ما هي الأنوثة الحقيقية وما هي

الاستطاعة التي تمثلها ، ينبغي أن تكبر في مناخ من الأمن ، في أحضان
ثنائي متلاحم وجدانياً . ومتلائم تلاًوماً حسناً مع الوجود .

— لدى كل سحاوية ، سواء كانت بالكمون أم فاعلة أو متسامية ،
نجد صراعات وجدانية عميقة ، ولاشعورية على نحو واسع ، تعود
أصولها إلى مرحلتى الطفولة والمراهقة اللتين تتصفان بأنهما مصدر كل
حياة إنسانية .

مهمة المراهقات المعاصرات مهمة ثقيلة . إن عليهن أن يصبحن ثانية نساء ، مع توفهن عن أن يكنّ أنثى خطيرة تخيف الرجال منذ الأزل .

ولكننا ونحن نراهم ، بهذا العدد الكبير إلى هذا الحد ، لامتمايزات ، ومزقات ، ولامباليات ، ومتسكعات ، نشك بأن ذلك سيكون في المستقبل القريب .

عندما تذوب قيم الأنوثة في قيم الذكورة ، تبدو روعة العالم مجدداً . من ينقذ الإنسانية ، إن لم يكن الإنسانية الداخلية ؟ والحال أن النساء المكتملات ، اللاتي أصبحن نادرات في الحقيقة ، يلبسن المؤتمنات على هذه الإنسانية إياها .

واعتقد ، دون مبالغة ، أن تدخلهن مسألة حياة أو موت . والمرأة لا تتساءل إن كان هذا الأمر ممكناً ، بل تتساءل إن كان مفيداً .

ويتصرف الرجل بعكس تصرف المرأة ، مع احتمال أن يدمر ذاته . دور المرأة المترامي الأطراف أن تمنح ثانية ضرباً من المعنى للأفكار الفارغة من كل جوهر إنساني .

البنات المحصورة

كل فعل لا توجيه العاطفة فعل
ضعيف الأهمية .

لا تتصف أي مراهقة بأنها قليلة الشأن . فهي ترغب في الكمال حتى عندما تكون عاطفتها مقموعة ، ومكبوتة ، وملجومة . وإذا تابعت الفتاة مسارها دون عارض ، حققت إبداعاتها الشخصية ، وتعبيرها عن ذاتها ، مستندة إلى أنوثة متفتحة .

فلماذا إذن ينتهي كثير من النساء إلى أن لا يكنّ العنزة ولا الملفوف ، أو أن يكنّ شبيهات بالرجال ، ومنتضبات بصورة شرسة ضد النساء والرجال ، أو أن يكنّ مستجديات للاهتمام والحب ، بصورة تعيسة؟

بلغت حنة من العمر ثلاثين عاماً . إنها ، هي وزوجها ، يشدان مثلاً واحداً . ولكن حنة تعترف أنها عاجزة عن الحب دون إعجاب . فما أن ينسحب زوجها بسبب مرض ، أو ضعف ، أو جبن ، حتى

تبدو عدوانية ، بل محترقة . إنه حب عجيب . ما سبب هذا العجز عن
الحب دون إعجاب ؟

لكاترين من العمر خمسة وعشرون عاماً. إنها تقتضي أن يكون
زوجها « الأشهر » بين زملائه . وهي تدعّمه ، من جهة أخرى ، بطريقة
فاعلة . ولكن كل إخفاق يلاقيه الزوج يثير عدوانية كاترين . وتنهك
نفسها بالعمل ولو كانت مرهقة . ومن الواضح أن كاترين تنقل إلى
الرجل طموحها الشخصي . فما السبب ؟

دخلت إرما عامها الثامن والعشرين. إنها تحب زوجها ، رجلاً
مرموقاً وعطوفاً . ولكنها تطلب إليه عشر مرات في اليوم : « قل لي إنك
لا زلت متعلقاً بي » . فما السبب ؟

إن هيلين ، التي بلغت الثلاثين ، سكرتيرة مدير فريد و « ساعده
الأيمن » . وهيلين متروجة ، سعيدة حسب زعمها ، ولكنها عاجزة عن أن
تمنع نفسها من معاناة حب افلاطوني لمديرتها . فما السبب ؟

ثمة شخصيتان مهمتان ، في أثناء نمو وجدانية الفتاة ، تبدوان على
طول الطريق : الأم والأب . وفي هذا المجال ترتفع الستارة ، ذلك أن
« عقدة أوديب » ، الشهيرة جداً ، أو الوضع الأوديبى بصورة أكثر
دقة ، موجودة . هذا الوضع الأوديبى ، الذي يتصف بأنه تافه الخلاوة ،
يزيّف تسعين بالمئة من حياة النساء ، و يزيّف زواجهن ومهنتهن ،
وبعبارة أخرى ، يزيّف سلوكهن . والوضع الأوديبى ذو استطاعة
تزداد امتداداً في جميع الاتجاهات بقدر ما يلبث لاشعورياً .

ومن الملاحظ أن بعضهم أخذ الصلات بين الصبي وأمه بالحسبان ،

دائماً على وجه التقريب ، عندما ينصب الحديث على « عقدة أوديب » .
فهل البنت مهملة في هذا المجال أيضاً ؟

عليكم ، دون ريب ، لا أن تقرأوا هذا الفصل ، بل أن تدرسوه ، مع احتمال أن يصل الأمر بكم إلى حد التأمل . فأرجو المعذرة : ذلك أن وضع البنت الأوديبية ليس « عقدة » ، وإنما هو خطر متجدد . وليس مصطلح « وضع » مناسباً مع ذلك ، لأن هذه الكلمة تنطوي على استقرار معين . والحال أن المسألة هي مسألة حركة جبل متصلب ، ومسألة تعقيد يتعلم تصديقه . وقد حاولت أن أحدّد الصعوبات التي تلاقيها المراهقة خلال هذه المرحلة ذاتها من الحياة ، مرحلة يبدو أن الصبي يعيشها ، على الغالب ، وكأنها ضرب من المزاح .

ولنعلم سلفاً :

- أن الوضع الأوديبى ، لدى البنت ، وضع ضبابي عسير .
- أن المراهقة تجد نفسها فيه معوقاً بصورة واضحة ، قياساً على الصبي الذي يتصف وضعه الأوديبى بأنه واضح على وجه العموم .
- أن الوضع الأوديبى لا يجد ، من الناحية العملية ، حلاً في سن الرشد على الاطلاق ، إلا فيما يتعلق بفتيات يتصفن بأنهن متوازات على نحو فريد ، ويتصف الثنائي الذي ينحدرون منه بأنه متحد على نحو يخلو من كل عيب .

أولاً - النقاط الأساسية

١ - دنار الظل وجلباب الظفر

لنستعد الرموز الكبرى ، رموز الأم والأب كما هي مطبوعة في

كل لاشعور إنساني ، ولكن لنستعدها متذكّرين أنها « تمارس تأثيراً » على موجود في حالة التكوّن ، وأن يوسعها أن تستحيل إلى شرك ، نهائي في بعض الأحيان .

ولسنا ، على الإطلاق ، بصدد تخيل حول موضوع معطى ، بل نحن بصدد أوضاع تعيشها جميع الفتيات بصورة لاشعورية . ألا تعتقدون أنها جديرة بأن تُبدل الجهود الضرورية لدراستها ؟

أم المراهقة

رموزها السلبية	رموزها الإيجابية
التهديد الصامت ، الخفي	الفهم
إلغاء الحب	التسامح
الإهمال	الانفتاح القلبي
الانتظار الحذر	الجاهزية
المادة	الصبر
الابتلاع	الملجأ
إضفاء العدم	دوام الحب
الموت	الحياة
	الولادة
	الطفولة
	الماضي

إنكم تلاحظون أن هذه الرموز السلبية ، وغالبية الرموز الإيجابية ، تذكّر بـ :

— الجمود —

— « العودة إلى الوراء » ، والنزول ، والماضي .

رموز الأم « تسحب » إلى الوراء ، ونحو الطفولة ، ونحو عدم ما قبل الولادة . فالعودة نحو الأم تعني القيام بنصف دورة نحو نقطة الانطلاق . ومن الناحية الرمزية (وهذا أمر مهم جداً) : الأم موجودة من الناحية الزمنية « وراء » ، « في الظهر » .

أب المراهقة

رموزه السلبية	رموزه الإيجابية
القوة العمياء	الطاقة الخلاقة
الإفناء اللفظ	القوة الذكية
القانون	الاستطاعة المراقبة
الواجب	الضوء
الشرف	العمل
العمل	الإشعاع الخارجي
النجاح	الفكر
الاله المدمر	الضجبة
	الهادي
	الاله البناء
	المستقبل

ولنلاحظ أن هذه الرموز تذكر :

— الحركة ؛

— الاندفاع إلى الأمام ، والصعود ، والابداعية ،
— المستقبل .

ولا « تسحب » هذه الرموز إذن إلى الوراء : لا نحو الماضي ولا نحو الطفولة . فالأب موجود في الأمام ، ويدفع نحو الأمام ، وإلى ما « هو أبعد » . ولا بد لبلوغه من الصعود ، والتسلق ، والصراع .

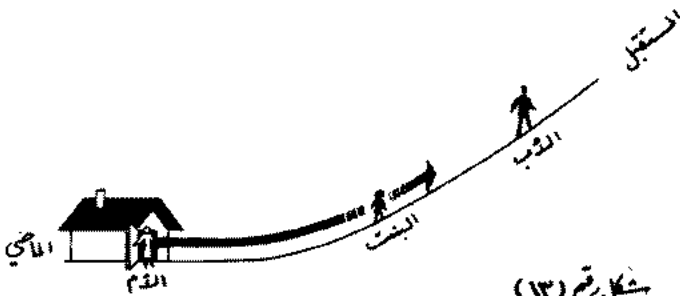
والأب هو الذي ينتصب : فيسدّ الطريق بين الطفولة (الماضي) والمستقبل (سن الرشد) . ولا بد ، من الناحية الرمزية ، من أن يُصرع أو يتم تجاوزه ، مع احتمال تحديه فيما بعد (هذا ما فعله بعض الفرنسيين إزاء دوغول ، وذلك مثال من ألف مثال) .

هذه الرموز المهمة يمكن ترجمتها على نحو آخر :

— الأب = خط الجبهة = المعركة النشيطة وعلى المكشوف .

— الأم = الخنادق الخلفية الموحية بالأمن = التراجع الممكن (شريطة أن تبقى الأم صديقة ابتها) .

يمكن إذن أن نصيغ قانوناً يسطر به نضج الفتاة : تروك المراهقة ، المناضلة في الحياة ، خنادقها الموحية بالأمن (الأم) . وهي تصعد نحو الجبهة (أبيها) . ولكن عليها أن يكون بوسعها الاعتماد على خلفيات متينة (أم متوازنة) .



٢ - وضع البنت الأوديبي

يعكس بعضهم دون قيد ولا شرط ، في أغلب الأحيان ، خصائص الرجل : من أجل تحديد المرأة : الأمر الذي يفضي إلى رؤية للواقع مزينة كل التزييف .

ويفعلون الشيء نفسه فيما يتعلق بـ « عقدة أوديب » ، فيضعون البنت بصورة عامة موضع الصبي ، والأم مكان الأب ، والأب مكان الأم ، ويعطيهم كل هذا مقلوباً مغلوطاً ، كما يلي :

البنت	الصبي
— تريد أن تمتلك أباه منفردة	— يريد أن يمتلك أمه منفرداً
بها ، وأن « يكون ثنائياً » معها .	به ، وأن تكون ثنائياً معه ، وأن
— ترغب في استبعاد أبيه : « تغريبه » .	— ترغب في استبعاد أمها ،
وقد أصبح خصماً له .	وقد أصبحت خصماً لها .
— يصارع أباه ، ويفوز	— تصارع أمها في الأنوثة ،
على هذا النحو برجولته الراشدة .	وتفوز على هذا النحو بأنوثتها
	الراشدة .

وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى الصبي ، فذلك خاطيء على نحو جزئي ، بالنسبة إلى البنت . والواقع :

١ — أن البنت لا يمكنها ، إذا لم تفعل سوى إغواء أبيها ، إلا أن تتخذ مكاناً تحتها ، بموقف خاضع . ولا يمكنها أن تنمي سوى أنوثة باهتة ، وتافهة ، وفاتنة . فتصبح « عاهرة » أبيها ، (ثم عاهرة الرجل) .

٢ - أن ما ترغب فيه البنت هو معرفة أبيها ، والاتصال معه
اتصالاً عميقاً . أليس هذا الأب هو الرجل الأول الراشد الذي تعيش
إلى جانبه ؟ وسنرى أهمية ذلك .

إليكم كيف كانت ردود فعل رجال ونساء مثقفين ، وأطباء ،
وأمهات ، ومراهقات ، إزاء مصطلح « عقدة أوديب » . إنني لم أستطع
أن أطرح السؤال سوى ما يقرب من خمسين مرة . فغير مطروح إذن
أن نعمتم .

- عقدة أوديب ، ولكن هذا ليس غير أمر عابر ! (يا للشيطان ،
إن كان ذلك صحيحاً !)

- إنه قديم الزم ، مهجور ، مفهوم مضى زمنه . (كما لو كنا
نقول : الولادة كلمة مهجورة ، وليس ثمة من يولد في أيامنا هذه) .
- هذه العقدة ذات شأن كبير من أجل بلوغ الصبي نضجه .
(وما على البنت ، إياها ، إلا أن تتدبر أمرها) .

- أفترض أنني مررت في الوضع الأوديب كغيري من الناس .
ثم ها أنا ذا ، لا أحمل منها ما هو سيء ! (ومع ذلك يستمر الوضع
الأوديب لدى هذه المرأة ذات المهنة الحرة ، التي كانت تشرف على
الربح لأقل استياء من زبئنها ، والتي كانت تبحث ، وهي متزوجة ،
عن حب « مثالي » غير موجود ، من خلال كثير من العشاق) .

كلُّ يعلم أن عقدة أوديب سوية . إنها تلقي بأولى ومضاتها خلال
الطفولة ، وتكبر متشظية في أثناء المراهقة . ومن المفروض عندئذ أنها
تختفي إلى الأبد في مسافات سن الرشد . والحال أن العقدة لا تُحلّ حلاً

ممتازاً إلا مرة واحدة من عشرة آلاف ، ونحن في حال من التناؤل الشديد . . .

وإذا بسطنا إلى الحد الأقصى رضع المراهقة ، يمكن أن نصفه على النحو التالي :

١ - البنت منجذبة بأبيها ، شأن امرأة منجذبة نحو رجل . وهو أمر سوي ومنطقي .

٢ - تصبح الأم « منافسة » ، وينبغي استبعادها . والوسائل الرائجة هي : الاحتقار الموجه لأمها ، والتهكم ، وظهورها أروع من أمها ، وأجمل ، وأذكى ، وأكثر فتوة على وجه الخصوص .

ويشعر المرء ، وقد تم تبسيط عقدة أوديب على هذا النحو ، أنه بصدد عقدة طيبة ، ومتموضعة ، ولا يمكنها أن تثير غير اضطراب عابر . والواقع أن هذه المعطيات الأساسية تشعب ، وتكون تشبيكات في منتهى التعقيد .

ذلك أن الوضع الأوديبي ، بالنسبة إلى المراهقة ، هو الأمل في لانهاية فردوسية . فأبوها هو « الرجل الناضج » الأول الذي تجده في طريقها . وهذا الرجل مشحون برمزية قوية . إنه « الإله » العسير المثال ، الذي يمثل الذكاء المبدع ، والفتح ، والنجاح ، والاستطاعة ، والمعرفة . وتشعر البنت بالحاجة إلى الارتباط به ارتباطاً عاطفياً ، وإلى أن تكون محبوبة منه ، كذلك بصورة عاطفية وعلى وجه الحصر .

ولا تطلب البنت غير شيء واحد : أن تتصل بأبيها اتصالاً وجدانياً .
وهنا انما تبدأ الفخاخ تنحفر .

وترغب المراهقة في :

- ١ - أن تكون محبوبة من أبيها .
- ٢ - أن تكون ملفت نظره من بين سائر النساء .
- ٣ - أن تكون « ثنائياً وجدانياً » مع أبيها .
- ٤ - أن تعرف أباهها بعمق ، وأن تعلم من هو ، أيًا كانت المظاهر .

ب - السحر والإغواء

وتتسع اللعبة الانسانية مع مرور الزمن . فطريقة البنت ، الطريقة الوحيدة ، لمعرفة أبيها هي أن تقترب منه . ولا بد لها ، لكي تقترب منه ، أن تروق له . ولكن كيف ؟

١ - تفتن البنت أباهها بفضل صفاتها الخاصة ، ذكائها وعفويتها ورغبتها بالتقدم في الحياة . إنه موقف اغراء سوي .

٢ - أو أنها تغوي ، الأمر الذي يختلف كل الاختلاف . وقد تكون البواعث عديدة . ويمكن للمراهقة ، وقد أحست بأبيها أنه عسير المنال ، وجميل ، وذكي ، وشهير ، أن تعتقد أن « الغواية » هي الوسيلة الوحيدة في أن تلفت إليها الأنظار . ويكمن الخطر في أن هذه الطريقة ناجمة ، ذلك أن من المحتمل أن تستمر الفتاة في اللعبة نفسها إزاء الرجال خلال حياتها كلها . وهي تنمّي على هذا النحو « أنوثة

من النوع الرديء» : مبنية على مظهر خارجي من الجمال ، وعلى نزوات طفالية ، وعلى نرجسية مغالية . فهذا الموقف من الإغراء غير سوي ، على الرغم من أنه غالب جداً .

والحد الفاصل بين « السحر » و « الإغراء » ، حده متعرج مع ذلك . فمن المؤكد أن البنت ، وهي تمارس « الإغواء » : تزيد من قدرتها على الإغراء . والحال أن إغراء الغير أساس كل علاقة إنسانية . أيا كان الجنس والعمر .

هنا إنما يتكشف موقف الأبوين أنه ذو أهمية قصوى .

الأب أولاً : إذا حاولت ابنته أن « تفتنه » : فكيف يكون رد فعله ! هل سيكون مفتوناً بأن يرى فتاته تصرف كنوزاً من البراعة لكي تروق له ؟ هل سيكون مسحوراً بهذا الإعجاب الذي يبدو أنها تعانيه بالنسبة إليه ؟ ألا يستشعر ضرباً من الانجذاب الجنسي (المكبوت أو غير المكبوت) تجاه ابنته الجميلة والقاتنة إلى هذا الحد ؟ ألا يمثل دور « الفتى » كما يكون « جديراً » بضر وبالثناء التي توجهها إليه ابنته من خلال مظاهرها المغناجة ، بشعرها المنتهدل على وجهها وتزينها البارع ؟ أو أنه ، على العكس ، يتقن توجيه هذا الوضع بفهمها ؟ وهل بوسعه أن يبين تدريجياً للفتاة أنها تتكسب طريقاً خاطئاً ، وذلك دون أن يصدّها أو يبندها ؟

وما وضع الأم ؟ هل تفهم ؟ وهل تشعر بالغيرة من ابنتها عينها ؟ أليست شرسة ؟ أم تحاول أن تكسب ثقة ابنتها ؟ هل تفهم أن ضرباً من الموقف السلبي لا يفتأ يزيد سوء ، لأن ابنتها تنحاز إلى أبيها ضدها ؟ وعلى العكس ، إذا فهمت الأم دلالة هذا الوضع الأوديبي ، وإذا بقيت

جاهزة بصورة عميقة ، أمكنها أن تقدم لابنتها العون على تجاوز هذا الصراع .

٣ - لنوازن بين البنت والصبي

ستتيح لنا هذه الموازنة أن نفهم : على نحو أفضل ، مأساة الفتاة ، مأساتها العميقة .

يبحث الصبي عن الصراع مع أبيه من أجل حب امرأة هي أمه . ولهذا السبب فإن على الذكر الفتي :

- أن يعزل « رئيس العشيرة الشيخ » ، الذكر القوي ، المتصب في وسط طريقه ، والذي يسدّ عليه المرور نحو المستقبل .

- وبالتالي ، أن يصارع أباه مُظهراً رجولته الخاصة (استطاعة - ذكاء) .

- ويندثر الذكر الشيخ وقد تم صرعه ، ويتابع الصبي طريقه الرجولي وقد توطئ وأصبح راشداً .

نحن اذن بصدد صراع بين ذكّرين . وهذا أمر واضح ، وصريح ، ودون إخفاء . يضاف إلى هذا أن الصبي يمتلك مؤهلاً رئيساً للنجاح : أمه صديقة و«متواظفة» معه . ذلك أن عقدة أوديب ما كانت قط وحيدة الاتجاه . وهل ثمة أم واحدة لا تتأثر بتعلق ابنها الشديد بها ، ولا يروق لها هذا التعلق ؟

وملخص القول بالنسبة إلى الصبي :

أمه والده

— صديقة ؛ — أسلحة الصراع معه متكافئة
— تؤمن مؤخرة ابنها خلال (رجولة في مقابل رجولة) .
المعركة . وبوسع الابن أن يلتجئ — مستوى الصراع واحد
إليها في حالة الخطر أو الإحفاق. (نوع المذكور ضد نوع المذكور).

وعلى الفتاة بصورة طبيعية أن تنوز بمسئلتها كالصبي . والحال أن
أباها موجود أمامها ، ويسدّ عليها الطريق كذلك ، بكل تجربته وبكل
قوته . وعلى البنت ، من الناحية المنطقية ، كالصبي : أن «تنزع السيف»
الذي يمسكه أبوها ، وأن تتابع طريقها .

وفي هذا المجال ، ليس ثمة من شيء يحدث بالنسبة إلى البنت . أن
تنزع سيف أبيها ؟ أن تصارع على مستوى الرجولة ؟ الأسلحة ليست
متكافئة . فلنكتفي بتصرف البنت على هذا النحو ، عليها أن تصارع كما
تصارع فتاة لها صفات الذكر . وعليها أن تتصرف تصرف الصبي ،
الأمر الذي يتصف بأنه عبث ما دامت امرأة . فعلى أي مستوى سيكون
بوسع أنثى صغيرة أن تصارع ذكراً شيخاً ؟ أقل ما يقال في الوضع إنه
عسير .

ثمة تعقيد إضافي : تنظر الأم ، على الغالب ، إلى ابنتها «تحوم حول»
أبيها ، نظرة لوم . فهي تشعر أنها منبوذة ، وحسود . وحتى لو أن الأم
تتصرف تصرفاً سويماً ، فإن البنت تستشعره على نحو مختلف كل الاختلاف .

وملخص القول بالنسبة إلى البنيت

أبوها

أمها

ليست صديقة . وتحس بها - الأسلحة غير متكافئة في البنيت أمها منافسة حسود ؛ الصراع ؛ (أنوثة ضد ذكورة) .
- لا تؤمن مؤخرة ابنتها ، - المستويات مختلفة (النوع فالملجأ مغلق . الأنثوي ضد نوع الذكور) .

وعلى هذا النحو إنما تتصف البنيت بأنها محصورة . إنها تشعر بأنها وحيدة في قيادة معركة مستحيلة . إنها واقعة في فكي كمامة بين أبيها وأمها . ويبدو لها الوضع دون مخرج .

وعلى الجبهة : لا بد لها : وليس في وسعها أن تصارع أباهها على مستوى الرجولة ، من أن تعالجه بطريقة غير مباشرة . فعليها أن تتعلب ، وتجذب انتباهه . وهي تحاول : في أغلب الأحيان ، أن يكون معجباً بها ، وتغريه ، وتبسط « نيم » أنوثتها الناشئة . هذا إذا لم تحاربه على مستوى أكثر « رجولة » : ذكاء ، ورياضة ، الخ . إنها ، على أي حال ، في وضع الدونية أمام أبيها .

في المؤخرة : تتعرض البنيت ، وهي تسحر أباهها ، إلى خطر أن ترى أمها تنقلب عليها . والحال أن الاختلاف مع أمها شيء خطير . فهي المعتمدة والملجأ . وتشعر البنيت إذن أنها مكرهة لتبني سلوك يصون لها الخطوة لدى أمها (منافستها !) .

المراهقة ، على هذا النحو ، في حركة دائمة متعرجة ، وفي ريبية دائمة من حيث النتائج .

كانت إحدى الفتيات قد كتبت لي :

— لم يوجه أبي لي نظرة قط . فهو في منتهى الذكاء ، وسبقني بألف فرسخ . كيف يمكنني أن أدركه ؟ فليس بوسعه ، من قمة عظمته الراشدة والمذكورة ، أن يفهم الرغبة التي تتوطن نفسي . إنه يفرغ لاهتماماته العظيمة الشأن . ولا أراه إلا في المساء . إنه حتى لا يراني : فليس له عينان إلا بالنسبة لأمي . فكيف يوجه اهتمامه إلى امرأة صغيرة طيبة مثلي ؟ إنني وحيدة في العالم .

ووصلتني رسالة من مراهقة أخرى تقول :

— أُمي حسود وتعنّفي باستمرار . هذا مؤكد: إنني أجمل منها ! وعندما يهتني أبي على فستاني ، فإنها تعاني من ذلك . ولن أسرق منها زوجها مع هذا ! إنني تعيسة .

والحقيقة أن المراهقة تعتقد في نفسها أنها وحيدة في العالم ، ومهجورة من أمها وأبيها ، ومرفوضة . إنها تسبح في وجدانية هي من الفيض بحيث لا يسعها أن تجد متنفساً إلاّ في الحلم .

فليس ثمة إذن ما يدهش أن يكتسب كثير من النساء ، خلال هذه الفترة ، عادة التذبذب من عاطفة إلى أخرى ، وإنما يخطيء الناس في وصفهم هذا الموقف بأنه موقف مراعاة ، ونزوة . وتغير مناجيء دون باعث .

وذا هي ذي تخطيطية موازنة نلخص الأوضاع الأكثر تواتراً .
وتكمل التخطيطية التي عرضناها فيما سبق :

فيما يخص الأب :

الصبي	البنات
— يصارع أباه بطريقة تصادمية وعدوانية .	— تقوم بمناورات من السحر أو من « حرب العصابات » لتروق لأبيها . فالمعركة خفية أكثر مما هي ذات مظهر خارجي .
— إنه متجه نحو المستقبل وشخصيته تتوطد .	— إنها في الانتظار (هل لاحظني ، هل رقت له ؟) ، شخصيتها مزعزعة .
— ذو نزعات سادية ، بالمعنى الواسع للكلمة ، يرافقها إعجاب بالنفس وتبجح .	— ذات نزعات نرجسية ومازوخية ، يرافقها إحساس بأنها لن تستطيع الفوز بأبيها .
— يتابع سيره إلى الأمام (إذا كان ، على الأقل ، كل شيء يجري تماماً ، وإذا كان لا يعاني الحاجة إلى « العودة إلى أمه ») .	— تتوقف في مكانها على الغالب ، لأن عليها أن تراعي حبتها لأبيها وحبها لأمها .
— الصبي ، من الناحية الرمزية : « ينتصب » ، ويتخذ مكانه في بعد « عمودي » . إنه يريد أن يضع نفسه « فوق » أبيه (« أن يمشي فوق رأسه ») .	— البنات ، من الناحية الرمزية : « ترقد » ، وتضع نفسها « تحت أبيها » ، في بعد « أفقي » ، خاضعة معجبة .

وملخص القول : إن وضع كثير من المراهقات يمكن ترجمته بما يلي : « أن أحوم حول أبي » ، وأن أراعي قابلية التأثر لدى أمي ، وأن لا أزعج أحداً ، فتنشل في عبور حدود الرشد .

ثانياً : العقبات

١ - عندما يكون ثنائي الأبوين مصاباً بالتصدع

تنطوي الأسر . التي لا يكون فيها الأبوان ثنائياً متحداً . على عدد لا يحصى من الدرجات . إنها :

.. العزلة لاثنتين .

.. اللامبالاة المتبادلة .

.. الخلافات الحامية أو الباردة . والحروب الخفية أو المعلنة .

- الثنائي الذي (وضع خطير دائماً) تثير فيه الأم ، المصابة بالإحباط والتعاسة ، ابنتها ضد أبيها . فتجعل هذه الأم من ابنتها «متواطئة» معها ، وتجعلها مشروطة بأن تنحاز ضد أبيها .

- الثنائي الذي تحتقر فيه الأم (علناً أم خفية) زوجها ، ويتم هذا الأمر أمام ابنتها . فتؤوب إلى الحالة السابقة .

-- وبعبارة أخرى ، إنها جميع ضروب الثنائي الذي يعيش كل عنصر من عناصره في منزله الداخلي الخاص .

ولنشر الى أنه قد يحدث أيضاً أن « يثير » الأب ابنته ضد أمها . وفي جميع الأحوال ، تُلغى معاً موضوعية البنت ورأيها المستقل .

وسأقدم ، في الصفحات التي تلي ، ثلاث حالات من الحالات الأكثر تواتراً . ولكن يجب أن لا تجعل منها مطلقاً . والواقع أن :

-- النقص في الاتصال بالأب قد يكون كلياً أو جزئياً . فتشكيلة اللونيات واسعة .

-- والأمر نفسه فيما يتعلق بالأم .

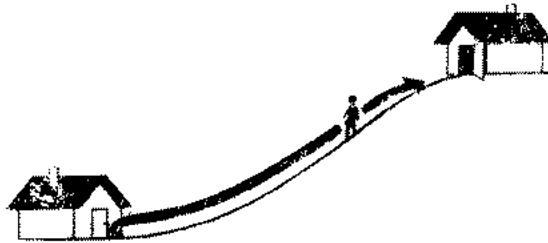
ولا يتصف الخلاف غالباً بأنه صارخ . ولكن الفتاة تحس بجميع خلفيات هذا الوضع ، وضع الأبوين . وهي موزعة بين أبيها وأمها ، ولا تعرف إلى أيهما تنحاز .

كذلك فإن الانتقادات : في الثنائي الذي يثير فيه أحد الأبوين ابنته ضد الآخر ، تحدث في غياب الزوج الآخر بالطبع . والبيت ، الممزقة بين أبيها وأمها ، فريسة اللأمن ، والعزلة ، والحصر . صوب أي منهما تمضي ؟ من تؤثر ومن ترفض ؟

لقد اخترت ثلاثة أوضاع حاسمة ، ولكنها تتيح التذكير بحالات أخرى كثيرة ممكنة .

٢ - الحالة الأولى : غياب الأب

٢ - الآلية



لاحظ المسيرة التي أنجزتها البنت . إنها ، وقد « انطلقت » من عند أمها ، عادت إليها بعد أن اصطدمت بباب أبيها المغلق . فارتدت على هذا النحو إلى ماضيها وطفولتها : وفاتها قطار مستقبلها ونضجها .

تبقى البنت على اتصال بأمها ، لا تقيم البنت اتصالاً بأبيها .
لأن هذه الأم : لأن هذا الأب :

— تبقى حفية بها . — غائب ، من الناحية

الجسدية أو من الناحية السيكولوجية

— « حاضنة » . — فظ ، ولا مبال ،

وعدواني .

— متسلطة . — في منتهى الشهرة ،

وعسير المال .

— لا تغفر أن تفلت منها — لا يفهم ، ومتقلب

ابنتها . الأطوار ، وخاضع ، ومدعور ،

وباغت الشخصية ، وضعيف .

— تظهر نفسها أنها مهملة ، — يحقر النساء أو يخشاهن .

تطلب شفقة ابنتها .

— أصبحت متواطئة مع — تحقره الأم .

ابنتها ضد زوجها ، وتظهر بمظهر

الشهيد غير المفهومة .

ويمكن أن يكون فقدان الاتصال بين البنت والأب ناشئاً عن أن

هذا الأخير غبي ، وعاجز ، ومتقلب الأطوار ، ومتعال .

ولكن . في الواقع ، أوليس بسبب أن زوجته تخيفه إنما هو خاضع أو عدواني ؟ وإذا كان يفعل كالفراشة ، أوليس من أجل أن يفلت من زوجة تمتد في جميع الاتجاهات ، ومن زوجة مشاكسة ؟ ذلك إنما هو أمر ذو شأن ، ذلك أن المراقبة لا تميز المظهر من الواقع . إنها لا تتساءل . باستثناء توافر وضوح فريده :

— ضمن أي حد لم يثر سلوك أمي سلوك أبي ؟ وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فليس أبي هو ما يبدو عليه . وعلي إذن أن أحاول الاقتراب منه وملاقاته كما هو .

ونحن نصل من ذلك إلى نقطة ثانية هي أيضاً أعظم شأنًا . إن موقع الأب - بالنسبة إلى البنت ، أمامها . وهي تدنو منه وفي نفسها رأي مسبق عنه : رأي أمها . وترى أباهها بعيني أمها . فكيف ترغب البنت في أن تعمق الاتصال بأبيها إذا كان الرأي غير مناسب بصورة قبلية ؟

كم من الأمهات يوحين ، أو يصرحن علناً :

— أبوك إنسان عاجز . ويفكر أبوك بكل شيء ما عدانا « نحن » (١) . وأبوك لن يفهم النساء أبداً . وأبوك جعلني دائماً شقية . إنه لن يفعل شيئاً غير ذلك أبداً ، هذا الرجل القليل الأهمية !

فالمراقبة ، على هذا النحو ، محقونة بالأفكار ، ويمكن للمرء أن يتوقع أنها لن تعرف أباهها بعمق . مع كل النتائج التي يفترضها ذلك . وليس ثمة من مراقبة في العالم لا ترغب في معرفة أبيها . أياً كان هذا

(١) هذا « نحن » صورة من صور الدواطر . مضمونه : « ابقي بقربي ، ولا تهمني بهذا الرجل . فإذا كنا ، نحن الاثنتان سوية ، فستكون على ما برام ، ونشكل جبهة ضد العالم الخارجي » . إن هذا لضرب من قتل الطفل قتلاً ممنوناً .

الأب . لقد افترضتُ أن باب الأب مغلق . والواقع أنه كان مفتوحاً قليلاً . فأبي أب لا يتمنى أن يحاور ابنته ، وأن يشرح لها حياته ، وأن يقول لها كيف نجح أو فشل ، ولماذا ؟ وأن يبذل كما هو عليه ؟

وإذا كان هذا الأب منفصلاً وجدانياً عن أمها ، فمن المؤكد أنه سيكون عسيراً عليه جداً أن يشعر بأن ابنته تدنيه ، وهو يعلم أن حكم المراهقة ، إذا لم يكن موضوعياً ، فإن الأم إنما كانت هي التي صاغتة .

فليس الأب ، في هذه الحالة ، هو الذي أرتجح بابه ، ولكن البنت تبقى على العتبة ، ترفض الدنو من شخص لا تقيم له أي اعتبار . وهكذا يسلك شخصان ، كان بوسعهما أن يعرف أحدهما الآخر ، طريقين متباعدين .

قالت لي نساء ما يلي على وجه التقريب :

— أما وهو الآن ميت ، فقد تعلمت أن آسف لأنني لم أدن منه ، ولأنني نبذته . لم أعرف أبي ، ولكنه حاضر دائماً . وكنت أحس دائماً أنه يحبني ، وأنه كان يريد أن يكلمني ، غير أنني صددته . لقد كانت أمي موجودة بيني وبينه ، كالضباب الذي يطمس الآثار .

وأصبحت البنت يتيمة الأب من الناحية الوجدانية . فهي لم تستطع أن تلحق بمن هر ، من الناحية الرمزية ، موجود « على بعد كبير » ، و« علو شاق » . وبنسبة مستقبل البنت ، وتبقى على ما هي عليه من الجوع .

وتحس المراهقة ، خائبة الأمل ، وربما محطمة أو متصدعة ، بفقدان « دليلها إلى المستقبل » ، إحساساً أليماً .

وتنظر ، يائسة ، إلى الوراء . وهنا ، يمكن ، بالنسبة إليها ، أن
تعود إلى الأم ، وبالتالي ، إلى الطفولة .

والمراهقة عندئذ :

— تبحث عن ملجأ بقرب أمها .

— تعود إلى أمها لتلقى العزاء منها ، وتتحد بها ضد أبيها . . . ثم
ضد الرجال جميعاً فيما بعد .

— لا تشعر ، وفقدان الأمن المذكور يزعجها ، بالرغبة في أن تكبر ؛
بل بالبقاء بنية قرب أمها .

ب - النتائج اليومية

تعود المراهقة إذن إلى الوراء . فهي تمشي الفهقري ، وتعرض إلى
خطر أن تكشف نفسها ملتصقة بـ « بيت الأمومة » ، وسجينة فيه .
وكونها لم تر السلم ، فقد سقطت في القبو .

ويمكن لهذه الفتاة أن تصبح :

— امرأة مغالية في الرقة ، مطموسة ، ومدعورة أمام المظاهر
الاجتماعية للحياة ، مظاهر كان يمكن لأبيها أن يعوّدها عليها .

— امرأة تعوّض عن خوفها من الحياة الاجتماعية بالعدوانية ،
والفسوة ، والصراع مع الرجال والنساء .

— امرأة خائفة أمام كل عمل وكل مبادرة .

— امرأة « غير منتجة » ، فابداعبتها موقوفة ، ولم يضع الأب ، الذي

يتصف بأنه الدليل نحو الحياة المعبر عنها في الخارج ، سير نقل الحركة في مكانه . ولن تستطيع هذه المرأة أن تبحر إلا في ظل زوجها .

— امرأة ضعيفة الإرادة ، تعدّ ألف مشروع دون أن تحقق منها مشروعاً واحداً .

— امرأة ذا عقلية « البنت المسنة » ، سواء تزوجت أم لم تتزوج .

— مسترجلة تكره « الرجال الذين يسيئون إلى النساء » .

— امرأة تنظر إلى « الأنوثة » على أنها دنيا ، وإلى المظاهر التناسلية النسائية على أنها مجابة للعار .

وأؤكد لكم أنه لا بد عندئذ من أن تحضروا على عمق لكي تجدوا في هذه المرأة بعضاً من الفرح بالحياة . فقد أصبحت ماضياً سير ، ولو أنها مشدودة بصورة عدوانية نحو المستقبل والنجاح .
فالمخاطر كثيرة .

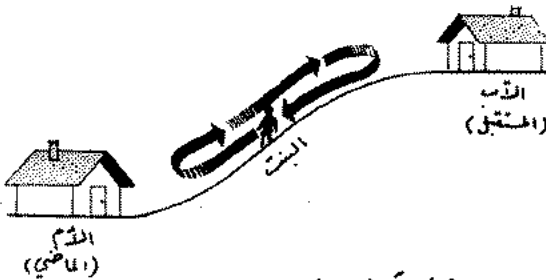
إن بإمكان الفتاة ، وقد ضيقت أباهها (والرمز الذي يمثله) ، أن تبحث عن « حب مثالي » من خلال العديد من العشاق الذين يجيبون جميعهم أملياً . ويمكنها أن تتزوج رجلاً يبدو عليه أنه يطابق الرمز الكبير ، رمز أبيها . ولكنها ، في هذه الحالة ، تتزوج من ظل . ومن المحتمل أن تنحرف نحو الحب الافلاطوني ، هذا إذا لم تعش « بالإنابة » ، مستلزمة ، دونما رحمة ، أن ينجح زوجها اجتماعياً ، إذ أن هذا النجاح يحل محل إبداعيتها الخاصة الميتة . أو أنها تتزوج باهتاً يجنبها كل مواجهة اجتماعية . وربما كذلك لا تتزوج ، مكررة سلوك الزمن الماضي ، السلوك نفسه : الانحياز إلى أمها ضد أبيها . وقد يحدث أيضاً أن تبحث

عن « أب مطلق عسير البلوغ » ، شأنها في ذلك شأن بعض المتدينات اللواتي لا يعشن إلا على أمل أن يكافئهن الله الأب . أو أن تلبث قرب أمها بفضل ضرب من الذريعة : ذريعة أن تتزوج رجلاً يشبه طبعه العميق طبع الأم الموما لئليها . ومن الممكن أيضاً أن تصيح سحاقية . أو أنها ، أخيراً ، تنظر إلى الرجل كاله ، مع كل ما يرافقه ذلك من الشعور بالدونية والعدوانية الذي يفترضه .

وستبقى هذه المرأة ، في جميع الأحوال ، وأيا كانت المظاهر ، « بنتاً صغيرة » يسيطر عليها ظل أمها .

٢. — الحالة الثانية : الأم المنبعة

٢ — الآلية



شكل رقم (١٥)

المسيرة ، في البداية ، هي ذات المسيرة في الحالة الأولى . فالبنت « تصعد » نحو الأب ، وتبقى على العتبة . ولكن الأم ، هنا ، هي التي أغلقت بابها .

قطعت البنت اتصالها بأبها ، لأن لا تقم البنت اتصالاً مع أبيها ، لأن
 الأم تتصف (أو يبدو أنها هذا الأب يتصف) أو يبدو
 تتصف (بأنها : أنه يتصف) بأنه :

- حرّدة .
- شرسة ، وعدوانية ، ذاتها .
- وقاسية .
- صاحبة نزوة (لا يعرف المرء معها بأي رجل يرقص) .
- متشددة .
- مغلقة ، ومتشبثة برأيها ، وعنيدة ، ومحتقرة .

وتفضل الفتاة إذن في الاتصال بالأب ، فتصاب ، على نحو عميق ،
 بخيبة الأمل . وتنظر إلى الوراء ، صوب ملجأ الأمومة .
 بيد أن الباب مغلق ، إما لأن الفتاة تستشعر أنها عديمة الفهم أو
 شديدة الخطر ، وإما لأنها تحقت ماضيها . فلا شيء في الأمام ، ولا شيء
 في الخلف . وماذا بوسع الفتاة أن تفعل سوى أن تدور في مكانها ؟
 وكونها لا تستطيع أن تلامس أبها وجدانياً ، ولا أن تدع نفسها تذهب
 صوب أمها ، فإنها تضع نفسها في مدار بين الكوكبين .
 وفي رأيي ، هذا هو الوضع الأشد خطورة فيما يتعلق بعدم تحقق
 المرأة .

ب — النتائج اليومية

التوقف الوجداني لدى البنت حادث في الاتجاهين .

ابداعيتها الخارجية ، وتعبيرها الاجتماعي ، مكفوفان ، وذكرتها
موقوفة. والثقة بالتأكيد الاجتماعي للذات متأكدة بصورة تنذر بالخطر .

حياتها الداخلية ضامرة ، بل مصابة بالعطالة . وثقتها بالحياة — تلك
الثقة التي يمكن للأم وحدها أن تمنحها — متزعزعة . وأنوئتها ليست
ذات استطاعة .

ويستقر ، بالنتيجة ، خوف معتم ، لاشعوري بصورة كناية في
بعض الأحيان . وقد تبدو جميع ضروب التعويض عن الخوف : العنف ،
والقسوة ، وروح القتال المتفاخرة في شدتها ، الخ .

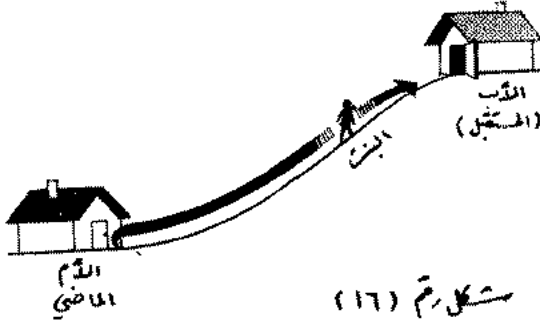
وهذه الفتاة يتيمة الأب ، كما في الحالة الأولى . ولكنها يتيمة الأم
أيضاً ، وسيكون عسيراً عليها تنمية عاطفة الأمومة الخاصة بها .

وهذه الفتاة محصورة بصورة كلية ، ومصابة بالحصار إزاء النساء
والرجال . إنها لا تتصرف : إنها « تدع الأمور تجري » . وجميع
تجليات الحياة الاجتماعية ، من عمل وعلاقات مع الرؤساء ومبادرات ،
تغرقها في اضطراب عميق .

وستدور هذه المرأة في ظل زوجها وفي ظل نجاحه المحتمل . وربما
تتزوج رجلاً ديناميكياً ، وعقلانياً ، ومرموقاً ، يعبر بالرمز عن الأب
الذي لم تعرفه ، وسيكون في الوقت ذاته عطوفاً ، وحنوناً ، ومحبباً ،
وبالتالي يتصف بـ « عاطفة الأمومة » . وذلك أفضل ما بوسع المرء أن
يتمناه لها . ذلك أن مثل هذا الزوج يمكنه أن يزيل عواقب مراهقة فاشلة .
وربما كان بوسع المرأة الصبية ، وزوجها يسحبها ، أن تحرر قدراتها
المكفوفة .

٣ - الحالة الثالثة : أب شهير أو ضعيف

٢ - الآية



شكل رقم (١٦)

قطعت البنت اتصالها بأمها لأن هذه
الأم تتصف (أو يبدو أنها تتصف)
بأنها :
تقيم البنت اتصالاً بأبيها لأن هذا
الأب :

— الإمكانيات ذاتها في الحالة
الثانية .

— يمتلك خصائص تنطبق
على رمز الرجل : إنه حازم ،
وذكوي ، وطيب ، وعطوف ،
وحفي ، وودود ، وقادر على أن
« يرشد ابنته » .

— إنه « رائع » ، وناجح
اجتماعياً .

— أو يبدو بحاجة إلى الحماية ،
مذعوراً ، مصاباً بالحصص ، يلتمس
من ابنته عاطفة الأمومة .

— يبدو أنه بحاجة إلى الدعم
ضد الأم التي نبذته واحترته .

وعندما تبدو الأم منيعة ، فهي تمثل الماضي . إنها ، من الناحية الرمزية ، موجودة في ظهر المراهقة . فلهذه المراهقة إذن ، خلفها ، أم تستشعرها وكأنها عدو ، وشديدة الخطر ، وخالية من الحب .

ولكن الفتاة ، في هذا المجال ، تقم الاتصال بأبيها . فهي تنحاز إذن لأبيها ضد أمها . والحال أنها كلما أمعت في هذا الاتجاه ، ازداد الخطر . فما السبب ؟

والسبب أن « مؤخرتها » مقطوعة . ولا يمكنها العودة إلى خنادق توحى بالطمأنينة . إنها ، على العكس ، تشعر أنها مراقبة « في الظهر » من أم شديدة الخطر .

نزعتها العميقة أن تصنع ثنائياً مع أبيها ، وأن تتحالف مع « باباها العزيز » ضد العالم برمته . وتلك صورة مخيفة من صور عقدة أوديب . وإذا كان الأب رجلاً « رائعاً » وشهيراً ، فهل ستحاول أن « تتجاوز » أبها ، وأن تصرعه حتى الموت ؟ أم أنها ستصبح ابنة صغيرة ساحرة ، أو « صبيياً فاشلاً » ؟ وإذا تزوجت ، عمن تبحث ؟ هل تبحث عن رجل تستمر إزاءه بـ « الاغراء » ، أم تتزوج رجلاً ، تغلب عليه صفات الأنوثة ، وتكون هي زوجته ذات الصفات الشبيهة بصفات الرجولة على وجه التقريب ؟

وإذا كان الأب ضعيفاً ، فهل ستحضنه وتحميه كما تفعل أم بطفلها؟ ومن المحتمل ، إذا تزوجت ، أن تبحث عن رجل تفرض عليه إرادتها بفضل بعض الأطباق الصغيرة الشهية ، أو بفضل ألف رعاية خاتقة ورعاية .

وليس بوسع الفتاة أن تتروّد من أمها « بالأنوثة » ، لأنها تنظر إليها على أنها شديدة الخطر . وستكون أنوثتها جافة (صبي فاشل) ، أو تفهة (بنت ذات سحر) ، أو طاغية (أم دجاجة بالنسبة إلى زوجها) .

ب - النتائج اليومية

وإزاء أب « شهير جداً » ، أي أنه يتصف ، من بين ما يتصف ، بما يلي :

- ذكي بصورة عظيمة ؛

- جميل وقوي كاله ؛

- وزاخر بالمعارف ؛

- يُعجب به الجميع ؛

- مرح وسيد عظيم ؛

- رياضي رائع ؛

من المحتمل أن تحس به المراهقة وكأنه « عسير البلوغ » . فتدنو منه دنوا يرافقه الشعور بالدونية والعجز . وستكون مجذوبة به كما تنجذب فراشة بالضوء .

كانت إحدى الفتيات قد كتبت إلي :

- أبي لا يُغلب . إنني معجبة به بشغف . سأكون دائماً دونه بكثير .
وأنا أتمنى كثيراً أن يحبني ، على الرغم من صفاتي الضعيفة .

وكتبت إلي فتاة أخرى تقول :

— إنه يسحق الناس جميعاً بالسباحة والفروسية والرماية . وقد صممت على أن أفعل مثله .

وإذا كانت المرافقة تشعر شعوراً قوياً بالدونية ، فإنها تثير عملية السحر .

أو أنها ، إذا تصرفت ضد دونيتها ، ستكون نزاعة إلى الدخول في منافسة مع أبيها ، وفي الفرع الذي هو لامع فيه ذاته . فلماذا ؟ إنها تفعل ذلك حتى تثير إعجابه ، وتلفت على هذا النحو انتباهه ، أو لأنها تفعل ذلك لمنافسة « هذا الذكر » الذي يحتل المكان كله ، أو لتثأر لأمها التي بقيت في الظل ، ولتبين أن للنساء « كلمة ينبغي أن يقلنها » .

وتتعرض الفتاة تعرضاً قوياً ، في هذه الحالة ، إلى خطر أن تصبح « صبياً فاشلاً » . ولاحظوا أن كثيراً من الآباء فخورون بذلك . وسينظر المجتمع ذاته إلى هذا « الصبي الفاشل » نظرة مقرونة بالتعاطف الذي تغلب عليه التسلية ، ويسامحه الناس بكل شيء : سوء مظهره ، وأيمانه ، ومواقفه ذات المظهر الرجولي . وسيقال « فكر إذن ! كانت تريد في الخامسة من عمرها أن تسبح كأبيها ، وكانت تنكبّ على ركوب الخيل مثله في العاشرة . وكانت ، في السادسة عشرة ، تفود سيارتها بجسارة لتفعل مثل أبيها » .

إن تلك التي تسمى « صبياً فاشلاً » هي امرأة فاشلة بكل بساطة . فأولئك الذين ينظرون بإعجاب إلى امرأة ترغب في أن تكون شبيهة برجل ، لماذا ينظرون ، من جهة أخرى ، باحتقار إلى رجل يرغب في أن يكون شبيهاً بامرأة ؟

ومن المؤكد أن عبادة قوة الذكر ليست مشرفة على الموت .

والواقع أن الفتاة التي تبدو ذات مظهر رجولي وقاتلي لا تسلك سلوك الذكر ولا سلوك الأنثى . وهي لا تفلح في أن تحدد موقعها . إنها تحاول أن تصارع أباهما لأنها لم تعرفه ، وهي ، لهذا السبب ، نسبت هدفها الرئيس الذي كان محددًا بأن تستشعر أباهما بعمق . ولهذا السبب ، فمن المحتمل أن تبحث عن زوج بالشهرة التي كان عليها أبوها ، زوج بوسعها أن تكون معجبة به وهي في تنافس معه في الوقت نفسه . وستحاول على هذا النحو أن تجد ، لدى رجل آخر ، هذا الرمز ، رمز الرجل الاله الذي أخفقت في الدنو منه من زاوية خاطئة .

هذا باستثناء ما إذا « خطفت » — وتلك حالة نادرة — صبيًا مدعورًا تسيطر عليه كما يحلو لها .

إنها ، في جميع الأحوال ، لم تنجح في ذكورتها الأصلية ، واستنزفت ، في الجزء الأكبر منها ، منابع أنوثتها .

ولا تستخلصوا من ذلك على عجل شديد أن الروح الرياضية لامرأة علامة وضع أوديبى فاشل .

ثالثاً : المآلات الأربعة الأساسية للوضع الأوديبى

لتعدني المراهقات لموازنتهن بورقة للتصوير تم التصوير عليها ، وهي في طور التظهير . فالصورة موجودة ، ولكنها هي ما هي عليه ، وليس بوسع أي كان في العالم أن « يسحب » منها أكثر ما تنطوي عليه . ويتصف الاختبار النهائي غالباً ، مع الأسف ، أنه أدنى بكثير مما كان

من الممكن أن تكون عليه الصورة : إما لأن تظهيرها تم في مختبر يرثى له من مختبرات الوالدين أو المختبرات الاجتماعية ، وإما لأنه قد يحدث ، ولو أن الوالدين والوسط يتصفون جداً بالانسجام ، أن تحقق المراهقة في الوضع الأوديبي عقب ردود فعل غير مناسبة ، ناشئة من طبعها الخاص.

١ - المرأة المفتوحة

كيف تخرج المرأة من الحمام الأوديبي ؟ هل تخرج شاحبة ؟ نامية بافراط ؟ هل ستكون الظلمات عميقة أم شاحبة ؟ وهل ستكون الأنوار العليا ساطعة أم باهتة ؟

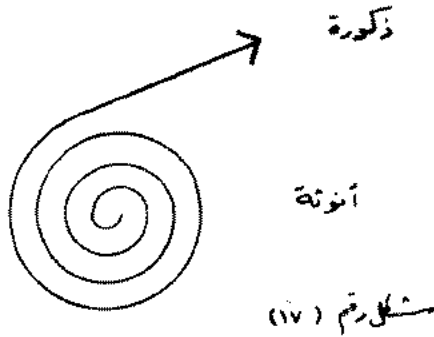
ذلك أن « تجلي » المرأة يتطلب شروطاً واضحة جداً :

١ - فالأب ينبغي أن يعطي المثال على فاعلية رجولية أصيلة . وقطباه ، المذكر والمؤنث ، يجب أن يكونا متوازنين . فالمراهقات لا يخلطن خلطاً عبثاً (وعلينا أن لا ننسى نفاذ البصيرة الحسني الشهير لدى المرأة) . وبوسع الفتاة على هذا النحو أن تتصل اتصالاً عميقاً بأبيها الذي تظم إليها منه صفات الابداعية ، والتعبير عن الذات في الخارج ، والثقة الاجتماعية بالذات .

٢ - والأم ينبغي أن تكون مثال الأنوثة العميقة الفاعلة . وإذا كان الأمر غير ذلك ، فكيف ترغب الفتاة في أن تكتسب صفات الأمومة وتنمي قطبها المؤنث ؟

٣ - وينبغي أن لا يحجز الوسط الاجتماعي الى الصبيان جميع الامتيازات . وينبغي تربية المراهقة بالحزم الذي يربى به الصبيان . إنها

بحاجة إلى أن تكون محبوبة ومحترمة بوصفها موجوداً إنسانياً ذا حصة كاملة ، مع جميع المسؤوليات والحقوق التي للصبيان .



ومن المؤكد أننا لم نصل بعد إلى ذلك . ولكننا عندما نميز الأنوثة من الضعف ، يمكن لمسيرة المراهقة أن تكون كما يلي :

١ - تنمّي المراهقة أنوثتها وتفتحها ، في ظل من الأمن الكلي ، مستندة إلى أمها .

٢ - «تصعد» نحو أبيها ، واثقة بالحياة ، جنباً إلى جنب مع أمها - لا على أنها منافسة لها .

٣ - تتخذ مكاناً لها في مستوى أبيها ، وتلتقط صفاته المبدعة ، الاجتماعية ، والرياضية ، والفكرية . وسيكون أبوها مدرباً على المستقبل .

٤ - تبقى « في فلك » حول أبيها خلال زمن التدريب الضروري .

٥ - وتشرع الفتاة في انطلاقتها المستقلة ، وقد أصبحت مكتملة الأنوثة والذكورة .

ولكن الحقيقة أنكم لن نجدوا في أغلب الأحيان وضعا مماثلا في مجتمعنا إلا كمثل قطعة من الذهب في وسط جادة من الجادات .

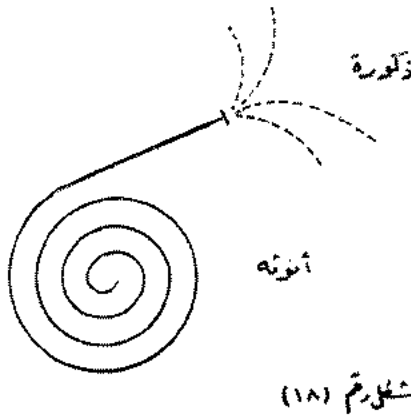
فعل المرأة إذن أن تمتلك قطبين متوازنين مبهجين .

إن أنوثتها تجمع الطاقة باستمرار ، طاقة يمكن استخدامها في كل لحظة .

وذكورتها ، النامية جيدا ، فاعلية وإبداعية معبر عنها في الخارج ، ومسيرة واثقة من نفسها نحو المستقبل . وكون هذه المرأة تعمل في الخارج أو لا تعمل ، أمر ضعيف الأهمية . وبما أنها لا تشعر بالحاجة إلى تعويض إزاء الرجل ، فإنها لا تعاني أي شعور بالدونية أو الفوقية ، ولا أي مطالبة داخلية .

هذه المرأة شبيهة بأرض خصبة تثمر أجود الزروع

٢ - المرأة البائرة



الأنوثة . هنا ، في حالة جيدة الى حد ما . ولكنها تظل بالانتظار .

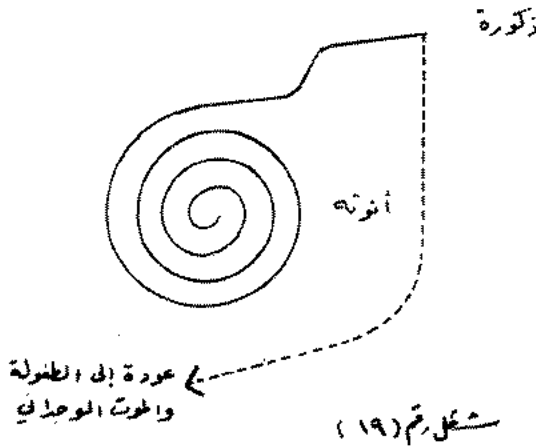
دون أن تنشط خارجياً ، ودون أن تظهر إلى الخارج . والاستطاعة
موجودة ، ولكنها غير مستعملة .

والذكورة ضعيفة الارادة ، لأنها موقوفة بفعل عواطف الإثم
والدونية . وتخشى المرأة أن تنتقل إلى الإبداعية ، وأن تبادر .

انها ، بصورة عامة ، ربة منزل رائعة . وتفضل أن تبقى « في
ذاتها » و « في بيتها » . والعمل الخارجي عسير عليها ، بل يجلب الحصر .
ويؤثر هؤلاء النساء ، في بعض الأحيان ، عملاً غيرياً : فيصبحن
ممرضات ، ومساعدات اجتماعيات ، وراهبات ، الخ . ويستطعن ، إذ
يوجهن اهتمامهن إلى الغير ، أن ينشطن ذكورتهم ، دون أن يشعرن
بالإثم في التصرف .

هذه المرأة شبيهة بالأرض الطيبة ، ولكنها بالرة .

٣ - المرأة الملتصقة باستطاعة الأم



الأنوثة في حالة يرثى لها . هذه المرأة عائدة ، من الناحية الوجدانية ،
« لدى ماما » التي ، إلى أوامرها ، تبقى هذه المرأة خاضعة في الأغلب .
إنها تعيش في خوف من رأي الآخرين .

والذكورة يرقية دون أي استقلال .

ذلك هو نموذج من المرأة الطفل : التي تستطيع إخفاء ضعفها تحت
مظاهر عديدة . إنها ليست ذات عمر من الناحية الوجدانية ، وهي
لطيفة ، ووديمة ، ودون صعوبة ظاهرة . ولكنها ، من الناحية الوجدانية
دائماً ، ميتة .

هذه المرأة شبيهة بالأرض المشبعة بالماء ، حيث ترقد بعض نباتات
النيلوفر الليلية .

وحالة مارسيل : التي تكلمت عنها سابقاً ، توضح بالمثل جيداً هذا
المأل .

قالت لي منذ المقابلة الأولى :

— أتمنى أن أعرف نفسي معرفة عميقة . وسأخصص من أجل ذلك
الزمن اللازم . أتمنى أن أعرف ما يعني من أن أكون موجودة .

ثم أضافت وهي تبتسم :

— تعلمت الصبر ، مع ذلك .

كانت تبدو أنها موجودة خارج الزمن . وأرثني صورة فوتوغرافية
لأمها :

— ألم تكن ذات مظهر امبراطوري ؟

ولكن لم يكن معها ، « كما لو كان بالمصادفة » ، أي صورة
لأبيها .

— كان أبي يثير الشفقة . . . رجل عديم الأهمية ! لم أره قط يتخذ
مبادرة . فقد كان متقاداً لكل شيء . والحقيقة أن ماما . . .

والحقيقة أن ماما كانت ديكتاتورية ، وجميلة على نحو يثير
الإعجاب . وكان ينبغي أن يكون على طريق مارسيل الصاعد أب ،
واسطة نحو المستقبل . ولكنه كان يبدو أنه ليس سوى ظل : فكيف
كان بإمكان مارسيل أن تدخل بيت ضرب من الظل ؟ كيف كان بإمكانها
أن تلتحق بأب لم يكن يتجلى قط ؟

وكانت مارسيل تنظر إلى « أبيها » . فالرجل كان يعمل حتى وقت
متأخر من الليل ، وكان يهرب في أعمال ديوانية .

— ومع ذلك ، كان بوسعي أن أحبه . . . وعندما نكون وحدنا ،
في بعض الأحيان ، كان يتوك لعفويته العنان خلال لحظات قصيرة .
وكان يحاول أن يشرح لي حياته ، وإخفاقاته ، وعدم فهم أمي . . .
وكنت أحس أن بإمكانني أن أحبه . ثم كانت أمي تصل ، متعالية .
فلم أكن أبدي أية مقاومة . وكنتم أترك بابا . . . أما وقد مات الآن ،
فأني أشعر بأنني آئمة لكوفي أصغيت إلى والدتي .

قالت لي مارسيل في يوم آخر :

— كنت من الشعور بأنني أدنى من أمي بحيث كان لدي الانطباع

بأنني تافهة في كل شيء . فأني صبي كان بوسعه أن يلقي نظرة عليّ ؟
 كان هناك ممثل تجاري يأتي لبيتنا ، من وقت لآخر . وكنت أحاول أن
 أجذب انتباهه . لقد كان صبيّاً طيباً ، من غير تكلف . ولكن أمي كان
 تحقره ، ولم أكن أجروء ، أنا ، على قول شيء ، مثلما أنني لم أكن
 أجازف بالدفاع عن أبي .

وعلى هذا النحو ، لم يكن أمام مارسيل شيء : ليس نعمة اتصال عميق
 بأبيها . وخلفها ، نعمة أم عسيرة البلوغ بقدر ما هي متشدة . ومات
 الأب ، فعدلت مارسيل مسارها :

عادت إلى الوراثة ، صوب طفولتها ، وصوب الحماية الملكية ، حماية أمها .

— كانت أمي تقول لي : إذا كنا ، نحن الاثنتان ، سوية فأننا

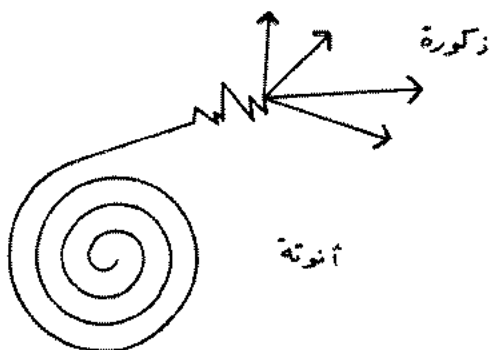
سنكون على ما يرام ، وسترين !

خيبة أمل كاملة ، كما ترون . كانت مارسيل تدبير ظهرها
 للمستقبل ، وتضع نفسها خارج الزمن ، وأصبحت دون عمر . وكانت
 أنوثتها ملتصقة باستطاعة الأم ، وكان قطبها المذكر راقداً .

عندئذ إنمّا بدأت تحليلاً نفسياً فصلها عن أمها تدريجياً ، وجعلها

تعي ضرباً من الاستقلال الممكن الذي حققته من جهة أخرى .

٤ — المرأة العدوانية



شكل رقم (٢٠)

هذه المرأة ليست امرأة ولا رجلاً ، ولكنها عدوانية دائماً ، ومهتاجة بصورة مستمرة ، ومتمردة أبداً ضد الرجل والمرأة ، وضد نفسها . إنها في حالة من الذعر العميق ، ولكنها تقنعه بعناية .

أنوثتها ضعيفة ، مصالبة . وذكورتها ، التي تتصف بأنها صعبة المراس على نحو فاحش ، تفرغ شحناتها بضروب قذف من العدوانية . إنها ليست اجتماعية ، وقلما تتزوج ، أو أنها تتزوج لأمد قصير . وهي ، بوصفها سحاقة على الغالب ، تقوم بدور الرجل . وفي عملها ، تتكلم بصوت عال وقوي ، وتسحق الرجال والنساء بمطالبها التي توحى بالاحتقار . ولا أحد يجلبها بصورة فعلية أبداً .

هذه المرأة شبيهة بالأرض الخافتة التي لا تنبت غير الشوك .

ونبتين جيداً حالة آن ، الحالة التي صادفناها فيما سبق ، بأي وسائل غير مباشرة يمكن أن تنضخم ذكورة المرأة على هذا النحو ، في حين تضمر أنوثتها . كانت آن تقول لي :

— كان أبي زوبعة حقيقية ، وكان يغلي كالشهبانيا ، ويضحك من كل شيء . وكانت النساء جميعهن مغرمات به ، ويتحولن من إحداهن إلى الأخرى . . . كان مغرباً إلى حد كبير ، وله سحر غريب . ولم يكن يوسع أي شخص أن يرفض له شيئاً .

وغني عن البيان أن آن كانت ، كغيرها من الأخريات ، تفرفر حول أبيها حتى تكون محط اعجابها .

— ووضعت نفسي في الصف ، شأني في ذلك شأن عشيقاته . كنت

حبيبة قلبه . والحقيقة أنني كنت فخورة بنجاحاته لدى النساء !

كانت تشعر أنها فخورة بنجاحات أبيها ، شريطة أن تكون الأثيرة
وأن تظل كذلك .

قالت آن أيضاً :

لم يسبق لي أن ألقيت نظرة على رجل آخر . ولم يكن أحد يبدو لي
أنه جدير بأن يصفح أبي . وكان رائعاً على زواجه ، سيداً عظيماً في
المطعم ، عارفاً في الفنون وكنت أعدة ملكاً ، ولكنني أرى الآن
جيداً أن ذلك كان بريفاً خداعاً فلم يكن له ضمير أو على الأقل
كان يخفيه جيداً

والبقية معروفة لدينا جيداً . إن آن ، وقد أرادت أن تكون أثيرة
«حريم» أبيها الاله ، تدربت على الألعاب الرياضية ، وأصبحت فيها
ذات قوة أولى . وقرأت مؤلفات في الفنون . وبحثت عن أن تقسر
إعجاب أبيها .

ولكن والد آن توارى ، في يوم من الأيام ، مع إحدى صديقاته ،
تاركاً زوجته وابنته . واستجابت آن استجابة عنيفة كما تفعل ذلك
عشيقة منبوذة . لقد كانت منهارة بصورة مزدوجة :

١ — كانت ترى نفسها وقد حلت محلها امرأة واحدة ، وكفت
عن أن تكون الأثيرة .

٢ — وكان أبوها قد فقد حظوته : فبدلاً من أن يكون له مئة
إمرأة عند رجله ، فإنه هو ذاته الذي كان قد أصبح عاشقاً .

وكان على آن أن تتبنى (بصورة لاشعورية) سلوكاً كان سيوجب لها بعض السلام الداخلي ، الحقيقي أو المزيف . كان بإمكانها :

— إما أن تقفز فوق هذه الأب الحبيب ، وتصبح ذات مظهر رجولي ، وتسحق الرجال لتنتقم لنفسها ، وتخضعهم الواحد بعد الآخر لكي تتركهم فيما بعد ، الخ ؛

— وإما أن تعود إلى أمها ، وتصبح « شريكها » ضد الرجال . وذلك ما فعلته .

كانت آن تقول لي :

الم نكن ، أمي وأنا ، امرأتين هجرهما رجل واحد ؟ وكان من الطبيعي أن نتحالف !

وفي يوم من الأيام ، أعلنت لي آن ، حوالي نهاية التحليل النفسي :

— هل تعلم ؟ إنني أنا التي كنت مغناظة من الرجال إلى هذا الحد ، تزوجت !

ثم قالت بابتسامة وبقية من ضغينة :

— الحقيقة أن أبي كان لا بد من أنه يعاني كونه رجلاً عديم الأهمية إلى هذا الحد ليتني كنت قد استطعت فهمه في ذلك الوقت وفهم نفسي أنا ذاتي !

رابعاً : البوابة

تنطوي مئات الرسائل ، التي وجهتها إلي مراهنات ، على العديد من التشابهات . فيجد المرء فيها :

... ضرباً من الحصر :

— في أي سن تكون المراهقة قادرة على أن تحب ؟

... وضرباً من طعم الرماد :

— العلاقات الانسانية ، إنها قبيحة كالشرى .

... وأعماقاً :

— متى أستشعر « سر » الحياة !

... ورحلات لا نهاية لها :

— عمّ أبحث من خلال الرجال دون أن أجده أبداً ؟

... وضرباً من التقرز :

— بلغت العشرين ، وأنعاطى حبوب منع الحمل . لقد جعلتني أفكر

بالمثقيين الرومان . يخفون من الامتلاء ويبدأون مجدداً . فلماذا

... ورغبة مترامية الأطراف :

— متى أكون مستعدة لتكوين ثنائي دائم ؟

تلك هي الموضوعات . فهل هذا المحطاط ؟ هل هو انهيار ؟ أم هو
ثورة تهيء لولادة ؟ ما أعرفه هو أن جميع الحقائق ليست سوى
حقائق فردية ، مع أنها تسيج ، على وجه الاحتمال ، في حقيقة جماعية .

وتفيض الكتب والمجلات في الحديث عن الطريق الإنسانية ، حديث
مدعوم بالكثير من الحماسة ، ولكنهم يتكلمون قليلاً على الموجود
الإنساني الذي يجب أن يسلك هذه الطريق .

وفي هذا الفصل ، حاولت أن أبيّن كيف يمكن للمراة أن تصبح امرأة متفتحة .

١ - دور الأم النوعي

الأم سطح واسع من الماء . والبنت اسفنجة . ولا بد من أن تبتل هذه الاسفنجة بذلك الماء . وبعبارة أخرى : أنوثة البنت منوطة بأنوثة الأم على نحو أساسي .

ولكن كيف هي أنوثة الأم ؟ ناجحة هي أم فاشلة ؟ مقبولة أم مرفوضة ؟ قوية أم مصابة بالعطالة ؟ سطحية أم متألقة ؟ باهتة أم فاعلة ؟ ونضج الفتاة تابع :

— للطريقة الايجابية التي تستشعر بها هذه البنت أنوثة أمها .

— للأسلوب الذي تنفصل به البنت عن أمها ، وهي تبقى في الوقت نفسه صديقتها .

إننا نعتقد أن النجاح الكامل نادر جداً ، ذلك أن هذا النجاح يفترض أن تتمتع البنت والأم بالصحة السيكولوجية .

وزيدو غالباً أن العلاقات بين الأم والبنت علاقات سطحية . ولكن ثمة عداوات ، وطفالات ، وتمائلات ، وضروب من الرفض العنيف ، رفض « التشبه بالأم » ، راكدة في اللاشعور . وكل هذا مقتنع ، في العادة ، تحت مظاهر ضروب من اللطف .

ودور الأم أن تبيّن لابنتها ، بسلوها وحده ، ماذا يجب أن يكون موقفها أمام الحياة . إنها الصورة القوية والفريدة ، صورة اللاشعور

العميق ، صورة « النفس » ، صورة الثقة . والأسلوب الذي تنظر به
البنات إلى الوجود منوط بالطريقة التي تستشعر بها أمها .

وإذا كان صحيحاً أن تجديد كو كينا منوط بتجديد الأنوثة ، وإذا
كانت الأمهات ، من جهة أخرى ، يؤثرن إلى هذا الحد على لاشعور
بناتهن : فان على الأمهات إذن إنما يرتكز مستقبل المعمورة .

إن الأم ، لدى كل امرأة ، هي التي ، في الأعماق ، تحتل
المكان الراجح دائماً (السليبي أو الايجابي) .

ووجه الأم البعيد ، في التحليل النفسي ، هو الذي ينبعث دائماً ، في
نهاية المطاف ، سبباً لجميع الاضطرابات . أوليست الأم هي شخصية
اللاشعور الأكثر اتصافاً بأنها خفية ؟ أوليست الأم هي نقطة انطلاق
كل وجود ؟

٢ - دور الأب

ها هي ذي ، أول الأمر ، لوحة تبيّن الأدوار التقليدية ، أدوار
الأم والأب إزاء المراهقة .

الأب

— « يهب » تقديره : ويضع
شروطاً : ينبغي على ابنته أن تنجح
في المدرسة ، وتبدو ذكية ، وتبدو
ناجحة ، ومنافسة. إنه يقضي معتمداً
على المجردات : الواجب ،
والشرف ، والأخلاق ، والعدالة .

الأم

— تمنح حبها بصورة غير
مشروطة . وهي بوسعها أن تسحب
تقديرها مؤقتاً ، ولكن الحب
العميق باق .

— إنها تمنح القليل من الاهتمام إلى المظهر الخارجي .
— إنه لاشخصي ، ومجرد ، ومشغول بعمله ، ومشغول بـ «أفكاره» .

— تعتمد على الماهية ، لا على «المظهر» .
— «يمنح» اهتمامه للبنية ، شريطة أن توافق ما ينتظره منها.

— إنها تحكم على ابنتها بطريقة شخصية ومشخصة .

تؤثر الأم على ... يؤثر الأب على ...

— أنوثة المراهقة . — ذكورة المراهقة .
— ثققتها بالحياة العميقة . — الثقة بإمكاناتها في التنافس الاجتماعي .

— الشخصية الاجتماعية واللاشخصية .

— الأنا العميقة والشخصية . — المظهر ، والإبداع والذكاء المعبر عنهما في الخارج .

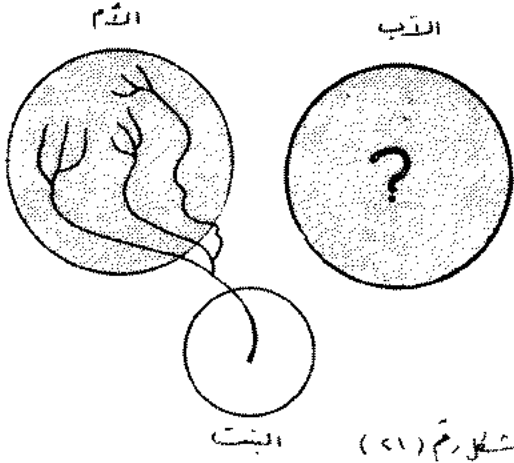
— الوجود ، والابداعية والذكاء الداخليين .
— الميل إلى المغامرة والمخاطرة

— جنود النوع ، والصبر . — الاصطناعي في الحياة .
— «النفس» ، والاستقبالية ، — التأكيد الاجتماعي للذات .
— المشاركة مع الغير ، وقوة الطبع العميقة .

ويرى المرء ، عندما يفحص عمود « الأب » ، أن كل شيء فيه خارجي ، واجتماعي ، وقائم على النجوع ، والنجاح ، والمظهر . وثمة قليل من الأشياء تتصف حقاً بأنها عميقة ، وداخلية ، وذلك للسبب البسيط الذي مفاده أن الرجال تعلموا أن يكتبوا وجدانيتهم ، وأن يظهرها قبل كل شيء ناجعين .

٣ - دور الثاني

هذا الوضع ، وضع الأب ، يُظهر صعوبة هائلة . وتبين التخطيطية أن الأب ، بالنظر إلى أنه من نوع الذكور ، يبقى « غريباً » بالنسبة إلى الفتاة التي هي من نوع الإناث . ويبقى الأب علامة استفهام ، في البدء على الأقل . من هو ؟ ما الرجل ؟



والأب ، بالنسبة إلى بنية في سن ما قبل البلوغ ، ضرب من الممثل الصامت . إنه شخصية خارجية . يذهب ، ويأتي ، ويعود ، ويذهب

مجدداً . إنه « من الخارج » ، كما لو أنه مفصول عن الثنائي أم — بنت . فكيف تستشعر بنية أبائها الذي يتصف بأنه من نوع الذكور ؟ إنها تراه ، ولكنها لا تدركه .

ثم تكبر البنية ، ويبدو الطمث ، وتصيح الطفلة امرأة . ومن المؤكد أنها تستشعر أبائها بطريقة مختلفة كل الاختلاف . ولكن هل تعرفه ؟ وكيف يكون ممكناً بالنسبة إليها أن تتواصل مع أبيها : وأن ترتوي منه ؟

يمكن للمرء أن يتساءل فيما إذا لم يكن الوضع من غير مخرج ، وإذا لم يكن مستحيلاً على فتاة أن تعرف أبائها معرفة عميقة . وبالتالي فيما إذا كان ممكناً لامرأة أبداً أن تعرف رجلاً : والعكس بالعكس ، وفيما إذا لم يكن الثنائي إذن ضرباً من الخديعة ، ووهماً من الأوهام .

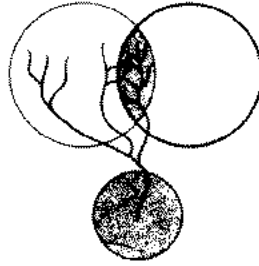
ومن المتعذر معرفة شعب من الشعوب : من عرق آخر ، إذا لم يكن بالحياة معه خلال زمن طويل : وبأن يصبح المرء شبيهاً به . والحال أن فتاة من الفتيات ليس لديها غير القليل من الزمن لتستشعر أبائها . ستة أعوام أو عشرة ، زمن قصير ، في الحقيقة ، بالنظر إلى الفرق الذي يفصل بينهما . وبين البلوغ والزواج ، تمر السنون سريعة . ويبقى الأب سرّاً غامضاً .

وفي هذا المجال إنما تتدخل الأم . وبقدر ما يكون الثنائي حقيقياً ، بقدر ما تؤلف الأم مع الأب شخصاً واحداً . فهي سفيرة الأب ، كما لو أن كل شيء فيها كان يقول :

ها هو ذا العرق الغريب الذي أحبه : أبوك . إنني أعرفه جيداً . لقد

أصبحت جزءاً منه ، وأصبح جزءاً مني . وبإمكانك معرفة أهلك من خلال الثنائي الذي أكوّنه معه .

إننا ، بالتأكيد ، بعيدون كل البعد عن الأمهات اللاتي يوجتهن بنانهن ضد الأب . وتصبح التخطيطية كما يلي :



ويكفّ الأب عن أن يكون غريباً . وتفرض البنت جلورها في الثنائي ، في المزيج الوجداني لأبويها . ويمكنها مندئذ أن تدمج صفات الرنجلة الداخلية لأبيها .

ولكن علينا أن نلاحظ أن الفتاة ، حتى في هذه الحالة المثالية ، لا تلتقط أبابها بصورة مباشرة ، بل من محطة أمها .

وفي نهاية المطاف ، هذا يعني من الناحية العملية :

١ — أن أي فتاة لا يمكنها أن نحقق كلية وجدانيتها إذا كان أبواها لا يكونان ثنائياً موحداً من الناحية الوجدانية ، ملتحمين بعمق ، وإذا لم يكونا « شخصاً واحداً في اثنين » .

٢ — أن دور الأم دور فوق إنساني على وجه التقريب ، لأنه ذو شأن لا يُدرك مداه . فعليها ، أولاً ، أن تمنح ابنتها أنوثة قوية . وهي ،

ثانياً ، تقوم مقام الصاروخ الحامل ، فتضع ابنتها في مدار أبيها ، وفي الوقت اللازم . ويغذي الأب ابنته وجدانياً . ثم إنه ، لكي تكمل الصورة ذاتها ، يساعدها على أن تشعل محركاتها الخاصة وتترك المدار على نحو مستقل .

وهكذا نجحت المراهقة في امتحان عقدة أوديب بالحد الأقصى من النقاط ، وبوسعها الآن أن تدخل حياة الرشد . إنها امرأة فتيّة متوازنة ، فرحة بالحياة ، قادرة على الابداع ، داخلياً وخارجياً ، وقادرة ، بصورة خاصة ، على أن تكوّن ، بدورها ، « ثنائياً وجدانياً » مع رجل . ولن يكون هذا الثنائي ، إياه ، بحاجة إلى أن نتمنى له حظاً سعيداً .

المرأة مدعوّة ، أكثر فأكثر ، إلى المساهمة في أعمال « الحاضرة » ،
لا إلى المساهمة في أعمال « العالم » . فلماذا هذا التقييد وهذا التحديد ،
الذان لا علاقة لهما باعتماد في عجزها ؟

السبب في ذلك أن الحاضرة « أسرة » مغلقة ، نعلم أن بالإمكان أن
تديرها أم طيبة ، حريصة قبل كل شيء على الوجوه الإنسانية .

حيث يتصلّب الرجل أمام عاتَم ، دون أن يعرف من يمسك به ،
تنظر المرأة إلى الموجود الإنساني ، مهملة علامة الشعار المجردة .

أعتقد أن النساء اللواتي حققن ذواتهن أقل غضباً أمام عبوديتهن
القديمة والحديثة منهن أمام عجزهن عن منع بعض الضروب من جنون
الرجال الهدّامة . ويحس هؤلاء النساء ، إياهن ، إلى أي حد يتصف
تدخلهن بأنه ملح وضروري في عالم تورّم من الرجولات الزائفة ، كيما
يضعن فيه ، مجدّداً ، نظاماً وإنسانية تباشيا .

المرأة متّحدية * ، في حين أن الرجل يتخذق ، وهو مصاب
بالخصر ، في فردانية جافة ولا إنسانية .

قد تكون المرأة العادية سعيدة ، أما الرجل العادي فلن يكون سعيداً
على الإطلاق .

(*) نسبة إلى متحد : Communauté

الفصل الثاني عشر

من هي..؟

أشعر أنني أصبحت امرأة حقيقية، حفية وروحياً ، الى درجة أنني أستشعر اللامبالاة إزاء موتى لو حدث في أحضانى الخاصة .
(امرأة صبية فى أثناء التحليل النفسى) .

أو طلب إلى أحدهم : « عرف المرأة ، وتكلم عليها وأنت تحكم ترتيب الكلمات » ، لأجبت :

— هل يمكن أن نشرح عالماً منحنيماً بواسطة المستقيم ؟ أو أن نحفظ بالماء فى أيدينا كيما نعطيه شكلاً ؟ وهل يمكن الإحاطة بإحساسات الحياة ، الإحساسات الواسعة اللى تتصف المرأة بأنها المؤتمن عليها ، بفعل طبيعتها ذاتها ؟ ذلك أن من المتعذر أن نحصر المرأة فى قوانين دقيقة ، مثلما أننا لا نعرف الدائرة بالمربع . فالمرأة شبيهة بمحيط الدائرة الذى تحسبه بواسطة القطر : ثمة دائماً كسر عشري بفوتك ، إلى ما لا نهاية .

وأقول أيضاً :

— المؤنث في المرأة لامتمايز ، ولا صورة له . إنه يُجمل ، ويحيط ، ويتكئف . إنه صبر . إنه يلاحظ ، ويهتر ، ويلتقط ، ويصغي ، ويتلقى رسائل الأشياء . إنه وضوح ، ونافذ بصيرة ، وفطانة .

وعلى الرغم من المظاهر ، ثمة امرأة أبدية ولا ريب . هذه الأبدية هي أبدية نوعها . فمن هي إذن ؟ ماذا تستشعر ؟ وكيف تستشعر ؟ ما الفروق الكبيرة التي تختلف بها عن الرجل ، والتي لا يمكنها أن تمحوها أبداً ، على الرغم من أن بعضهم ينصحونها بأن تفعل ذلك ، مع المجازفة بقاتلها ، في حين أن هذه الفروق تصنع قوتها ؟

والتخطيطية هي ذاتها دوماً : عندما تنفجر مناقشة بين الحسين . فتقعع الهرمونات المذكورة : ويغضب الرجال فجأة . حتى دون بحث الموضوع . وينطلقون في الهجوم . ويرتادون المجهول . متحمسين ودون أن ينتظروا ، مع احتمال أن يسقطوا على الدرب . وما هو موقف المرأة ؟ ليست بهذه الحيوانية وبهذه السذاجة : إنها تنتظر ، وتلاحظ ، وتصمت ، في حين يستمر الرجال . وفي نهاية القليل من الزمن ، تتعب الأفكار من الصراخ ، فتهدى : وتتصدع .

وفي هذه اللحظة إنما تتدخل المرأة . إنها . حتى هذا الوقت ، كانت صامته . وقد يمكن لبعضهم أن يعتقدوا شاردة : وغير معينة : لم يكن ثمة شيء من ذلك . ويرتفع صوتها : ضرب من « نعم ، ولكن . . . » ، يحاول أن يضع بعضاً من الانسجام في صنوف هجوم الرجال ، المفاجيء وغير المنظم . ويعتقد بعضهم أنها تذر السمكة تذهب إلى أن تضل في اليم . ثم تلقي بشباكها لتعيدها إلى الميناء .

وما أن يستقر النظام ، وتوضع الأفكار في مكانها ، حتى تستأنف اللعبة . وينطلق الرجال ، الذين لم يفهموا شيئاً ، أقوى ممن كانوا عليه من قبل .

كل « المرأة » موجود في هذا المثال . أيعتقدون أنها خجولة ؟ إنها ليست كذلك . إنها تصبر وتستشعر . أيقال عنها أحياناً مصابة بالعطالة ؟ إنها تلبث دونما حركة ، تجمع الاحساسات . هل تبدو حكيمة ؟ مشخصة وعملية ؟ إنها كذلك . وهي بحاجة إلى النظام في جميع الأمور : في الأفكار ، وفي الطبيعة ، وفي الناس ، وفي إدارة المنزل . وهي قادرة على أن تصبر طوال قرن ، دون أن تنبس بكلمة . ولكن لا شيء يفوتها . إنها تستشعر ما هو صحيح وعادل . وتصمت وتبتسم أمام حذلق الرجال . ذلك أنها فطانة دون أن تعلم .

وفي مناقشة من المناقشات التي يندفع فيها الصبيان ، ورؤوسهم منحنية وأصواتهم تشق عنان السماء ، تتدخل فتاة بعد زمن من الانتظار :

— ما المرأة ؟ تقول . أنتم تتكلمون على النساء ، ولكنني ، أنا ، أستشعر ما يتصف به « كون الانسان امرأة » . إنها لأسلوب في تصور الحياة ، وموقف إزاء الوجود .

— اشرحني ! قال أحد الصبيان ، الذي كان يرغب في المعادلات .

— لا أستطيع . فليس الأمر هنا (وأشارت إلى رأسها) ، بل هنا (هل أشارت إلى قلبها أم إلى بطنها ؟) . وعندما أقول « امرأة » ، أحس ببطني الذي يتقبض وينفخ . وليس بوسعي أن أقول لماذا . فليست فكرة الطفل هي التي أستطيع أن أمتلكها . . . إنه لشيء آخر ، أوسع وأعظم . . . إنه عالم برتمه . . . إنه لأمر داخلي .

أولاً - المرأة والعاطفة الشخصية

١ - النساء لا يبالين بالمجردات

يبدو لنا ، إذا أصغينا إلى الرجال العاديين (١) ، أنهم يجعلون حياتهم تدور حول ما قد تسميه النساء « الكلمات العظيمة » : « الشرف » ، و « الواجب » ، و « العمل » ، و « الأخلاق » ، و « المنطق » ، و « العقل » ، الخ .

وبالاختصار ، يجعل الرجال العاديون حياتهم تدور حول سلسلة من المجردات . وهكذا ينظر العديد من الرجال إلى الوجود على أنه منصب في ضرب من القالب العام ، المفروض من الخارج . ثم يحاولون أن يمثلوا له امتثالاً ليس بالجليد ولا بالسيف . بل إنهم يمثلون في أغلب الأحيان امتثالاً أكثر سوءاً مما هو جيد ، ذلك أن المرء يمكن أن يكون على يقين بأن أي رجل يتكلم على الشرف والواجب ، فيقول « شرفي » و « واجبي » ، يحتفظ في رأسه بالعمومية المقتننة .

ومع ذلك ، ليس لأي مجرد قيمة إنسانية إلا إذا جعله كل فرد متلائماً مع أنه الشخصية . فمن المتعذر أن يحس شخصان بشيء واحد عندما يتكلمان على الشرف ، أو على أي موضوع آخر من النوع ذاته .

(١) أفهم من الرجال العاديين ، أولئك الذين يمتدنون أنهم يعيشون على العقل المنطقي وحده ، دون أن يخطر في بالهم أن قيمة حياة داخلية ، حياة هي ، من ناحية الكمون ، أوسع من كل المجردات . فالمتقصد إذن رجال « مرضى » ، إذ أنهم انبتوا من جزء من ذواتهم ، من الجزء الأعمى . وبما أن هؤلاء الرجال عديدون جداً ، فإن بإمكاننا أن نقول عنهم إنهم « أسوياء » ، بمعنى أننا نجدهم في كل مكان على كوكبنا ، وأنهم يكونون العدد الأكبر .

ولن تستخدم أي امرأة على الإطلاق هذه التعبيرات العامة ، الجاهزة ،
التي تتصف بأنها ، بالنسبة إليها ، فارغة من المعنى .

وتنظر المرأة مندهشة إلى الرجال الذين يستخدمون هذه الكلمات
اللاشخصية ، والمثلثة بالتالي .

والمرأة مشخصة . ويمكن موازنتها بنواة كرة هائلة . وبما أن المرأة
انتظمت ، منذ مراهقتها ، حول بطنها ، فقد أصبح هذا البطن بالتمريرج
مركز شخصيتها الرمزي . أما الرجل ، إياه ، فانه يتوزع على الآلاف
من نقاط محيط الدائرة ، ويغرب الواقع وحياته الداخلية عن باله ،
دفعاً واحدة .

ولهذا السبب ، فان الرجل العادي يعاني الحاجة إلى أن يتخذ مكاناً
قصياً من الأشياء ، وتلك حاجة مرضية على الغالب . إنه لضرب من
بعد البصر الوجداني . فهو يلجأ إلى المجردات حين لم يعد يستشعر واقعه
العميق .

والمرأة ، على العكس ، قريبة من الأشياء والواقع ، لأنها هي هذا
الواقع . إنه لضرب من حصور البصر الوجداني .

ولهذا السبب كانت المرأة شخصية أكثر من الرجل بما لا يقاس .
إنها تقول : عملي أنا ، بيتي أنا ، وواجبي أنا ، ومنطقي أنا ، في
حين يقول رجل : « الوطن » . وهو عاجز ، على الغالب ، عن أن
يوظف في هذه الكلمة أي قيمة وجدانية . فيحاول عندئذ أن يحيطها
بالمعاطفة ، والطبول والأبواق . ولكن « الوطن » يبقى بالنسبة إليه
فكرة .

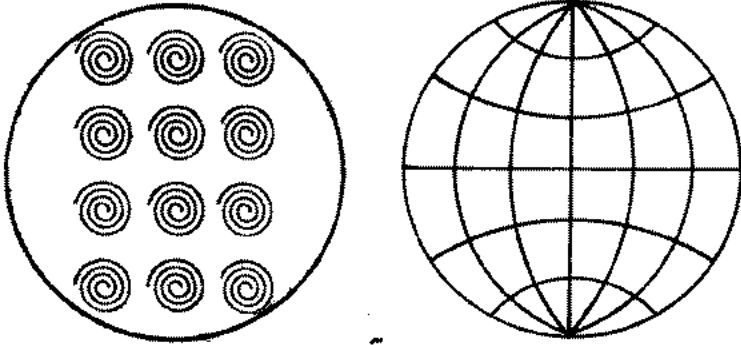
وستقول إحدى النساء : « وطني أنا » . والمقصود ، بالنسبة إليها . أسرة ينبغي المحافظة عليها . فإذا كان ثمة خطر ، ذلك يعني أن عليها أن تحشد كل أولئك الذين يؤلفون جزءاً من هذه الأسرة (كما تفعل مع أولادها) ، فتجمعهم في « حجرها » ، أي في بطنها من الناحية الرمزية .

إذا قال أحد الرجال : « لا بد لهم من أن يمروا على جثتي » ، فإنه يتصدى مجدداً إلى جماعة من الأعداء ، يستشعرهم بصورة مجردة : في حين أن المرأة تقصد : « الغرباء في بيتي (وطني) لن يمدوا أيديهم على مواطني بلدي ، أي على أعضاء أسرتي . وإذا رغبت في إيضاحات بالمثل ، فانكم تجدون منها في أفلام الحرب ، وفي الروايات عن الغرب الأمريكي ، وفي الأفلام السينمائية القصيرة . والمرأة ، في هذا المجال ، أكثر أصالة بعمق ، وأكثر اتصافاً بأنها طبيعية ، وأكثر إخلاصاً بصورة مباشرة : في حين أن الرجل يراهن على القوة المادية .

٢ - كيف المرأة ترى العالم ؟

كثير من النساء ينظرن إلى العالم الانساني ، بسبب هذه التزعة إلى إضفاء الصفة الشخصية على كل شيء ، على أنه تجمع من جماعات صغيرة إثنية أو ثقافية ، كالأسر المنطوية على ذاتها ، التي قلتما تعاشر جيرانها . فليس لديهن نظرة إجمالية عن المعمورة ، في حين أن الرجل يكتفي بنظرة عامة ويهمل الخاص . وتؤثر المرأة ، معتمدة على عواطفها الشخصية بمغلاة ، أن تساعد « أولئك الذين تحبهم » ، مع احتمال أن تجهل « أولئك الذين لا تحبهم » .

فاذا نظرنا إلى الرجل والمرأة من هذه الزاوية ، فان الرجل والمرأة
«السياسيين» بظهران كما يلي :



شكل رقم (٢٢)

الرجل يرى العالم ، على الغالب ، جملة وبيروود ، ودون أن تتدخل عواطفه الشخصية . وتلك هي « السياسة » والاشخصية .
المرأة ترى العالم ، على الغالب ، على أنه مجموعة من الأسر ، هي صديقتها أو على خلاف معها ، المجردة « السياسة » . إنها « سياسة » العاطفة الشخصية .

ولا يعني هذا أن المرأة لا تبالي بأمور العالم ، بل إنها لا « تتعاطى » الأحاديث العظيمة التي يسقطها الرجل في أغلب الأحيان على المستقبل .
كانت إحدى النساء قد قالت لي :

— إنه لمخيف أن يرى المرء أن عدداً قليلاً من رؤساء الدول
شخصيون . إنهم يتوحدون بنظريات أو ببلدانهم . . .

وقالت أخرى :

— رجال السياسة يقومون بحركات ، ويطلقون كلمات رنانة ، ولا يتميزون من أمورهم أو من نجاحهم . ولكن ، أين يوجدون ، هم ، في هذه الأقوال؟ نحن ، معشر النساء ، نبحث دائماً عن الماهية خلف المظاهر .

هنا إنما نجد الهوة الكبيرة التي تفصل بين الجنسين . فالرجل يتوحد بما يصنع ، لا بما هو عليه ، والمرأة تقتضي أن يكون الرجل ما هو عليه .

عندما يصرح أحد الرجال في السياسة :

— إنني أنا النظرية . . . أنا المشروع . . . أنا المثال . . .

. تجيب المرأة :

— نحن الانسانية .

وذلك يعني أمرين : الأول أن الرجل ، على الرغم من أنه يريد أن يكون فردياً ، يمتزج بما يفعل ، ويفصل بصعوبة بين عمله وبين شخصه . ولهذا السبب ، ترغب المرأة في أن تعرف « حياة رجال الدولة الخاصة » ، وهي شغوفة أن تكتشف فيها ، لا الفضائح كما يعتقد بعضهم ، بل وجه هؤلاء الرجال الانساني والشخصي . ذلك أن الفضيحة ، الواقعية أو المختلقة ، إنما هي أيضاً الوجه الانساني لشخص ما كان يبدو أنه ذو وجه إنساني .

والأمر الثاني أن المرأة جماعية ، وشيوعية ، ولكن بمعنى أنها تتمنى لو تحول العالم برمته إلى أسرة . والمرأة محافظة : إنها « يمينية » بعمق ، لأنها حافظت على جذورها . وهي بحاجة إلى التقاليد لأنها حضرية ،

مرتبطة ببيت ها ، ببلد ها ، برئيس ها ، بملك ها ، بجوري ها .
والمرأة ، بوصفها ملتحمة بالحياة ، أضيفت عليها القداسة . والتقاليد ،
في نظرها ، طقسى يديم الجو الأسري .

وجنر هذه المواقف موجود في الطفولة .

فالصبي نزاع ، بطبيعته ذاتها ، إلى أن يهجر أسرته . وأن يهرب
منها ، لا يفعل الميل إلى الاكتشاف (اكتشاف الحياة) فحسب : بل
لأن هذه الأسرة تذكره بعلمه الأصيل كذلك .

أما البنت ، فانها نزاعة : ولو أنها مولعة بالحرية ، أن تبقى في الجو
الأسري ، أو أن تعود إليه : مكان مغلق ودافئ ، أضيفت عليه
الداخلية . فالمرأة ، على هذا النحو ، تنتمي إلى الجماعة .

كانت مدام أنديرا غاندي تقول :

ألا يتصف تنظيم بلد من البلدان بأنه ، على مستوى أوسع ، ما هي
عليه ، على مستوى صميمي ، مهمة سيده بيت ممتازة ؟ فما أن أدخل
مكثي حتى أرى بنظرة واحدة ما يتسم بأنه على غير ما يرام . . .

ولا تبدي المرأة أي حماسة لأن تحترف السياسة ، لأنها تتصف بأنها
سياسية ، أي حلزة ، أمومية ، تدبر كل الأمور بوصفها أم أسرة .

والمرأة ، موجود من موجودات الحاضرة ، لا موجود كوكب
لاشخصي . إنها ، إذا كانت عمدة مدينة أو قرية ، تنظمها بوصفها أم
أسرة . و « الجمهورية » ، و « المملكة » ، لا قيمة لها ، بالنسبة إليها ،
إلا من خلال إنسانية النساء والرجال الذين يديرونها ، ومن خلال أخوتهم .
هل سيكون دور المرأة السياسي ، يوماً من الأيام ، أن يجعل الوجوه

الإنسانية تسكن مجدها هذه الجمعيات التي تسودها « أفكار » المنظرين
الحديثين ، أفكارهم المثبتة ؟

٣ — المرأة والعدالة :

والأمر ذاته فيما يتعلق بـ « العدالة » . فليس بعيداً على الرجل أن
يتوحد بالقانون. إنه يطلب رأس مجرم من المجرمين باسم « العدالة » .
ولن تقول ذلك امرأة أبداً . ولن تفكر فيه .

والمرأة ، أولاً ، تضع كل شيء بالجمع : « القضاة » ،
« القوانين » ، و « اللوائح » ، ولا تفعل كما يفعل الرجل : « القانون » :
و « اللائحة » . إنها ، هنا أيضاً ، بحاجة — حاجة أساسية — إلى أن
تضفي الصفة الإنسانية على المجردات .

وبوسع أحد الرجال أن يدافع ، مخلصاً ، دون أن يدرس « موكله » ،
في حين أن إحدى النساء السويات تكون عاجزة عن تطبيق عدالة ما دون
أن تعرف الوجه الإنساني لمن هو موضوع موضوع الاتهام ، لأنها ترفض
الاشخصية في الكلمات والأفكار .

ولهذا السبب كانت المرأة المدعية العامة ضرباً من العبث . فالمرأة السوية
لا تستطيع القيام بهذه الوظيفة . إنها وظيفة ستكون ضد طبيعتها . وستكون
هذه المرأة عاجزة عن اتهام أي كان باسم هذا المجرد : « القانون » .
ولا يمكنها الغش في هذا المجال ، إذ أنها بحاجة إلى تطبيق حقيقتها
الشخصية قبل أن تنتقل إلى العموميات .

واعتقد أن المرأة تدافع ، في هذا المجال أيضاً ، باسم النظام الأسري
في الحاضرة. وليس بوسعها أن تتصور الجريمة ، بل تتصور هذا المجرم
أو ذاك . وهي تريد أن تفحص الظروف الإنسانية التي قادتته إلى الجرم.

إنه ، بالنسبة إليها ، موجود « ضد المجتمع » ، أي موجود بسبب الاضطراب في الحجيرة الأسرية أو يفسدها ، في حين أن الرجل يقول : « اللاتحة هي اللاتحة » . أو يقول على نحو أكثر نبلاً ، إذا شئتم : القانون قاس ، ولكنه القانون .

٤ - المرأة والعمل

كانت إحدى النساء قد قالت لي :

— إنني مندهشة من أن أرى صديقات لي حزن على الشهادات ، ولديهن إمكانية العمل الحر ، الموجب للاهتمام ، ينكفنن في بيوتن بعد زمن معين من الاهتمامات الخارجية . فهل وقعن في شرك الزي القديم ، زي المرأة في المنزل ؟ .

ويبدو لي أن السؤال لا يكمن هنا . فإذا أحست امرأة أن عملها عمل غير شخصي ، وبمجرد ، فرت في أول مناسبة تسنح لها . وحتى المرأة التي تجاوزت نزعتها الغريزية ، فلا تخرج « من ذاتها » ، ولا « من بيتها » ، بحاجة إلى أن تضيفي الصفة الشخصية على حياتها . وإذا كان العمل المطلوب منها عملاً غير شخصي ، سوّلت لها نفسها أن تدور نصف دورة وهي تفكر : « بيتي الخاص بي » ، و « أسرتي الخاصة بي » . إنها ترغب في أن تجد ثانية عالمها الدائري ، والمنحني ، والمغلق كبطن دافىء .

و « العمل » في ذاته لا يعنيهها . ولكنها تتمسك بعملها إذا كان يوسعها ، على وجه الخصوص ، أن تعمل مع أناس تحبهم . وهي بحاجة إلى أن تضيفي الصفة الشخصية على عملها . إن الرجل يفكر : « إنني »

وزير ، « لاني » مدير هذا المشروع أو موظف فيه . ولن يفكر : « لاني أنا ، قبل كل شيء ، الذي ، فيما بعد ، يقوم بعمل وزارى ، أو إدارى ، أو عمل موظف » . ولكنه يصبح العمل الذي ينجزه ، ويتوحد بعمله .

والمرأة ، على العكس ، تفصل بين شخصها وبين شغلها . وهي بحاجة إلى أن تعمل مع أناس تحبهم ، لأن هذا الشغل ينحوّل ، على هذا النحو ، إلى جمعية أسرية . ويصبح المشروع « بيتها » ، والمكتب غرفة الجلوس لديها ، بل « بهوها » . إنها ترغب في مهنة يكون بوسعها أن توظف شخصيتها فيها : مهنة حرة على سبيل المثال ، فتصنع منها ولايتها وترسخ فيها . ولكن عدم استقرارها كبير إذا كان عليها أن تعمل لشركة مغلقة حيث تشغل وظيفة مغلقة مثلها ، أيا كان شأن هذه الوظيفة . وعندئذ إنما نراها تعود « إلى بيتها » ، حتى ولو كان المستقبل يبشر بالخير العميم . وهي ، على العكس ، تتجذّر في شركة تبقى « أسرية » ، حيث يعرف الناس بعضهم بعضاً ، وحيث لا تزال التبادلات الانسانية مستمرة . وليس من النادر أن تعدّ موظفيها « أبناء » إذا كانت مديرة ، أو رئيسها « أباً » إذا كانت مرؤوسة . وهي ستخلص دائماً بطريقة فريدة .

ثانياً - المرأة والزمن

١ - هاجس المياشر .

يتشتت الرجل ، على الغالب ، نحو مستقبل مجرد يريد أن يغزوه ، في حين أن المرأة تجمع طاقتها في سبيل ما هو مفيد بصورة مباشرة . ويمكننا أن نتخيل حواراً - حوار الطرشان على الغالب - بين الجنتين .

الرجل

— علينا أن نتوقع المستقبل ، ولو أنه لا يزال حليماً . وأباً كان الثمن ، سنحقق فكرتنا في يوم بعد من الأيام . وعلينا أن نمضي دائماً إلى ما هو أبعد ، وأعلى .

المرأة :

— إنكم تعدّون لمستقبل فرضي ، في حين أن كثيراً من الناس ينعفنون حالياً في الفوضى ، والتعاسة ، والحرب ، والجوع .

الرجل :

— الغد هو وحده المهم . والتوظيفات إلى أجل ، تلك التي تتصف بالمجازفة ، هي وحدها التي تعنينا . نحن نفكر بالانسانية ، ولكن الوجوه التي تتصف بأن سمها الوحيدة أنها إنسانية تبفى في الظل .

المرأة :

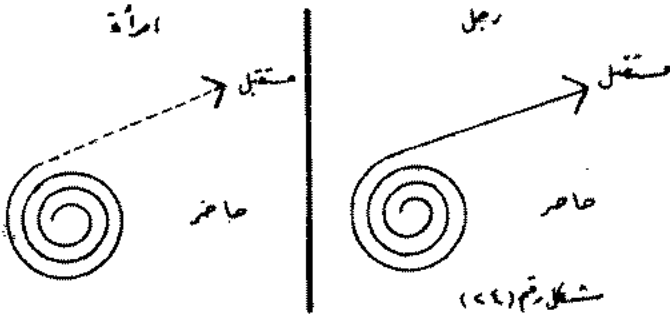
— الآن إنما هو المهم . ينبغي ، أول الأمر ، تنظيم البيت الانساني . ربما كان القمر لا يزال نظيفاً ، ولكن الأرض ليست كذلك . وأسرة الموجودات الانسانية في فوضى ، وفي عدم انسجام . وعليه ، فإن المشخص المباشر هو المهم أولاً . والمعمورة ، بالنسبة إلينا ، أسرة تتألف من وجوه واقعية . وهي ، بالنسبة إليكم ، ليست غير فكرة . وليس لكلمي «بلدان» و «قارات» أي صدى وجداني لديكم . والأعلام والاناشيد الوطنية ، بالنسبة إليكم ، علاقات غريبة من الدلالة الانسانية العميقة . والبلدان ، بالنسبة إلينا ، أسر عليها أن تجتمع في يوم من الأيام لكي

لا تشكل سوى أسرة واحدة . وعندما يتم ذلك ، وعندما يسود النظام في البيت الانساني ، عندئذ نستطيع أن ننطلق نحو المستقبل . فالمستقبل سيكون محصلة اليوم ، متينا ، ومشخصاً ، ومفيداً ، بدلاً من أن يكون مجرد فكرة .

هل ينبغي أن نقول إن النساء قلماً يفهمون هذه المسيرة القلقة ، مسيرة الرجال ، كما أن هؤلاء الرجال لا يحسون إحساساً عميقاً برفيقاتهن الأرضيات ؟

والمرأة ، بفعل بنيتها ذاتها ، تعيش في الحاضر ، وتستشعر الحاضر كما لا يستطيع أي رجل في العالم أن ينعله .

ويحتاج الذكر ، تحركه الهرمونات بالتأكيد ، ولكن يحركه الخوف من الحياة ومن الموت أيضاً . فهو ، في كل لحظة ، يحسب ، ويتنبأ ، وينظر ، ويتبصر ، ويتصرف بالمستقبل قبل أن يمتلكه . ويقوم سقالات من الخطط ، ويركّب بين الأفكار . إنه يقضي حياته بالتفكير : « غداً ، سوف . . . خلال عشر سنوات سوف . . . في أثناء تقاعدي سوف . . . » ويحاول أن يهدّئ خوفه من الفراغ ، فيمضي من مشروع إلى مشروع . إن الرجل نفاذ صير سائر ، ولا يعيش حاضره أبداً . فالزمن يخيفه . وعندئذ يقتل الزمن ، وينسى الحاضر . وهو ، لهذا السبب ، يبدو إلى هذا الحد من عدم الاستمرار ، والضعف ، وإلى هذا الحد من الأرب والعبقرية معاً .



لا يتصرف من أجل الحاضر. يتصرف من أجل الحاضر. لا تنظر إلى المستقبل إلا يسقط أفكاره على المستقبل. يريد الانفلات من الحاضر. عندما يكون الحاضر منظماً. تعيش بشدة في الحاضر.

غير أن المرأة تعلم ، بجسمها ، فحوى كل آن يمر . ويجسمها ، تعرف الاستطاعة التي لا ترحم ، استطاعة الزمن الذي يصنع الأطفال ، والموجودات ، والعالم ، ويهلكهم . لقد عودها جسمها وبطنها على أن تقول لنفسها : « ينبغي فعل ذلك الآن ، وحالاً ، إذن أفعله . . . » وفي هذا إنما تكمن قوة طبعها . ولهذا السبب أيضاً ، تنصف المرأة بأنها سيّالة وقادرة على التكيف كالماء . وهي تتقن مواجهة الألم بقدر ما تتقن مواجهة السعادة ، ثم تنتصب كالمركب الشراعي بعد وقوعه في تجويف موجة من الأمواج . إنها تخشى الموت والحياة أقل مما يخشاها الرجل بما لا يقاس . وهي ، بوصفها قائمة في الديمومة بصورة مرنة ، تستشعر الأشياء والأحداث بوجدانيتها كلها ، وتتكيف حيث يرتعش الرجل . ذلك أن بوسعنا ، ربما ، أن نقول عن موجود إنه طري كبنية ، ولكن ليس بوسعنا ، بالتأكيد ، أن نقول كامراة .

٢ - الإيقاع الداخلي

آ - زمن تنظيم الظواهر الداخلية إيقاعه .

يصبح « البطن » ، أو بالحرى « بطنها » ، مع الطمث ، مركز اهتمام المراهقة . ويمكن القول (إذا تجرأت على المجازفة بهذه الصورة) إن بطنها ، بطن الفتاة ، يصبح ، « المكان الأسمى » لردود فعلها العميقة .

والانعكاسات السيكولوجية لهذه الظاهرة هي التي تعيننا وحدها . فالطمث تغير في الإيقاع السيكولوجي ، ومفروق طرق في أسلوب تصور الأشياء والحياة .

كانت الفتاة حتى هذه المرحلة ، مرحلة البلوغ ، تعيش في زمن ينظم إيقاعه ظواهر خارجية : ساعات النهار والليل ، والوجبات ، ومواقيت الدروس ، والأعياد التقليدية . وما كان عليها أن تأخذ بالحسبان غير ظروف تقع خارجها .

وظهور الظاهرة المبتدلة ، ظاهرة العادة الشهرية ، يقرب كل شخصيتها ، سواء علمت أم لم تعلم ، وأرادت أم لم ترد . فتمت طريقة جديدة في « تقطيع » الزمن ، مفروضة على الفتاة . وثمة شاخصات تم وضعها : تواريخ عاداتها الشهرية . فلم يعد الخارج وحده هو الذي تتلقى منه الأوامر ، بل من داخلها هي . وينقسم زمنها إلى « أدوار » (وهذه ، من جهة أخرى ، هي الكلمة الدارجة) .

ويتخذ الزمن بعداً آخر بالنسبة إلى الفتاة . ذلك أنها ها هي ذي

ملزمة بأن تأخذ بالحسبان ، مرة في كل شهر ، ما يجري في داخلها .
وهكذا يتحوّل الجزء الأكبر من الطاقة التي نجمتها ، من الخارج (ومن
إضفاء الخارجية على ذاتها) صوب الداخل (و صوب إضفاء الداخلية
على ذاتها) .

وتبدأ البنية ، التي كانت سيكولوجيتها شبيهة على وجه التقريب
بسيكولوجية الصبي الصغير ، منعطفاً واسعاً . والأمومة الكامنة ، والمبتوثة ،
والمشعشة ، والمتوقعة ، تشكل عندئذ ، وإلى الأبد ، جزءاً من بنيانها .
ويغزو مفهوم الزمن ، الذي كان حتى تلك الفترة مفهوماً نظرياً ، جميع
مجالات وجودها ، اليومية منها والمتأفيزاتية على حد سواء .

وبينما يتصف الرجل بأنه مجرد مشاهد للزمن ، تعرف المرأة
بجسدها ، أن تسعة شهور ضرورية لإنجاب طفل . إن هذه الشهور
التسعة ، بالنسبة إليها ، شهور مشخصة ، تنضي بالأبام ، يوماً فيوماً .
ويقال إن « لها » طفلاً ، أو بوسعها أن يكون « لها » طفل . ويقول الناس
البسطاء : إنما « تصنع » طفلاً . وهؤلاء الناس البسطاء يحسون إحساساً
صحيحاً . ذلك أن كل شيء إنما يحدث فيها .

ونعلم المرأة إلى أي حد تتصف ، بفعل بطنها ، أنها تابعة للزمن ،
وأن هذا الزمن ضروري ، وينبغي أن لا تحاول مقاومته . فتسعة أشهر
هي تسعة أشهر ، ولا حيلة للمرء في تغييرها .

ويعلم الرجل ، هو أيضاً ، أن الطبيعة تصنع الأشياء وهي تستهلك
الزمن الضروري . ولكنه لا يفعل سوى أن يلاحظ ذلك ، دون أن يعيشه
في ذاته . وبوسعها أن يتفرغ لمشاغله ، ويسافر ، كما لو أن الزمن غير

موجود (١) . فلا حياة ، ولا مادة ، في بطنه ، تذكره بالزمن .

أما المرأة ، على العكس ، فكأنها ملتحمة بالزمن . وجسمها تذكر دائم به . وهي ملزمة أن تضع نفسها في موقف الاصغاء للحياة ، لحياتها هي ، في الواقع ، إذ أن كل شيء يحدث فيها . ولكنها ، من خلال هذا الطفل الواقعي أو الممكن ، إنما تصغي إلى العالم .

والحقيقة أن المرأة هي في حالة الاصغاء إلى العالم ، دون أن تعلم أو تريد ذلك . ولكن العمل الحديث ، في أيامنا هذه ، والنجوع والعبث الحديثين ، تفرض هذا الهوائي تسويجياً ، وتشوش هذا الرادار . وقل لي بربك ، لأي شيء بعدُ يمكن استخدام رادار مشوش ؟

ب - الصبر

المرأة هي الزمن إذن .

والصبر ، شقيق الزمن ، يصبح مألوفاً بالنسبة إليها .

قال لي بعض النساء :

— الصبر ؟ إنه لدينا من الكثرة بحيث يمكننا التعسف في استعماله دون

أن يكون ذلك مطعناً كبيراً لنا .

(١) لسنا ، بالطبع ، نقصد بذلك هنا الزمن « الاجتماعي » الذي تنظم إيقاعه موافيت الرجال الحديثين ، الصلغة النكدة ، بل نقصد الزمن الذاتي ، المأخوذ بأحد معانيه الفلسفية . ولكي نختار صورة ، نقول : هذا الزمن شبيه ببساط يتدرج يجر معه الأحداث ، في حين أن مراقبا ، ثابتاً في مواجهة الحاضر ، يراه ينزلق من المستقبل نحو الحاضر ، ومن الحاضر صوب الماضي . وهذا الزمن الذاتي يمثل بعداً أساسياً للمرأة .

- الصبر هو لانهايتنا
- حملي عدة مرات علمني الصبر .
- قرون من الصبر مضت علينا ، مع ذلك !
- الصبر والزمن شيء واحد .
- نحن نملك جميع ضروب الصبر : ضروب صبر الحب وصبر الكره .
- ليس لصبر المرأة الحقيقية كفو إلا سعة نفسها .
- كانت والدني مسحوقه طوال حياتها ، ونفذ صبرها حتى الرمق .
- صبر المرأة ، صبري ، أحس بهما وكأنهما مياه عميقة ، وفهم كلي . ذلك إنما هو صبر أم تعيد تنظيم الأشياء التي فيها زرع صيانتها الفوضى . . .
- فاذا قرأتهم هذه الأقوال ، رأيتم فيها أن صبر المرأة قوة ، ولكن ينبغي عدم اساءة استعمال هذه القدرة : ذلك أن للمواد الأمتن نقطة تصدع . بيد أن بوسع صبر المرأة أن يجدد العالم ، لأنه مرتبط بالزمن .
- وصحيح أن صبر امرأة يمكن أن يكون لانهايتاً في الحب ، والأمل ، والرعاية التي تمنحها ، والغفران الذي تنعم به ، والأعمال التي تباشرها . ولكنه لانهايتي أيضاً في الحقد الذي تعاقب به ، في بعض الأحيان ، شخصاً من الأشخاص . غير أن المرأة ، إذا كانت هي الزمن والصبر ، هي الانتظار أيضاً . . .

ج - الانتظار

قال لي بعض النساء :

- كل امرأة زوجة بختار . فهي تنتظر العودة .
- تتيح لي امكانياتي في الانتظار أن أصغي إلى الموجودات والحياة .
- نستطيع أن نتظر من نحب زمناً طويلاً .
- تمام النساء نوم الانتظار إلى أن يصل .
- الانتظار ، نعم . أما الركود ، فلا .
- كل انتظار لزوجي يجمع السعادة في نفسي .
- الرجال في حالة يرثى لها . إنهم لا يعرفون الانتظار .
- الانتظار ؟ ثقل ، وليل ، ويقظة ، وسعادة .
- الانتظار معناه التبعة .
- ومن لا ينتظر ؟
- ولماذا الصراخ إلى هذا الحد من القوة ؟ كل امرأة تنتظر دائماً أن تكون ملقت النظر ، وموضع الاختيار ، وموضوع الحب .
- امرأة تنتظر وحيدة ، بجيرة ميتة في الجبل .
- الانتظار . . . خارج الزمن . . . هدوء . . . أن يمتلئ المرء بكل دقيقة .
- والانتظار خاصة من خصائص كل ماهو أنثوي في الطبيعة . إنه

لأمر مؤسف أن يكون طويلاً جداً بيان ذلك ، ونحن نتكلم عن وحيدات الخلية ، لكي نصل إلى الحيوانات ، بعد انعطاف في النباتات . فالبويضة ، في النظام الإنساني ، تنتظر أن ينفذ إليها المنيّ . والأرض ، رمز نسائي ، ألا تنتظر الحرث بالمحراث ، رمز عضو الذكر ؟ أوليس التلم ، رمز الأنوثة أو البويضة ، في انتظار البذار ؟

وهكذا « تخصص » بعض الحجيرات ، في سبيل أن تقدم مدخراً من الغذاء لنبته المستقبل . فهي أيضاً تنتظر . ولكن علينا أن نفهم جيداً أننا بصدد انتظار يجمع الطاقة والمعلومات .

ويلحق هذا الانتظار ، إياه ، باتجاه السلبية . إنه يهيء إضفاء الخارجية على الذات . إنه انتظار البطل الرياضي قبل الانطلاق . إنه الأنوثة ، أنوثة لا صلة لها بالمعطالة التي لا يميزها بعضهم منها في أغلب الأحيان .

ثالثاً : المرأة وحاجتها إلى النظام

١ - حرب الجوارب

- « إنه » يترك جواربه ملقاة في كل مكان ! فهل يحسبني خادمة ، عليها أن تفعل كل شيء ؟

ولكن كلا ، كلا . فهؤلاء النساء ، إياهن ، يندفعون إلى الحرب ، ولكن العدو غير موجود حيث يعتقدن انه موجود . ولندع ، بالطبع ، قليلي التهذيب . ذلك أن ثمة آخرين ، على الرغم من حبههم لزوجاتهم واحترامهم لهن ، ينثرون ، مع ذلك ، جواربهم في زوايا البيت الأربع ، زوايا بيتي « أنا » تقول المرأة .

هذه الحرب ، إياها ، حرب عريقة في القدم ، ومحتومة ، وأبدية .
فهل باليد حيلة ؟

فاذا كان أحد الرجال نزاع ، بطبيعته ، نحو المستقبل ، نسي الآن .
وهذا أمر منطقي . وإذا فكّر في المستقبل — سواء كان المستقبل مصنوعاً
من أمور ثانوية أو من أفكار ينبغي تحقيقها — نسي أن يرتب جواربه .
وهو أمر منطقي أيضاً . إنه شبيه ، شهاً كبيراً أو صغيراً ، بغزاة الفضاء
الذين ينسون تناول فطورهم ، وينسون حتى حياتهم .

والرجل مشتت وفوضوي . ولكن المرأة هي النظام . وترعبها الفوضى
والأشياء التي يتأخر إنجازها . ولهذا السبب ، لا تميز عمل الرجل من
ما هيته . ولا ترى غير الجوارب التي تستخف بها جهاراً .

وعندئذ إنما تصبح المرأة ، واتصافها بعاطفة الأمومة لا يزال باقياً
مع ذلك : « هؤلاء هم الرجال حقاً ! »

النظام ؟ هذا أمر حسن . ولكن هوس النظام يترصدها .

وعندئذ ترتب بيتها ، دون انقطاع ، طيلة ثماني ساعات . فترتب
خزائنها ، ودروجها ، وحساباتها ، ونقودها ، وحاجتها الخاصة بها
وحاجاتها الخاصة به . وترتب العالم إلى خانات لو كانت السلطة ممنوحة
لها . ويصبح العالم مجموعة من النخاريب ، منظماً كل التنظيم ، ولكنه
من غير مستقبل . ولا بلبله كذلك .

ومع الرجل ، إنه السفح الآخر . فهو يزرع الفوضى في كل شيء
إلى حد يسبب فناء الماء ، والأرض ، والمعمورة .

وتصبح الحياة لدى المرأة : التي تندثر شخصيتها تحت حاجة إلى النظام مغالية في الالحاح : ضرباً من التكفير عن الذنوب . وحياة الرجل كذلك : الرجل الذي يهمل أدواته ، ويحمل بقعة على سترته ، وينهض عن المائدة دون أن يفكر بترتيب الأطباق : ويرى امرأته تلاحقه عند كل منعطف من منعطفات الرواق .

ولكنه يستمر مع ذلك في ترك جواربه ملقاة في كل مكان .

وهكذا اعتمد عدد من المتحزبات لحقوق المرأة على الجوارب ، وعلى وقائع من هذا النمط . ليباشروا حرباً . حرب المئة عام ، دون أن يفهموا أن المرأة متجهة نحو الحاضر ، والرجل نزاع إلى المستقبل .

٢ - تبديل المنزل والحالة الاكتئابية

هذا الولوج بالنظام يشرح من جهة أخرى لماذا كانت الحالات الاكتئابية لدى المرأة أقل تواتراً . بصورة عامة : منها لدى الرجل . فالمرأة هي تلك التي تعيش في علاقة مشخصة ، مستقرة و « سحرية » بالأشياء . إنها تلك التي « تلقي برقيتها » على الأشياء ، تلك الأشياء التي تصبح عماد استقرارها وسنداها .

فإن « تقع في الاكتئاب » امرأة بعد تبديل المنزل ، أمر كثير الحدوث مع ذلك . إنها تدعى التعب ، وهذا صحيح في بعض الحالات . ولكن هذا الاكتئاب العارض يحدث لأنها تائهة . وأعني بذلك أنها لا تفلح في أن تجد وجهتها في الشخص من حياتها . ذلك أن تبديل المنزل قطعة مع نظام مغال في التشخيص . والعالم . بالنسبة لهؤلاء النساء : عالهن ، إنما هو النافذة إلى اليمين ، والكوب إلى الشمال ، والملقعة في جزء معين .

من درج معين . من صوان السفرة . فأن تتدخل حالة اكتئابية ، أمر يمكن فهمه عندئذ . لأنه كان عليهن أن يخرجن من عالم شديد الانغلاق ، مغال في التنظيم حول البيت ، بيتهن . وحول انطوائيتهن واستقرارهن المغالين .

٣ - هل المرأة حيادية من الناحية الأخلاقية أم لأخلاقية ؟

من المتوقع أن تدافع المرأة ، دفاعاً غريبياً ، عن الأخلاق ، لأن الأخلاق تحدّد هدفاً لنفسها هو أن تضع النظام في السلوك الإنساني . ولكن ، هل فرويد هو الذي كتب يقول يوماً :

— . . . يتردد المرء في أن يقول ذلك بصوت عال ، ولكن نفسه تسوّّل له أن يستخلص أن الأخلاقية ، بالمعنى الذي نتصوره ، لا تجد إلى نفس النساء سبيلاً ؟

كثير من النساء ثرن أمام هذه الأقوال ، لأنهن فهمن فهماً خاطئاً ما كان يقصده فرويد . كما أنهن كن قد احتقرن أنفسهن عندما كان فرويد يؤكد « سلبية » المرأة .

وكانت المعادلة تبدو واضحة : امرأة لا تجد الأخلاقية إلى نفسها سبيلاً (أخلاقية الرجال) كانت تعني امرأة مستهترّة لأخلاقية . ولكن المعادلة كانت تعرج . وفي هذا المجال أيضاً ، نكتشف الحاجة إلى التجريد لدى الرجل ، ونزعة المرأة إلى إضفاء الصفة الشخصية على كل شيء . يقول الرجال : « الأخلاق ! » . فجعلوها منها ، والرؤوس مطأطئة ، تجريداً جديداً يحاولون ، فيما بعد ، أن يمثلوا له ، في حين أن عبارة « أخلاقي الخاصة بي » ، ليست عبارة زجل ، بل عبارة امرأة .

فلنحدّد بعض المصطلحات ، دون أن ندخل في متاهات الفلسفة

التي لن تأتينا بشيء . ولنلاحظ : أول الأمر : أن ثمة بوناً شاسعاً بين شخص حيادي من الناحية الأخلاقية : وبين شخص لأخلاقي .
والموجود « الحيادي من الناحية الأخلاقية » يعني :

— أنه موجود لا يبالي ، من الناحية الوجدانية ، بالقوانين الأخلاقية .

— أنه لا يأخذ القوانين الأخلاقية بالحسبان ، دون أن يكون معارضاً

لها مع ذلك .

والطبيعة . والحيوانات ، والاشعور الانساني ، وكذلك إحساساتنا ، وعواطفنا . وحياتنا الداخلية ، كلها حيادية من الناحية الأخلاقية .
ويدنو إذن أن كل ما هو طبيعي بصورة أصيلة . حيادي من الناحية الأخلاقية .

وحيادي من الناحية الأخلاقية كذلك أي شخص لا يعتقد بالقوانين الأخلاقية « المسبقة الصنع » . و « المنقنة » . و « الأخلاق » : بالنسبة إلى هذا الشخص ، لا وجود لها إلا بوصفها صُوى ، يحترمها المرء على وجه التقريب ، ويأخذها بعين الاعتبار لأسباب شتى .

ويدنو لي أن الموجود الحيادي من الناحية الأخلاقية ، لا بد أن يكون :

— موجوداً شديداً الضعف . فالطفل الصغير حيادي من الناحية الأخلاقية ، ذلك أن الأخلاق لا معنى لها بالنسبة إليه . وبعض الأشخاص الطفاليين ، أو المنحرفين والمرضى العقليين الذين لا يحسون بالفرق بين الخير والشر ، هم حيادبون من الناحية الأخلاقية ، لأن الأخلاق لا معنى لها بالنسبة إليهم .

— موجوداً شديداً القوة ، موجوداً قادراً على أن يكتسب أخلاقه .

«الخاصة به» . لخيرها الخاص . وخير الآخرين . ويقضى هذا التلاؤم الدائم . والإيجابي ، مع الظروف ، زوال الخوف وتحقيق الذات تحقيقاً أصيلاً ، واستقلالاً داخلياً كبيراً : إنه يقضي : بعبارة أخرى ، تفتح الوجدانية . ولم يعد الموجود بحاجة ، في هذه الحال ، إلى اللوائح الأخلاقية . والسيد المسيح ، بهذا المعنى ، حيادي من الناحية الأخلاقية . والأخلاق ، كما هو معلوم لدى كل فرد ، تدرس الخير والشر ، والمباح والممنوع . ولكن لا بد للأخلاق من أن تتغير ، بما أن قواعد السلوك تتطور وفقاً للمعصور وأشكال المجتمعات . فنتلك قاعدة أخلاقية أوربية غير سارية المفعول في آسيا ، وليست سارية المفعول كذلك ، في أيامنا هذه ، بعض القوانين الأخلاقية التي كانت سائدة بالأمس . و « الأخلاق » إذن . بمعناها العام . مجردة . وغير مستقرة . وذات توازن عارض . فهي : من جهة ، تعلن أوامر ، وعليها ، من جهة ثانية . أن تتلوّى بحسب الظروف .

وفي هذا المجال ، تتصرف المرأة بأسلوب نعرفه جيداً : إنها تظل غير مبالية بـ « الأخلاق » ، صناعة الذكور المجردة ، لأنها لا توظف لديها أي صدى وجداني .

والمرأة حيادية من الناحية الأخلاقية في أعماقها ، وليست لأخلاقية. « القانون » لا ينطوي ، بصورة عامة ، على أي دلالة بالنسبة إليها . وليس بوسع المرأة أن تنفصل عن الطبيعة ، ولا عن الحياة . ولا تمثل أخلاق الرجال ، بالنسبة إليها . سوى مظهر سطحي جداً من مظاهر الوجود . ولباس من الألبسة الجاهزة . واستثنائية تحترمها احتراماً مبهماً ومن بعيد ، وكأنها آبد من الأوابد التاريخية .

فهل هي إذن من القوة بحيث يمكنها الاستغناء عن القوانين الأخلاقية ؟
إن موضع السؤال في مكان آخر . فالمرأة معيّنة بقاعدة أخلاقية عندما
تدركها من خلال وجدانيتها هي ، وإحساساتها الشخصية هي . وإذا
كانت « البطولة » تذرهما لامبالية . فإنها تساهم . على العكس ، ببطولة
أولئك الذين تعرفهم .

وستفكر المرأة :

- لا يمكن وجود أي أخلاق جاهزة . ويحترمها الجميع . ذلك أنه
لا وجود لغير الأشخاص الذين لهم وجدانيتهم الشخصية : ودوافعهم
الشخصية .

وهذا ، ولا ريب ، هو ما يمنع المرأة من أن تكون ، على الإطلاق ،
لأخلاقية ودينية في بعض ضروب الاختلال في نظام الحياة . ألا
نرى عدداً من النساء يمررن في حالات تعارض « قوانين » الأخلاق
(وحسبنا أن تفكّر بالبغياء) . ولكنهن يحتفظن بضرب من براءة في
النفس : وعطف أمومي . بتركان أصحاب النزعة الاخلاقية والتهذيب
الأخلاقي في حالة من الدهول ؟

رابعاً : المرأة والرجل موجودان لا يرتد أحدهما إلى الآخر

١ - الحكمة والمغامرة

لنتخيل بعض النساء والرجال وقد انحصروا في جزيرة مهجورة .
إنهم . معاً : يجرّون غصون الأشجار . ويسبرون الغابة . ولا تقطّب
النساء جبينهن في العمل . فكونهن يجدن الراحة في العمل : أمر لا يعود
إلى أيامنا هذه .

ولكن . ما أن ينتهي صنع الزورق . حتى يتفجر الفرق دفعة واحدة .

يقول الرجال :

— أي قارب جميل هذا ! . . . ولكن ماذا يوجد هناك ، خلف هذا الأفق ؟ إن علينا أن نرتاد ونغزو هذا المجهول الذي يغربنا ويخيفنا .

فتقول النساء :

— نعم ، إنه لقارب جيد . ولكن ثمة أعمالاً تنتظرنا ، أعمالاً مباشرة ، ومشخصة ، ونافعة . أرجؤوا استكشافكم إلى وقت آخر . والأجدر أن تستخدموا القارب في الذهاب إلى الصيد . ثم نستطيعون أن نذهبوا إلى الاكتشاف .

ويقول الرجال :

— أنتن لا تفهمن . فكيف يمكن أن نلبث في المكان مع هذا المجهول المقلق الذي يستخف بنا ؟

فتقول النساء :

— المجهول إنما هو الحاضر . ينبغي ، أول الأمر ، أن نستعيد قوانا ، ونجدد طاقاتنا ، ونتهيأ لما قد بطراً . فلا بد ، أولاً ، من تنظيم جزيرتنا . ثم نستطيعون أن نذهبوا صوب جزر أخرى .

ويقول الرجال :

— المستقبل . . .

فتقول النساء :

— الحاضر أولاً . فثمة أعمال أكثر نفعاً من حساباتكم .

صدّقوني ، ليس هذا الكلام الملغز غير ذي قيمة . إنه يمثل مشاهد
أسرية . ويتيح أن نفهم كثيراً من « الأمور » التي تحدث في العالم .
وقد ينفق الرجل ، سريعاً وإلى الأبد ، في هذا الآفاق البعيدة التي تجتلبه ،
لولا المرأة وحكمتها الخذرة .

والمرأة تعيد المغامر إلى الميناء ، وتتهيء للرحلة القادمة باستثناء
ما إذا صمغت الرجل إلى الأبد .

ذلك أن المرأة ، إذا كانت ، بفعل خصائصها الطبيعية ، تتصرف
بحيث يعيش الآخر ويحقق ذاته معتمداً عليها ، فقد يحدث لها أيضاً أن
تبرّ جناحيه ، فلا يبقى منهما غير التنف .

يصبح الرجل ، بفعل المرأة ، شاعراً أو قاعداً بيته ، متحمساً أو
هزيبلاً ، غازي المستقبل أو صاحب دكان .

ولتنزل إلى الشارع لحظة . أصبحوا السمع قليلاً في كل مكان .
تذكروا الاختلاف : موضوع حديثنا .

في مخزن السلع الفوتوغرافية .

قال البائع للزبون :

— خذ هذه القطعة الاضافية لآلة التصوير لديك . فستستطيع على هذا
النحو أن تعالجها — إلى أن تعرفها معرفة تامة .

(*) الكلمة المقابلة بالفرنسية هي بمعنى يعمل « م » .

وقالت البائعة للزبون نفسه :

– خذ هذا الفيلم هدية . سنستطيع أن نشحن آلتك وتفرغها ،
وأن تعبث بها وتلعب كما يحلو لك .

وفي أحد الاعلانات :

– متى تنتهي من اللعب بآلتك؟ (وتبدو هنا علامة تجارية لأحد
الآلات الفوتوغرافية) .

ماسمعناه ونحن مارون :

ثمة رجل ، في مرآبه الخاص . يضبط محرك سيارة يصدر دويًا
كبيراً ظافراً . قالت له امرأته . التي كانت واقفة على عتبة الباب .
بلطف :

– متى تنتهي من مباحكة محرك سيارتك ، ألا تذهب للبحث عن
خبز لي ؟

– خلال ربع ساعة . بقي لي بعض العمل : منافذ الدخان . . .

– كان عليك أن تقود سيارتك إلى الميكانيكي . ذلك كان أكثر
حكمة !

فلماذا تتكلم النساء عن يماحك ، يعبت ، يلعب . في حين أن
الرجال يلفظون بكثير من الجدية كلمة العمل ؟ ولماذا في مثال القارب ،
كان قارباً جيداً بالنسبة إلى المرأة . وقارباً جميلاً بالنسبة إلى الرجل ؟

٢ - عبقریات يوم الأحد

ومن المفيد ، من غير أن تبهرنا مع ذلك نزعات الرجل الطبيعية ، أن نذكر بحاجته إلى إضفاء الخارجية على ذاته ، وإلى الغزو والكشف . وأن نذكر بتزعة الأساسية إلى الترحال ، وبحاجته إلى التعجب المتحمس ، وبمشروعاته وحماساته وإنجازاته .

إنهم ، على هذا النحو ، مئات الملايين ، غزاة الأحد ، ورواد الأفكار في لحظاتهم الضائعة ، التي تتصف : في الواقع ، بأنها لحظات نصر على رتابتهم اليومية .

كانت طفولتهم زاخرة بالأحلام ، لأنهم كانوا يريدون في أنفسهم أن يكونوا ، فيما بعد ، مبدعين وصانعين « شيئاً ما » .

أما الآن ، وقد انطفأت الأحلام ، وانقضت كل إبداعية بين الأضابير ، والآلات المغضلة ، والرؤساء والمواقيت ، فهم يفكرون بيوم الأحد الآتي بلهفة .

ذلك أن يوم الأحد سيشهد ثأرهم ، واستعادة رغباتهم - رغبات الطفولة . فهؤلاء الرجال هم رواد الأفكار القلماء ، وغزاة قلماء ، وكانوا قد بلغوا الثامنة من عمرهم في ذلك الزمن : ولكن ماذا بهم ، فأحلامهم كانت موجودة هناك ، في متناول اليد .

والآن ، إنهم ينتظرون ، في أثناء الأسبوع ، وخلال ثماني ساعات في اليوم ، أن تمر الأيام ، وتنقضي الليالي : وتنتهي رتابة الحلم البشع . وهم يعملون من أجل البيت الصغير ، والحمام الصغير ، والتقاعد الصغير ، والموت الصغير .

ولكنهم يقولون في أنفسهم : بصورة غامضة ، إنهم : في أثناء هذا التقاعد ، سيستردون طفولتهم ، وسيستعيدون ... أخيراً - هذا العمل الخلاق الذي كان يلازمهم منذ زمن طويل .

وهكذا يلتقي مدخل حياتهم ومدخل مათهم في إبداعية مستعادة . إنه يوم الأحد . فالرغبات القديمة تطفو . إنها لم تعد سوى فقااعات ايست ذات صلة قوية بغليانات العهد الماضي . ولكن ماذا بهم : إن جول يصنع رفاً جدارياً ، وليون (يحرقت) في كهرباء بيته ، ولويس يرسم منظراً : وألير بصنع بعناية سلماً في الحديقة . والسلم مستقيم على وجه التقريب ، ومتوازن على وجه التقريب . ولكن ، يا للشيطان ! أولاً يبحث هؤلاء الشعراء ، والرسامون ، والفيزيائيون ، والبنائون ، والنجارون ، والميكانيكيون : مهما يكونوا خرفي ، عن أن يظفروا ببعض الزمن من ضروب خدرهم اليومي ؟

هواية : تلك هي الكلمة التي يطلقونها على ما يفعلون ، (وهي كلمة غبية إلى حد ما *) . ولكن هذه الاهتمامات ، إياها ، كما ترون ، هي الدهشة الوحيدة الباقية لهم على وجه الاحتمال ، والكشف الوحيد الذي لا يزال مباحاً لهم . إذن ، فلنحييهم .

ذلك أن الموجود الذي لا يبدع أبداً موجود ميت .

(٥) المقابل الأجنبي الذي استخدمه المؤلف هو الكلمة الانجليزية **Hobby** ، وهو يعدها غير مناسبة كثيراً . أما نحن ، فقد استخدمنا المقابل « هواية » . ونعدها مناسبة جداً للتعبير عن هذه الحالة . لذلك وضعنا العبارة ضمن قوسين لتلفت نظر القارئ إلى أن الكلمة الانجليزية هي المقصودة بالعبارة ، لا المقابل العربي « م » .

والشرط الوحيد أن هؤلاء الرجال يبدعون وهم يلعبون ، وأنهم يلعبون وهم يبدعون ، ويتسلون . فتذكروا فابر ، العالم الإحصائي بالحشرات . كان أحد الأشخاص يرثي لحاله قائلاً : إنه كان عليه أن يتعب نفسه في ملاحظة الحشرات على هذا النحو ، طيلة حياته ، باسم العلم . وأجاب فابر : « باسم العلم ؟ إذا شئت . . . إنني سعيد أن يستفيد العلم من ذلك . أما أنا . فقد تسلّيت كثيراً ، على أي حال ! » ذلك أن الرجال الأسوياء لا يعملون من أجل « الفن » أو « الفيزياء » . وسواء كانت لهم عبقرية عظيمة أو موهبة زهيدة ، فإنهم يسخرون من المجرّدات المنفخّمة . إنهم يتسلون .

ويعلم جيداً هؤلاء الرجال ، لويس وأليير وجول . . . أن ما يصنعونه يباع ، جاهزاً ، في أول مخزن تصل إليه : وبشمن أرخص بكثير من ثمن المجموعة المتناسقة من الأدوات التي كان عليهم أن يتزوّدوا بها .

ولهذا السبب ، دعنهم ، يا أيتها الزوجات ، يفعلوا ، وساهمن فيما يفعلون ! وقلن إنكن لن تفهمن رجالكن ، إلا إذا كانت لا تزال إبداعيتكن الخاصة ، وقدرتكن على التسلية ، تتنفسان .

فأن ينهمك ، في هذا المجال ، رجل في أفسال* جديدة من الورود ، أو أن يعمل في غزو الفضاء ، أمران لا ينطويان إلا على فرق في الكم لا في الكيف . وذلك شريطة أن يكون هذا الرجل سوياً من الناحية السيكلوجية .

ولفهم الآن جيداً : إن الرجل بحاجة شديدة . في بحوثه وإنجازاته ،

(*) عالم إحصائي بالحشرات . فرنسي عاش بين (١٨٢٣ - ١٩١٥) « م » .
 (**) أفسال : مفردُها فسل : غصن أو جزء من غصن يفصل عن النبات ، ويفرس ليعطي نباتاً جديداً « م » .

إلى نظرة عميقة من المرأة. ذلك أن الرجل الذي ينسبط باستمرار نحو المستقبل ، يتصف بأنه في صيرورة دائمة . ويبقى ، من جرّاء ذلك ، في طفولة مستمرة . وأنا لا أقول : على الإطلاق ، إنه طامعي ! ولكنه : طيلة حياته ، طفل مصاب بالدهشة . وهو يريد ، في بحثه هذا ، أن يجعله بحث اثنين ، المرأة إلى جانبه . شأنه في ذلك شأنه أنه كان ، وهو طفل ، يفتش عن نظرة الاستحسان — والتواؤم — من أمه : عندما كان ، وهو يلعب لعبة الراشد ، يمزق بنظاله خلال جولاته .

إنه بحاجة إلى مساهمة زوجته ، لأنه يبحث عن الحماسة التي ترداد صدى حماسه .

إنه يرغب في أن تشاطره زوجته فرحه بالعمل الرائع .

٣ — عندما المرأة تجندل الرجل وهو في كامل انطلاقته

ولكن ماذا لو أن المرأة لم تعد تمتلك الحماسة ؟ لو أن دهشتها انطفأت ؟ لو أنها أصبحت عاجزة عن اللعب وهي تبتدع ؟ انظروا ثانية إلى بطاقة هويتها تروا كيف أن بوسعها أن تغرق سرباً في ضروب من السلوك السليبي .

المرأة ذات استعداد مسبق
— للحياة التي أضفيت عليها
— انطواء على الذات .
الصفة الداخلية .

— للصبر
— انقياداً كالحا، وصمتاً مستهجناً .
— للتحضر .
— تعذر الخروج من ذاتها ،
وتعذر إضفاء الصفة الخارجية على
هذه الذات .

(*) المقصود هنا أن تصبح حضرية ، أي مستقرة « م » .

— للأفكار والأعمال — نزعة واقعية مثليجة ، وفقدان
المشخصة . المخيلة فقداناً كاملاً .

— للممارسة . — نزعة نفعية .

— للوضوح العميق . — تهكماً هداماً .

— للعب المبدع . — عجزاً عن اللعب .

في العمود الأيسر ، نجد ، على سبيل الحصر ، صفات أصحابها التالف .
كما لو أن الشمس أصبحت ضباباً وأمطاراً .

فما السبب ؟ البنت موجود ينضج سريعاً . وسريعاً تواجهها المادة
(مادتها التي تخرج منها) ، والحياة (الحياة التي تصير في بطنها) .
وسريعاً تفتح عيناها منذ الرابعة عشرة من عمرها أو الخامسة عشرة ،
في حين يستمر الصبي ، بمشقة ، في البحث عن معنى هذا الوجود الذي
لا يمكنه أن يحس به في جسمه .

يبد أن الفتاة تنضج ، في بعض الأحيان ، على نحو يغالي في السرعة .
وترى نفسها ، وقد انحصرت في عقدة أوديب التي لا مناص منها
وأوقفت بين أبيها وأمها ، أنها ملزمة بأن تؤمن لنفسها نعم المعسكرين .
فتبتاطاً حياتها الوجدانية ، وتكاثف ، وتتوقف .

إنها ، عندئذ ، لم تعد قادرة حتى على أن تبني القصور في إسبانيا .
فتتجه ، بصورة نهائية : نحو حاضر أخضر مزرقي ، لا تفلح في الخروج
منه . ويصبح المستقبل ، والأفكار ، والمشروعات ، كلمات فارغة من

(٥) إشارة إلى الخيال الذي فقدته « م » .

المعنى . ولا تدرك أفكار الرجل ، كبيرة كانت أم صغيرة . فتتراكم الضغائن في بيوت الزوجية .

وتبقى المرأة عندئذ مسترة بحاضر نفعي ، كما يتسمّر تمثال بقاعدته .

وتسقط في نزعة واقعية باردة . إن رجلها كانتا من قبل ، بفعل طبيعتها ، على الأرض . أما الآن ، فهي تغوص فيها ، ولم تعد ترى شيئاً من السماء . وتصبح نزعتها الواقعية حساباً ، دونما أدنى انطلاقة نحو اللانفعي ، والمرح ، ولذة الحياة . وهي ، على الغالب ، تنتقل إلى معسكر الأشقاء والبخلاء والورثة الذين يتخاصمون على مرق مورث ميت . ولم تعد ترى ، ربة منزل كانت أم تعمل في الخارج ، غير المباشر ذي المردود . وجفت كل دهشة لديها .

وهي إنما تخفق ، عندئذ ، إبداعية الرجل . فتضد ، ساخرة دونما رحمة ، « صبيانيات » الرجال . وترعد وتندم ، لأن الرجل « يضيع وقته » في « مباحة » الأشياء ، مع أن ثمة أموراً كثيرة ينبغي أن يقوم بها . والرف الخلداري ؟ إنها تشتريه من مخزن على بعد مئة متر . وليس لديها الوقت للانتظار حتى يفرغ زوجها من تسليته ، لكي يثبت براغي رفته . ومن المؤكد أنها لم تعد تفهم مهندسي بوم الأحد الذين يعملون في مفحّم * سيارة ، طيلة ساعات ، مع أن الميكانيكي قد يرتب كل شيء في ثلاث دقائق ، وبكلفة أقل .

ويخفي الأزواج رؤوسهم بين الكتفين ، خجلين كباتيست ، وحيدين بصورة يائسة .

(*) مفحّم : Carburateur

يضاف إلى هذا أنهم يشعرون بأنهم مجرمون ، الأمر الذي يمكن فهمه جيداً . فكروا إذن ! زوجاتهم لا تريد غير النافع ، ويرفضن اللعب . فالمرأة تطلب ما له مردود . والحال أنهم يتسلون ، ويروق لهم هذا العمل الذي تصفه بالمحاكمة . إنهم يعلمون أن هذه (الحرققة) ليست ذات مردود . ويشعرون أن هؤلاء الزوجات ، اللواتي هن من الجدية بحيث أصبحن ضرباً من الشهود السود الذين لا يتحركون ، تتربصن بهم ، وتطارذنهم ، وتنتقدنهم ، وتستهنجنهم .

والحدود ، مع ذلك ، متعرجة ، لدى النساء والرجال على السواء . فأين يقف المعنى العملي للمرأة وأين تبدأ نزعتها النفعية الجافة ؟ وإبداعية الرجل ، في أي لحظة تنصب في المجرّد الدخاني ، أو في التسلّيات التي لا تناسب عمره وظروفه ؟

ذلك أن اللعب بقطار كهربائي ، طيلة ساعات ، أمر غير سديد ، وإن كان أمراً سديداً لإصلاح قطار كهربائي بشغف . فأنا أعلم أن هذا إنما هو حلم الطفل . كان يرغب لنفسه أن يكون موظفاً في سكة حديدية ، في طريقه نحو الآفاق . ولكن هذا الأمر يغيظ مع ذلك .

وتبقى ، في جميع الأحوال ، هوة بين الرجل والمرأة ، يتعنبر ردمها ، لأنها تشكل جزءاً من طبيعة الجنسين .

ها هو جول ، مرحباً ، يقدم الرف الجداري إلى زوجته . هل إنجازه رائع ؟ وتلاحظ زوجته أنه رائع . ولكنها ، على وجه العموم ، لا تذهب إلى ما هو أبعد من الملاحظة ولن تسأله أبداً : كيف فعلت ؟ كيف جمعت هذه الألواح بطريقة هي على هذه الدرجة من الكمال ؟ كيف توصلت إلى ذلك ؟

ذلك أنها تعنى بالنتيجة ، لا بالطريقة التي تم فيها الإبداعية .

ولتتصور أيضاً أن جول مهندس ، ويلقي بالحسور على الحفر .
فكونوا على ثقة أن زوجته تستعجل استخدام الجسر ، بصورة عملية
جداً ، ولكنها قلتما تسأل « كيف » تم تخيل هذه الانطلاقة ، وهذا
المنحني ، وهذه الحفة . ولن تنظر إلا إلى العمل المنتهي ، القابل
للاستخدام ، دون أن تهتم بسلسلة الابداعيات والبحوث التي جعلته
ممكناً .

وهذا هو السبب الذي من أجله يسخر الرجال ، على خطأ ، من
النساء اللاتي لا يميزن المفهم من حساب التفاضل . إنهن غير معنيات
بالطريقة التي « تسير » فيها الآلة ، بل معنيات بمجرد كونها تعمل ،
وبمجرد كونها نافعة . أما الباقي ، كما ترون ، فمن « شؤون الرجال » .

ولكن « عليهن » أن لا يندهشن ، وأن لا يصبن بالاهتياج ، إذا
أمضى الرجال ساعات في المناقشة معاً ، وفي البحث والبحث أيضاً :
سواء كان الأمر (حرققة) ، وصيدا في البحر ، ولعبة كرة ، أم كان
رياضيات عالية .

وإليكم هذا القول : ذلك ما يذكرني بملاحظة للوزير دو فيلموران :
« إن الأكاديمية الفرنسية هي المكان الوحيد الذي لا يزال بوسع الرجال
أن يتسلوا فيه معاً ، شريطة أن لا تدخلها النساء » .

٤ - ولكن المرأة تستطيع إنقاذ الرجل

بعد الظلام ، يأتي النور . وبعد المرأة التي تجتمد الرجل ، ها هي

المرأة التي بوسعها أن تنقذه من أخطائه ، ومن صدمات عبقريته التي
يمكن أن تكون كارثية ، أعني من أمراضه .

آ - نفاذ بصيرة المرأة « المرعب »

قلت إن المرأة ضرب من الرادار . إنها تعلم كل شيء ، وتحس
بكل شيء . وليس لها مثيل في تمييز الصحيح من الخطأ ، والماهية من
المظهر . ولكنها تجهل ذلك . فهي شبيهة بهذا البستاني الذي يكشف
بغريزته زهرة صناعية انزلقت في حزمة الأزهار .

تذكروا المرأة التي كنت أتكلم عليها فيما سبق . فهي تذر الذكور
بتلهون بالأباطيل ، ويحسبون كيفما اتفق ، ويركضون دون نظام . وهي
تنتظر ، ولكنها ما أن يصبح فقدان النظام فوضي ، وتتفجر النظريات
وكأنها ألعاب نارية لا مستقبل لها ، وتراهم يجذفون نحو أفق يبتعد
بصورة نهائية بسبب انعدام النظام لديهم ، حتى تتدخل وتعيد الصيادين
الضالين ، وتشعرهم بعث سلوكهم . ثم يستأنفون إبحارهم ، بعد أن
تكون المرأة قد أصلحت البوصلة .

إنها ، بالاختصار ، تقول ما ينبغي أن تقول ، وتفعل ما تقتضيه
الحكمة أن تفعل . أو كذلك ، إنها تحس ، وهي تعرف الطبيعة الحقيقية
للأمور معرفة لاشعورية ، بأخطار ضلال الذكر ، وبالقصور في كلامه ،
الذي يفضي ، بصورة حتمية ، إلى القصور في أفعاله .

فجزء المرأة الأنثوي يمنحها التصاقاً حقيقياً بالطبيعة . والمرأة ملتحمة

بالواقع . فاللوث ، في المرأة ، أنتولوجي * ، يكشف الأشياء في ذاتها ،
ويضرب صفحاً عن المظاهر .

كانت إحدى النساء قد قالت لي :

— إنني أنزعج من سماع الرجال يمجّدون نجاحاتهم وأفكارهم .
ولكن من هم هؤلاء الرجال ؟ إنهم لا يتسرب الشك إلى أنفسهم في مدى
ما نحس بهم كما هم ، وكأنهم عراة . فلماذا يمدعون أنفسهم ؟
واستأنفت تقول :

— النساء تنزلن الأفعال إلى المستوى الثاني . فالماهية هي التي تعيننا .
ونحن نعرف أموراً كثيرة دون أن يكون بوسعنا التعبير عنها ، لأن لغتنا
داخيلية وليست ، وليست عقلانية كلغة الرجال . فبالعقل ، يمكن البرهان على أي
شيء ، حتى العبث . ولكن الداخل لا يفش أبداً ، ويود لو أن بمقدوره
أن يفعل غير ذلك . فنلث ، ونحن لا نستطيع أن نقول بصورة واضحة
ما نشعر به ، مشاهدات عاجزات في عالم مزيف ، لديهن الرغبة في
الصراخ بجرأة لا مثل لها دون أن يستطعن ذلك ، إذ أن طريقتنا في جس
الحياة متناقضة كل التناقض مع طريقة الرجال ، وبالتالي منبوذة .

إنني أعرفك كما لو أنني صنعتك ! : إنه مجرد كلام امرأة
أو أم .

(*) الأنتولوجي : هو المنسوب إلى الأنتولوجيا (علم الوجود) والأنتولوجيا ،
حسب تعريف أرسطو ، هي العلم الذي يبحث في الوجود في ذاته مستقلاً عن أحواله وظواهره
أر هو علم الوجود من حيث هو موجود . وهذا المعنى ، فالأنتولوجي هو المتعلق بخصيصة
الوجود ، لا بظواهر الوجود (مأخوذ عن « المعجم الفلسفي » ، الدكتور جميل صليبا) « ٣٠ » .

ويحس الرجل بأن نظرة المرأة تضغط عليه . وقلت إنه يخشاها . فيحيد
عن هذه النظرة الصامتة ، البصيرة .

ونفاذ بصيرة الأنثى تثير حصر الرجال . فلماذا ؟ ألاهم يعلمون أنهم
شوهوا كما هم ؟ هذا أمر لا ريب فيه ، ولكن ثمة ما هو أكثر .
فلنجر ضرباً من العودة إلى الوراء . ولنتذكر كم يخشى رجل من الرجال
أن يكون لا شيء . وكم يرتاع من العدم ، عدمه ، وإلى أي حد يعلم—
بالرغم من مظاهر نجاحه الخارجية — أنه قليل الأهمية .

ولنتذكر أيضاً : المرأة هي الشاهد الطبيعي للضعف الانساني . إنها
تعلم ، حتى وهي طفلة ، أن كل طبيعة إنسانية ثلوم وعابرة . وتستطيع
أن تقول للرجل ، وهي تشرع على هذا النحو في غناء معاكس لهذه
اللازمة المضجرة ، لازمة الذكور ، التي قرأتوها :

— إنني صانعة الحياة ، حتى دون أن يكون عليّ أن أقوم بعمل .
فالحياة تستطيع أن تم فيّ ، لمجرد أنني موجودة . وبطني هو البوتقة
التي تنبعث فيها الحياة من لا شيء . إنني في وضع بمكثتي من معرفة
كيف بدأت ، وكيف انتقلت من اللاشعور الكثيف إلى الشعور الهزيل ،
القصير الأجل . وأراك تمسك بشبابك وشخصيتك الوهمية ، وبأعمالك
التي تأمل أن تدوم بواسطتها ، وبشبابك الذي ترغب أن يكون أبدياً ،
و « بمظاهرك » التي توهمك بأن أي شيء لا يمكن أن يحدث لك . ولكنني
أعلم ، أنا ، وأعلم بصورة عميقة ، أنك موجود بين محطتين ، وليس
ثمة شيء أكثر . وأنظر بدهشة كم تتكلم ، وتهتاج ، كيما تنسى ما
أنت عليه .

والرجل ؟ إنه يعلم أنها تعلم ، وأن هذه المرأة تقيمه بقيمتها الانسانية الصحيحة ، وأنها لا تثق بالضفادع التي ترغب في أن تكون ثيراناً .
وأنها تعيد إلى الأشياء مكانها الصحيح وقيمتها الحقيقية ، دون أن تريد ذلك .

ويرتجف الرجل لاشعورياً ، وقد استولى عليه الخوف ، والحجل ،
والذعر ، والعدوانية ، أمام هذا « الشاهد » الذي يحس بكل شيء
يصدر منه ، عبر الفعل الأكثر ابتدالاً والأكثر سعة على حد سواء .

قال لي أحد الرجال :

— أعاني الاحساس بـ « أنهم » يرين من خلالي . ولا يقن شيئاً ،
ولكنهن يفكرون بذلك . وعندئذ أقدم آيات الاحترام والتبجيل .

وقال لي أحد المحامين :

— ما أن تراقبني زميلتي ، حتى أفقد خيط أفكاري . وذلك ليس من
الحجل إطلاقاً ، ولكن كما لو أن نظرتها كانت تعني : « هذا لا يندع ! »
وذلك ما يحدث ، على وجه الخصوص ، عندما أنطلق في « إقلاعة كبيرة »
مع المبالغة فيها . فهل لأنني أنا ذاتي ، لا أثق كثيراً بهذه الانطلاقة ؟ إنني
أشعر أمام نظرتها أنني جردت من ثيابي .

والرجل ، الخطيب المرموق ، إنما هو الذي يلجلج ، في الحياة
العادية ، عندما يرتفع حاجبا إحدى النساء تهكماً . إنه اجتماع المتحذلقين
الذكور ، حيث يمجّد الواحد منهم شذقيه بأمتارهما الثلاثة طولاً ،
شذقين لا يصدقهما الآخرون مع ذلك ، وينتظرون المناسبة لعرض

مآثرهم الخاصة . ولكن الاجتماع ، الصباح والحماسي ، يتوقف على الفور عندما تدخل زوجة أحدهم . لماذا ؟ لأنهم يحسون بأن المرأة يمكنها أن تقول : « ثمة أمور أكثر اتصافاً بأنها مشخصة من تبيجاتكم . فأنا أعلم أنكم لستم غير أقنعة ، وأنكم ، في الحقيقة ، تلبثون صبياناً صغاراً » .

وباختصار ، إن إدعاء الشجاعة ، أمام المرأة ، يفضي إلى الاستسلام ، اللهم إلا إذا لجأ الرجال ، تعويضاً ، إلى مضاعفة الادعاء بالشجاعة . ويفهم المرء لماذا يرتجف الرجل . فلا تحمله المرأة محمل الحد . إنها ترى ما هو كائن فيما وراء المظاهر ، وتُشغل ضروب التعويض الزائفة بكلمة واحدة . ويتعرض الرجل ، في كل آن ، إلى خطر أن « ينكشف قناعه » ، كما تكشف أم قاسية ، على نحو يتسم بالوضوح ، قناع طفلها . ويحس الرجل أن المرأة « لا تُخدع » ، وأنها تريد الحقيقي والمتين . ويمكننا أن نكرر العبارة التي ذكرناها أعلاه : « إنني أعرفك كما لو أنني كنت قد صنعتك » .

ب - المرأة تعدل دفة المركب :

قليل من المنطق : إذا كانت المرأة العادية والمتفوقة قادرة على اكتشاف ضلالات الرجال ، ألا يكون دورها أن تقوم هذه الضلالات ؟ أن تعبد هؤلاء المغامرين ، معامري أعالي البحار الذين هم الكثير من الرجال ، إلى الإلاه الحقيقي ؟

نعم ، أعتقد ذلك : إنها خبيرة بالأخطاء المرتكبة ، ومجبولة على تعديل دفة المركب .

ذلك أن المرأة إذا كانت تنحرف نحو عيوب صفاتها ، فإن الرجل

يضع سريعاً في ضروب من القصور المرضية . فأن يكون لدى المرء ثم يحققها ، ذلك أمر حسن جداً . أما أن ينزلق نحو مجردات ومفاهيم خالية من الحياة ، فذلك ما يلحق بالعبث والمرض . وإذا كان الرجل « ينتقل سريعاً » بين الأفكار ، فمن المحتمل أيضاً أن يهرب فيها، وأن يضع مغموراً بها ، ولم يعد يحس بشيء .

وهؤلاء الأشخاص الذين أتحدث عنهم ليسوا شعراء ، بل مصابون بفصام في الشخصية (١). والمأساوي في الأمر أنهم يبنون فلسفات أو مثلاً ، ومنظومات تقنية أو امبراطوريات مالية ليست قائمة على أفكار مشخصة ، ولكنهم يسوّغونها بواسطة عقلنة علمية .

والواضح أن هؤلاء الرجال يهربون من شيء من الأشياء . فلماذا أصبحوا جبال تلج طافية إنسانية ، في حين أنهم كانوا يمتلكون وجدانية كغيرهم من الناس ؟ ولماذا أصبحوا تكنولوجيين لا تقنيين ، وأصحاب نزعة ثقافية لا مثقفين؟ ولماذا بنوا عالماً من الأشياء ، لا عالماً من الموجودات ، بدءاً من أنفسهم هم ؟

لقد كتبوا وجدانيتهم ، ولكنهم يجهلون ما دام الكبت يهدف إلى الاحتفاظ ، مطموراً ، بما يمكن أن يكون شديد الخطر ، أو مؤلماً ، على توازن الشخصية .

إن مجهراً عقلياً قد يكشف ، في معظم الحالات ، آثار طفولة أجهضتها أم . فصورة الأم، الصورة الذهنية المثالية ، ابتعلت كل شيء . بيد أنهم ، ولتكرر ، يجهلون هذا الأمر . ووجدانيتهم توحدت

(١) انظر : « الانتصارات المذمومة لعلم النفس الحديث » .

بأن يستشعرونها سيئة ، أو شديدة الخطر : أو خائفة . وهذا هو السبب الذين من أجله لا يستطيعون أن يزهروا . فاللؤث فيهم مختلط بأهمهم ، وبطفولتهم التي يكرهونها . هذه الأم علمتهم الخوف من الوجود . فاللؤث ، والحياة الداخلية ، والعبودية ، والمشاركة في الوجود العميق ، أبواب جهنم بالنسبة إليهم .

وعندئذ يتعاطون مخدراً هو هذه الحنات الصناعية التي هي «الأفكار» . ولكن اذهبوا وقولوا لهم : إن ذلك بعيد بقدر بعد طفولتهم التي يسعون إلى الهرب منها ، والتي لا يريدون أن يبقى منها غير بعض المزيق المذمبة . فعواظهم تحولت إلى جليد . ولكن كيف لهم أن يعرفوا ذلك ما داموا لم يعودوا يحسون ؟

إنهم ، حقاً ، هؤلاء المصابون بفصام الشخصية الذين ينجحون غالباً في المجالات التي لا يروج فيها الإنساني والمبدأ . فهم رجال قدماء انحطوا إلى مجرد رؤوس باحثة .

قالت لي إحدى النساء :

— ثمة عدد من الرجال ليسوا غير أفكار تسيير . وليس عالمهم غير عالم من الأفكار . فهم لا يعيرون اهتماماً لسلام الناس إذا كانوا سياسيين ، حتى عندما يعتقدون العكس مخلصين . إنهم يجهلون إلى أي مدى لا يأخذون الشخصية الإنسانية بالحسبان ، على الرغم من احتجاجاتهم بالإنسانية . والفكرة في ذاتها هي التي تعنيهم وحدها . وهم يختبرون عندئذ تجارب مبنية على أفكار مع احتمال تدمير أنفسهم وتدمير العالم في الوقت ذاته . وهؤلاء الرجال لا يريدون الحرب ، ولا السلم ،

ولكنهم يثيرون الحرب ، أو يصنعون السلم ، وهدفهم الوحيد أن يتحققوا من فكرتهم . فكيف يمكنهم الاهتمام بالناس في الحاضر والمستقبل ما داموا لا يفكرون الا بصورة مجردة ؟ ولكن النساء إنسانيات ، ومن المرجح أن يكون أسريا عالم يتألف من النساء .

والمرأة السليمة ، بغريزتها، شأنها شأن الكلب الضرو ، تستشعر الفرق بين رجل يبحث ويكتشف بغية ضرب من التحقيق المناسب للحياة ، وبين رجل يلوّح بالأفكار ، يلوّح بمجردات لا وجود لها .

وهي ، بغريزتها أيضاً ، حذرة من التقنية ، لا من التقنية في ذاتها . ولكنها تعلم إلى أي حد يسقط الرجل سريعاً في التكنولوجيا ، وإلى أي مدى يتصف بأنه جاهز ليجعل منها منظومة خالية من الفرح واللب .

وتستشعر المرأة ضروب العبث هذه ، وتشمئها من بعيد ، وتكتشفها منذ أن تقرب . ولكن كيف يمكنها أن تقول ذلك أو أن تنادي به صراحاً ؟ إنها تابع في عالم الذكر . ولم يسبق لها أن كانت قدماً بمثل ما تتصف به في أيامنا هذه . إنها إنما تعمل لمصلحة الرجال . وعندما يستأجر هؤلاء الرجال امرأة ذكية ، فإنهم يزيلونها . وقد رأينا ذلك ، من حيث هي شاهد . ويجعلونها متواطئة معهم ، فيحولون ، على هذا النحو ، بينها وبين أن تتكلم وتفضح .

فكيف يمكن للمرأة أن تقول ما تعلم ، وفمها مكموم ويدها مقيدتان ؟ وهي ، بطبيعتها ، غير قادرة على أن تعبّر عن نفسها بصورة مجردة . فتبقى ، في هذا المجال ، عاجزة . لا يمكنها سوى الملاحظة : مثلها في ذلك مثل شخص يراقب الغيوم . ويعلم بغريزته أن السفينة

ستغرق . في حين أن قائدها يعتمد ، بصورة عمياء . على آلات مصابة بالخلل .

ج - الوجه الآخر لنفاذ البصيرة

هل المرأة نافذة البصيرة ؟ هذا أمر مؤكد . ولكن ، ماذا يحدث إذا غيّر اتجاهه نفاذ البصيرة هذا ، وغيّر هدفه ، وانعطف نحو الظلام ، وتجمّع بغية التدمير بدلاً من أن يكون بناءً ؟

ذلك هو الوجه الآخر للقلادة . انظروا حولكم : « لإنهن » عديدات . فنفاذ بصيرتهن يصبح لدغة ، ونكاداً ، وتهكماً ، وهزءاً ، وسخرية . والأنكى أنهن ينجحن تسع مرات من عشر . وهنّ ، لأنهن نافذات البصيرة ، يتقنّ اللدغ : في المكان المؤلم على وجه الدقة . ومهاجمة ضعف وخطأ وسمة من سمات الطبع . ويعاودن الكرة دون هدنة ولا راحة : مصوّبات على اللريثة نفسها دائماً . وثمة بعض الرجال الذين يعرفون شيئاً من ذلك . ولا حيلة لهم سوى أن يحكّوا : متهيجين ، هذه الضروب من اللدغ .

إنهن نافذات البصيرة بالتأكيد ، لأنهن يمسسن النقطة المقصودة على وجه الدقة . ولكن ، كأن نفاذ البصيرة هذا متمحور على التدمير ، يحدّده ضرب من « الحبث » الناشئ من خيبة الأمل ، والحسد ، والإحباط ، والمهانة . فيحاولن أن يفضين الرجل . والمرأة ، وقد خيب أملها ضرب من « ضعف » الرجل ، تذكّره بذلك ألف مرة إلى أن يصلح نفسه ، حينئذ ، ثم يُظهر نفسه ثانية أنه السيد الذكر الذي كان يرغب في أن يكون .

فهل يبدو إذن أن هؤلاء النساء بحاجة ، على نحو لاشعوري ،
إلى أن يكنّ مغلوبات ، كيما يكون بوسعهن الاعجاب ثانية بالرجل ،
وقد أصبح الأقوى مجدداً ؟ ولكن نفاذ البصيرة هذا — الكلام الخبيث
اللاذع — يفضي ، على وجه العموم ، إلى ثلاثة حلول خاطئة أيضاً :

١ — إذا توارى الرجل تحت الجروح السامة ، أعلنت المرأة نفسها
شهيداً : مهجورة .

٢ — إذا الرجل نكّس العلم ، احتقرته المرأة لكونه لم يعد
الذكر الذي ينبغي أن يكون .

٣ — إذا خرج الرجل منتصراً في المناوشة ، كان موضع إعجاب
ودلال .

والحلول الثلاثة تقودنا بعيداً جداً عن الأصالة . وها هما ، من جهة
أخرى . مظهران آخران سلبيان من مظاهر نفاذ البصيرة . ولنتذكر .
أول الأمر . أن الأنوثة كالماء : لامتمايزة ، وعديمة الشكل ولكنها
يمكن أن تتخذ كل الأشكال . فاذا نظرنا من الجانب السلبي ، فإن
الماء يحيط ، ويحاصر بصمت ، ويتسلّل بمكر .

ونفاذ البصيرة المناوش صورة من صور حرب الغوار ، ذات المظهر
المؤنث على نحو نموذجي (لدى المرأة) ، وكذلك لدى الرجل الذي
انحدرت أنوثته) .

وحرب الغوار حرب لامتمايزة . فهي تصل من كل مكان ،
ومن كل جهة . إنها ليست ذات شكل : فالعدو يلبث غير مرئي ،
وضبابياً ، ورخوياً . وحرب الغوار حرب « مظلمة كالأعماق البحرية » .

والمناوشات تحدث ليلاً ، وبصمت . ويمكن القول : إن جماعة من
المغاوير تمثل الموقف المؤنث لجيش من الجيوش ، أي موقفه « الأنثوي »
(عملاً في الظلام ، ومناورات الهدم المعنوي ، وخنق الخصم بصورة
تدرجية ، وقسوة وجرأة في الهجوم المتغير رأياً وموقفاً ، والمتكرّر دون
انقطاع) . ونكتشف في حرب الغوار كذلك معصومية الأنوثة من
الجروح : فمن المؤكد أن جماعة من المغاوير ، أقل تعرضاً للتهديد بما
لا يُقاس ، بفضل مرونتها وقدرتها على التلاؤم ، من جيش « قضبي »
يتقدم مستقيماً ، ومجاهة ، وفي وضوح النهار .

وهدف حرب الغوار على وجه العموم ، وهي السلاح المفضل لدى
العديد من النساء ، نيل حق ، أو تحقيق رغبة . وحرب الغوار تؤلف
تكتيكياً يمكن أن يخيف الخصم ، وقد أخافه كما رأينا فيما سبق .

القصد المبطن سلاح آخر لكثير من النساء ، مشتق من نفاذ البصيرة
السليبي كذلك . والقصد المبطن يصيب الهدف أيضاً . فقوامه بثّ كلام
خداع ، وفریات ، وكلام مبطن . والقصد المبطن ، شأنه شأن حرب
الغوار ، لامتمايز ، ومن غير شكل ، ولا يمكن أن يقع في قبضة اليد .
ويوسعنا ، من بين الحالات الأكثر شيوعاً ، أن نذكر الرسائل المغفلة
(التي تنسل كالماء) ، والصمت « الذي يحدثك عنهن طويلاً » (الذي
يمثل تهديداً صامتاً) ، والتسميم المادي أو المعنوي (الذي « يولج »
السم) .

وعلى هذا النحو نكتشف ثانية رمز الماء ، بمظهره السليبي . وغني عن
البيان أن القصد المبطن هو ، دائماً ، صنع النساء أو الرجال الذين انحطت
أنوثتهم .

خامساً - ذكاء المرأة

١ - بعض المقاربات

الجنسان لا يمكن أن يكونا على درجة قصوى من الحساسية مثلما يكونان حول موضوع الذكاء . فهما يتصارعان لكي يؤكد كل منهما أولية ملكة ليس أي منهما مسؤولاً عنها أبداً ، ولم يتمكن ، من جهة أخرى ، علم النفس ، ولا الفلسفة . ولا علم التوجيه الحديث ، من تحديدها .

والحيلة معروفة لدينا : فكل فرق بين الرجال والنساء يتم تأويله على أنه فرق في الكيف ، وتم ترجمته ، على نحو مباشر : بمصطلحي «الدونية» أو «التفوق» . والناس ، على سبيل المثال ، يعلنون عن فرق بين الجنسين إذا قيل إن الرجل يفكر عموماً بطريقة مجردة والمرأة بطريقة مشخصة . ولكنهم : رجالاً كانوا أم نساء . يتعجلون اعطاء هذا الفرق ضرباً من مفهوم « القيمة » .

والناس ميّالون ، من جهة أخرى ، إلى أن لا يأخذوا بالحسبان غير النتائج المرئية لما يسمونه الذكاء . فيقال : « النساء ذكيات ، إذ أن السيدة س كانت من علماء الرياضيات الكبار ، أو « الرجال أذكاء ، إذ أنهم اخترعوا هذا أو ذلك » .

وبوسعي أن أقترح عليكم هذا الشرح ، شرح **رافيسون** ، من بين مئة وأربعين تعريفاً للذكاء : « يشير الذكاء إلى المعرفة الجنسية والمباشرة بقدر ما يشير إلى المعرفة التصورية والاستدلالية » .

أولا يبدو أن هذا التعريف يجعل المرأة والرجل على وفاق ؟

بيد أننا لا بد من أن نذكر ، قبل أن نمضي إلى ما هو أبعد ، أننا انبعثنا جميعاً ، رجالاً ونساء ، من حالة لاشعورية عميقة . والنوعان ، من حيث هما نوعان ، نوع الذكور ونوع الاناث ، لامتمايزان قطعاً ، وبرقيان ، وكامنان . وعلى هذه الحمأة العامة إنما تتكوّن فقاعات ، فتصبح نساء أو رجالاً ، وذكوراً وإناثاً معاً ، وإناثاً وذكوراً في الوقت نفسه ، بالنظر إلى أن كل فرد يحتوي على نسبة أكبر أو أصغر من « الأنوثة » و « الذكورة » .

٢ — لنعد إلى القطبين

نحن نعلم أن كل امرأة سوية تمتلك جزءاً مؤنثاً راجحاً (القطب المؤنث) ، وجزءاً مذكراً (القطب المذكر) يحتاز على النسبة التي تبقى . و « جرعة » المؤنث والمذكر مختلفة ، بالطبع ، لدى كل فرد .

وثمة سؤال يطرح نفسه : كيف يعمل ذكاء كل من هذين القطبين؟ نحن نعلم أن الأنوثة والذكورة اتجاهاً إزاء الحياة ، وطريقتان في الاستجابة للظروف . ولهذا السبب ، فإن ذكاء المرأة يغيّر صورته آلياً إذا انتقلت من اتجاه من اتجاهات الأنوثة إلى اتجاه من اتجاهات الذكورة .

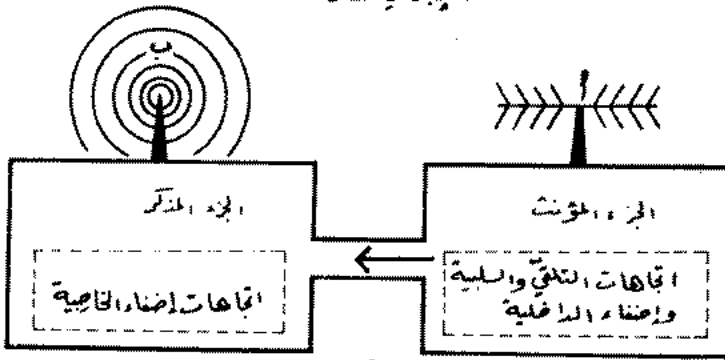
فالنقطة الأهم هي إذن ما يلي :

— إن صورة كل ذكاء ، وتعبيره ، وعمقه أو سطحيته ، منوطة بالوجدانية قبل كل شيء ، ومنوطة ، بالتالي ، بحالة هذه الوجدانية (متفتحة أو متقلصة ، سليمة أو مريضة) .

الخزان آ — إنه الخزان المترامي الأطراف ، خزان اللاشعور ، والوجدانية ، والحياة الداخلية . هذه الصورة من الذكاء تغوص في الواقع

العميق من الوجود ، كالمعرفة . وهي صورة مصنوعة من الاحساسات .
 إنه إذن ذكاء محض متلق ، ومرن ، ومتكيف ، وسيّال ، ومتحرك ،
 ومصنوع تأملات صامته ، وضروب من الالهام التي تراكم ، ومنبع نفاذ
 البصيرة . إنه الذكاء غير العقلائي ، ذكاء سعادة الحياة وقوة الطبع . وهو
 مصنوع من حيوانية فرحة ، ومن مشاركة مع الأشياء والموجودات ،
 مشاركة عفوية لها ألوان قوس قزح . هذه الصورة من الذكاء هي في
 حالة إصغاء للآخر : لا لما يقول أو يفعل ، بل لما هو عليه .
 وقد سميت هذه الصورة من الذكاء الذكاء الدافئ ، لأنها ملتصقة
 بالحياة .

الذكاء الإجمالي للمرأة



شكل رقم (٢٥)

الذكاء « الدافئ »

الذكاء « البارد »

إنه مؤلف من إحساسات وحلوس ، ويتصف بأنه متلق . شعورية . ويتصف بأنه صلب ، إنه هوأي الحياة ، و « يوصل » وخطي . إنه مرسل ! (منطق ، بالوجود ، وهو موصول بنشبية وآراء واضحة ، وتأليفات : مباشرة عليه . ويتم بأنه لامتمايز . وتوقعات ، الخ) . ونمو هذه إنه يستشعر . ونمو هذه الصورة من الذكاء منوط بالطريقة الذكاء منوط بالطريقة التي تقبل التي أتقن بها الأب واستطاع بها الفتاة أمها أو ترفضها ، وتدمجها «تنشيط» شخصية الفتاة . أو تنبذها .

إنه ذكاء الأنوثة أو . إذا شئت ، ذكاء القطب المؤنث لامرأة .

الخزان ب — إنه خزان الشعور ، والعقل المنطقي ، والفكر الاستدلالي . وهو الذكاء الذي يبرز إلى الخارج بطريقة واضحة . وهذه الصورة من الذكاء تضع في « معادلات » ما يصعد من الخزان آ . ولهذا السبب سمّيته الذكاء البارد .

إنه ذكاء الذكورة أو ، إذا شئت ، ذكاء القطب المذكر لامرأة .

٣ — سدّادات وممرات حرة

الوضع بالنسبة إلى الذكاء كالوضع بالنسبة إلى الطاقة : فكل فرد زوّد منه بقدر ، على نحو كامن ، منذ ولادته . والآلات الضرورية استقرت بصورة نهائية ، وتمت الألعاب . وعلى كل موجود إنساني أن « ينمّي » ذكاه بصورة مثالية . الأمر الذي يعني ، في الواقع

أن يعرف كمية الذكاء التي كان قد اختص بها، وأن يبلغها ويستخدمها .
ولنكرّر ، فيما يتعلق بالمرأة ، أن جزءها المؤنث يتصف ، عادة ،
بأنه أوسع من جزئها المذكر . و « خزانها » آ ، وهو أوسع من ب .
يجعلها تعيش على صورة الذكاء التي تتعلق به ، أكثر مما تعيش على صورة
الذكاء المتعلقة بالخزان ب . فالمرأة ، إذن قبل كل شيء ، ذات ذكاء
دافئ ، مع كل ما يرافق هذا الذكاء من اتجاهات لإزاء الحياة مشتقة
منه .

**ومن الواضح أن ضرباً من الانتقال الحو بين الخزائين أمر لا غنى
عنه للذكاء إجمالي.** ولكن الحياة كلما تقدمت إلى الأمام ، صنعت على
الغالب سدّادات متينة : فشمسة العديد من النساء ، اللاتي كن ، في البدء ،
يتملكن ، مع ذلك ، خزاناً راثماً آ وخزاناً في منتهى الإتقان ب ،
اصطدمن ، خلال طفولتهن ومراهقتهن ، بالأخلاق ، والخوف ،
والحصص ، وبموانع أخرى . لقد سمعن يتردد « أن المنطق والمحاكمة
وقف على الرجال » . ومُنعن من التعبير عن آرائهن وشخصيتهن .
وضللن دربين ، على وجه الخصوص ، خلال عقدة أوديب . وكان
لهن أمهات أعطينهن مثلاً سيئاً عن الأنوثة ، فلوئن الخزان آ على هذا
النحو . وكان هن آباء لم يتقنوا تعليمهن كيف يعبرن عن ذواتهن في
الخارج ، فسدّوا ، من جراء ذلك ، مدخل الخزان ب . بحيث أن
الانتقال بين الخزائين أصبح سيئاً ، أو أنه توقّف .

عندما يكون الخزان ب غير مستخدم

تلك هي الحالة الغالبة . والمرأة . عندئذ ، تملك في بعض الأحيان

ذكاء داخلياً مدهشاً . إنها « تحس » احساساً شديداً ، ولكنها لا تفلح في « التعبير عن ذاتها » . وثمة كتلة من الإحساسات تغزوها ، وبروق حقيقية من الحدوس تنفذ إليها. إن اللاشعور يأكل هذه المرأة : **فد كاؤها الدافئ منضغط في إناء مغلق ، لا قدرة له على الانتشار في الخزان ب . وهي تصبح عاجزة عن المحاكمة المنطقية ، وعن التعبير عن ذاتها بالطبع .** إنها النوع من النساء الذي يقول : « من المرجح أنني سأقول حماقة ، ولكن ألا تعتقد أن . . . » .

إنها تبتس ، بهذه الجملة المبتذلة ، أنها لا تعرف إمكانات الخزان ب . يضاف إلى هذا أنها ، بدلاً من أن تقول ، قبل أن تعلن عن رأي ، « أعتقد أن . . . » ، تستجدي دعم الآخر ، وربما ترى رأيه ، وعلى الأخص إذا كان هذا الآخر رجلاً (انظر إلى ما سيأتي فيما بعد) .

إذا كان الخزان آ ملوثاً

ثمة بعض النساء اللواتي يفقدن الاتصال المباشر بوجدانيتها العميقة التي يكتبتها . ولم يعد هؤلاء النساء يستشعرن شيئاً هاماً يتصف بأنه أصيل أو عفوي . فيصبحن ذوات نزعة فكرية ، وعقلانيات بافراط . لهن ، بوصفهن مريضات من الناحية الوجدانية ، شبيهات بهؤلاء الرجال الذين تحدثت عنهم : لقد كففن عن أن يكنّ فنانات الحياة لكي يصبحن مهندساتها المسآحات . وانفصلن عن ذواتهن . ويمكن القول : إن محاسنهن تنقصها الحرارة . والحقيقة أنهن يعملن ، بصورة خاصة ، على الخزان ب الذي يغذيه الخزان آ تغذية سيئة . فالعنفة تدور ، ولكن ضغط البخار في عجز . لهن أولئك النسوة ذوات الذكاء البارد ، الذي يتجمد منذ أن يفقد الخزان آ استطاعته .

٣ - المرأة والمنطق

إذا فتحنا باب السقف ، الذي يوصل إلى الأفكار المتبدلة ذات العلاقة بالمرأة ، كان من المحتمل أن تندرج كتلة هذه الأفكار على رؤوسنا . وثمة رأي مسبق ، راسخ كل الرسوخ ، مفاده أن المرأة ينقصها المنطق . ومفاد الرأي المسبق الثاني أن المرأة تثقل كالهواء . والرأي الثاني نتيجة للرأي الأول . أما الثالث : فمفاده أن المرأة تمارس الكذب ببراعة مذهلة .

٤ - الأنوثة والذكورة أمام المنطق

والحماقة الأولى لثقي هذه الآراء المسبقة تكمن في أنها تضع جميع النساء في حَوْش واحد . والضلال الثاني يكمن في الزعم بأن « المرأة » كل امرأة ، ينقصها المنطق . ولكي تفهم ذلك جيداً ، لا بد لنا من العودة إلى الأنوثة والذكورة ، اللتين تتألف منهما كل شخصية إنسانية .

القول إن الأنوثة منطقية أو غير منطقية لا ينطوي على أي معنى .
الأنوثة تلتقط ، مثل الهوائي . فهل الهوائي منطقي ؟ إنه في حالة الإصغاء ، نعم . ويتلقى « الرسائل » . ولكنه يتلقاها جملة ، ومن غير تنظيم ، ومختلطة ومترجة ، ودون أي اصطفاء ، وفي لاتمايز كلي .

ينبغي القول إذن : إن الأنوثة ، الموجودة في كل امرأة (وفي كل رجل) ، لا عمل لها مع المنطق . ذلك أن المنطق ، الذي يتصف بأنه خطي ومحكمة دقيقة والذي يقفز من نقطة إلى أخرى ، ينتمي إلى القطب المذكور . إنه ليس الهوائي ، بل الجهاز الاصطفائي على نحو كامل .

ويُصدر الجزء المذكور من امرأة محاكمات منطقية . أما جزؤها
المؤنث ، فلا يفعل ذلك أبداً .

كثير من النساء السليمات لا يفهمن ، في الحقيقة ، شيئاً من منطق
بعض الرجال . ولكن أي منطق ؟ هل هو المنطق الذي يصدر عن حياة
داخلية في حالة جيدة ، أم المنطق المجرد على سبيل الحصر ، الذي يقع
على بعد ألف ذراع من الحياة الواقعية ؟ هل هو المنطق الذي يثير المناقشة ،
لا في سبيل هدف مشخص ، بل على أنها غاية في ذاتها ؟

وإذا كانت المرأة تفهم ، على نحو كامل ، منطقاً سلبياً ، فهي
تبقى مذهولة أمام منطق مجرد على سبيل الحصر . ونحن نعلم السبب :
لأنها ، وهي المرتبطة بالحياة ارتباطاً مباشراً ، لا تشعر بالحاجة إلى الهرب
من الوجود بواسطة كلمات لا جنور لها ، ولا هدف .

ب - المرأة « اللامنطقية بصورة شبيهة »

أطلق الذكور على المرأة شتي الألقاب ، وعلى سبيل المثال : مخيخ
عصفور ، دوارة هواء معبودة ، متقلبة الأطوار لا يمكن التفوق عليها .
و « نزعته اللامنطقية » تسحر كثيراً من الرجال وتثير غضبهم معاً :
لأنهم يرفعون عيونهم نحو السماء ، وهم فخورون في الوقت نفسه بضرب
من « التفوق » الذي يعتقدون بأنه لا يقبل المناقشة .

حقاً ! عندما تباشر هذه اللامنطقية بصورة شبيهة في مناوشة الرجل
وممارسة حرب الغوار ، هذه الحرب الرائعة التي كنت قد تكلمت عليها
أعلاه ، بوسعي أن أؤكد لكم أن المنطق المذكور يتهاوى ، ويتهاوى

يقينه في الوقت نفسه . واسمحوا لي أن أقول ، بكلمة واحدة : إنهم يستسلمون . فكيف نشرح هذا الوضع ؟

يحبب الذكور دائماً أن المرأة تفكر حسب منطقتهم هم ، الأمر الذي يتصف بأنه متعذر ، نظراً للاختلاف في الطبيعة . ولكن هؤلاء الذكور يتهمون رفيقاتهم بالكذب أمام تغيير الرأي . ومقصودهم بالطبع أن المسألة هي مسألة كذب بالقياس إلى المعايير الاجتماعية . وبهذا المعنى ، ليس ثمة أدنى شك أن هذه المرأة تكذب . ومن جهة أخرى ، ألم يقل الناس ، في كل الأزمنة ، إن « الكذب » خاصة من خصائص الطبيعة النسوية ؟

ونحن ، مجدداً ، نكتشف الحاجز الكبير الذي يفصل بين الجنسين . والرجل ؟ إنه « الأخلاق » . إنه « الأخلاق الفلسفية » التي تتصف على الغالب بأنها متعالية ، ومطلقة ، وبعبارة أخرى : مجردة ، وعقلانية ، وغير محسوس بها ، وذات قوالب ثابتة ، ومتصلبة كالآنا العليا .

وما الأمر بالنسبة إلى المرأة ، أو ، بالحري ، بالنسبة إلى الأنوثة ؟ إنها لا تفهم . ولا تستشعر هذا الجانب المجرد والعام من الأخلاق الفلسفية المذكورة . فهي تعيش على القيم المتحركة والسيّالة ، التي تنشأ من مرونتها وقدرتها على التكيف الداخليتين . وتعيش المرأة في ديمومة تحذو حذو ظروف الحياة . ولتذكر أن المرأة موصولة « وصلاً مباشراً » بأعماق الوجود . فكيف لا تتموج ، بوصفها مفعمة بالاحساسات الكثيرة والمتغيرة ؟

وعلى الرجل أن يضلّ دربه . ذلك أنه إذا كان مكرهاً لاتباع

الخطوط الحديدية القاسية التي صنعها ، كيف يفهم أن المرأة ، المشبعة بالإحساسات الوجودية ، تنتقل من إحساس إلى آخر ، لا لأنها تريد ذلك ، بل لأن هذه الاحساسات تحملها على ذلك ؟ ويعتقد الرجل ، وقد أضلّه منطق متناقض في الظاهر : أنه إزاء نزعة لامنتطقية وكذب ، في حين أن الأمر مجرد ضروب من السلوك الاستجابة لإحساسات ، ومجرد تصرفات ليست ذات علاقة بـ « المنطق » أو « الكذب » بل هي شبيهة بأمواج البحر تحت سماوات متغيرة : وهي . من جراء ذلك ، تنصف في كل مرة بأنها حقائق تطابق الحياة الداخلية الآنية .

وهكذا فان الحقيقة لدى هذه المرأة ، حقيقتها الآنية ، ليست حقيقة الآن السابق . فهل يقال عنها متقلبة الأطوار ؟ بيد أنها تردد بين كثير من الحقائق الوجودية ، سواء كان الأمر أمر مسائل كبرى أم أمر اختيار لون فستان . . .

ولا بد من الالحاح على ما يلي : هذه المرأة « غير منطقية » و« كاذبة » بالقياس إلى بعض القيم الاجتماعية ، المصنوعة ، والفارغة من الإنسانية العميقة . ولكن بوسع المرء أن يكون واثقاً من أنها تبقى مخلصة إخلاصاً تاماً للحياة ، التي لا يمكن أن تكذب تجاهها .

ولنتذكر ، من جهة ثانية ، أن الحدس ذو منطق معصوم ، مع أنه لاشعوري . إنه بداهة داخلية ، في الحالة الصرف ، لم يتطفل عليها شيء ، وليس لها صلة بضروب المنطق المتقن .

٤ - آراء « هن » التي لا يمكن استصاها

المرأة التي أذكرها هنا امرأة مرعبة ومنتشرة . إنها ليست أكثر

ذكاء من امرأة أخرى وليست أقل . ولكنها تصدر آراء هي من الاتصاف بالحسم ، واللهجة التي تصدر بها هي من الاتصاف باليقين ، بحيث تفحم أقوى علماء الجدل . ويبدو عليها أنها واثقة من نفسها ثقة كاملة . بل يمكن الاعتقاد بأنها ذات ادعاء مذهل ، أو أنها عنيدة بصورة شيطانية . والحال أنها لا تُغفل جانباً من الجوانب ، كما سترون . ومع ذلك ، ثمة رجال أذكاء يلبثون ، أمامها ، فاغري القم ، عزلاً . ويستشيط آخرون غيظاً : كما لو أنه غير مباح لهم أن يفعلوا ذلك .

هذا النوع من النساء ينقسم ، من جهة أخرى ، إلى عدة أقسام مترتبة . فثمة نساء أفكارهن تبدو رفيعة الشأن ، ولكنها حاسمة ، وتستبعد كل مناقشة . وأخريات يصدرن بهدوء أفكاراً تشبه الحكيم . وأخيراً ، يعيش في الأرض فساداً نموذج آخر من النساء تشبه آراؤهن . حتى ليلتبس الأمر ، آراء محرر للحوادث اليومية في جريدة من المرتبة الثانية .

وعندما يصغي المرء جيداً — حتى إلى نساء قمة التراتب — يستشعر أن آراءهن تتجذّر في مكان ما لا علاقة له باقتناع شخصي .

إنني أستشهد بـ يونغ (ترجمة كاهن) :

والواقع أن هذه الآراء ليست مبرّرة ، ولا ثمرة فعل من أفعال الفكر . وهي موجودة جاهزة ، كما لو أنها مسبقة الصنع وجاهزة للاستهلاك . فهي حاضرة في الوجود الذهني للمرأة التي تصيغها وتكررها ، لأن لهذه الآراء في ذهنها طابعاً من الواقع وقوة من الاقتناع المباشر بحيث لا تخاطر في بالها فكرة إخضاعها لإمكانية شك بسيط .

والحال ، بصورة عامة ، أن هذا النموذج من المرأة يأخذ على عاتقه آراء رجال ، لا آراء نساء على الاطلاق . يضاف إلى هذا أن المقصود رجال يمثلون . في ذهن المرأة ، سلطاناً ، إما سلطاناً عاماً (كتاباً معروفاً أو شخصية مشهورة) : وإما سلطاناً أكثر اتصافاً بالمحلية (الخورى، وعضو المجلس النيابي : والمعلم) . هذا إذا لم يكن رأيها «الشخصي» صدى جملة ، نقطة فنقطة : قرأتها في صحيفة أو سمعتها من الإذاعة (صحيفة وإذاعة يديرهما الرجال بصورة تقليدية) .

فلماذا ؟

يشترك هؤلاء النساء في أنهن عاجزات عن التعبير عن رأي شخصي ، لأنهن يحسبن ، ولكنهن لا يفلحن في قول ما يفكرن بهن : من خلال أناهن . فيخترن إذن — بصورة لاشعورية — أنا شخص آخر : أنا رجل ، والحالة هذه . بمثل ، بالنسبة إليهن ، سندا لا يناقش . ويتصف بالنسبة إليهن دائماً أنه لا ينخدع أبداً . أفلا يجعلنا ذلك نفكر بسلوك مراهقة تتخذ كل ما يقول والدها على أنه خبز مقدس ؟

ونصل في نهاية المطاف ، مرة أخرى ، إلى ضروب الوجود النسوي ومدتها : عقدة أوديب . والواقع أننا لو كنا نعرف هؤلاء النساء معرفة جيدة : لرأينا أن الأب كان غائباً عن وجودهن . فإما أنه ميت أو غائب من الناحية السيكولوجية ، وإما أن المراهقة لم تستطع أن تعقد أي صلة به .

ولم يستطع الأب ، على هذا النحو ، أن ينجز دوره الرئيس : أن يعمل مندرباً على الحياة الاجتماعية . ويساعد الفتاة على أن تتجلى : دون

خوف ولا عدوانية ، أمام الآخرين . وتبقى المرأة ، من جراء ذلك ، في داخليتها ، مبخوسة القدر ، عاجزة عن إبداء رأي شخصي . وعندئذ إنما تبحث — كيف أقول ؟ — عن رأي « أب » : عن سلطان مذكّر ، والحالة هذه ، أيا كانت صورة هذا السلطان الذي لا يمكن أن ينخدع بحسب رأيها . وتبدو ، لهذا السبب ، قريرة العين في ثقتها بما تؤكد ، والرأي الذي تعرضه يشبه . على هذا النحو ، جلمود صخر شديد الصلابة .

ومساعدتها من الصعوبة بمكان كبير : للسبب البسيط المتمثل في أنها لا تشعر ، من الناحية العملية ، بما يحدث في داخلها . إنها واثقة من أن أفكارها ناشئة من « أنا » ها ، ولا يخطر في بالها أنها تقتصر على تكرار رأي رجل يمثل . بالنسبة إليها ، « أبا » حالياً ، بديل الأب الآخر الذي لم تعرفه .

سادساً — ليولد الرجل مرة ثانية منها . . .

إلى الأم ، في نهاية المطاف ، إنما نعود دائماً بوصفها تأليفاً أساسياً لكل امرأة ، شعبية أم أرستقراطية ، فتية أم مسنة ، امرأة رجل واحد أم بغي ، لها أطفال أم لا . وليس ثمة امرأة ، من أدنى الأرض إلى أقصاها ، لا تحسب أن رفيقها هو « طفلها » قبل كل شيء . ذلك أن المرأة — وكم هي على صواب ! — تفكر برأسها أقل ، بما لا يقاس ، مما تفكر بواسطة الدائرة الوجدانية الواسعة التي يمثلها ، بالنسبة إليها . بطنها . وسيتبقى حتى الرفيق القوي القادر طفلها ، لأنه أعزل بالقياس إليها هي ، التي تعرف أسرار الحياة والأشياء .

ولهذا السبب ، فإن الرجل ، أي رجل ، يمكن ، بواسطة المرأة ، أن يولد مجدداً ، يوماً بعد يوم ، أو أن يموت .

وكل طفل معدّ لكي يخرج من أمه ، ثم ينطلق انطلاقاً نومتها له . ولكن بوسع المرأة الأم أيضاً أن ترتبط بهذا الطفل إلى الأبد ، تجتفقه في مكانه . وما تفعله الأم بولدها ، يمكن أن تكررّه مع رفيقها .

هذا إنما هو أمر يمكن فهمه بعد كل شيء . فعندما ينهي الرسام لوحة يحبها ، هل ينفصل عنها ، والحسرة في نفسه ، أم يحتفظ بها ؟ أيمكنه أن يقذف بأثره الفني بعيداً عنه ، أم يحتفظ به كيبسا يتأمله بصورة غير محدودة ، بوصفه نرجساً مفضلاً ؟

تلك هي القضية العنادية — التي تتصف ، مع ذلك ، بأنها مأساوية إلى حد ما ! — ، قضية كل امرأة ، وكل مبدع ، وكل فنان : أن يعطي أو أن يحتفظ .

المرأة الأم ! إنها لبليغة الأثر ومرعبة هذه النزعة ، نزعتها إلى أن تنكبّ على موجود منذ أن يصيبه الضعف ، والحرمان ، والمرض والجراح ، وبالاختصار ، منذ أن يصبح « طفلاً » مرة ثانية . وهي لا تسأله ، علواً كان أم صديقاً ، ودبعاً كان أم فظاً ، من أين يأتي ، ولا ما هو ، ولا إلى أين يمضي . بل هي قادرة على أن لا تسأله عن اسمه . إنها تعنى به ، وتصني إليه ، وترأف به .

ويعرف المحتالون ذلك جيداً ، هؤلاء المحتالون الذين يحاصرون المرأة باستغلال الأم . قل « إنني أتألم ! » : وها هي المرأة تلين ، مستعدة لتهدب نفسها ، جسماً وروحاً ، لمن يتصف بأنه محروم .

ويقودنا كل هذا ، بعيداً وعميقاً ، إلى مناطق متغيرة كالبحر ،
ولكنها ، جميعاً ، ذات جبلّة واحدة .

ذلك أن البحر ، هو أيضاً ، يحمل السفن أو يتلعبها .

وها هي ذي مقتبسات من جمل قرأناها ، من هنا وهناك . في
روايات تتكلم على الثنائي : « إنها تضعه تحت رحمتها إذ تضطجع
بقربه . . . وأصيب بالدوار ، وغرق فيها . . . وتلاشى في هذه المرأة
خلال الجماع . . . ثم ارتقى الهوى » التي كان قد وقع فيها . . . إنه ،
واثقاً وخائفاً ، كان قد عاد إلى الطفولة . . . وبعد هذا الالغاء ، إلغاء
الزمن ، استأنف انطلاقته . . . وفي فيها . . . »

وفي هذه الروايات ، كما ترون ، يتكلم المؤلفون على الرجل
الطفل ، والرجل المحروم ، والرجل الحريح . ولكن دانونزيو * « كان
قد كتب أيضاً : « . . . كما لو أن جسم المرأة كله كان قد اتخذ صفة
النم الماص . . . »

أما وقد تجمّع كل ذلك ، فإلى أين نمضي ؟ إننا نمضي نحو اليقين
بأن هذه الجمل تقول الحقيقة .

فالرجل يتلاشى ويفنى في المرأة . ذلك أنه ، في الحقيقة ، يفرق
فيها ! أما وقد استولى عليه الهوى والدوار ، فإن أقمعته تسقط ، وتمحّي
حياة النجوع والمظهر لديه ، ولم يعد سوى موجود أعزل . وهذا ليس
من الأدب في شيء : إنه ما هو كائن . إنه « في بطنها هي ، ويكفّ عن

(*) الهوى : جمع هاوية .

(**) دانونزيو : d'Annuzio .

أن يتظاهر بأنه الرجل . فتحسه المرأة مباشرة وكأنه طفل « يستمتع »
بالدفء والأمن الأموميين ، وكأنه كان يحمي فيها من الحياة التي تدمره .
وتستحيل المرأة عندئذ إلى أم راعية ، مهتمة .

وتبحث المرأة ، سوية كانت أم غير سوية ، عن تمديد الآن بالحب ،
أطول فترة ممكنة .

يُقال ويُقال . . . وتقال أشياء كثيرة ، ومعظمها صحيح .

يقال ، وهذا صحيح ، إن بعض النساء يشعرون بالاشباع المازوخي
في أن « تخترقهن » قوة الذكر ، و « تثقبهن » و « تغتصبهن » ، وتحيلهن
إلى لا شيء .

ويقال ، وهذا صحيح ، إن بعض النساء يرغبن في خصاء الرجل
رغبة لاشعورية ، وفي أن يثأرن منه على هذا النحو ، ويحتفظن بهذا
العضو الذي يأسفن بأنهن لا يملكنه .

ويقال أيضاً ، وهذا صحيح ، إن ثمة نساء يحولن الحب إلى رضى
بوضع الرجل تحت رحمتهم ، إذ يثأرن من سيطرته وفضاظته .

ويقال أخيراً ، وهذا صحيح ، إن المرأة ترغب ، أمام هذه الرجل
الذي استسلم لرغباته كطفل ، في أن تحتفظ به إلى الأبد بقربها ، كيما
تسهر عليه وتحميه من الوجود . فتتصور الحب عندئذ وكأنه مرفأ السلام
بالنسبة إليه . وفي هذا إنما هي شبيهة بالرسام الذي تحدثنا عنه منذ قليل .
فهل تحاول أن تحول بينه وبين أن ينطلق ثانية نحو عمله وهو اجسه ؟ أم
أنها ، على العكس ، تفكر بأنها ، وقد جرده الحب الذي منحته إياه
وقواه ، تلده ثانية كطفل نهل من قرب أمه قوى نفسية جديدة ؟

وهنا إنما يبدو فرق واسع وأساسي . ذلك أن معظم الرجال يستولي عليهم الحصر
أو التفرز . وتقول النساء إن المسألة ، بالنسبة إليهم ، هي مسألة فعل كغيره من الأفعال

الأخرى ، وإنهم لا يتوانون عن الانسحاب ، والمزاح ، والتفكير بشيء آخر . ذلك أن المرأة إنما تحس حقاً بالرجل في أثناء عفويته وكأنه طفل . وهو يعلم أنه ظهر كما هو عليه ، أي قليل الأهمية . لقد شعر وكأنه « ممتص » ، وضائع من خلال الدوار . إنه إذن يريد ، وفي الحال ، أن يفارق هذه الحالة من « الموت » ، لكي يجعله ثانية دروعه . وسيظهر ثانية ، على عجل ، أنه الرجل .

والحقيقة أن هذا الرجل ، إياه ، يتصف بأنه ، قرب رفيقته ، جريح الحياة المحتوم . فتكئب المرأة عليه ، كما لو أنها ترغب في أن تجعله يغوص ثانية في أعماق أعماقها ، فتضفي الصفة الأبدية على آن الثاني .

وهكذا تسهر المرأة . إنها الحامية في معارك الرجال . فهي تنظر إليهم ، وتركهم يقولون ، ولكنها تصمت . وهي تعلم أنهم يجهاون الأساسي إلى الأبد ، أي الانحناء على حياة مخلوقة ، والمحافظة عليها ، ثم جعلها تكبر بالحفاوة القلبية .

وهي تعلم كذلك أن الرجل يرجع إليها دائماً . وهو يعلم أنها تعلم : هذا الذي يبقى قلقاً بصورة يائسة أمام مسائل لا تنطوي انتصاراته الخارجية على أي جواب عنها . « يقول : فعلت هذا ، وأفلحت في ذلك ، وقاتلت وفزت . ولكنك أنت ، ماذا تعتقدين ؟ » ذلك أن أي انتصار على الأشياء ، لا يمكن أن يجلب الصدى المغذي للرجل .

وعندئذ إنما المرأة تصبح الاصغاء ، والصمت ، والانتظار . فيبدأ الرجل بالكلام ، والبحث أيضاً ، إلى أن يقول الكلام الذي يشرح .

ذلك أنها هي الكلمة في الواقع !

ولكن قولوا لي ، جميعكم وجميعكم ، ماذا فعلنا ، في أيامنا

هذه ، بهذه المرأة إياها ؟

الفهرس

٥	المقدمة
١٥	المدخل
١٩	الفصل الأول - خدعة الحرية
	- العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية ومخططه
٢٠	المعادي للمرأة
٢٣	- النتائج بالنسبة الى المرأة
٢٧	- العالم التكنولوجي المجرد من الانسانية مهتم
٣٣	- ما الحل
٣٩	الفصل الثاني - خدعة الدونية
٤٠	- الدونية المزعومة ، دونية المرأة
٥٠	- كيف يتحدد موقع المرأة
٥٨	- وضع الرجل
٦٢	- لماذا تشعر المرأة بأنها أدنى
٦٤	- ما الحل

٦٩	الفصل الثالث — فرويد : من سوء حظ المرأة
٧٠	— الثورة الفرويدية
٨٥	— المرأة موضوع لعبة رمي الدمى
١٠٥	— الصعوبة الراهنة
١١٣	الفصل الرابع — عضو الخدعة
١١٤	— الى ماذا ترمز الوظيفة البولية ؟
١٣٠	— الانفلات من الزمنية
١٣٦	— وكل ذلك سيستمر . . .
١٤١	الفصل الخامس — المجازر وضروب التأخي
١٤٩	— الاحساسات السلبية
١٨٨	— الاحساسات الايجابية
١٩٧	الفصل السادس — رموز المرأة
١٩٧	— المرأة من خلال الصور
٢٠٣	— رمز الماء
٢١٣	— رمز الجبل
٢١٤	— رمز الأرض
٢١٦	— الرموز رواسب فاعلة
٢٢٤	— الرموز أمام المحكمة العرفية
٢٢٩	الفصل السابع — فاصلات اللون
٢٤٥	الفصل الثامن — الأنوثة والذكورة
٢٤٧	— نقطة البدء
٢٥٣	— وجهة نظر جديدة
٢٦٦	— دور الأنوثة والذكورة
٢٩٧	— هل ثمة امكان لثورة ؟

٣٠٩	الفصل التاسع - صوب الثنائي
٣١٠	- ما هو الثنائي
٣١٧	- دور المرأة في الثنائي
٣٣٠	- روايب عقدة أوديب
٣٤١	- الثنائي الذي أضفيت عليه القداسة
٣٤٧	- ثنائي من أربع شخصيات
٣٥١	الفصل العاشر - ما يحدث هن في بعض الأحيان . .
٣٥١	- المرأة المسماة باردة جنسياً
٣٦٨	- المرأة الرجسية
٣٧٤	- المرأة المازوخية
٣٨٩	- السحاقيات
٤٢٣	الفصل الحادي عشر - البنت المحصورة
٤٢٥	- النقاط الأساسية
٤٣٩	- العوائق
٤٥٣	- المآلات الأربعة للوضع الأوديبى
٤٦٣	- البوابة
٤٧٥	الفصل الثاني عشر - من هي ؟
٤٧٨	- المرأة والعاطفة الشخصية

- ٤٨٦ — المرأة والزمن
٤٩٥ — المرأة وحاجتها إلى النظام
٥٠١ — المرأة والرجل موجودان لا يرتد أحدهما إلى الآخر
٥٢٤ — ذكاء المرأة
٥٣٦ — ليولد الرجل مرة ثانية منها . . .

١٩٨٣ / ٩ / ٣٥٠٠